



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة عباس لغرور - خنشلة



ABBES LAGHROUR UNIVERSITY- KHENCHELA  
UNIVERSITE ABBES LAGHROUR - KHENCHELA

كلية الآداب واللغات  
قسم اللغة والأدب العربي

## صورة الجزائر في أدب الرحلة الأوروبي

بحث مقدم لقسم اللغة والأدب العربي لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي والأجنبي

إعداد الطالب: شفيق بوطرفة      المشرف: أ.د عمر عيلان

اللجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	المؤسسة	
يوسف لطرش	أستاذ التعليم العالي	جامعة خنشلة	رئيسا
عمر عيلان	أستاذ التعليم العالي	جامعة خنشلة	مشرفا ومقررا
رشيد رايس	أستاذ التعليم العالي	جامعة تبسة	ممتحنا
رشيد قريبع	أستاذ التعليم العالي	جامعة قسنطينة 1	ممتحنا
مجيد قُري	أستاذ التعليم العالي	جامعة خنشلة	ممتحنا
سميرة قروي	أستاذ محاضر أ	جامعة خنشلة	ممتحنا

السنة الجامعية: 2021/2020

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# شكر و عرفان

الحمد لله الذي أثار لي درب العلم والمعرفة وأعانني على أداء هذا الواجب ووفقتي في إنجاز هذا العمل.

أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى كل من ساعدني من قريب أو من بعيد على إنجاز هذا العمل وفي تذليل ما واجهته من صعوبات، وأخص بالذكر الأستاذ المشرف أ.د. عمر عيلان الذي أشرف على هذا البحث، وأمدته بكل ما هو قيم بأفكاره. ورعايته وتوجيهاته لي وعمله المستمر معي وتحمله عناء تصويب هذا العمل حتى استوى.

فشكراً لك على عطائك الدائم.

## الإهداء

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

أهدي هذا العمل:

إلى وطني المفدى... " الجزائر".

إلى والديّ الكريمين حفظهما الله ورعاهما...

إلى إخوتي وأخواتي...

إلى التي أزررتني في كل خطوة، وتكبدت معي عناء هذا البحث...

إلى رفيقة دربي، وبلسم جراحي. إلى زوجتي العزيزة د. عائشة لعبادلية أدامها الله لي...

إلى أبنائي أنس ومجد؛ أهدي لكما هذا البحث...

إلى كل من علمني حرفا...

إلى كل الذين آمنوا بالعلم...

إلى كل أصدقائي ومعارفي...

شفيق بوطرفة...

مَقْتَصِدَةٌ

## مقدمة:

يعدّ النصّ الرحلي من أكثر النصوص الأدبية تمثيلا لصورة الآخر؛ نظرا لقدرته على استيعاب الواقع وانفتاحه على تفاصيله اليومية، إذ يمكن اعتباره مرجعا ثقافيا وجغرافيا وتاريخيا، فانتقال الرحالة بين الأمصار واحتكاكه المستمر بالآخر المختلف عنه يتيح له توثيق انطباعه حول ما شاهده بأسلوب قصصي يثير في المتلقي الرغبة في قراءته، إذ تضمّر الرحلات بين ثناياها الكثير من الأبعاد والأهداف؛ انطلاقا من تنوع المشارب الثقافية والإيديولوجية للرحالة، فقد ساهمت نصوص الرحلة في الوصف الدقيق لعادات وتقاليد الشعوب، مما جعل من النصّ الرحلي عينا مفتوحة على الآخر بمختلف مظاهر حياته الثقافية، والاجتماعية والدينية، وكل ما يسهم في تشكيل خصوصيته.

شهدت الجزائر على مرّ القرون توافد الكثير من الرحالة الأوروبيين من مختلف الأقطار - نظرا للمكانة التاريخية والموقع الإستراتيجي للجزائر - قصد التقرب من الجزائري والتعرف عليه عن قرب باعتبار الجزائر - كغيرها من بلدان الشرق - من المناطق التي شكلت نقطة استفهام بالنسبة لنا الغربي، فقد أصدر الرحالة الأوروبيون الكثير من الكتب والرسائل والذكرات التي عُيّنت بالجزائر، بينما لجأ آخرون إلى تصوير الواقع الجزائري -آنذاك- في مستوياته الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، والدينية.

بلغ الهوس والشغف بشمال إفريقيا أشده - في القرن التاسع عشر - مع مد التيار الرومانسي الذي صادف سيطرة المستعمر الفرنسي على الكثير من هذه البلدان الساحرة؛ الأمر الذي فتح الأبواب على مصرعيها للكثير من حملة الأقلام، والعلماء والفنانين، ورجال الدين فضلا عن العسكريين والجواسيس الذين اهتموا كثيرا بالجزائر البلد اللغز، فجابوا ربوعها طولا وعرضا، وهذا ما يجعل من النصوص الرحلية مراجع مهمة جدا بالنسبة للباحث المقارن بفضل الكم الهائل من الصور التي تزخر بها، فأدب الرحلة ساهم إلى حد كبير في إثراء وبلورة الدراسات المقارنة المهمة بتقصي صورة الآخر، باعتبار الصورولوجيا من أهم مباحث الأدب المقارن.

وقد اخترت هذا الموضوع الموسوم بـ: **صورة الجزائر في أدب الرحلة الأوروبي.**

لشغفي بقراءة النصّ الرحلي لطرافته وثرائه، فضلا عن أسباب أخرى تمثلت في:

- قلة الدراسات المتعلقة بصورة الجزائر في النص الرحلي الأوروبي مقارنة مع العدد الهائل من الرحلات التي قام بها الأوروبيون إلى الجزائر.

- رغبتني في رصد صورة الجزائر في كتابات الرحالة الأوروبيين من منظور مقارني للكشف عن الخلفيات التي تأسست عليها نظرة الأوروبي للآخر العربي.

وهذا ما يدفعني إلى طرح العديد من التساؤلات لعل أهمها:

- متى تشكلت الملامح الأولى لتوجه الدرس المقارن إلى العناية بدراسة صورة الآخر؟ وما هي أهم وسائل تلقي صورة الآخر؟

- كيف تشكلت صورة الجزائر في النص الرحلي الأوروبي؟

- ما هي مرجعيات تشكيل صورة الجزائر في كتابات الرحالة الأوروبيين؟

وللإجابة عن الإشكاليات التي يطرحها البحث، استندت إلى المنهج المقارن الذي يتيح لي الوقوف عند تباين الرؤى والمواقف انطلاقاً من سياقاتها ومرجعياتها المختلفة.

وينبغي الإشارة إلى أهم الدراسات السابقة التي اهتمت بصورة الجزائر في أدب الرحالة الأوروبي وأذكر منها:

دراسة "عبد القادر بومعزة" الموسومة بـ: "بسكرة في عيون الرحالة الغربيين" في جزئين، حيث قسم الجزء الأول الذي صدر سنة 2016 إلى مبحثين اثنين، تناول المؤلف في المبحث الأول التعريف بإقليم الزيبان: المدلول اللفظي للكلمة، الموقع الجغرافي، التاريخ الثقافي للمدينة ماضياً وحاضراً. في حين خصص المبحث الثاني لعرض سبعة نصوص رحلية غربية؛ كان موضوعها عادات وتقاليد المنطقة والحياة اليومية للآخر البسكري، العمران وغيره، فـضكما قدّمت الدراسة ترجمات موجزة عن أصحاب هذه الرحلات. وبالتالي تلتقي دراسة "عبد القادر بومعزة" مع هذا البحث في بعض الجوانب التاريخية والثقافية، لكنها ظلت محصورة في عادات وتقاليد المجتمع البسكري، في حين تطرق هذا البحث إلى أغلب المناطق الجزائرية، وانفتح على جوانب أخرى ك: الإثنية والدينية والتاريخية والسياسية؛ فضلاً عن تركيزه على المرجعيات التي

تتناها الرحالة الأوروبيون على اختلاف مشاربهم الثقافية والإيديولوجية. بين القرنين الثامن عشر والعشرين.

كما قدم "حفناوي بعلي" سنة 2016 دراسته الموسومة بـ: "الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين" حيث قسمها إلى عشرة فصول. تناول في الفصل الأول صورة الجزائر في مرآة المستشرقين، أما الفصل الثاني فتقصى فيه صورة الجزائر في كتابات المؤرخين، بينما خصص الفصل الثالث للبحث في صورة الجزائر عند الأنثروبولوجيين، وقد خصص الفصل الرابع لصورة الجزائر عند الرسامين، بينما تناول الفصل الخامس صورة الجزائر عند ماركس وإنجلز، في حين كان موضوع الفصل السادس تقصي صورة الجزائر في عيون الإنجليز والأمريكان، أما الفصل السابع فاهتم بصورة الجزائر عند الألمان والإسبان، وقدم في الفصل الثامن صورة المدن الجزائرية في اللكتابات الغربية، وعني الفصل التاسع بتتبع صورة الجزائر في الكتابات الكولونيالية، ودرس في الفصل العاشر والأخير صورة الجزائر في الكتابات الغربية الملتزمة. وينبغي الإشارة إلى أن هذه الدراسة اتسمت بالشمولية بينما ركز بحثي هذا على تقصي صورة الجزائر في مرحلة مهمة من تاريخ الجزائر وهي فترة الاحتلال والاعتماد على دراسة النصوص الرحلية فقط دون غيرها من الأجناس الأدبية التي ساهمت في تمثيل صورة الجزائر.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن أقسمه إلى مدخل نظري وأربعة فصول تطبيقية مسبقة بمقدمة ومتبوعة بخاتمة.

### - أولاً: المدخل النظري: الصورولوجيا والرحلة

تتبع هذا الفصل الصورة في الأدب المقارن من حيث: المفهوم، والبدايات الأولى لدراسة صورة الآخر في الأدب المقارن وعلاقتها بأدب الرحلة، وكذا وسائل تلقي صورة الآخر وصولاً إلى حالات فهم الآخر، وقد تم التركيز على هذه الجوانب كمفاتيح منهجية لأهميتها في إنارة رؤية القارئ وتوجيهه نحو فهم طبيعة هذه الدراسة وأهدافها.

### - ثانياً: الفصل الأول: صورة الجزائر الاجتماعية والسياسية

درست في هذا الفصل صورة الجزائر الاجتماعية والسياسية، في محاولة مني للكشف عن أبرز المرجعيات التي تناها الرحالة الأوروبيون (أدباء، إثنوغرافيون،

عسكريون وغيرهم) حيث توقفت عند أبرز الصور الاجتماعية التي جسدت الجزائري كهامش اجتماعي، وتطرقت إلى صورة المرأة الجزائرية بمختلف تمثيلاتها في النص الرحلي الأوروبي. كما تتبعت في هذا الفصل صورة الجزائري أخلاقيا بصوره السلبية والإيجابية. وعرجت على صورة الجزائر سياسيا بتتبع صورة نظم الحكم المحلية التي كانت تسهر على تنظيم حياة الجزائريين. وأنهيت الفصل بالتطرق لصورة القضاء الجزائري في تلك الفترة.

### - ثالثا: الفصل الثاني: صورة الجزائر الثقافية والدينية

تتبع في هذا الفصل صورة الجزائر الثقافية في نصوص الرحلة الأوروبية - نماذج الدراسة- حيث توقفت عند جملة من الصور التي تميز بها الجزائري والنابعة من عادات وتقاليد الثقافة الجزائرية، ثم انتقلت إلى تتبع صورة الجزائر الدينية، حيث رصدت مختلف الصور التي تجسد الجزائري المسلم على غرار صورة الملتزم دينيا، والداعية إلى الإسلام وصورة الولي الصالح... كما تتبعت صورة الجزائري غير المسلم (اليهودي) كصورة اليهودي الماكر والمنبوذ والخائن وغيرها. حيث ركزت في هذا القسم من الفصل على رصد أغلب الصور المتعلقة بالمعتقد باعتباره أحد مكونات الهوية، في محاولة لتبيان مواقف الرحالة الغربيين من الحياة الدينية للجزائريين، والكشف عن نظرتهم لمختلف السلوكات والطقوس والشعائر الدينية.

### - رابعا: الفصل الثالث: صورة الجزائر الإثنية والتاريخية

درست في هذا الفصل جزءا مهما من حياة الجزائريين متمثلا في الصورة الإثنية والتاريخية، حيث تطرقت في القسم الأول من الفصل إلى مكونات المجتمع الجزائري الإثنية؛ بالتركيز على أهم الأعراق الجزائرية وهي صورة الأمازيغ ( كصورة الميزابي، وصورة الشاوي، وصورة القبائلي) فضلا عن صورة العربي، قصد الكشف عن تمثلات كل عرق انطلاقا مما جاء به الرحال. أما القسم الثاني من الفصل فركزت فيه على رصد أهم الصور التي تجسد جوانب مهمة من تاريخ الجزائر على غرار مرحلة الهيمنة والاستسلام كصورة الجزائري الثائر وصورة الجزائري المنهزم، ومرحلة المقاومة والانتصار حيث تطرقت إلى أهم الصور التي جسدت رموز المقاومة الجزائرية كصورة الأمير عبد القادر والشيخ بوعمامة والعربي بن مهدي وعباس لغرور وغيرهم من شهداء

الثورة التحريرية. ورصدت أيضا الصور التي تجسد مواقف الرحالة الأوروبيين من مختلف القضايا التاريخية والسياسية على غرار مجازر الثامن ماي وجبهة التحرير الوطنية.

#### - خامسا: الفصل الرابع: صورة الجزائر الجغرافية والعمرائية

تناولت في هذا الفصل تجليات صورة العمران الجزائري في كتابات الرحالة الأوروبيين، حيث وقفت عند أبرز خصوصياته التي لفتت انتباه الأوروبيين. ولا يمكن دراسة العمران في معزل عن الطبيعة المحيطة به، حيث رصدت الصور التي تُعنى بوصف طبيعة البلد وتنوع تضاريسه الممتدة من الشمال إلى الجنوب. فضلا عن الصور التي تجسد تنوع الغطاء النباتي والحيواني للبلد.

#### - الخاتمة: تضمنت أبرز النتائج التي توصل إليها هذا البحث.

وقد اعترضت طريقي جملة من الصعوبات، أهمها عسر ترجمة الرحلات الأجنبية -الفرنسية والإنجليزية - وعدم توفر المراجع الكافية والدراسات السابقة التي كان ينبغي أن يتكئ عليها هذا البحث، ولكن كان لزاما عليّ أن أدللّ منها ما استطعت في سبيل إتمامه. ولا أزعم أنني أحطت بجميع جوانب هذا الموضوع، فلكل أمر إذا ما تم نقصان، وحسبي الاجتهاد وإنارة الزوايا المعتمدة من هذا البحث علها تفتح مساءلات نقدية أخرى للقارئ. وأخيرا أشكر الله وأحمده على تمام هذا البحث. والشكر موصول لجامعة "عباس لغرور" على ما قدمته لي من تكوين معرفي وأخص بالشكر الجزيل جميع أعضاء هيئة التدريس بقسم اللغة العربية والأدب العربي. كما أتوجه بجزيل الشكر وخالص الامتنان للأستاذ الدكتور "عمر عيلان" على توجيهاته المعرفية والمنهجية القيمة. ولا يفوتني أن أشكر لجنة المناقشة التي تكبدت مشقة قراءة هذا البحث وتقويمه.

**خنشلة في: 2020.12.29**

# المدخل

## الصورولوجيا والرحلة

أولاً: مفهوم الصورولوجيا

ثانياً: البدايات الأولى للصورولوجيا وعلاقتها بأدب الرحلة

ثالثاً: وسائط تلقي صورة الآخر

رابعاً: أنواع الصورة

خامساً: حالات تصوير الآخر

تعد الصورولوجيا من أبرز مباحث الأدب المقارن التي من شأنها أن تتيح لنا فرصة لاكتشاف صورة الآخر في مختلف الأجناس الأدبية، إذ يعكف الباحثون في ميدان الدراسات التصويرية على استنطاق مختلف الدلالات والحمولات الثقافية المتوارية خلف أنماط هذه الصور، وأشكالها عبر مصادر عديدة أهمها أدب الرحلة الذي يمكن وسمه بثمرة المشاهدات والأحداث التي صادفها الرحالة في البلدان التي زارها، حيث سمح تواجد الرحالة بمختلف البلدان بالاحتكاك مع شعوبها والتعرف على واقعها الثقافي والاجتماعي والديني عن قرب، ولهذا يمكن عدُّ أدب الرحلة من أبرز وسائل تلقي صورة الآخر، بل يمكن عده التربة الخصبة لعلم الصورولوجيا.

مهّد أدب الرحلة -باعتباره أحد أهم الأجناس الأدبية- لولادة الصورولوجيا، فالرحلات أهم منبع لاستلهام الصورة، إذ لا تخلو رحلة من تصور حول ماهية الآخر<sup>1</sup>، فللمهاجرين والرحالة من الكتاب «فضل كبير في تكوين هذه الأفكار. فهم الذين ينقلون إلى أممهم، ويصفون في أدبهم صور ما شاهدوا في البلاد الأخرى.»<sup>2</sup> فانتقال الرحالة إلى بلدان خارج أوطانهم مكنهم من بيان موقفهم من البلاد التي رأوها، ومن هنا أصبحت الحاجة ملحة إلى تقصي صورة الآخر في نصوصهم، ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث ليحاول الإجابة عن بعض التساؤلات والتصورات المتعلقة بتلك الرحلات التي قام بها الكثير من الرحالة الأوروبيين إلى الجزائر -نظرا للمكانة التاريخية والجغرافية التي تميز الجزائر- للوقوف عند تلك الصور المترنحة بين الواقع والخيال، وما تحويه هذه الصور من معلومات عديدة عن الجزائري. فضلا عن ذلك، فدراسة الصورة «إنما تدل على وعي للذات والعالم، كما تسهم في تعزيز التفاهم بين الشعوب، وتساعد على نشر لواء

1. الآخر: مفهوم يمكن تقصي أصوله في أعمال هيجل، ويوجد في مختلف الاتجاهات الفكرية التي تعالج نظرية المعرفة، وفي مسائل الهوية الثقافية وفي التحليل النفسي... يمكن وصف مصطلح "الآخر" بأنه يمثل شكلا من أشكال التصور الثقافي للأفكار والمفاهيم. إذ يمثل هذا التصور أساس بلورة هويات الذات الثقافية من خلال علاقات القوة السياسية... للتعلم أكثر ينظر: أندرو إدجار وبيتر سيدجويك. موسوعة النظرية الثقافية: المفاهيم والمصطلحات. تر:

هنا الجوهري، مراجعة وتقديم وتعليق: محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، ط2، 2014، ص: 47

2. محمد غنيمي هلال. الأدب المقارن. دار العودة، بيروت، ط3، 1983، ص: 420

الإنسانية.<sup>1</sup> فالذات لا تعي ذاتها إلا بوعيها بالآخر الذي يعكس جزءا من سماتها، وكينونتها وتطلعاتها واهتماماتها، وهذا يحتم على الأنا (العربية أو الغربية) التجند قصد التقرب من الآخر إما بالسفر إليه أو قراءة وترجمة ما يكتبه أو من خلال التعرف على ثقافته، وفكره ومختلف خباياه ومميزاته.

وهذا ما يجعلنا أمام مساءلات نقدية تطرح نفسها كالاتي:

1. كيف تشكلت الملامح الأولى التي توحى بتوجه الدرس المقارن إلى العناية بدراسة صورة الآخر؟
2. إلى أي مدى ساهمت الرحلة في تجسيد صورة الآخر؟
3. ما هي أهم وسائل تلقي صورة الآخر؟
4. ما هي أنواع الصورة وما هي حالات فهم الآخر؟

### أولا: مفهوم الصورولوجيا

يعود أصل كلمة صورولوجيا إلى المصطلح الفرنسي (Imagologie) ويقابله في العربية عدة مصطلحات تداولتها الدراسات العربية المقارنة كالصوراتية والصورة الأدبية وعلم الصورة. ويشير المفهوم العام لهذا المصطلح إلى العلم الذي يُعنى بتقصي صورة الآخر في مختلف الآداب والفنون الإبداعية أو العلم المتخصص بالبحث عن الصورة الذهنية للآخر في المخيال الفردي أو الجمعي لشعب ما وما يترتب عن هذه الصور من ردود أفعال باعتبار الصورة تشكل انعكاسا للأنا ومن ثم محاولة تحليل هذه الصور والتحقق من صحتها أو عدمه.

تعددت مفاهيم الصورة لدى الباحثين نظرا لكونها مبحثا يتضمن العديد من العلاقات المعقدة والمتشابكة بين الأنا والآخر إذ يعرف "دانيال هينيري باجو" (Daniel H.P) الصورة الأدبية على أنها «كل صورة تنبثق عن إحساس مهما كان ضئيلا (بالأنا) بالمقارنة مع الآخر، (وب: هنا) بالمقارنة مع مكان آخر من الواقع الثقافي.»<sup>2</sup> تعني

1. محمد غنيمي هلال. الأدب المقارن. دار العودة، بيروت، ط9، 1987 ص: 346

2. دانييل هنري باجو. الأدب المقارن. تر: غسان السيد، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1997،

الصورة حسب "باجو" أن طبيعة التواصل بين الأنا والآخر يفرض تصورا عن كل طرف في إطار ثقافي محدد؛ بمعنى أن هذا الفضاء الذي يجمع الأنا والآخر يستدعي جملة من التصورات التي عادة ما تكون بداياتها من نواتنا وصولا إلى الآخر؛ ما يعني أن الصورة تتشكل من عنصرين أساسيين هما: الأنا والآخر.

كما ترى "ماجدة حمود" أن الصورة «تعبير أدبي مستمد من نظامين ثقافيين ينتميان إلى مكانين مختلفين أي المكان الذي نشأت فيه الصورة، أي بلد الناظر، والمكان الذي تقدمه الصورة أي البلد المنظور إليه.»<sup>1</sup> يمكن القول إذن إن الصورة تبنى انطلاقا من بيئة ثقافية ومكانية مغايرة لبيئة ومكان تواجد الأنا، حيث تتشكل الصورة وفق ثنائية الأنا والآخر كونهما عنصرين مهمين، فهي «تنشأ عن وعي، مهما كان صغيرا بالأنا بالمقارنة مع الآخر، وبهنا بالمقارنة مع مكان آخر.»<sup>2</sup> انطلاقا مما سبق يمكن القول إن وعي الذات بذاتها لا يتشكل إلا من خلال وعيها بالآخر، وانطلاقا من هذا الوعي المتباين في درجاته تتشكل الصورة.

أما "سعيد بن سعيد العلوي" فإنه يفسر الصورة بقوله: «والفاحص متى نظر في الصورة التي ترسمها الذات للآخر، فإنه يتبين له أن تلك الصورة مزيج غريب وغير متجانس من العواطف والأحكام.»<sup>3</sup> يتبين لنا من خلال هذا المفهوم أن الصورة التي ترسمها الذات عن الآخر قد تسلك أحد الاتجاهين: السلبي أو الإيجابي حسب الانطباع الذي تشكّل في متخيل الأنا عن الآخر.

يرى "غنيمة هلال" أن صورة الآخر «ترتسم من كل أجزاء الصورة الأدبية للبلاد والشعوب الأجنبية، وقد تكون هذه الصورة مستوفية الأجزاء، فيما إذا تحدث الكاتب عن المظاهر المختلفة للبلد الآخر، من مناظره الطبيعية، وعادات وتقاليد ومن طبائع ونظم... وقد تكون الصورة التي رسمها كَتَّاب بلد ما للبلد الآخر ناقصة مبتورة.»<sup>4</sup> يبدو أن تشكيل

1. ماجدة حمود. صورة الآخر في التراث العربي. منشورات الاختلاف، الجزائر، ط، 2010، ص: 10

2. بيير برونيل وآخرون. الوجيز في الأدب المقارن. تر: غسان السيد، مكتبة الأسد، دمشق، ط1، 1999، ص: 147

3. سعيد بن سعيد العلوي. أوروبا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة. رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 2012، ص: 15

4. غنيمة هلال. الأدب المقارن. دار العودة، بيروت، ط3، ص: 421

صورةٍ عن الآخر يختلف حسب موقع الناظر إليه، فقد يكون مجرد انطباع مبتور يستند إلى رؤى سطحية، كما قد تكون صورة عميقة ذات مصداقية ولها الكثير من المرجعيات التي توحى بأهمية الآخر، وكل الجوانب المتعلقة ببيئته وثقافته ودينه وفكره.

يبدو أنّ الصورة التي يجسدها الأنا في كتاباته عن الآخر يمكن تشبيهها بالمرآة التي تلعب دور السطح الذي «يعكس كل ما يقوم أمامه، فأيّ شيء يمتلك خاصية السطح العاكس فهو مرآة»<sup>1</sup> استنادا إلى هذا المفهوم الموجز للمرآة يمكن القول إن الصورة التي ينتجها الأنا عن الآخر تعكس جزءا من الذات الناظرة والذات المنظور إليها، ذلك أن الإنسان لا يدرك ذاته إلا بمعية الآخر، لذلك تظل هذه الصورة خاضعة إلى جملة من الأفكار والتصورات المنتشرة في الذهن الجمعي للذات الناظرة؛ وهذا يعني أن الصورة المشكّلة «ليست نسخة عن الواقع، إذ تتشكل وتكتب بالاعتماد على مخططات، وإجراءات توجد قبلها ضمن الثقافة الناظرة»<sup>2</sup> فقد أسهمت الكثير من كتابات المستشرقين والرحالة في تسميط صورة الآخر، وظلت هذه الصور النمطية المخالفة للواقع تتداول بين الشعوب وقد ساهمت الحروب في إنتاج هذه الصور غير الحقيقية.

تربط "أمينة رشيد" مفهوم الصورة بالمصلحة المباشرة، حيث ترى أن الصورة «كانت دائما لدى الشعوب صورة ما للآخر تتسم ببعض السطحية، والمصلحة المباشرة... والصورة تختلف من زمن إلى آخر»<sup>3</sup> هذا يعني أن صورة الآخر موجودة في أذهان كل الشعوب، إلا أنها تتراوح بين السطحية والمصلحة أحيانا؛ ونقصد بالأولى تلك الانطباعات الأولية عن شعب ما انطلاقا من قناعات ذاتية تستند إلى خطابات متفرقة. وهذا هو حال الخطابات الأولى التي اشتغلت على الصورة بعيدا عن جوهرها لأن «صورة الآخر ليست بالبساطة، والسطحية التي كانت تميزها في بداية الدراسة المقارنة. فوضعية الآخر تتطلب دراسات بينية تجمع بين التاريخ، والأنثروبولوجيا بمعنى دراسة الثقافات المختلفة وتحليل

1. محمود رجب. فلسفة المرأة. دار المعارف، مصر، ط1، 1994، ص:15

2. دانييل هنري باجو. الأدب المقارن. تر: غسان السيد، ص: 92

3. أمينة رشيد. الأدب المقارن والدراسات المعاصرة لنظرية الأدب. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1،

الخطاب.<sup>1</sup>» يتضح لنا أن الصورة لا يجب أن تتسم بالسطحية، فتصوير الآخر يستدعي العديد من التفاصيل المتعلقة بتاريخه، وثقافته، وتفسير لكل خطاباته، وكل ما يمت له بصلة حتى تكون الصورة شبه كاملة نظرا لتعدد أساليب الخطاب وتنوع الأجناس الأدبية التي من شأنها الوقوف عند كل صغيرة وكبيرة تتعلق بصورة الآخر. وتختلف الصورة من زمن إلى آخر، فالسبب وراء ذلك تغير الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية وكذا العلاقات الدولية التي تسهم في تشكيل هذه الصورة، بل قد تختلف الصورة داخل الشعب نفسه نظرا لتباين المستوى المعيشي والثقافي للناظر.<sup>2</sup> ولا يمكن الوقوف عند حقيقة الصور أو زيفها إلا عن طريق علم الصورة (*Imagologie*) الذي من شأنه «البحث عن صورة الآخر الأجنبي في النص الأدبي».<sup>3</sup> بمعنى أن عملية البحث عن صورة الآخر تقودنا إلى التعمق في ثنايا النص الأدبي بُغية فهم كنهها أو حتى محاورة تفاصيلها المترامية الأطراف، باعتبارها عرضا لواقع ثقافي واجتماعي وأيديولوجي يتقاسمه كل من الأنا والآخر.<sup>4</sup>

ومجمل القول إن التنوع والتباين في تحديد مفهوم الصورة يرجع إلى تنوع المشارب والموارد الثقافية للباحثين في مجال الأدب المقارن، غير أنه يمكن الاتفاق على مفهوم شامل للصورة انطلاقا من كونها «إعادة تقديم واقع ثقافي يكشف من خلاله الفرد والجماعة الذين شكلوه (أو الذين يتقاسمونه أو ينشرونه)، ويترجمون الفضاء الاجتماعي والثقافي، والأيديولوجي، والخيالي الذي يريدون أن يتموضعوا ضمنه».<sup>5</sup> إذ تخضع إعادة إنتاج الواقع من خلال الصورة للكثير من الظروف التي تحيط بالطرفين، فهذا التقديم قد يخالف الحقيقة كما قد يلامسها.

1. المرجع السابق، ص: 139

2. ينظر: زهرة مزوني. «دراسة الصورة في الأدب المقارن "Imagologie"». مجلة الباحث، المجلد 08، العدد 16،

جوان 2016، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، ص: 77

3. هادي نظري منظم وآخرون. «صورة ما ياكوفسكي في شعر عبد الوهاب البياتي ووشيركويكيس». إضاءات نقدية

(فصلية محكمة)، السنة الثانية - العدد الثامن - 2012

4. بيير برونيل وآخرون. الوجيز في الأدب المقارن. تر: غسان السيد، ص: 147

5. دانييل هنري باجو. الأدب المقارن. تر: غسان السيد، ص: 91

## ثانياً: البدايات الأولى للصورولوجيا وعلاقتها بأدب الرحلة

ترتبط علاقة الأنا بالآخر ببدايات الوجود الإنساني، هذا الكائن الاجتماعي الذي لا يمكنه العيش بمعزل عن الآخرين منذ وجوده الأول، وقد جاء في القرآن الكريم ما يشير إلى قدم هذه العلاقة قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...» (الحجرات (13) فالذات الإنسانية منذ بدايات الخلق الأول في حاجة إلى التعرف على الآخر المختلف عنها، لذا يمكن القول إن عملية اكتشاف الآخر «ممتدة في الزمان ولا تتوقف أبداً وذلك بسبب التفاعل الإنساني بين الأمم والشعوب والثقافات في أوقات السلم والحرب على السواء.»<sup>1</sup> فطبيعة الإنسان مبنية على الاختلاف الديني، والثقافي والاجتماعي وهذا ما جعل علاقة الأنا بالآخر علاقة جوهرية ضاربة بأعماقها في تاريخ الوجود الإنساني وميزتها الأساسية الاستمرارية والأبدية.

إلا أنّ الاهتمام بميدان صورة الآخر في مختلف الآداب والفنون يعد «أحدث ميدان من ميادين البحث في الأدب المقارن، لا ترجع أقدم البحوث فيه إلى أكثر من ثلاثين عاماً<sup>2</sup>، ولكنه -مع حداثة نشأته- غنيّ بالبحوث التي تبشّر بأنه سيكون من أوسع ميادين الأدب المقارن وأكثرها رواداً في المستقبل.»<sup>3</sup> لكن ينبغي الإشارة إلى أنّ الاهتمام الحديث بدراسة الصورة في الآداب القومية لا يلغي أبداً وجود صور لشعب ما في أدب الشعوب الأخرى.

يقتضي الحديث عن صورة الآخر في الأدب المقارن تتبع بداياتها الأولى أو على الأقل محاولة الكشف عن الملامح الأولى لما يسمى اليوم بـ: **الصورولوجيا** أو "الصوراتية"<sup>4</sup> هذا المبحث المقارن الذي اتضحت معالمه الأولى في بدايات القرن التاسع عشر مع الأديبة الفرنسية "مدام دوستيل" (Madame de staël) التي رسمت أبعاده في

1. حسين العودات. الآخر في الثقافة العربية: من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين. دار الساقى، بيروت، ط1،

2010، ص:24

2. يرى غنيمي هلال أن بحوث الأدب المقارن المهمة بالدراسات التصويرية حديثة جداً، إذ يمكن حصر بداياتها الأولى منتصف القرن العشرين.

3. غنيمي هلال. الأدب المقارن. ط3، ص: 419

كتابها الموسوم بـ: "ألمانيا.1811" وهي تنقل صورة الشعب الألماني الذي وصفته بالطيبة والاستقامة والصدق.<sup>1</sup>

لاشك أن الاحتكاك المباشر للسيدة "دوستايل" مع الشعب الألماني قد مكنها من التعرف عليه وإبداء إعجابها بألمانيا وبسحر طبيعتها وأدبها الرفيع، فضلا عن عنايتها ببيان أوجه التشابه والاختلاف بين الأدبين الفرنسي والألماني، إذ لم تتأثر الكاتبة بالأحكام الجاهزة والصور المشوهة التي خلفتها الحروب والنزاعات السياسية بين البلدين وهذا ما يُعد تصحيحا مخالفا لتلك الصور السلبية التي ترسخت في أذهان الفرنسيين عن الألمان، فالغيرية «تقتضي بالضرورة نفس الهوية المغلقة وطرده كل الثنائيات الحدية التي أنتجتها الميتافيزيقا الغربية الملوثة بالعقل الأرسطي الملوث بالعقل الأنثوري في هذا المجال، أي في مجال نقد العقل الأنثوري بالعقل المنفتح على الغربية.»<sup>2</sup> تخضع صورة الآخر في مجملها إذن للعلاقة القائمة بين الأنا والآخر، هذه العلاقة الغارقة في صراع مستمر بسبب الانغلاق والتعصب الذي يمارسه كل قطب، ولكن كلما تجاوز الأنا فكرة التشبث بهويته ومركزيته تمكن من الوعي بالآخر وبالتالي فهم طبيعته ومكوناته الهوياتية.

شكل كتاب السيدة "دوستايل" نقطة انطلاق مهمة للدراسات المهمة بصورة الآخر، دون أن نغفل باقي الرحلات القديمة والحديثة التي كانت تهدف إلى البحث عن «صورة الإنسان الأبدي وجذوره، وصراعاته، والنتائج التي اكتسبها،... مولعين بالإطلاع على الدين والتاريخ،... وهكذا كانت الرحلات تتم طبقا إلى الرؤية الرومانسية.»<sup>3</sup> فقد حاول المتأثرون بالتيار الرومانسي أيضا استكشاف الآخر، والاهتمام بكل تفاصيله في كتاباتهم التي ساهمت بدورها في التأسيس للدراسات التصويرية.

1. ينظر ماجدة حمود. مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2000، ص: 110

2. وحيد بن بوعزيز. جدل الثقافة مقالات في الآخريّة والكولونيالية والديكولونيالية. دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018، ص: 206، 207

3. مي عبد الكريم محمود. تأهون في صحراء الإسلام: صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة والمستشرقين الفرنسيين. الأهالي للتوزيع والنشر، دمشق، ط1، 2003، ص: 08

يؤكد "سعيد علوش" أن كتاب "ألمانيا" لمدام دو ستايل" لم يكن الوحيد الذي وجه اهتمام الدارسين إلى تبني الدراسات التصويرية وبالتالي ظهور الصورولوجيا، فقد استفادت «فرنسا من كتابات مدام دي ستايل»، عن ألمانيا، فإنها كانت تلاحق في الآن نفسه صدى ونجاح كتابها في إنجلترا وأوروبا، ومهتمة باستلهامات رومانسيها للشرق الميثي، بكل جغرافيته المختزلة، في الألوان والمشارب.<sup>1</sup> وبذلك أسهمت الرحلات والاستشراق في ظهور الصورولوجيا، فمثل هذه النتاجات الأدبية محملة بجملة من الصور والتصورات حول الآخر وهذا ما يجعلها تربة خصبة للدراسات التصويرية التي تتقصى مثل هذه الصور وتسعى إلى تحليلها ومحاولة فهمها.

يرى "غنيمي هلال" أن دراسة صورة الآخر «قد بدأت في المدرسة الفرنسية مع جان-ماري كاريه، ثم أخذها ماريو-فرانسوا غويار ودافع عنها ونشرها في فصله الأخير من كتابه الصغير ضمن سلسلة (كوسيج- ماذا أعرف) عام 1951: "الأجنبي كما نراه".<sup>2</sup> وقد تلتها مجموعة الرسائل التي تتضوي تحت عنوان الصورة والتي نذكر منها: «رسالة أندريه منشوو، رسالة رينيه شوفال الموسومة ب: (ألمانيا والحرب P.U.F، 1943) ورسالة ميشال كادو (صورة روسيا في الحياة العقلية الفرنسية-1829-1856-فايارد، 1967)...<sup>3</sup> يمكن القول إن الإرهاصات الأولى لظهور الصوراتية - من منظور من منظور "غنيمي هلال"- تعود إلى الغرب الذين كانوا السباقين في بلورة هذا التوجه، وتمكنوا من الوقوف عند تمثلات الآخر بكل تفاصيله في الأجناس الأدبية التي من شأنها أن تستوعب كل ما يتعلق بالآخر من ثقافة، ودين وفكر... ومن ثمّ البحث عن مكونات هذه الصورة ومرجعياتها.

1. سعيد علوش. مدارس الأدب المقارن. المركز الثقافي العربي، ط1، 1987، ص: 58

2. دانييل هنري باجو. الأدب المقارن. تر: غسان السيد، ص: 89

3. المرجع نفسه، ص: 89، 90

ثالثا: وسائط تلقي صورة الآخر

يعني الإيمان بوجود الآخر ضرورة الإيمان بالتنوع والاختلافات القائمة بين الأجناس البشرية، ولعل هذا التمايز قد خلق فضولا كبيرا حول ماهية الآخر بكل مكوناته، وتفاصيله، فتقاطرت الشعوب من مختلف أرجاء العالم على بعضها البعض في «علاقات متبادلة بين الشعوب: تبادل السلع والأفكار، وتبادل القيم والأشكال.»<sup>1</sup> فاقترب الأنا من الآخر، وتعددت قنوات الاتصال وانتشرت الأفكار والقيم متجاوزة كل حدودها الجغرافية، ومن هنا بدأ الأنا يبحث في ثقافة الآخر وخصوصية الاختلاف التي تميزهما، محاولا من خلال مرجعياته رسم صورة تقريبية للآخر المختلف عنه عبر عدد من الوسائط لعل أهمها:

1. أدب الرحلة

يعد نص الرحلة من الأجناس الأدبية التي ساهمت بشكل واضح في تصوير الآخر والخوض في تفاصيله، وقد شهد الشرق على مرّ القرون توافد الكثير من الرحالة الأوروبيين الذين حجوا من مختلف الأقطار، حيث لم تكن «الرحلة الأدبية عند الكثير من الكتاب والأدباء الفرنسيين والإنجليز، خاصة في القرن التاسع عشر، بمثابة رحلة مكانية فقط، بل ارتبط مفهومها دائما بالرحلة الروحية. ويرجع ذلك إلى الجوع الميتافيزيقي الذي صار بسبب تصاعد وحلول ما يسمى بالقيم الشبئية كبديل للقيم الإنسانية التي حفل بها عصر الأنوار، سمة العصر وقلقا وجوديا.»<sup>2</sup> إن طغيان الماديات على حياة الأوروبيين حفزت الكثير من الأدباء على التوجه نحو الشرق في محاولة منهم لاكتناه أسراره الذي غالبا ما وصفته كتابات المستشرقين بالساحر والروحاني، هذه الروحانية التي كانت تفتقر إليها أوروبا الغارقة في الوجودية والمادية.

وتجدر بنا الإشارة إلى النسق الثقافي الذي تبنى عليه هذه الرحلات «ذلك أن الرحالة كان مسكونا بنسقه وملتقيه، فيرحل ومعه خصوصياته وثقافته ونسقه الذي يكون حاضرا في تجربته، ومشاهداته، ومروياته، وينتقل معه إلى العوالم التي ارتحل إليها.

1. أمينة رشيد. الأدب المقارن والدراسات المعاصرة لنظرية الأدب. ص: 19

2. وحيد بن بوعزيز. جدل الثقافة مقالات في الآخريّة والكولونيالية والديكولونيالية. ص: 126

ويساهم في إنتاج هذه النصوص، ويملي على الرحالة ذكر أشياء وحذف أخرى.<sup>1</sup> هذا يعني أن الرحالة مهما كان موضوعيا في نقل مشاهداته ومروياته التي صادفته في رحلاته إلا أنه سيظل خاضعا لمكوناته الثقافية، وخصوصيته المعرفية التي تحتم عليهم في كثير من المحطات حذف بعض المشاهد التي لا تتماهى وأنساقه الثقافية الظاهرة منها أو المضمرة. فهناك من الأدباء حين يصطدم بصورة الشعوب الأخرى يصبح أكثر تمسكا بهويته الثقافية وأكثر استعلاء على الآخر، حيث يكتشف حسنات نمطه في الحياة وتفوق ثقافته على الثقافات الأخرى.

تأسيسا على ما سبق يمكنني القول إن أدب الرحلة أكثر الأنواع الأدبية قدرة على نقل صورة الآخر (الشرقي، الغربي) واستيعاب تفاصيله؛ نظرا لاحتكاك الرحالة (الأنثا) المباشر بالآخر والتعرف عليه عن قرب، فقد كان هؤلاء الرحالة «يسجلون انطباعاتهم كل حسب مشربه وتكوينه، فمنهم من غلب على كتاباته الطابع الديني، ومنهم من اهتم بالعلم ورجاله، ومنهم من تحدث عن المدن ووصف "المسالك والممالك". ولكن أعمالهم جميعا لا غنى عنها للمؤرخين والجغرافيين والأدباء وعلماء الاجتماع.<sup>2</sup> مما يساعد على تشكيل صورة مفعمة بالحياة عن الآخر المختلف الغامض الذي يستدعي التعرف عليه تنقيبا وتتقلا كثيرا.

## 2. الحروب والاستعمار

أثرت التجربة الاستعمارية على الشعوب المستعمرة في جميع ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وخاصة الأدبية، حيث لجأ المستعمر إلى محاولة طمس هويتها وإذلالها وتجويعها وتشريدتها والإساءة إلى مقدساتها، مما دفع بهذه الشعوب المغلوبة إلى المقاومة والتحدي رغبة في استرجاع حريتها المسلوبة، ومن هنا «يمكننا أن نفهم الأثر الذي تخلفه أعمال الغالبيين في نفوس المغلوبين، بحيث أنه يبدو من الصعب أن يعيش البعض بجانب البعض الآخر في أمن وسلام. ولا يمكن إلا أن يثور المرء على

1. الساوري بوشعيب. الرحلة والنسق: دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا. دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء. المغرب، ط1، 2007، ص: 96

2. أبو القاسم سعد الله. تجارب في الأدب والرحلة. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص: 203

مثل هذه الأعمال الفظيعة.<sup>1</sup> فقد أسهم هذا الواقع الأليم في تشكل أدب المقاومة وأدب ما بعد الاستعمار الفاضح لهمجية المستعمر والرافض لكل أشكال الاستعمار من حماية أو انتداب أو وصاية، وبالتالي ساهمت هذه الكتابات في تجسيد صورة الآخر التي استمدت ملامحها ومعانيها من القسوة والوحشية والدموية التي خلفها الاستعمار في ذهن الشعب.

وَدَّ الاحتكاك الحذر بين الأنا المُستعمرِ والآخر المُستعمرِ خطابات<sup>2</sup> كثيرةً ومتباينة لا تخلو من التشويه؛ بسبب تباين وجهات النظر بين الطرفين وتعدد الحواجز التي فرضها واقع الاستعمار. فالروائي الجزائري "محمد ديب" كغيره من الكتاب -الذين عاصروا الاستعمار- يصور في ثلاثيته (الدار الكبيرة، الحريق، النول) المعاناة والحرمان الذي عاشه الشعب الجزائري في فترة الاحتلال الفرنسي ليقدم لنا صورة حقيقية عن جرائم المستعمر، إذ يتغنى في خطابه بقيمه ومبادئه الراقية التي تهدف في مجملها إلى جلب الحضارة والرقي إلى هذه البلدان وكذا حماية الشعوب الضعيفة. كما وصفت "غادة السمان" في سلسلتها القصصية الموسومة بـ: "عينك قدري" المستعمر الفرنسي بأبشع الصفات الوحشية في قصتي: "مغارة النسور" و"براري شقائق النعمان"<sup>3</sup> فالصور التي نقلتها الأدبية كانت ترجمة حقيقية لصفات المستعمر الفرنسي الذي شرد وقتل الأبرياء بغير حق.

إن الظروف الصعبة التي عايشها الجزائريون بسبب سياسة الاحتلال الفرنسي أثارت «حفيظة الكتاب الوطنيين، وحركت أقلامهم منددة بهذا الواقع الأليم الذي أراده الاستعمار الفرنسي للجزائر، مما جعل بعض الساسة والمفكرين الفرنسيين يتغاضون من

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص:20

2. لقد أفضى الاستعمار إلى العديد من العلاقات والنتائج، التي عنيت بها نظرية ما بعد الاستعمار باستكشافها للخطاب الاستعماري ومواقع الذات الخاصة به فيما تعلق بمواضيع العرق، الأمة، الذاتية، السلطة، التابع، الهجنة، الكريولية... للتوسع ينظر: كريس باركر. معجم الدراسات الثقافية. تر: جمال بلقاسم، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2018، ص: 365

3. ينظر: غادة السمان. عينك قدري. منشورات غادة السمان، بيروت، ط10، 1993، ص: 175.67

خشونة هؤلاء في التعبير عن قضايا أمتهم.<sup>1</sup> لاشك أن الحجم الكبير لتلك المآسي التي مست الشعب الجزائري بسبب الاستعمار قد ضاعفت من إحساس الطبقة المثقفة بثقل المسؤولية والمهمات التي تنتظرها إتجاه هذا الوطن وهذا الشعب المنهك، مما حتم عليها تجنيد أقلامها من أجل مواجهة المستعمر بلغته وبيان صورته الهمجية، وفضح كل تلك الشعارات الفارغة التي كان يتغنى بها في المحافل الدولية. وهذا ما يجعل من الحروب أهم الوسائل المساهمة في تشكيل صورة الآخر وهذه الصورة قد بُنيت على المعاشية والتجربة والممارسة اليومية بين الطرفين مما جعل منها أقرب بكثير إلى الواقع؛ لأن فرنسا فرضت وجودها على الجزائريين والمغاربة.<sup>2</sup>

ينبغي القول إن الحروب والاستعمار قد أسهما في تجسيد الكثير من الصور المتباينة عن الآخر، فالسياق الكولونيالي «ساهم بقدر كبير في صناعة مخيال ملطخ بالتميطات، لهذا فالسياق ما بعد الكولونيالي يحاول مليا تنظيف هذا التلطيخ بواسطة ما يسميه بعض الدارسين بالسردية المضادة أو بالكتابة ضد الإمبراطورية.»<sup>3</sup> فأدب الاستعمار وما بعد الاستعمار ساهم في التأريخ للعديد من الحقائق أيضا، وهذا ما يجعل من هذه الكتابات المتنوعة المتأثرة في داخلها بالوجود الاستعماري مهمة جدا؛ لأنها صورت علاقة الآخر بالأنا في مرحلة صعبة بسبب تشعبها بالتعصب والتطرف والقومية. وهذا ما يجعل من هذه الخطابات والمعلومات غير بريئة وبعيدة كل البعد عن الحقيقة في كثير من الأحيان.

### 3. الاستشراق

يُعد الاستشراق أحد أهم الظواهر الثقافية والمعرفية التي ترمي إلى اكتشاف الآخر المجهول الذي يتمثل عادة في الشرق الساحر كما تصفه كثير من المؤلفات الغربية، حيث يتفق أغلب الدارسين المهتمين بتفسير ظاهرة الاستشراق على وسمه

1. يوسف الأطرش. المنظور الروائي عند محمد ديب. منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، 2004، ص: 282.  
2. ينظر: عبد المجيد حنون. صورة الفرنسي في الرواية المغربية. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1986، ص: 78.  
3. وحيد بن بوعزيز. جدل الثقافة مقالات في الآخريّة والكولونيالية والديكولونيالية. ص: 207.

ب: "علم الشرق"<sup>1</sup>. فقد اهتم المستشرقون منذ آلاف السنين بالموروث الشرقي الإسلامي، والمؤلفات المتداولة والمعروفة التي تخص الإسلام والعرب. إن عناية المستشرقين بالشرق جاءت «في أعقاب الصدام العنيف بين الحضارتين المختلفتين، الحضارة الإسلامية الشابة المتنوية والحضارة الغربية المترنحة المتخاذلة واستطاعت الحضارة الإسلامية أن تبسط سلطانها على جزء كبير من آسيا وإفريقيا وامتدت إلى جنوب أوروبا.»<sup>2</sup> إن التوجه نحو الشرق ينم عن رغبة الغرب في اكتشاف العالم العربي والإسلامي بكل ما يحويه من ثقافات ومعارف، وعادات وتقاليد، وما تعلق به من سمات ثقافية أو حضارية أسست لوجوده في هذا العالم، فالشرق في عيون الآخر الغربي له دلالاته وإيحاءاته التي تميزه عن الغرب.

كما تجدر الإشارة إلى أن وسم الاستشراق ب: "علم الشرق" أقرب بكثير من جوهر اهتماماته وكذا معانيه، «فالتعريف على الاستشراق يعني، من بين ما يعنيه، تحليل صورة الآخر، الإسلام، العرب، وسائر الشعوب غير الأوروبية في أوروبا أو الغرب».<sup>3</sup> فالاستشراق إذن يهتم برصد صورة الآخر غير الأوروبي، ومحاولة تحليل صورته انطلاقاً من أبعاد مختلفة تهدف في مجملها إلى تقصي حقيقة الآخر من خلاله أفكاره ومؤلفاته ثم إعادة تصويرها «ومن هنا فقد درس الاستشراق الإسلام، والحضارات الأخرى باستخدام أفكار أوروبية عن الله، والإنسان والطبيعة، والمجتمع، وعن العلم، والتاريخ، ووجد بصورة متسقة أن الثقافات والحضارات غير الغربية متخلفة، وأدنى من الثقافة، والحضارة الأوروبيةين.»<sup>4</sup> إن ما يعاب على الكثير من المستشرقين هو تبنيهم للمنظور الأوروبي في

1. محسن جاسم الموسوي. الاستشراق في الفكر العربي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1993،

ص: 11

2. محمد فاروق النبهان. الاستشراق: تعريفه مدارسه وآثاره. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ايسيسكو، الرباط، ط1، 2012، ص: 08

3. سالم يفوت. حفريات الاستشراق (في نقد العقل الاستشراقي). المركز الثقافي العربي، الرباط، ط1، 1989، ص:

07

4. ضياء الدين ساردار. الاستشراق: صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية. تر: فخري صالح، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، أبوظبي، ط1، 2012، ص: 26

دراستهم للشرق<sup>1</sup>، فاستمت كتابتهم بالنظرة الدونية لغير الغربي، وهذا يدل على مخالفة الاستشراق للواقع -في كثير من المحطات- بنظرته الذاتية التي تتعارض مع القيم المتعارف عليها.

إلا أننا لا يمكننا أن ننكر فضل المستشرقين المنصفين الذين قاموا بدورهم بكل موضوعية وأمانة بل وكانوا حريصين جدا في أن يكونوا موضوعيين في تفكيرهم وفي أحكامهم؛ فقادهم التفكير المنصف إلى قول الحق، ومنهم "فوت" (Goethe)<sup>2</sup> الذي نلمس التأثير العربي والإسلامي في أعماله، فموضوعية "فوت" تبدو جلية في تصويره للشرق وإعجابه بسماحة الإسلام وبالرسالة العظيمة التي جاء بها الرسول ﷺ.<sup>3</sup>

يتضح لنا من خلال ما سبق أن الاستشراق هو المعرفة التي أنتجها الغرب عن الشرق بمحاسنها ومساوئها في نقل صورة الآخر غير الأوروبي، فالاستشراق «قضية تتناقض حولها الآراء في عالمنا الإسلامي، فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصى حد، وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا ويلعن كل من يشتغل به بوصف عدوا لدود للإسلام والمسلمين.»<sup>4</sup> إن الإيديولوجيات التي يتبناها المستشرق في نظره إلى الآخر العربي أو الإسلامي تتخذ مسارين متباينين؛ إما نظرة ذاتية مرجعياتها استعمارية تسعى إلى طمس الحقائق وتزييف كل المشاهد، مما يجعل الأجيال تتوارث صورة سيئة عن الآخر العربي الإسلامي، أو قد تتحى نظره نحو الموضوعية والإنصاف من الصدق، والأمانة، وهذا

1. يرى "إدوارد سعيد" في مقدمة كتابه الاستشراق أن نظرة الغرب للإسلام إنما كانت تهدف إلى تحويل تنوعه إلى جوهر وحداني غير قابل للتطور، وقلب أصالته إلى نسخة منحطة من الثقافة المسيحية، ومسح شعوبه إلى كاريكاتورات مثيرة للربح. للتوسع ينظر: إدوارد سعيد. تعقيبات على الاستشراق. تر: صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1996، ص: 28

2. أنور محمود زناتي. «مستشرقون منصفون.. جوته "Goethe"». <http://www.alukah.net>، 2016.07.14، سا: 10:35

3. يفسر "غوت" سبب توجهه نحو الشرق قائلا: «شعرت شعورا عميقا بوجود الفرار من عالم الواقع المليء بالأخطار التي تهدده من كل جانب في السر وفي العلانية، لكي أحيأ في عالم خيالي مثالي، أنعم فيه بما شئت من الملاذ والأحلام بالقدر الذي تحتمله قواي.» للتوسع ينظر: غوت. الديوان الشرقي للمؤلف الغربي. تر: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1980، ص: 06

4. محمود حمدي زقروق. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. دار المعارف، القاهرة، ط1، ص: 12

حال القلة من المستشرقين الذين ساهموا بقدر كبير في التعريف بالحضارات المنسية وكذا تطوير آدابها وتحقيق مخطوطاتها وتقديس كل خصوصياتها إيماناً منهم بمبدأ التعدد والتنوع والاختلاف واحترام الآخر بكل ما فيه من مزايا وعيوب بعيداً عن لهجة الفوقية أو المركزية الأوروبية الإمبريالية.

### 4. الترجمة

ساهمت الترجمة على امتداد التاريخ الثقافي الإنساني في عملية المثاقفة عبر كل أقطار العالم، فالمهمة السامية التي يبذلها المترجمون في التعريف بين الآداب العالمية فتحت الطريق أمام هجرة النصوص لتتخطى حدودها الإقليمية كضرورة ملحة لطرق أبواب العالمية، فأخذت هذه الشعوب تتواصل فيما بينها من خلال تلك الترجمات التي ساهمت في انفتاح الأنا على الآخر، فمهما «زعم المرء لنفسه أنه متكامل معرفياً وحضارياً فإنه لابد أن يجد نفسه مضطراً إلى الآخر في مكوناته الحضارية بوصفها حلقة اتصال وتبادل وتفاعل في الثقافات ولن يكون ذلك كذلك إلاّ بواقع الاحتكاك بالآخر عبر آلية الترجمة.»<sup>1</sup> معنى ذلك أن تفوق الأنا حضارياً وثقافياً لا يلغي حاجته إلى دراسة ما للآخر من نماء معرفي وثقافي، ما شرع أبواب التقارب والتلاقح الثقافي على مصرعيها بين الطرفين بفضل الترجمة التي جسدت هذا التواصل وأسهمت في خلق العديد من الصور والانطباعات حول ماهية كل طرف.

### 5. الفنون السردية

تعد الفنون السردية من أكثر الأجناس الأدبية قدرة على تجسيد صورة الآخر بمختلف تمظهراته نظراً لتمتعها بكثير من الإمكانيات والتقنيات الفاعلة، وهذا ما يجعل الكاتب مهيمناً على الكثير من الفضاءات التي يمكنها احتضان الآخر بتمثلاته الثقافية والاجتماعية والدينية، ففي رواية "دون كيخوتي" للإسباني "سيرفنتاس" (M. Cervantes) مثلاً نجد أن الروائي يحاول الانتقام والاقتصاص لسنوات أسره في الجزائر من قبل العثمانيين بتصوير العرب والمسلمين بأبشع الصفات، فوصفهم بالكفرة والسحرة والخداع

1. ياسمين فيدوح. إشكالية الترجمة في الأدب المقارن. ص: 77

والخبث والكثير من الصفات القبيحة في مقابل اعتزازه بقوميته الإسبانية... واتصاف بطل الرواية "دون كيشوت" بالطيبة والسماحة والذكاء. ولعل السبب يعود إلى الحروب التي شهدتها تلك الفترة بين الجبهتين الإسبانية والعثمانية التي كانت تمثل الدولة الإسلامية.<sup>1</sup>

كما ينحو الفرنسي "ألبيير كامبي" (Albert Camus) منحى "سيرفنتاس" في إيراد جملة من الصور التي تهدف في مجملها إلى تشويه الجزائري، وعلى الرغم من ميلاد "كامبي" بالجزائر وعيشه فيها إلا أنه فضل النظر إليها بعين أوروبية، حيث يصف العربي كما جرت العادة على ألسنة أغلب الكتاب الأوروبيين ب: المتعصب والقذر والمتوحش كما يصف المرأة العربية بالخائنة.<sup>2</sup> على الرغم من أن هذه الصفات التي عادة ما يتم إصاقها بالعرب موجودة في الأجواء الأوروبية أيضا، إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أن هذه الصور المبتذلة نجدها متوارثة في اللاوعي الجمعي لكل مجتمع، ففي المجتمع العربي ينظر الأنا العربي للمرأة الأجنبية دائما على أنها غير متخلقة وامرأة بغي، تقيم علاقات محرمة، كما يتجلى المجتمع الأوروبي في المخيال العربي دوما منحلا أخلاقيا، وهذا ما يبدو جليا في الحوار الذي دار بين الرواي وأهل قريته (ود حامد) في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للكاتب السوداني "الطيب صالح"، حيث يندهش أهل القرية عندما يخبرهم الرواي بأن الأوروبيين مثلهم تماما يتزوجون وينجبون أطفالا وأن أخلاقهم حسنة كما أنهم طيبون.<sup>3</sup> ولعل هذه الدهشة تعود إلى تلك الصورة المشوهة المترسخة في المخيال العربي حول الآخر الغربي.

### 6. وسائل الإعلام الحديثة

ساهم التقدم التكنولوجي الذي شهده العالم في ظهور قنوات فضائية كثيرة، متعددة الأغراض والأساليب، مما جعلنا اليوم نعيش عصر الصورة؛ هذه الأخيرة التي هيمنت على العالم باعتبارها سلاحا نو حدين احتل مكانة بارزة في نقل العديد من

1. ينظر: ثريانتس. دون كيشوته. ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار المدى، دمشق، ط1، 1998، ص: 07، 161، 152.

2. ينظر: ألبيير كامو. الغريب. تر: عائدة مطرجي إدريس، دار الآداب بيروت، ط1، 2013، ص: 27، 64، 71.

3. ينظر: الطيب صالح. موسم الهجرة إلى الشمال. دار العودة، بيروت، ط 13، 1981، ص: 07.

الرسائل والأفكار بسرعة كبيرة وخطيرة على قدر أهميتها، فهي «سريعة الانتشار، ليست بحاجة إلى ترجمة، كما أنها على نقيض الأدب لا تحتاج في تلقيها إلى وسطاء، في حين يحتاج الأدب إليهم ليس فقط من أجل الترجمة، بل من أجل التسويق ومنافسة الصورة المرئية، وهو بأمس الحاجة إلى نقاد وصحفيين يسوقونه، ويعملون من أجل أن يتم تلقي الصورة التي يقدمها بشكل واع!»<sup>1</sup> خلافا لما كان عليه الحال في القرون السالفة التي ركزت على وسائل تكاد تكون محدودة الانتشار، فقد انتصر عصر العولمة باعتماده على وسائل جد متطورة تركز أساسا على الصورة كالتلفاز والكمبيوتر المزود بالانترنت هذه الأخيرة التي غزت العالم وهي تتخطى كل الحدود الجغرافية والسياسية حتى أصبح العالم بفضلها قرية صغيرة.

يعج العالم اليوم بالكثير من الصور عن الآخر وخصوصا المشوهة التي تتغذى على الصراعات السياسية والثقافية بين الشعوب، فقد «أصبح المجتمع الإنساني مجتمعاً تقوم الصور بالوساطة خلاله في الأنشطة الإنسانية كافة.»<sup>2</sup> ومن هذا المنطلق ساهمت الانترنت ومختلف الفضائيات في تداول الكثير من الصور التي تتراوح بين الحقيقة والخيال، وأنا أعني بالخيال تلك الصور النمطية<sup>3</sup> البعيدة كل البعد عن الحقيقة والسبب وراء تبني بعض الأطراف لهذه الصور هو محاولة تشويه الواقع الاجتماعي والثقافي للآخر من قبل الأنا، فهذه الصور تهدف أساسا إلى ضرب هوية بعض المجتمعات باعتبار الصورة ترجمة لمدرجات الأنا وتمثلاته الذهنية. ولا بد من التأكيد على أن هذه «الصورة أكثر من الكلمة اقتراباً من الرغبات الدفينة للإنسان.»<sup>4</sup> ومرد ذلك التأثير الكبير للصورة على الإنسان باعتبارها الأقرب إليه نظرا لارتباطها بمختلف مجالات حياته

1. ماجدة حمود. صورة الآخر في التراث العربي. ص: 19

2. شاكر عبد الحميد. عصر الصورة: السلبيات والإيجابيات. عالم المعرفة، عدد 311، يناير 2005، ص: 02

3. الصورة النمطية: تمثيل بسيط ولكنه حيوي، يختزل الأشخاص في مجموعة من الصفات، التي غالبا ما تكون ذات طابع هشّ وسلبي، كما أنها شكل تمثيلي يجوه الآخرين من خلال السلطة... وعادة ما تأخذ الصورة النمطية شكل فكرة عرفية مبنية وفق صيغة جامدة في صورة مبتدلة توجه وتتحكم في الناس. للتوسع ينظر: كريس باركر. معجم الدراسات الثقافية. تر: جمال بلقاسم، ص: 240

4. فريد الزاهي. «فتنة الصورة وسلطتها». مجلة علامات، المغرب، العدد 18، 2002، ص: 5

اليومية، فالصورة لديها قدرة هائلة في التأثير على نفسية الإنسان خاصة وأنها قريبة جدا من أحاسيس المتلقي.

انتشرت في السنوات الأخيرة الكثير من البرامج التلفزيونية الساخرة التي تخصص لها ميزانية ضخمة من أجل الترويج لجملة من الصور المبتذلة عن الآخر العربي المسلم الذي يظهر دائما أحمقا ومتخلفا عن الركب الحضاري بآلاف السنين، ولعل من أقبح الصور تلك التي تجسد المسلم على أنه شخص متشدد، عنيف، كما أنه سفاح وإرهابي، فهذه الصور الجاهزة والمشوهة عندما تبتث عبر الفضائيات أو مواقع التواصل الاجتماعي ستؤثر حتما على ذوي الثقافات المحدودة باعتبارها الفئة الأكثر تأثرا.

إن مثل هذه الصورة المشوهة عمقت الهوة بين الشعوب، فصارت العلاقات بين هذه الشعوب رهينة لهذه الأفكار، فالبلاد الإسلامية «تشن عليها وسائل الإعلام الأجنبية الموجهة صورا متنوعة تتعارض مع أعرافنا وعاداتنا، وتسخر من عقائدنا وتشريعاتنا وتبث أنواعا من الرجس والفسوق الذي كان له أسوأ الأثر في حياة شبابنا وبناتنا وتغيير سلوكهم وزعزعة معتقداتهم.»<sup>1</sup> ولعل خير مثال على ذلك تلك الصور الكاريكاتورية التي كثيرا ما روجت لها مجلات غربية على غرار مجلة: (charlie hebdo) الفرنسية التي كانت تستهدف شخص الرسول ﷺ بصور تسيء للمبعوث رحمة للعالمين، فتستفز شعور المسلمين باعتبار النبي ﷺ قدوة لهم. فمثل هذه الصور المشوهة التي يرسمها الأوروبيون عن الآخر المسلم تساهم كل مرة في تأصيل رؤية عدائية للإسلام والمسلمين ومثل هذه التصورات حتما ستؤجج نار الحقد وروح الانتقام بين هذه الشعوب وتبعث على العداوة واللاتفاهم بينهم.

### رابعا: أنواع الصورة

إن الحديث عن صور الشعب في الأدب يحيلنا إلى نوعين من الصور.

1. عبد الرحمن عميرة. الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق. دار الجيل، بيروت، ط1، دت،

## 1. صورة الشعب في أدبه

إن الصور التي ينتجها الأديب عن شعبه أو أمته عادة ما تتسم بطابع القومية، حيث تُتاح للأديب فرصة تصويره لشعبه كغيره من الأدباء الذين يحسون بالانتماء لهذه البيئة والمجتمع كصورة الشعب الجزائري الثائر والشجاع في أشعار "مفدي زكريا" وصورة المجتمع المصري في الروايات المصرية على سبيل المثال، فالأديب «لا يصور نفسه وحدها، وإنما يصور جماعة من معاصريه، وهو من هذه الناحية مشارك في الحياة، ومرآة للعصر الذي يعيش فيه، ذلك لأن تجارب الآخرين وأحداث حياتهم تمر من خلال أدبه، فتخرج مصورةً له ولهم في نفس الوقت.»<sup>1</sup> يشبه طه حسين الأديب بمرآة عصره التي تعكس كل ما تعلق بالشعب باعتبار الأديب جزءاً لا يتجزأ من هذا المجتمع.

## 2. صورة الشعب في أدب غيره

تعدّ علاقات التأثير والتأثر بين الشعوب عاملاً مهماً في إنتاج الكثير من الصور عن الشعوب التي تشترك مع بعضها البعض في الدين أو اللغة أو حتى في الحدود الجغرافية؛ كصورة الجزائر في الأدب التونسي أو المغربي وحتى المصري انطلاقاً من اللغة والدين اللذين يجمعان بين هذه الشعوب، إلا أن هذا لا ينفي وجود كتابات تنضوي على صور لشعوب أخرى بعيدة كل البعد عن القومية العربية كصورة الفرنسي واليهودي في الأدب العربي مثلما هو الحال لصورة العرب في كتابات الأدباء الغربيين ذلك أن الأمم «لا تهتمّ إلا بالشعوب المجاورة لها أو التي تشترك معها في مسألة، أو أن يكون لها معها مصالح اقتصادية، أو تريد كسب ودّها أو تخشى بأسها.»<sup>2</sup> لا شك أن أسباب اهتمام شعب بشعب آخر كثيرة جداً لذلك نجد أن صورة الآخر لا تقتصر على الآداب القومية، فهناك أدباء قد تأثروا بشعب ما أو قرؤوا له بعضاً من روائعه فدفعهم ذلك إلى استحضار صورته في نتاجهم الأدبي.

## خامساً: حالات تصوير الآخر

1. جابر عصفور. المرايا المتجاوزة: دراسة في نقد طه حسين. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 1983، ص: 82

2. عبد المجيد حنون. صورة الفرنسي في الرواية المغربية. ص: 68

أشرت فيما سبق إلى تشكل صورة الآخر عبر الكثير من الوسائط من رحلة واستشراق وترجمة... ولعل هذا ما يبعث على التنوع والتباين في هذه الصور، فتشكيل الأنا صورة عن الآخر يقوم أساسا على تنوع الثقافات والخصوصيات التاريخية وكذا الفكرية، فكل كاتب توجهاته وأهدافه الخاصة وهذا ما يعني تعدد التأويلات والقراءات التي تصاحب فهم الآخر، ويمكن أن نجملها كالاتي:

### 1. القراءة الموضوعية ( المتسامحة)

يقصد بها الفهم الذي يحاول المبدع من خلاله تبني الموضوعية أو ما يمكن تسميته بالرؤية المتوازنة في تصويره للآخر الذي لا يمكن إغفاله أو استثناءه من هذا العالم الذي يجمعه معه، كما أن هذه النظرة تتسم بالحياد، فالمبدع يكابد من أجل التحرر من الأحكام الجاهزة والمتوارثة بين الشعوب، ليقدّم «الصورة عبر رؤية واعية، تعتمد العلم، وتصغي لنبض الإنسان، وبذلك تستطيع أن تنظر للآخر باعتباره ندا للذات، فينتقي الهوس والانبهار (الاستعارة من الآخر) كما ينتقي الرهاب (الذي ينفي الآخر ويكاد يصل الأمر حد افتراض الموت الرمزي له)»<sup>1</sup> هذا يعني أن التفكير في تقديم صورة إيجابية عن الآخر يتطلب الكثير من الموضوعية والاستقلالية في رصد كل التأويلات التي تتبع من هذه الذات المبدعة فضلا عن ذلك، فإن هذه الرؤيا تتأتى من النضج الفكري والثقافي الإنساني حتى نتمكن من تجنب النزعة الذاتية التي تفرض في كثير من الأحيان سياقات منافية لحقيقة الآخر، ومن هنا أصبح محتما على الذات المصورة التسامح مع الآخر والعيش معه في عالم واحد مبني على الحوار والتواصل الدائم، بعيدا عن كل النوازع السلبية للنفس البشرية. مثلما فعلت الأديبة الفرنسية "مادم دو ستيل" عندما نقلت صورة صادقة عن الشعب الألماني الذي أساء الفرنسيون فهمه. فجاء كتابها "ألمانيا" كي يصح تلك الصورة المشوهة التي بنيت على أحكام مسبقة بعيدة كل البعد عن الواقع والحقيقة.

تحضرنى في هذا المقام شهادة الرحالة الألماني " فيلهلم شيمبر (Schimper).

(Wilhelm) المنصفة عن الأوضاع المزرية التي عاشها الجزائريون بسبب الاحتلال

1. ماجدة حمود. صورة الآخر في التراث العربي. ص: 28

الفرنسي، حيث يطرق الرحالة أبواب الموضوعية برفضه السكوت عن جرائم الفرنسيين في حق الجزائريين، مؤكدا أن الفرنسيين قد تجاوزوا كل الحدود في معاملاتهم للجزائريين بل وانتهكوا كل المواثيق الدولية والقيم الإنسانية قائلا: «لعل البعض سيأخذني على ما أقدمت على ذكره ها هنا، إلا أن مأخذة كهذه أحسن لي من أن أخفي عن الناس شيئا. فقد يكون الحديث عن مثل هذه الفظائع مدعاة إلى لفت الأنظار إليها والعمل على إزالتها.»<sup>1</sup> يبدو "شيميرا" منزعا جدا من الأوضاع التي خلفها الاستعمار الفرنسي، فالتزام الأنا المبدعة بالقيم الإنسانية والنظرة الموضوعية يساعده كثيرا على التعرف على الآخر بكل تفاصيله ويجنب القارئ الالتباس والانسياق وراء صور مشوهة لا تعكس أبدا حقيقة الآخر الذي يكمل وجودنا وتربطنا معه الكثير من الاهتمامات والمصالح.

### 2. القراءة السلبية (الإقصائية)

يمكن تسميتها أيضا بالنظرة السلبية، والتي عادة ما تستند إلى جملة من المرجعيات والأحكام المسبقة والقبلية عن الآخر، فهي أحكام متوارثة ومتناقلة من جيل إلى آخر، بعد أن سيطرت على «الأنا المبدعة أو الدارسة مشاعر التفوق على الآخر، وغالبا ما تعززها العلاقات العدائية مع الآخر عبر التاريخ، مما يؤدي إلى تشكيل صورة سلبية عن الآخر (المعادي).»<sup>2</sup> تتشكل النظرة الدونية للآخر بسبب التاريخ الحافل بالحروب، والأحقاد والعداء بين الأنا والآخر، مما يعني تجنيد كل الأجناس الأدبية من أجل رسم هذه الصورة السلبية وكذا الترويج لها، بعيدا عن الحقيقة، بل امتثالا منهم للنزعة الدينية، وكل معاني التفوق والاحتقار للآخر، وهذا ما يبدو جليا في أغنية "رولان"، ومسرحية "القديس نيكولا" (Saint Nicholas)، حيث يظهر المسلمون «في الأدب الفرنسي: ملاحمه، مسرحياته، بصورة وثنيين لا أخلاق لهم، سرعان ما ينهزمون أمام أبطال المسيحية، فيرتدون عن دينهم...»<sup>3</sup> فقد شوهت أوروبا بحقدتها وتعصبها صورة المسلمين، ووصفتهم بأبشع الصور التي لم تكن موجودة آنذاك، فهم ينطلقون من نظرتهم

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان. ص: 21

2. ماجدة حمود. صورة الآخر في التراث العربي. ص: 27

3. غنيمي هلال. الأدب المقارن. ص: 422

النمطية للعالم الآخر غير الأوروبي، وهذا الآخر سيظل دوماً في نظرهم في مرتبة دونية، لا ثقافة ولا هوية له، وجوده كعدمه، فالمجال هنا لا يتسع إلا للذات المبدعة التي تتحكم في دور الآخر كيفما تشاء كأحجار الشطرنج، فتصفه كما تشاء وتصوره وفقاً لفكر وثقافة الأنا المبدعة التي لم تكثف بالاستسلام للمؤثرات التاريخية في الموروث الغربي، وإنما سعت إلى تأكيده.

انطلاقاً مما سبق يمكن وصف الصورة بأنها «رؤية فردية أو جماعية، تمتزج فيها عناصر فكرية، وعاطفية في الوقت نفسه، موضوعية وذاتية فلا يمكن لأي أجنبي أن يرى بلداً كما يحلو لسكانه الأصليين أن يُرى»<sup>1</sup> ومع ذلك يمكنني القول أن مثل هذه الصورة ستظل مجرد رؤية فردية خاضعة لمجموعة من العناصر الفكرية والثقافية هذه العناصر التي تختلف في مجملها عن مكونات الآخر. لكن المشكلة الحقيقية تكمن في ذلك العدد الهائل من الصور التي تحتقر وتهتمش الآخر الإسلامي أو الشرقي، فالصور «التحقيرية عن الآخر موجودة فعلاً، وتأخذ هذه الصورة، وقبل كل شيء شكل الهرطقة»<sup>2</sup> على الرغم من الإغراق في النمطية والجاهزية التي تميزت بها الصور المجسدة للآخر العربي وحتى الغربي، إلا أننا لا يمكننا إنكار أهميتها وجدارتها بالدراسة، فالمبدع ينطلق في إبداع صورة الآخر انطلاقاً من تجربة شخصية لها سياقات، وآفاق تختلف جذرياً عن أفق أفكار حضارة الشعوب المصورة لكن هذه الصور المنتجة من قبل هؤلاء الرحالة أو المستشرقين ستظل ناقصة وبعيدة في بعض الأحيان عن الحقيقة؛ لأنه ما من أديب أجنبي أعلم بحال شعب آخر، فأهل مكة أدرى بشعابها كما يقال. فمثل هذه الصورة إنما هي نتيجة للصراعات السياسية والعسكرية بين الدول، وهذا ما يجعلها سلبية ومشوهة، وقد ساهمت وسائل الإعلام الحديثة في تأجيج الصراع بين الأنا والآخر وتداول مثل هذه الصور العدائية والمخالفة للحقيقة، وهذا ما يستدعي من الباحث المقارن دراسة هذه الصور في إطارها التاريخي حتى يسهل فك شيفراتها.

1. بير برونييل وأم روسو وآخرون. ما الأدب المقارن؟. تر: عبد المجيد حنون ونسيمة م. عيلان وآخرون، ص: 108

2. تييري هينتش. الشرق الخيالي ورؤية الآخر: صورة الشرق في المخيال الغربي الرؤية السياسية الغربية للشرق المتوسط. تر: مي عبد الكريم محمود، دار المدى للثقافة والنشر، ط1، 2006، ص: 88

### 3. القراءة الإيجابية

إن هذه القراءة في أصلها سلبية ومرد ذلك إلى شعور الأنا المبدعة بالدونية أمام التفوق الكبير الذي حققه الآخر ثقافيا وحضاريا، مما يحتم على الذات المبدعة إظهار الآخر دائما في صورة إيجابية، فنقافة الذات المبدعة لا ترقى إلى ثقافة الآخر أو البلد المنظور إليه، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد «بعض الكتاب العرب منبهرين بالنموذج الغربي للحياة (حرية، ديمقراطية،...)» إلى درجة نجد بعضهم لم يكتف أن يكون من دعاة الحضارة الغربية بل وجدناه يغض الطرف عن مشكلاتها، فلا يتبنى أي موقف نقدي تجاهها، رغم ما عاناه العرب من نكبات بسبب النزعة التي سيطرت وما زالت تسيطر على كثير من السياسيين الغربيين.<sup>1</sup> لاشك أن تأثر بعض الأدباء العرب بالحضارة الغربية بهذا الشكل مرده نسيانهم فضل الحضارة العربية الإسلامية وتأثيراتها في الحضارة الغربية، كما أن التضييق الممارس على بعض الكتاب العرب دفعهم إلى الارتداء بين أحضان الديمقراطية التي تكفلها الدول الغربية لهذه الطبقة، لكن الإشكالية تكمن في الإفراط في التأثير بالآخر الغربي والتماهي فيه والترويج لحضارته وتفوقه على حساب الحضارة الأم التي تراجعت بسبب الاستعمار -على اختلاف أنواعه- من جهة ولامبالاة الطبقة السياسية التي تحكمها من جهة أخرى وما تبع ذلك من تخلف ثقافي واقتصادي.

أخيرا يمكن القول إن صورة الآخر قد تجسدت عبر العديد من الوسائط والمراجع المختلفة، وقد ساهم احتكاك الأنا بالآخر في إنتاج الكثير من الصور المتباينة التي تخضع في مجملها إلى العديد من المرجعيات والأبعاد المختلفة، فضلا عن ذلك فإن عملية فهم الآخر أو القراءات المصاحبة لاحتكاك الأنا والآخر لا تأخذ شكلا واحدا ومرد ذلك تغير الظروف والسياقات المصاحبة لهذه الرؤى. وهذا ما سيتم التركيز عليه من خلال الفصول التطبيقية الأربعة والتي سأحاول من خلالها الوقوف عند مظهرات الجزائري في مختلف الرحلات الأوروبية على اختلاف تخصصات وتوجهات أصحابها الايديولوجية عبر حقب زمنية مختلفة.

1. ماجدة حمود. صورة الآخر في التراث العربي. ص: 28.

# الفصل الأول

## صورة الجزائر الاجتماعية والسياسية

أولاً: صورة الجزائري المهمش اجتماعياً

ثانياً: صورة المرأة الجزائرية

ثالثاً: صورة الجزائري أخلاقياً

رابعاً: صورة الجزائر سياسياً

خامساً: صورة القضاء

نالت الجزائر قدرا كبيرا من اهتمام الرحالة الأوروبيين لاسيما الفرنسيين والألمان الذين توافد الكثير منهم إلى شمال إفريقيا مع مد التيار الرومانسي، وأنتجوا الكثير من المؤلفات التي كانت تُعنى بوجحكالجزائر في محاولة لرسم صورة عن الآخر الجزائري المغاير لنا الأوروبية. فقد نجح الرحالة الأوروبيون -أدباء، اثنوغرافيين، عسكريين وغيرهم- في وصف الحياة الاجتماعية للجزائري المتأثرة بثلاثة عوامل خارجية تمثلت في هجرة الأندلسيين التي بدأت في القرن التاسع وازدادت قوة خلال القرن العاشر، والوجود العثماني، بالإضافة إلى الوجود المسيحي واليهودي<sup>1</sup>، حيث أسهم هؤلاء في فعل التأثير الإيجابي والسلبي في الكيان الاجتماعي الجزائري، وهذا ما أضفى التنوع على مختلف العلاقات داخل المجتمع الجزائري؛ وقد أسهمت كتابات الرحالة الأوروبيين في الكشف عن جوانب مهمة من الحياة الاجتماعية وكذا تسليط الضوء على مختلف العلاقات الاجتماعية للجزائريين وكل ما له صلة بالحياة الاجتماعية. وهذا ما ساقف عليه في هذا الفصل بالاستناد إلى عدد من الرحلات الأوروبية. قصد الإجابة عن التساؤلات التي تتمحور حول طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية للجزائريين في القرنين التاسع عشر والعشرين باعتبارها مرحلة مهمة من تاريخ الجزائر الحديث.

### أولا : صورة الجزائري المهمش اجتماعيا

تكمُن أهمية أدب الرحلة في غزارة وتنوع المعلومات التي ينقلها الرحالة عن المناطق التي زارها بأسلوب فني يركز كثيرا على الوصف الحي لمظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية للسكان... وتأسيسا على قراءتي المتأنية للعديد من الرحلات الأوروبية أدركت أن معاناة الجزائريين مع حالات التهميش المختلفة موضوع تشترك فيه جميع هذه النصوص الرحلية على اختلاف توجهاتها وتواريخها.

1. ينظر: أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول 1500-1830. دار الغرب الإسلامي، بيروت،

يصور الأديب الفرنسي "غي دو موبسان" (Guy de Maupassant) المجتمع الجزائري في صورة الفقير والمهمش اجتماعيا، حيث ينقل الكثير من المشاهد التي توحى بتجذر الفقر بين الجزائريين، فالعاصمة على سبيل التمثيل «تعج بالسكان. المتسولون كثيرون جدا إنهم يلبسون قمصان بسيطة أو سجادين قد تم حياكتها على شكل رداء كاهن أو كيس قديم فيه فتحتين للذارعين، وفتحة للرأس والساقين عاريتين كما أنهم يسيرون حفاة، يذهبون ويأتون، يشتمون، يتشاجرون، قذرون، ثيابهم رثة، رائحتهم كريهة.»<sup>1</sup> تختلف أوضاع وطرق التسول في العالم غير أن أسبابها واحدة، فعجز الجزائري ماديا قد دفعه إلى التسول، كما أن ارتدائه لأكياس الكتان أو خياطته لسجادين كبديل عن القميص وسيرهم حفاة شبه عراة في الشوارع -يستجدون عطف ومساعدة المارة- يوحي بحالات التهميش الاجتماعي نتيجة تدهور الحياة الاقتصادية للمجتمع الجزائري بفعل الاستعمار الفرنسي، والوجود العثماني بالجزائر.

لكن الملفت للانتباه أن هذه الصورة التي نقلها "غي دو موبسان" تخلو من أي اعتراف عن حقيقة حالات التهميش السائدة في المجتمع الجزائري، وتضمر تحيزا للاستعمار، وتكرس نزعة التعالي والفوقية التي تميز المستعمر مقابل تبعية وتهميش المستعمر، لأنه يدرك جيدا أن «السبب الوحيد في هذا الفقر أن السياسة الاستعمارية الزراعية البراقة قد أضحت بمقارنة قرحة في جسم البلاد، وأنها تمتص كل شيء وتأتي عليه.»<sup>2</sup> وهذا ما يجعل من الطابع الحضاري للاستعمار مجرد فقاعات، فالاحتلال الفرنسي الذي جاء ليخلص الشعب الجزائري من السيطرة العثمانية -مثلما يروج له الفرنسيون- ويرد له أرضه إنما جاء لكي يجسد المركزية الأوروبية على الأرض، فهناك أحياء أوروبية راقية وأخرى عربية فقيرة، ومدارس أوروبية حديثة وأخرى عربية تقليدية،

1 . Guy de Maupassant .au soleil 1884. Pp: 09,10

2. جون بول سارتر. عازنا في الجزائر. تر عائدة إدريس، سهيل إدريس، بيروت، دار الآداب، ط02، 1958، ص:

فرنسا العنصرية جردت الشعب من أرضه<sup>1</sup> ثم جعلته خادما فيها عند المعمر الأوروبي مقابل بعض الفرنكات؛ مما يعني أن فرنسا قد جاءت بالإقطاعية بدلا من الحضارة !

ينحو الأديب الفرنسي "أندريه جيد" (André Gide) منحى "موبسان" في تجسيده لصور التهميش الاجتماعي للمجتمع الجزائري، إذ يشير الرحالة إلى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المزرية للسكان أثناء وصفه لإحدى قرى القنطرة ببسكرة قائلا: «كم تمتد الحياة المتواصلة. الشيخ يموت بلا ضجيج والطفل يكبر بلا رجة. القرية تبقى كما هي، حيث لا وجود لكائن متشوق إلى الأفضل ويأتي بشيء جديد بعد بعض الكد... قرية بأزقة ضيقة بلا ترف. هنا يدفع الفقر إلى معرفة نفسه. الكل يأخذ قسطه من الراحة ويبتسم بسعادة بسيطة. العمل البسيط في الحقول، هذا هو العصر الذهبي ! ثم على خطى الأبواب، يستولي الليل بأغانيه وحكاياه على متعة المساء البطيء...»<sup>2</sup> يظهر الجزائري من خلال هذه الصور غارقا في الفقر واليأس والروتين القاتل، فلا مجال لتجديد الحياة هنا، فالأيام القادمة مشابهة للأيام الماضية، ففي هذه القرية كل شيء يبعث على البلادة إلا أن الشيء الذي يبعث على الحيرة هو تلك البسمة التي لا تغادر وجوه هؤلاء الناس المتعبين !

يستطرد "أندريه جيد" في وصف الفقر والمأساة التي ألمت بالجزائريين ليحدثنا هذه المرة عن ظروف المعيشة القاسية في أعماق الصحراء وهو في طريقه إلى "تفرت" قائلا: «تناولنا الغداء على مائدة بثلاث أرجل، تحت شمس حارقة بدأت تسفع بقوة. قطتان جائعتان تتعاركان على بقايا دجاجة باردة وعلى بعض السمك. بالقرب منا، أمام كوخ بنيس حيث يختبئ ثلاثة عرب فقراء، امرأة مغطاة بخرقه صفراء تغسل طفلة نحيلة في الخامسة، عارية تماما، تقف داخل مرجل أسود. لا وجود لزهرة، ولا لعشب كي نبتسم قليلا

1. جردت فرنسا الجزائريين من أراضيهم وانتهجت العديد من الاستراتيجيات لتحقيق ذلك؛ لعل أهمها سياسة الأرض المحروقة.

2. أندريه جيد. رحلة إلى شمال إفريقيا. ترجمة: محمود عبد الغني، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2012، ص:

في وجه الكوخ.»<sup>1</sup> لاشك أن التقاء الفقر بالمناخ الصحراوي القاسي قد زاد الحياة صعوبة في هذه المناطق، فلا مجال هنا حتى للابتسام !

لا تقتصر معاناة الجزائري مع الفقر على المناطق الصحراوية فقط بل في جميع أنحاء البلد، ففي " البليدة يستحضر "أندريه جيد" مشهدا آخر من مشاهد الفقر لثلاثة أطفال فقراء وهم «يقتسمون ليس سمكة بل حسكة، الله وحده يعرف أين وجدوها... لازل فيها بعض اللحم، قرب الرأس، حيث يكشطون. لكل واحد قطعة بحجم الجلبان. في درجات سفلية، شيخ عربي يضع أصبعيه في حلقه ويتقيأ. أي فظاعة أكل حتى يتقيأ؟ لقد كان ميتا من الجوع.»<sup>2</sup> تشير الصور السابقة إلى انتشار الفقر والجوع في جميع ربوع الجزائر، فالحياة الصعبة التي يعيشها الجزائريون كانت بسبب تكريس التفاوت الطبقي والتبعية والتهميش من طرف المستعمر.

يبدو أن "أندريه جيد" كان أكثر موضوعية وهو ينقل هذه المشاهد إذ يحمل الفرنسيين مسؤولية ما يحدث في الجزائر من مأساة في حق الأرض والشعب عبر صيغة العتاب الواردة في خطابه قائلاً: «أمشي بكسل وحزن، وأنا أتبع الرصيف حتى وصلت حي "سانت أوجين"<sup>3</sup>. شمس سوداء. مطر يهطل على البحر تدفعه الريح نحونا. إلهي! ماذا فعلنا بالجزائر البيضاء؟ بهذا الانهيار الطفيف، والثلج... إنها مزيلة ! ثلج كبير هنا، يمتزج بالوحل. على هذه البقايا النتنة أكواخ تسيء إلى هذا الشعب الذي يرتدي أسمال. حفرة نتنة يتخبأ فيها أطفال بلا سعادة، أقدامهم حافية. إن هذه البشاعات ليست إلا بشاعات مؤقتة، فإن البشاعة الأكثر شؤماً هي أيضا بشاعة الأوراس، والأرصفة، والمستودعات.»<sup>4</sup> إن هذه الصور التي نقلها "أندريه جيد" إنما تنم عن بؤس وشقاء كبير قد حل بالجزائريين، فالظروف القاسية التي يعيشها الجزائري ألقت بظلالها السلبية على حياته، فلا أمل في التطور أو التقدم في بلد مات فيه كل شيء بسبب تبعات السياسة

1. المرجع السابق، ص: 31

2. المرجع نفسه، ص: 51

3. سانت أوجين: بلدية بولوغين حالياً بالجزائر العاصمة.

4. أندريه جيد. رحلة إلى شمال إفريقيا. ترجمة: محمود عبد الغني، ص: 54

الاستعمارية الهمجية التي مارستها فرنسا في حق الجزائريين من تقتيل وتهجير وتجويع وحرق للأراضي أو سلبها...

كما شمل التهميش الأسواق التجارية؛ يتجسد ذلك من خلال الصور التي نقلها الرحالة الألماني "فيلهلم شيمبر" إذ يُحمل الفرنسيين مسؤولية تدهور الحركة التجارية في الجزائر حيث اتهم الفرنسيين بعرقلة الحركة التجارية داخل البلد واستيلائهم على كل طرق التجارة، فالفرنسيون حسب الرحالة «لا يبدون أية رغبة في إقامة علاقات تجارية داخل البلاد، يضاف إلى ذلك أن التجارة أصبحت بيد الأوروبيين، وأن التاجر العربي الصغير مضطر إلى أخذ بضائعه منهم وهم على ما هم عليه من طمع وجشع.»<sup>1</sup> وهي صورة تحمل الكثير من الواقعية، ففرنسا قد أبادت كل شيء يوحى بهوية البلد، فلم تعد هناك صناعات يدوية ولا تجارة للأهالي، مما ساهم في تردي الأوضاع الاقتصادية للأهالي وانتشر الفقر والتهميش الاجتماعي في مقابل تمركز السلطة الاستعمارية وبسط نفوذها على مواقع الهيمنة في المجتمع الجزائري.

وقد نقل لنا الرحالة الألماني "موريس فاغندر"، الصورة ذاتها، فيرى أن الأسواق الجزائرية إبان فترة الاحتلال الفرنسي «لا تشبه تلك الأسواق الضخمة، التي كانت موجودة قديما في بغداد أو طهران، والتي تحدث عنها المؤرخون العرب. إن أسواق الجزائر لا يمكن أن تقارن بأسواق أزميز أو القسطنطينية... فأسواق الجزائر فقيرة بجانب تلك الأسواق، وهي عبارة عن دور تشبه الدور العربية، مع فارق واحد وهو أن جانبي الفناء يحتويان على حجرات، الواحدة منها منفصلة عن الأخرى. ولكل سوق طابقان أو ثلاثة طوابق وغرف كبيرة... إلا أن زواره كانوا يكتفون بتقليب البضائع، وقلما يشتررون شيئا منها. فالتجارة لم تكن في يوم ما بالجزائر مريحة، ولم تزدهر أبدا مثل ازدهارها في بقية العواصم الأخرى بالبلدان المتأخرة.»<sup>2</sup> تبدو صور التهميش الاجتماعي والاقتصادي جلية في خطاب الرحالة فالأسواق الجزائرية بسيطة، لا تخرج عن دائرة الحجرات المنثورة هنا وهناك كما أن الحركة فيها قليلة جدا مقارنة مع الأسواق الشرقية التي تعج بتجار من

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855). ص: 16

2. المرجع نفسه، ص: 62

جنسيات مختلفة بالإضافة إلى تنوع السلع المعروضة للبيع. وهي صور تعكس التاريخ الوقائعي للمجتمع الجزائري الذي عانى من الفقر والتهميش أثناء الوجود العثماني القائم أساسا على القرصنة الخارجية وتحصيل الضرائب من الجزائريين داخليا، فضلا عن الوجود الفرنسي الذي تعمد تجويع الجزائريين بسنه لجملة من القوانين على غرار سياسة الأرض المحروقة ومنح أراضي الجزائريين للمعمرين وغيرها من الإجراءات التي تستهدف الحياة الاقتصادية للجزائريين.

كما صورت الأدبية والرحالة السويسرية "إيزابيل إيبهارت" (Isabelle Eberhardt)، هامشية الأسواق الجزائرية والوضع المادي الصعب الذي خيم على حياة الجزائريين فنقلت لنا أبرز ما رآته في السوق قائلة: «أمام الأكواخ المنخفضة للمكتب العربي كان حوالي عشرين قصريا يرتدون ملابس صوفية ترابية اللون يجلسون القرفصاء أمام الأسماك المعروضة، برانس من الصوف السميك بأهداب طويلة حول غطاء الرأس، وجلود فيلاله وسلال البيض، وأكوام من البصل واللفت وجلود الجديان المليئة بالزبدة أو القطران، ومجموعات من التمور الذهبية اللون، وعلب من الصوف المصبوغ باللون الأحمر والأخضر والبنفسجي. هذا كل شيء»<sup>1</sup> إن الجملة التي انتهى بها خطاب الرحالة "هذا كل شيء" تضمّر بساطة المنتجات الموجودة في السوق الجزائري وقلتها كما تشير إلى اللاكتفاء المادي للفرد في الجنوب الجزائري، فكل السلع التي تباع بسيطة ومحلية ولا تخرج عن دائرة الحاجيات التي يستهلكها الإنسان في حياته اليومية. كما تؤكد تفشي الفقر والتهميش بين الجزائريين، فضعف الحياة الاقتصادية للجزائريين لم يسمح للأسواق الجزائرية أن ترقى إلى مصاف الأسواق الشرقية.

كما صورت "إيزابيل إيبهارت"، جانبا آخر من مظاهر التهميش الاجتماعي وهو ظاهرة التسول المنتشرة في الجنوب الجزائري الكبير إذ تصف حالة المتسول الذي كان جالسا فوق الجسر الذي يربط بين "المسيطة" الجديدة والقديمة قائلة: «وعلى الجسر الحديدي، الجسر الرمادي البشع، كان متسول أعمى مقرفصا، يهز ببطء بنديره مصدرا

1. إيزابيل إيبهارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال. تر: عبد السلام المودني، أعده وعلق عليه وقدم له ماري أوديل دولاكور وجون روني إيلو، تر: عبد السلام المودني، تمهيد: إيدموند شارل رو، منشورات الجمل، بيروت، بغداد، ط:1، 2014، ص: 180

صوتا خافتا، وفي هدأة الجو المحيط به، كانت تلك الضربات الخرساء تنظم شكوى المسن الذي يشارف الموت منشدا " باسم سيدي عبد القادر الجيلاني، سيد بغداد، وإمام المقامات العليا، تصدقوا أيها المسلمون!"<sup>1</sup> لا يختلف اثنان في قضية انتشار الفقر والتهميش في أوساط المجتمع الجزائري بسبب الأوضاع السياسية والاقتصادية - مثلما أشرت سابقا- فالجزائريون لم يسلموا من الفقر حتى في فترة الوجود العثماني، فما بالك بالفترة التي سيطر فيها الفرنسيون على كل الأراضي الزراعية التي يقات منها الجزائريون. لذلك فالصور التي نقلتها الرحالة سواء ماتعلق بهامشية الأسواق أو ظاهرة التسول والفقر هي صور موضوعية وواقعية، ولكن من الغريب أن لاتذكر مرجعية الواقع الذي صورته وكان السبب في تردي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، مما جعلنا نتحفظ على رؤيتها الخاصة وإن كان التصوير موضوعيا.

ويصور الجغرافي البلجيكي "جيل لوكليرك" (G. Leclerc) حجم البؤس والشقاء الذي يعيشه سكان "رغاية" قائلا: «سبب لنا هذا الحادث في توقف طويل في مكان كئيب يحمل اسم رغاية. لجأنا إلى مطعم حيث علمني رفيقي لعبة الماتادور. من حينها كلما ألعب الماتادور، أعيد رؤية مطعم رغاية دائما والمزارعين المستعمرين البؤساء الذين كانوا مجتمعين به: يرون بشحوبهم المخيف، وكم كان المكان غير صحي؛ كانوا كلهم موهنين بالحمى التي سببتها خلال فصل الصيف الضايات المجاورة.»<sup>2</sup> تلتقي هذه الصورة المعبرة عن التهميش الاجتماعي مع تلك الصورة التي نقلها الاثنوغرافي الإنجليزي "ليدر" (S. H. Leeder) حيث ينقل لنا مشهدا آخر من مشاهد التهميش والفقر والمرض والموت الذي فتك بسكان "جمورة" بسبب الأنفلونزا قائلا: «لقد تسببت الأنفلونزا في دمار فظيع بجمورة، فسكانها الفقراء الذين يعانون من سوء التغذية لم يقدروا على مقاومة المرض مما تسبب في امتلاء المقبرة المجاورة لمنازل السكان.»<sup>3</sup> تعكس هذه الصورة إذن واقع المجتمع الجزائري وحجم البؤس والشقاء الذي لازم الجزائريين، فضلا

1. المرجع السابق، ص: 127

2. جبل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر لكنيزي، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2016. ص: 162

3. S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp:58

عن الأسقام التي كانوا يعانون منها، فقد شهدت الجزائر بسبب الوجود العثماني والفرنسي بالجزائر انهيارا اجتماعيا واقتصاديا للسكان، فالعثمانيون الذين حكموا الجزائر لقرون لم يولوا أهمية للأهالي، وانعزلوا عنهم في قصورهم وكانوا يتذكرونهم كلما حل موعد جمع المحلة (الضرائب) مما أسس لبلد ضعيف على جميع المستويات وكرس التهميش والتبعية.

ويضيف "جيل لوكليرك" الرحالة ذاته صورة أخرى عن انتشار مرض الملاريا بمنطقة "ناصرية" ببومرداس" قائلا: «رأينا أيضا بعض المصابين بالحمى لم تكن وجوههم الشاحبة تثبت سوى أن هذا الإقليم مصاب بالملاريا.»<sup>1</sup> تتحدث كتب التاريخ عن الكثير من الأسقام التي ألمت بالجزائريين آنذاك وموت الكثير منهم، مما يدل على التخلف والبدائية في مجال الطب، فكثيرا ماكان الجزائريون يندهبون من رؤية طبيب أجنبي، وهذا يدل على التخلف الحضاري والثقافي والصحي الذي سببه الوجود العثماني الذي كان منشغلا بجمع الضرائب فقط وبناء الحاميات! لذلك كانت هذه الصور موضوعية تعكس حقيقة الواقع الاجتماعي والاقتصادي للجزائريين.

ومن بين صور الاثنوغرافية الاستعمارية التي تؤكد انتشار الفقر والتهميش في أوساط الجزائريين ما ينقله المترجم العسكري الفرنسي "شارل فيرو" "Ch. Féraud" عن سكان جيجل في الجبال قائلا: «جيجل التي هي عادة فقيرة، ومحصولها من القمح غير معتبر نسبيا، دقيق الذرة والذرة البيضاء ويخلطونه مع دقيق القمح أو الشعير. وهكذا يحصلون على كسرة (رغيف) مغذية، وليست مقززة الطعم يأكلونها بنقعها في حليب المعزة. وتزودهم أوراق الذرة، والذرة البيضاء في نفس الوقت، بعلف جيد للبقر وثيران الحرث.»<sup>2</sup> إن ما أورده "شارل فيرو" عن الحياة البسيطة التي يحياها سكان جيجل يمكن وصفه بحال جميع الجزائريين في تلك الفترات، فالفقر انتشر في كل مكان حتى أصبح الجزائري لا يجد ما يأكل ويشرب في أغلب الأوقات. كما أشار "فيرو" أنّ حالتهم بدأت تتحسن مذ أدخل الأوروبيون الصناعة إليهم باستغلال أشجار الفلين وهذا ما اعتبره مجرد ذر للرماد، فالحالة الاقتصادية للجزائريين ساءت كثيرا بقدوم الفرنسيين.

1. المرجع السابق، ص: 164

2. شارل فيرو. تاريخ جيجلي. تر: عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية، الجزائر، 2010، ص: 60

تُجسد مذكرات الضابط الفرنسي "دومينيك فارال" (Dominique Farale) سكان الأوراس في صورة الفقراء. فالحالة الاجتماعية والاقتصادية لسكان "خنشلة" صعبة جدا ذلك أن نسبة كبيرة منهم «تعيش في فقر مدقع وتعاني من البطالة المزمنة، وكان هؤلاء السكان يعتقدون أن ذهاب الفرنسيين سوف يفتح لهم الباب للاستفادة مما يتركونه وراءهم من تراث زراعي وتجاري وعقاري، في حين البعض الآخر يخشون أن يصيروا أكثر فقرا وأقل أمنا في أحضان الجزائر المستقلة. كان معظم سكان البوادي فقراء وكان الكثير منهم ينتقلون بحثا عن المراعي والمنتجات، فبعد جني محاصيل الحبوب في فصل الصيف يخزنون جزءا منها في أهراء ويحملون الباقي على ظهور الجمال لبيعه في المناطق الصحراوية.»<sup>1</sup> من المعروف تاريخيا أن فرنسا انتهجت الكثير من الأساليب التي تهدف في مجملها إلى القضاء على الجزائريين، ومن ذلك تجريدهم من أراضيهم ومنازلهم، فأصبح الجزائري يعيش تحت رحمة الفقر والبطالة، وهذا ما يفند ما جاء به "شارل فيرو" الذي يزعم تحسن أوضاع الجزائريين بسبب الصناعات في مجال الفلين، - باعتبار خنشلة مدينة غابية- أما فيما يخص تضارب آراء الجزائريين حول ميقات تحسن وضعيتهم، فهذا يعود لقناعة كل واحد، لكن معظم الجزائريين -آنذاك- راهنوا على تحسن الوضع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي للبلد بعد إجلاء الفرنسيين.

انطلاقا من الصور السابقة المثقلة بدلالات التهميش الاجتماعي يمكن القول؛ إن معظم تلك الصور تعبر إلى حد بعيد عن واقع المجتمع الجزائري الذي كان خاضعا للهيمنة العثمانية والفرنسية، مما زاد من عمق المأساة الاجتماعية كتردي الأوضاع الاقتصادية وضعف مستوى المعيشة وانتشار الفقر والجوع والمرض والتفاوت الطبقي، لكن أغلب الرحالة الذين نقلوا صوراً موضوعية تعكس الواقع كما أثبتته التاريخ لم يسجلوا اعترافاً حقيقياً لأسباب التي ساهمت في تهميش الجزائري والتي تكمن في الممارسات الاستعمارية الهادفة إلى التمرکز وتهميش الجزائري وتبعيته . وهذا ما يمكن اعتباره تواطئاً وتأييداً يدعم السياسة الاستعمارية الفرنسية وإن بدا غير مباشر، ويبدو ذلك جليا في مختلف الصور الدونية التحقيرية التي روجت لها نصوصهم الرحلية.

1. دومينيك فارال، معركة جبال النمامشة 1954 - 1962، تر: مسعود حاج مسعود، دار القصة للنشر، الجزائر،

## ثانيا: صورة المرأة الجزائرية

ساهمت قصص التراث العربي ورواجها في الغرب كقصص "ألف ليلة وليلة" في ترميز صورة المرأة الشرقية في نظر الأوروبيين الذين لم يروا فيها « سوى أنها بعض من متاع إمبراطوريتهم، فهي جارية أو حظية أو راقصة أو مومس أو قاتلة أو غاوية، ولا شيء غير ذلك»<sup>1</sup>. فهي الفاتنة الجميلة التي تبعث على الغواية والإغراء وبالتالي أثارت المرأة الشرقية فضول المستشرقين والأدباء والرحالة الأوروبيين، فسافر الكثير منهم نحو الشرق ليحظى برؤيتها، وقد لازمت هذه الصورة الذهن الجمعي الأوروبي لعدة قرون. فكيف تجسدت صورة المرأة الجزائرية في كتابات الرحالة الأوروبيين؟

### 1. صورة المرأة الجزائرية بين الجمال والقبح

تتجسد صورة المرأة الجزائرية في النص الرحلي للأديب الفرنسي "تيوفيل غوتيه" (Théophile Gautier) في صورة المرأة الجميلة والفاتنة ويظهر ذلك جليا فيما أظهره من إعجابٍ وافتتانٍ بجمال المرأة القسنطينية، -التي رآها في حفل العيساوة المقام بسيرتا- حيث يصف النساء اللواتي وجدهن في حفل العيساوة بالجميلات قائلا: «في الجهة المقابلة على الطريقة الشرقية أربع أو خمس نساء في مقتبل العمر يغطين رؤوسهن بتلك المناديل الحريرية ذات الألوان الصارخة... أما جفونهن المسودة بالكحل، والأهداب المصبوغة التي تصل عند منبت الأنف، فإنها تعطي لجمالهن طابعا غريبا لا يخلو من جاذبية»<sup>2</sup> تبدو المرأة الجزائرية القسنطينية في صورة الأنثى الساحرة الجذابة وهي صورة تُعبر عن انتمائها الشرقي بكل خصوصياته.

لم يكتف "تيوفيل غوتيه" بوصف لباس المرأة القسنطينية، بل راح يفصل في أدوات الزينة التي تستعين بها المرأة القسنطينية من أجل ظهورها في أبهى حلة، حيث يقول الرحالة أن النساء اللواتي شاهدن في الحفل كُنَّ يضعن في «آذانهن أقراطا طويلة مصنوعة بذوق همجي، وتحيط بعض منهن وجهها بثلاث سلسلات ذهبية تشبه

1. رنا قباني. أساطير أوروبا عن الشرق لفق تسد. تر: صباح قباني، دار طلاس، دمشق، ط2، 1993، ص: 11  
2. أحمد منور. الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر. دار التنوير، الجزائر، ط1، 2013،

المخائق- وهي موضة خاصة بقسنطينة- تسقط من عروتين من الأحجار الكريمة، ملتصقة بالخدين، وتحيط بالذقن دون أن تلمسه. كان هذا أحسن تعويض لي على ما لاقيته من الغيلان الفظيعة والشياطين المقيتة في سفري الذي أتيت منذ قليل على رسم خطوطه العريضة.<sup>1</sup> على الرغم من إعجاب الرحالة بالنسوة معتبرا رؤيتهن أحسن تعويض على ما لقيه من متاعب في رحلته، إلا أن ماجاء في الصورة من وصف حول الذوق الهجري لصانع الأقراط بدلا من الذوق المبدع والراقي، فإن ذلك يرتبط بطبيعة العلاقة النمطية بين الشرق والغرب، إذ يسعى عبر خطابه غير البريء إلى تشكيل صورة الغربي المتفوق والشرقي الأدنى منه.

كما يبدي "غي دو موبسان" إعجابه الشديد بالنساء اليهوديات ويتغزل بجمالهن قائلا: «تحية ليهوديات هذه الأماكن: جمالهن رائع صارم فتان، يعبرن مدثرات أكثر منهن لابسات، مزينات بأقمشة لامعة، ذوق في اللبس لا مثيل له، تدرج في الألوان صنع ليجعلن جميلات، يمشين وأيديهن عارية حتى الكتف، تماثيل تعرض للشمس بجرأة وكذلك وجوههن الهادئة بخطوطها العريقة المستقيمة، حتى أن الشمس تبدو عاجزة عن لسع هذا اللحم المصقول.»<sup>2</sup> إن افتتاح "موبسان" الشديد بجمال المرأة اليهودية المتجولة في شوارع "سيرتا" متبرجة مرتدية لباسا مختلفا عن لباس المسلمات يوحي بالتنوع العرقي والديني للمدينة التاريخية.

إن صورة المرأة الجميلة لم تتجسد في اليهوديات والإسبانيات فقط، فالجزائريات اللواتي صادفهن "موبسان" في العديد من المناطق التي حل بها كُنَّ في غاية الجمال أيضا، فقد استطرد في وصفهن معتبرا المرأة العربية «قصيرة القامة، بيضاء كالحليب، سحننتها سحنة حمل صغير. لا تبدي أي حشمة إلا فيما يخص وجهها. نصادف بنات الشعب ذاهبات إلى العمل محجبات الوجه بكل عناية، غير أن الجسد لا يغطي إلا بغطاء أمامي وآخر خلفي يظهران جانبي جسدها جليا للعيان.»<sup>3</sup> يبدو "موبسان" متأثرا

1. المرجع السابق، ص: 20

2. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، دار ورد للطباعة والنشر، ط1، 2007، ص: 99

3. المرجع نفسه، ص: 87

بجمال المرأة الجزائرية التي أبدع في وصفها إذ يبدو من خلال وصفه للمرأة الجزائرية المسلمة واليهودية أنها مثيلة لشهرزاد الليالي في فنتتها وغوايتها.

ويعزو "غي دو موبسان" بهجة مدينة قسنطينة إلى لطافة شعبها، وفتيات قسنطينة الصغيرات الرائعات، «المبهرجات كأنهن ذاهبات إلى حفل، يرتدين فساتين حريرية زرقاء أو حمراء، ويغطين رؤوسهن بأغطية طويلة ذهبية أو فضية، الحواجب مرسومة ومجرورة مثل قوس العيون، الأظافر مصبوغة، الخدود والجبهة أحيانا منقوشة بنجمة، النظرة جرئية ومثيرة مسبقا، منتبهات لنظرات الإعجاب، يأخذن بيد عربي جسيم خادمهن. يبدن كما لو أنهن ينتمين إلى أمة أسطورية، أمة من سيدات صغيرات ظريفات، لأن لتلك البنات الصغيرات هيئة السيدات، سيدات بزينتهن وتجميل وجوههن منتبهات لغزو القلوب. ينادين بعيونهن مثل الكبيرات، إنهن لطيفات قلقات، مثيرات مثل الوحوش الفاتنة. يمكن القول إنها مدرسة داخلية للخليلات ذوات العشر سنوات وبذرة الحب المتفتحة.»<sup>1</sup> ليدي "موبسان" إعجابه الشديد بالمرأة القسنطينية الجميلة والمثيرة ويصرح من خلال وصفه أنها تنتمي لأمة أسطورية، ويعني بذلك انتماءها للعالم الغرائبي الساحر الذي نقلته ثقافة التراث، وتشكلت منه الصورة النمطية لطبيعة المرأة الشرقية في نظر الآخر الغربي.

بينما ينقل الأسير الألماني "فندلين شلوصر" (Wendelin Schlosser) صورة عن المرأة القبائلية التي تحب التزين هي الأخرى قائلا: «إن النساء يحرصن على نظافتهم وهن يرتدين نفس اللباس الذي ترتديه نساء العرب، إلا أنهن يرتدين زيادة على الحائك قميصا وقندورة صوفية وفي أيديهن وأرجلهن أساور وخلاخيل كبيرة في عرض اليد أحيانا. ويزين رؤوسهن بصفيرتين، مصنوعتين من خيوط صوفية زرقاء، تتدليان من الجانبين، ويثبتن بهما حلقتين فضيتين مرصعتين بالجواهر ومعلقتين فوق الأذنين ويمتزن عن العربيات بجمال الوجه.»<sup>2</sup> ميز الرحالة في هذه الصورة بين تقاليد المرأة العربية والقبائلية في الجمال والزينة حيث عدّ المرأة الجزائرية القبائلية أكثر جمالا مقارنة بالعربية،

1. المرجع السابق، ص: 99

2. فندلين شلوصر، قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837، تر: أبو العيد دودو، وزارة الثقافة الجزائرية، 2007، ص:

مما يجعل من هذه الصورة تعبيراً عن رؤية ذاتية انطلاقاً من خصوصية الذوق الجمالي ومعاييره لدى الرحالة، إذ تعد عناية المرأة الجزائرية بجمال مظهرها أمراً جلياً بغض النظر عن انتمائها العرقي، وقد صرح بذلك قنصل أمريكا في الجزائر "وليام شالر" (William. Shaler) قائلاً: «والمرأة الجزائرية تعني عناية خاصة بشعرها، وكثيراً ينزل شعر امرأة جميلة حتى يصل إلى الأرض. والمرأة الجزائرية لا تقنع بالجمال الطبيعي الذي وهبته الطبيعة لشعرها ولحواجبها، فهي تعمل على صبغهما بالأسود كما تصبغ بطلاء خاص أظافر أصابع أيديهن وكذلك يصبغن بالحناء أكفهن وأقدامهن.»<sup>1</sup> اهتمت المرأة الجزائرية كغيرها من النساء الشرقيات بجمالها، لذلك انبهر بها أغلب الرحالة الأوروبيون لأنهم وجدوا فيها صورة المرأة الشرقية الأسطورية المترسخة في ثقافة الآخر الغربي.

لا تنفي صور الإعجاب بجمال المرأة الجزائرية صور القبح التي نقلها بعض الرحالة مثلما وصفته "إيزابيل إيبهارت" -الغائصة في أعماق الصحراء- حيث ترى الرحالة أن نساء "بوسعادة" لا يتمتعن بالأنوثة، فكل البنات اللواتي رأتهن فقدن جمالهن بسبب الوشم الذي تضعنه بشكل مبالغ فيه حتى صارت وجوههن شاحبة وقاسية، كما ترى "إيزابيل" أن لباس نساء "وادي سوف" أكثر رقة وجمالاً؛ ذلك أن لباس البوسعاديات يصعب ارتداؤه ولا يناسب إلا النساء الطويلات الممشوقات الرشيقات، فهو مصنوع من النسيج الموصل الذي يتخذ كجلباب يوناني مكسو بالجوخ، ومشدود بحزام منخفض جداً.<sup>2</sup> يبدو نفور الرحالة من المرأة البوسعادية الصحراوية بوجهها الشاحب والقاسي، ولعل ذلك يرجع إلى اختلافها الكبير في تقاليد الزينة واللباس عن المرأة الجزائرية غير الصحراوية والمرأة الأوروبية، وهي صورة نابعة من رؤية ذاتية إذ ما رأته في الوشم من قبح قد ينال إعجاب غيرها من الرحالة.

كما يقدم الجغرافي البلجيكي "جيل لوكليرك" الصورة ذاتها عن قبح للمرأة النابلية التي شاهدها ببسكرة قائلاً: «لا يوجد شيء أكثر غرابة من بدلات تلك النابليات: حين التقيناهن لأول مرة في دروب بسكرة انتابنا اندهاش يعجز اللسان عن وصفه: لا يوجد لا

1. وليام شالر. مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824). تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1982، ص:85

2. ينظر إيزابيل إيبهارت، الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال، تر: عبد السلام المودني، ص: 514، 135

بالهند ولا اليابان ولا الصين شيء مماثل في اعتقادي. للرأس خصوصا تأثير بشع قطعاً. شعر أسود رائع باهت الشكل إلى حد كبير، في كل جهة من الوجه عقصة ضخمة تجعل الرأس عريضاً وضخماً، قنات الرأس مغطاة بقطع من الحرير بألوان حادة، ومعجز يتوج كل هذه العظمة. تكمل عدة فساتين، جد واسعة مشدودة بأحزمة ومغطاة بحياك من السب، هذا اللباس المضحك الغريب؛ الأذرع والسيقان والأذان مزينة بكثير من الحلي الفضية التي كان طنينها المخشخش يعلن من بعيد عن وصول أولئك النايلات. أعناقهن محاطة بالعديد من القلادات اللؤلؤية من المرجان والجباه محجوبة تحت صفوف عديدة من السكينات، كانت الوجوه والأيدي موشومة بغرابة برسوم حناء. هذا الصنف لا يذكر بشيء بالمغربيات. يبدو أن أولاد نائل يعودون إلى عرق آخر. أغلب النساء قبيحات تماماً، ولم نر صراحة فيهن جميلات حقيقيات.<sup>1</sup> يبدو أن المرأة الصحراوية لم تنل إعجاب الرحالة الأوروبيين، "فجيل لوكليرك" ينحو منحى "إبيرهارت" التي تصور المرأة الصحراوية في صورة المرأة القبيحة التي تبالغ في تزيين وجهها بالوشم حتى أفقدها الكثير من جمالها. أما هو فاعتبرها تنتمي لعرق آخر، ونفى عنها صفة الجمال كلياً. فقد تكون صور القبح هذه نابعة من رؤية ذاتية تشكلت من خصوصية الذوق الجمالي الخاص بالأوروبيين، أو قد تضمّر نزعة التعالي والفوقية بتمجيد المرأة الأوروبية وتفضيلها عن المرأة العربية والجزائرية خصوصاً.

### 2. صورة المرأة الجزائرية الوفية

يجسد الأسير الألماني "سيمون بفايفر" (Simon-Frédéric Pfeiffer) المرأة الجزائرية في صورة الوفية. حيث يستحضر إحدى القصص التي تروي بوفاء المرأة الجزائرية لزوجها وعدم تخليها عنه في أصعب الظروف، وذلك عقب حديثه عن إحدى النساء-الجميلات- التي توجه لكي يسعفها بعد إصابتها برصاصة أحد الجنود الفرنسيين، وذلك بعد أن «لحقت بزوجها من حبها له إلى أرض المعركة، وكيف أصابت زوجها رصاصة العدو القاتلة، فساعده، زوجته، على الابتعاد عن ضجة المعركة، فأصيبت هي

1. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب والجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر

نفسها برصاصة في ظهرها.<sup>1</sup> تنقل القصة التي سردها "بفايفر" صورة إيجابية عن شجاعة المرأة الجزائرية ووفائها لزوجها.

وليست نساء البغي أقل وطنية وشجاعة من النساء العفيفات المتزوجات، فقد لفت انتباهي في مذكرات "سيمون بفايفر" مشاركة نساء البغي في بعض المعارك التي خاضها الجزائريون ضد الفرنسيين، وفاء لوطنهم حيث يتحدث "بفايفر" عنهن قائلاً: «كانت أغلبهن من اللواتي كن يعشن حياة فاسقة داعرة، وقد أردن الآن التكفير عن ذنوبهن أمام الله والناس، فمضين مسرعات إلى أرض المعركة، وعلى ظهورهن قرب الماء ليطفئن غلة المسلمين المقاتلين، ويمسحن بمناديلهن عرق أجبنتهن، ويثرن فيهم الحماس إلى الاستمرار في القتال، وخوض المعركة بشجاعة وبسالة، إلا أنه كان بينهن نساء وفتيات شريفات، دفعهن حبهن لأبائهن وأزواجهن وخوفهن عليهم إلى اللحاق بهم في أرض المعركة.»<sup>2</sup> لا يمكن إنكار وجود ظاهرة البغاء<sup>3</sup> في الجزائر، فمثل هذه السلوكات السيئة موجودة في مجتمعاتنا وغيرها من المجتمعات الأخرى، غير أن ما يجعل هذه الصورة صورة إيجابية هو تركيزها على الروح الوطنية للمرأة الشرقية ووفائها لوطنها والدفاع عنه بشجاعة من أجل الحرية والحفاظ على انتمائها وهويتها سواء أكانت شريفة أو امرأة بغي، فالمرأة التي تخلت عن عفتها لم تتخل عن وطنيتها كما فعلت بعض نساء اليهود<sup>4</sup> !

1. سيمون بفايفر. مذكرات أولمحة تاريخية عن الجزائر. تر: أبو العبد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،

1974، ص: 94

2. المرجع نفسه، ص: 131

3. لا بد من الإشارة إلى نقطة مهمة وهي تشريع السلطات العثمانية بفتح دور للبغاء يشرف عليها المزوار هذا الشخص الذي يسمح له باستقدام بغايا من كل مكان والتوجه بهن إلى أي مكان من أجل إحياء حفل أو ما شابه ذلك على أن يدفع مقابل نشاطه ضرائب للسلطات العثمانية، وهذا ما يسهم في تهديم قيم المجتمع، كما تجدر الإشارة إلى أن فرنسا سمحت باستمرار دور البغي في العمل بعد بسط نفوذها على الجزائر. ينظر: عبد الحميد الأركش. «البغاء: قطاع هامشي، منظم ومُقتن مؤسّسة "مزوار"». تر: محمد أسليم، موقع: أسليم نت: <http://aslimnet.free.fr/>، 2020.12.26، 19:18 سا.

4. أشارت الكثير من كتب التاريخ والرحلات إلى فرحة الكثير من اليهود بالاحتلال الفرنسي، حيث خرج يهود العاصمة ورددوا "فيفا لا فرنسيس" وأهانوا المسلمين، وهذا ما أثبتته "شلوصر" في رحلته وسنثبته في الفصول اللاحقة.

### 3. صورة الجزائرية الملتزمة

تظهر المرأة الجزائرية في رحلة الأمير "بوكلر موسكاو (Puckler-Muskau)، في صورة المرأة المتدينة والملتزمة بتعاليم دينها، الذي يحثها على وضع الحجاب خارج منزلها، ذلك أن الشريعة الإسلامية «تمنع المرأة من الظهور سافرة وأنه وجد أن هذا المنع مطبق حرفيا في المدن ولكنه غير مطبق في الريف. المرأة في الريف كثيرا ما كانت تظهر سافرة بدون أي خشية وأنها كانت تلبس أقراطا من الفضة وخلاخيل من الفضة أيضا في قدميها العاريتين.»<sup>1</sup> يرى الرحالة أن المرأة في المدينة أكثر التزاما بالحجاب والستر منها في الريف، وهي صورة أقرب إلى الموضوعية؛ ذلك أن المرأة الريفية تتواجد في أمكنة تقل بها الحركة والتجمهر وهي طبيعة الريف الجزائري، مما يجعلها لا تلتزم بالستر، وهذا لا يعني أن كل نساء المدينة ملتزمات، فالإسلام يفرض الحجاب في المدينة والريف وفي كل مكان بما فيه البيت إن صادفت أجنبيا عنها، ولكن الرحالة نقل لنا صور الالتزام والصورة المناقضة لها، فكانت الصورة أكثر موضوعية لأنها تعبر عن واقع المرأة الجزائرية، فدرجات الالتزام بتعاليم الدين لا يمكن حقا أن تكون متساوية عند جميع أفراد المجتمع.

### 4. صورة المرأة الخاضعة والهيمنة الذكورية

أبدى الرحالة الإنجليزي "سيمسون هيلتون" (H.Simson)، اهتماما بالغاً بالحياة الاجتماعية للجزائريين، ما دفعه إلى البحث عن الطريقة المثلى التي تقربه منهم، فسعى إلى إقامة صداقات معهم حتى يتعرف على مختلف العادات والتقاليد والتحقيق في المعتقدات التي تؤمن بها النساء غير أنه فوجئ بغياب النساء عن الحياة العامة قائلا: «النساء يعشن عزلة تشبه السجون، فهن نادرا ما يغادرن منازلهن خاصة إذا كن جميلات، وفي ريعان شبابهن باستثناء القلة اللواتي يغادرن المنزل من أجل جلب قرب الماء أو غسل الملابس في الوديان.»<sup>2</sup> إن ما جاء به "هيلتون" يمكن وصفه

1. أبو القاسم سعد الله. تجارب في الأدب والرحلة. ص: 280

2. M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains. Pp29

بالموضوعي، فالمجتمع الجزائري ظل متمسكا بمجموعة من العادات التي تمنع مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية خارج بيتها. فشان المرأة المسلمة فيه «اختلاط الحقيقة بالخيال، واختلاط الشرع بالعادات والتقاليد: خضم من الاعتقادات الراسخة، مبنية على تصورات وخيالات اختلط فيها الحق بالباطل، اختلاطا طغى فيه على الحق. الصعوبة. تكمن في تلك الموروثات المدفونة في العقل الباطن. والتي تهيمن على تفكير الكثيرين من الرجال والنساء.»<sup>1</sup> لعل المهيم حقا هو الثقافة الذكورية التي تتحكم في سلوكيات وممارسات المرأة الجزائرية والشرقية بصفة عامة، فالمجتمعات الأوروبية الحديثة تحررت من البطيريركية<sup>2</sup> فيما ظلت المجتمعات الشرقية خاضعة لثقافة الذكر التي تمارس الهيمنة والمنع والإقصاء والاختزال، مما كرس فوقية الذكر ودونية المرأة، فالثقافة الذكورية تبيح للمرأة ما لا تبيحه للرجل. لذلك اصطدم الرحالة بصورة مغايرة لما كان متوقعا، فقد تأسست الصورة النمطية المترسخة في أذهان الأوروبيين - منذ العصور الوسطى- عن ثقافة الشرق والعرب والإسلام عن كتابات الرحالة والمستشرقين «فهؤلاء الرحالة وبخاصة من دعموا رؤى عصر الإمبريالية<sup>3</sup>، اكتسبوا في بلادهم أبعادا أسطورية جعلت أي محاولة في الغرب لتكذيب رواياتهم عن الشرق وأهل الشرق إثما وخيانة وطنية.»<sup>4</sup> فشكلت تلك الكتابات صورة الشرق الغرائبي وتجسدت المرأة في هذا العالم في صور كثيرة مضادة للقيم والنظم التي تمثل لها المرأة في المجتمعات العربية كالفتنة والغواية والتحرر. وقد توارث الغرب هذه الأفكار جيلا بعد جيل، ولا يخفى علينا أن الاستعمار قد أسهم في تغذية الكثير من الأفكار والرؤى المشوهة للشرق.

1. محمد خليفة جميل. المرأة المسلمة وأوهام الرجال السلطوية والجنسية. أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2014، ص: 24

2. البطيريركية (Patriarchy): نظام أبوي، وهو تنظيم اجتماعي يتميز بسيادة الأب أو الذكر الأكبر في العشيرة أو الأسرة والتبعية القانونية للزوجات والأبناء؛ يرتكز هذا النظام في الغالب على العادات والتقاليد ويكون للرجال فيه السلطة على النساء. عن ويكيبيديا.

3. الامبريالية الثقافية: تتضمن الامبريالية الثقافية هيمنة ثقافة على أخرى، وعادة ما يتم التفكير فيها على أنها مجموعة من العمليات التي تنطوي على سيطرة دولة واحدة، أو على أنها الهيمنة العالمية للرأسمالية الاستهلاكية، وتؤكد هذه الحجة على فقدان الاستقلالية الثقافية للأمة المهيم عليها... للتوسع ينظر: كريس باركر. معجم الدراسات الثقافية. تر: جمال بلقاسم، ص: 79

4. رنا قباني. أساطير أوروبا عن الشرق لفق تسد. تر: صباح قباني، ص: 11

يستمر الاثنوغرافي الإنجليزي "هيلتون" في سرد قصة أحد سكان المنطقة الذي قام بـ «كسر ذراع أخته لمجرد أنها اختلست النظر من الباب ونظرت إلى رجل غريب».<sup>1</sup> نقل لنا الرحالة صورة واقعية تعكس خضوع المرأة الجزائرية لسلطة الذكر. وقد أشار الرحالة "شلوصر" أيضا حين روى قصة الرجل الذي فضل أن تموت زوجته على أن يكشف عنها الطبيب، معتبرا إياه رجلا أجنبيا لا يسمح له بعلاج زوجته. فالثقافة الذكورية تفرض هيمنتها بصورة طوعية أو قسرية على الأنثى في المجتمعات الشرقية بل وتمارس القمع والاستبعاد لتكرس فوقية الذكر ودونية الأنثى. وبالتالي فالصورة التي نقلها الرحالة تعكس واقع المرأة في المجتمع الجزائري كمجتمع ذكوري السلطة فيه للذكر الذي تبيح له الثقافة والعادات والتقاليد مالا تبيحه للأنثى.

وينقل الرحالة الإنجليزي "هيلتون" صورة موضوعية أخرى عن قضية الهيمنة الذكورية والاحتفاء بالذكر دون الأنثى من خلال وصفه لأجواء الاحتفالات بازدياد مولود جديد -الذكر على وجه الخصوص- قائلا: «من السهولة أن تتجب المرأة دون الحاجة إلى وجود الأطباء الشاويين، يتم الاحتفال بهذه المناسبة بالكثير من الغناء، الرقص، الوليمة، وغيرها من التبجيل خاصة إذا كان المولود ذكرا، ولكن يتم تمريرها في صمت كبير من جانب الزوج إذا كانت أنثى!»<sup>2</sup> إن الاحتفال بالمولود الجديد الذكر دون الأنثى واحدة من العادات الشرقية الراسخة في ذهن الجمعي العربي كرستها الثقافة الذكورية، فالمجتمع العربي مجتمع ذكوري، وهذا ما يجعل من ميلاد الأنثى مناسبة للحزن وليس للفرح، ففي الجاهلية -كما هو معلوم- كانت الأنثى تدفن حية تجنبا للعار والفضيحة! فهذه الأفكار لا تزال عالقة في أذهان بعض المجتمعات، ولكن ليس إلى حد الوأد وإنما بالتعبير عن الغضب وعدم الاعتراف بالمولودة. وقد يصل الأمر إلى تطليق الزوجة باعتبارها السبب الرئيس وراء هذه الفضيحة!

بينما يفضل الرحالة الألماني "فيلهلم شيمبر" (Wilhelm-Schimper) الخوض في تفاصيل الأسر الذي تعيشه المرأة الجزائرية التي لا تختلف -حسبه- عن السجين؛ لأنها

1 .M.W.Hilton-Simson .Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains .Pp: 34

2. المرجع نفسه، ص: 220

فقدت حريتها بسبب التقاليد التي يؤمن بها سكان البلد لا بسبب غيره زوجها عليها قائلاً: «إن المرأة تعيش كالسجينة تقريبا، وليس مرد ذلك إلى غيره زوجها، وإنما مرده إلى العادة المتبعة. فالرجل الجزائري ليس غيورا جدا، بل هو في غيرته لا يختلف عن أي إنسان ينتمي إلى شعب آخر، وإن هو وجد رجلا في بيته، فإن تصرفه في هذه الحالة لن يختلف عن تصرف رجل ألماني مثلا!»<sup>1</sup> إن مانقلته هذه الصورة بوصف المرأة بالسجينة أمر مبالغ فيه، فلا ننفي الحرية المحدودة للمرأة الجزائرية التي تضمخضوع المرأة لنسق القيم المتحكم في المجتمع، وكذلك غيره الرجل على زوجته فهي نابعة من انتمائه الشرقي وتحكم الثقافة الشرقية في صياغة خطابه وتوجيه ممارساته. تبدو هذه الصورة إذن واقعية بالنظر إلى عادات وتقاليد المجتمع الجزائري الذي تحكمه الثقافة الذكورية بعاداتها وتقاليدها وإن كان قد تلاشى جلها في العصر الحالي وتحررت المرأة الجزائرية نسبيا من الأعراف والقوانين السائدة.

إن الأسر الذي تعيشه المرأة الجزائرية في بيتها حسب "شيمبر" تحدث عنه القنصل الأمريكي "وليام شالر" أيضا في فترة تواجده بالجزائر قائلاً: «وأما النساء، فإن وسيلة التسلية الوحيدة التي في متناولهن، هي تلك اللقاءات التي تقع في الحمام العمومي أو الزيارات المتبادلة... والإقامة في الريف لا تمثل أية فائدة بالنسبة إليهن، فيما عدا التمتع بالهواء النقي، لأن العادة تلزمهن، هناك أيضا البقاء بين جدران المنزل الأربعة، مثلما هي بالحالة في المدينة.»<sup>2</sup> إن الصور التي نقلها الرحالة الأوروبيون عن حرية المرأة المحدودة والتي وصفها أغلبهم بالسجينة نابعة من مقارنتها بالمرأة الأوروبية المتحررة، فالمجتمع الجزائري تحكمه مجموعة من الضوابط الاجتماعية والثقافية والدينية التي تفرض نمطا معيناً للحياة ويختلف كثيرا عن طبيعة الحياة في المجتمع الأوروبي الذي يبدو متفتحا كثيرا مقارنة بالمجتمع الجزائري.

لا يخرج الرحالة الإنجليزي "ليدر" عما أشار إليه من سبقه من الرحالة حول موضوع غياب المرأة الجزائرية -البسكرية- عن الحياة الاجتماعية قائلاً: سوف يلاحظ

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855). ص: 13

2. وليام شالر. مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824). تر: إسماعيل العربي، ص: 88، 89

القراء أنه حتى هذه النقطة أننا نادرا ما نذكر نساء العرب. والحقيقة هي أنه خلال الأسابيع الأولى من إقامتنا في بسكرة لم نر أي امرأة، باستثناء بعض الراقصات من أولاد نايل،... وهذا ما خلق لدينا فضولا كبيرا بشأن طبيعة الحياة الخفية التي تعيشها نساء العرب، فقد تم تحذيرنا أيضا بأنه لا يجوز أن نسأل أي شخص عن نسائه، وهذا ما جعل معلوماتنا عن الحياة المنزلية للعرب فقيرة نوعا ما.<sup>1</sup> ينقل لنا هذا الخطاب صورة واقعية تعكس ثقافة الحريم المندسة في اللاوعي الجمعي للمجتمع الجزائري على غرار المجتمعات العربية الأخرى، إذ تعد المرأة من خصوصيات الزوج أو سيد العائلة ولا يجوز السؤال عنها خاصة إن كان من طرف أجنبي؛ تماما كما كانت الجواري في قصور هارون الرشيد والعثمانيين، فعالم الحريم لا يعرف خباياه إلا السلطان.

يقر الرسام الفرنسي "ليسور" (Émile-Aubert Lessore) وصديقه الإنجليزي "ويلد" (William Wyld) أنهما لم يستطعا رؤية المرأة المغربية والجزائرية ولم تفلح في ذلك سوى نساء الأوروبيات وهذا ينقل لنا صورة عن هيمنة الثقافة الذكورية وثقافة الحريم على المجتمع الجزائري والمغربي بصفة عامة فضلا عن بعض القيم المتعلقة بالدين والتي تمنع الاختلاط ولقاء المرأة بأجنبي عنها فالمرأة الجزائرية كما صورها الرحالة - وهي صورة واقعية - «محبوبة عندما يبرزن أمام الجمهور، أو أمام أجنبي. والنساء الأوروبيات وحدهن تمكن إلى الآن من رؤيتهن والحكم في شأن جمالهن. وهكذا علمنا أنه لا يوجد بين النساء المغربيات المخفية عن أعيننا وراء حجاب مكثف بالأسرار إلا عدد قليل يتمتعن بجمال رائع. إلا أن هذا الجمال ليس مدعما بمحاسن اللياقة والآداب من ناحية الثقافة من ناحية أخرى، والأمية التي ينشأ فيها تبقي النساء في حالة هوان يرثى لها.»<sup>2</sup> إن ما أورده الرسامان لا يخرج عما جاء به الرحالة السابقون لكن "ليسور" وصديقه يؤكدان على هيمنة السلطة الذكورية في المجتمع الجزائري مما أثر سلبا على مكانتها الاجتماعية والثقافية، ففي كثير من الأحيان كانت تحرم من التعليم - آنذاك - وهذا ما دفع بالرحالة إلى وصفها بالفائدة لقواعد الآداب والثقافة.

1 .S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 67

2. أ. ليسور، و. ويلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر، ترجمة: محمد جيجلي، شركة دار الأمة، الجزائر، 2001، اللوحة: 25

## 5. صورة المرأة الأمازيغية المتحررة

يرى الإنجليزي "هيلتون سيمسون" أن المرأة البربرية (الشاوية) أكثر تفتحا مقارنة مع نظيرتها العربية التي تعيش في القنطرة قائلا: «الفرق شاسع في "بني فرح" حيث تجلس النساء في كل مكان في الشوارع، على الأسطح، بل حتى خارج منازلهن دون أن يكلفن أنفسهن عناء الاختباء فعلى الرغم من اعتناق البربر الإسلام إلا أن نسائهم يتمتعن بحرية غير معروفة عند جيرانهم العرب، حتى أننا نستطيع أن نتحدث إليهن ونشاهدن يؤدين مختلف الأعمال اليومية على غرار صنع الفخار.»<sup>1</sup> إن ما أورده الرحالة حول المرأة الجزائرية يوحى بالتنوع الثقافي والإيديولوجي في المجتمع الجزائري، فحرمانها من المشاركة في الحياة الاجتماعية خارج البيت في الجنوب لم يمسهما في منطقة الأوراس، فالرحالة يعتبر البربر أقل صرامة بكثير في معاملة نساءهم مقارنة بالعرب. وهذا ما يمكن وصفه بنوع من التفتح مثلما أشار الرحالة، ثم إن المرأة الأمازيغية كانت منذ القديم تشارك الرجل في كل شيء وتتمتع بحرية كبيرة، بل إنها كانت تحكم أيضا على غرار ملكة البربر "ديهيا"، لذلك يمكن وصف الحضور النسوي في حياة الحياة الاجتماعية في منطقة الأوراس بالامتداد التاريخي والثقافي للمنطقة أو نوعا من التمرد على الهيمنة الذكورية.

كما يصور البلجيكي "جيل لوكليرك" المرأة القبائلية في صورة المتحررة مقارنة بنساء العرب «اللواتي تبقين مخفيات لدى المغاربة، يظهرن هنا بكل حرية، وتبدين أنهن متلهفات أكثر من الرجال لأن تحظين برؤية الروميين: ولا تعبان بأي طريقة بحجب وجوههن، وعلى عكس المغربيات، وهن شبه عاريات؛ جلابيبن، المطابقة لجلابيب الرجال، انكفى على الظهر وعلى الصدر وتترك الخواصر عارية حتى الحزام؛ تلفن رؤسهن بمدراس قطني، وغالبا من حرير. آذانهن مثقوبة من أعلى يثبتن بها أقراطا كبيرة. حين تحملن على رؤسهن واحدا من تلك الأواني القبائلية التي يذكر شكلها بالجرار الرومانية، تبسطن ببشاشة سواعدهن العارية رافعات مرافقهن نحو السماء. وتبدين في هذا

1 .M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains .Pp:40

الوضع الكلاسيكي جميلات المنظر بأعينهن السوداء الواسعة المشعة، وقوامهن الرشيق ومشيتهن السلسة.<sup>1</sup> إن المقارنة التي عقدها الرحالة بين المرأة العربية والأمازيغية متمثلة في القبائلية يوحي باختلاف العادات والتقاليد بين الأعراق الموجودة في الجزائر، فالبربر يظهرون في صورة المتفتح مقارنة بالبدو، يؤكد على انفتاح المجتمعات الأمازيغية مقارنة مع المجتمعات العربية، ويوحي بتحرر المرأة وخروجها عن السلطة الذكورية في مثل هذه المناطق من البلد.

### 6. صورة المرأة المهمشة اجتماعيا

يقدم الأسير الألماني "فندلين شلوصر" صورة واقعية عن المرأة المهمشة اجتماعيا من خلال الحياة البسيطة التي تحياها في الريف، إذ تقوم بالكثير من الأعمال اليومية الكثيرة والشاقة، هذه الأعمال تستدعي في نظر الرحالة مساعدة. ففي الوقت الذي ينعم فيه الزوج بالراحة تنهض النسوة مع الفجر، فتقوم «بطلب الأبقار والأغنام، ثم تأخذ واحدة في مخض الحليب، بينما تنظم أخرى الخيمة، والباقيات يسقن الماشية إلى الرعيان، وتتم تهيئة الزبدة... وهكذا تتشأ الزبدة بعد مدة قصيرة والقرية ليست نظيفة تماما، وكذلك اللبن لأن شعر الماعز يوسخها ولكن العربي لا يقرف، فهو قليل النظافة، ويأكل الزبدة أو يبيعهها. وبعد ذلك تجلس امرأتان خلف المنسج، لتتسجا ألبسة للرجل ولأنفسهما وللأطفال، وينتصب المنسج... وتتسج القماش الذي تصنع منه الخيام وهناك أخريات يهيئن الفطور للرجل والأسرة كلها وبعد ذلك تهتم اثنتان بتهيئة الكسكسي وتأخذ الأخريات المطحنة ويطحن الدقيق اللازم، وفي حوالي الرابعة مساء تذهب اثنتان لجلب الحطب، الذي قلما تعثران عليه يكتفين بالبر فيضعنه في الشمس ليصبح صالحا للاستعمال. وتهتم المرأة بتقيد الماشية وربطها وحلبها، بينما تغزل أخرى الصوف.<sup>2</sup> إن صورة التهميش التي نقلها الرحالة "شلوصر" حول يوميات المرأة البدوية القاسية لا تزال قائمة إلى يومنا هذا في المناطق الريفية التي تكون فيها المرأة بمثابة العمود الفقري للبيت مما أسس لمجتمع

1. جبل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب والجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر

لكنيزي، ص: 178

2. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 93

أميسي في كثير من المناطق الجزائرية، فهذه الأعمال الشاقة تقوم بها المرأة البدوية دون تضرر وهذا لا ينقص من قيمتها شيء بقدر ما يزيد منها، فالتأمل في هذه الأعمال الكثيرة التي تتم بطرق بدائية يدرك حتما حجم قوة وصبر نساء البدو على الظروف الصعبة التي تتسم بها حياتهن.

بينما يختم الرحالة الإنجليزي "هيلتون" زيارته إلى القنطرة بحديثه عن أبرز العادات والتقاليد وكذا يوميات نساء العرب من نسيج وغزل للصوف وكيفية التداوي من لسعات العقارب، والأدوية الشعبية التي توصف لمختلف الأمراض خاصة وأن الرحالة قد جاء في بعثة علمية وكان يسعى جاهدا إلى التعرف على كل تفاصيل المناطق التي يزورها.<sup>1</sup>

كما ينقل لنا "موبسان" صور تهيمش المرأة الجزائرية وهي تكابد مشاق الحياة والأعمال اليومية التي أخذت الكثير من جمالها وشبابها، فالفتيات اللواتي شاهدين في المدن الجنوبية كُنَّ «في الخامسة عشرة، بأئسات، من شأنهن أن يكن جميلات، لقد انهارت أجسادهن وتعبن بسبب المهام الشاقة. إنهن يكافحن من الصباح إلى المساء كل الصعاب، تبحثن عن الماء عدة كيلومترات وهن يحملن أطفالا على ظهورهن. لقد أصبحن في سن الخامسة والعشرين بسبب التعب. قد يرى المرء في وجوههن أحيانا وشما على شكل نجمة زرقاء في الجبين والخددين والذقن. والجسم تم حلقه وفق مقاييس النظافة إنه من النادر جدا أن ترى نساء الأغنياء العرب.»<sup>2</sup> يبدو أن المعاناة التي حلت بالجزائريين لم تستثن أحدا، فحتى الفتيات الصغيرات كن تكافحن من أجل العيش، فالظروف كانت صعبة للغاية، فكيف تحافظ الفتاة على جمالها وأنوثتها وهي تصطدم بالتهيمش والفقر وتقطع مسافات طويلة بحثا عن الماء؟ يتساءل "موبسان" ثم إن المعاناة قد زادت من أعمارهن وهذا ما منعهن من الاستمتاع بطفولتهن كغيرهن من الإناث في

1 .M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains. Pp: 38

2 .Guy de Maupassant .au soleil 1884. Pp:100

العالم. ومع ذلك يمكن وصف المرأة الجزائرية بالمكافحة المتحدية للفقر والحرمان والاستعمار في آن واحد.

يمكن القول من كل ما سبق إن النصوص الرحلية -موضوع الدراسة- قد نقلت لنا صورة المرأة الجزائرية في جمالها وقبحها ووفائها وفي خضوعها للثقافة الذكورية السائدة في المجتمع الجزائري أو تحررها منها، فضلا عن حالات تهमيشها اجتماعيا. كل تلك الصور كانت صورا واقعية إلى أبعد حد، لكن هذا لا يلغي تحكم بعض المرجعيات الثقافية في تصوير المرأة الجزائرية؛ كذلك الصور النمطية التي رسختها الثقافة في أذهان الرحالة عن المرأة الجزائرية والشرقية بصفة عامة، فضلا عن كون الرحالة الأوروبي ينظر إلى المرأة الجزائرية وفق رؤية مقارنة بينها وبين المرأة الأوروبية متناسيا الخصوصيات الثقافية لكل مجتمع، فكثيرا ما كانت تلك الصور تضرر السخرية من واقع المرأة الجزائرية، لعل ذلك مرده نزعة التعالي والوقوية التي تميز الأوربي.

### ثالثا: صورة الجزائري أخلاقيا

ساهمت كتابات الرحالة الأوربيين في الكشف عن الحياة الاجتماعية للآخر الجزائري. خاصة ما تعلق بجانب المعاملات الذي يخضع أساسا إلى عوامل عدة لعل أهمها الجانب الأخلاقي، حيث كشفت نصوص الرحالة- نماذج الدراسة- عن جملة من الأخلاق والقيم السائدة في المجتمع الجزائري الإيجابية منها والسلبية، ولعل أهم هذه السلوكات والقيم التي توحى بتخلق الآخر الجزائري الصور الآتية:

#### 1. صورة الجزائري المتخلق

##### 1.1. صورة الجزائري الملتمزم

تصور "إيزابيل" سكان الجنوب في صورة إيجابية، حيث تصفهم بالطيبين وذوي أخلاق حسنة، معتبرة سكان بوسعادة -كغيرهم من سكان الجنوب- شعباً «شديد التعلق بالتقاليد القيمة والسلوكات القديمة... كلما ابتعد عن المدن الكبرى الفاسدة.»<sup>1</sup> يبدو أنّ الصورة التي نقلتها الرحالة موضوعية إذا تعلق بالتمزم الجزائري أخلاقيا في القرى والأرياف

1. إيزابيل إبيهرارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام

أكثر من المدن الكبرى التي تتنوع فيها الأجناس خاصة الاختلاط مع المعمرين، إذ تحمّل "إيزابيل إيبهرارت" الأوروبيين انتشار بعض السلوكات السيئة في المجتمع الجزائري. ومع ذلك لا يجب الانسياق وراء رأي "إيبهرارت" حتى لا نغرق في النمطية المتوارثة في الثقافة العربية عن الآخر الأوروبي الذي يصور على أنه منحل ماديا وذو حضارة مزيفة.<sup>1</sup> وفي سياق مقارنة "إيزابيل إيبهرارت" بين أخلاق سكان التلال وأخلاق سكان الوادي نلمس إعجاب "إيبهرارت" الشديد بأخلاق سكان المدن الجنوبية مقارنة بسكان المدن الشمالية الذين ترى أنهم تأثروا بأخلاق الأوروبيين، ففي مدينة الوادي تقول الرحالة أنه «لا وجود أبدا لتلك الكائنات الصاخبة نتاج الزنا والانحلال والعرق الهجين من الجوالين والباعة المتنقلين والحمالين والشعب القذر والدنيء من أولاد الأبالسة.»<sup>2</sup> إن المدن الجنوبية ظلت تحافظ على عراقتها وأصالتها كما حافظ سكانها أيضا على أخلاقهم الطيبة، ولم يسمحوا للفرنسيين أن يؤثروا فيهم. ولكنها تبقى صورة غير شاملة وإن كانت إيجابية، فسكان الشمال تأثروا بالوجود الفرنسي، وقد كان سبب ذلك؛ إحساس الآخر الجزائري بالضعف أمام الأنا الفرنسي، معتقدا أن تقليدهم سيلحقه بالركب الحضاري، مما يوحي بذويان الآخر الجزائري المستعمر في الأنا الفرنسية المستعمرة، وتشظي هوية<sup>3</sup> سكان هذه المناطق.. لذلك فالصورة التي نقلتها "إيبهرارت" تتضمن حكما نسبيا بعيدا عن الموضوعية والدقة.

كما ينقل لنا الضابط الفرنسي "دومينيك فارال" صورة من صور الالتزام الأخلاقي من خلال التمسك بمبادئ الدين الإسلامي والتي تحت على تعفف المرأة وبالتالي فقد صورت الرحالة الرجل الجزائري في صورة الحريص على «صون عفة زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم وأمهاتهم. ففي بعض المناطق يتم حبس النساء داخل البيوت ويمنعن من مقابلة

1. ينظر: حسين العودات. الآخر في الثقافة العربية: من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين. دار الساقى،

بيروت، ط1، 2010، ص: 243

2. إيزابيل إيبهرارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويومييات). تر: عبد السلام

المودني، ص: 49

3. مهما تأثر الجزائري بالوجود الفرنسي، فسيظل هذا التأثير قاصرا على اختراق مكونات هويته، ففرنسا استنفذت كل الجهود والطرق من أجل طمس هوية الآخر الجزائري على مدى قرن وربع قرن دون نتائج إيجابية ملموسة على الأرض.

الضيوف، وكن يخرجن في بعض الأحيان مرتديات حجابا ساترا لا يترك فيه سوى ثقب واحد أمام إحدى العينين لتمكينهن من رؤية الطريق أمام أقدامهن، أما في المناطق التي يقطنها البربر، فكانت النساء يتمتعن بحرية أوسع ولم يكن على العموم يرتدين الحجاب ورغم ذلك فإن المسلمين بما فيهم الأكثر تحررا كانوا يرفضون أن يشاهد المارة شعر زوجاتهم أو أرجلهن وهذا سبب تغطية رؤوسهن بوشاح وارتدائهن فساتين طويلة تشبه في بعض الأحيان البزة الرسمية.<sup>1</sup> إن ما جاء به الضابط الفرنسي يحسب للجزائريين، فحرصه على صون عفة زوجته دفعه إلى فرض الحجاب عليها خاصة وأن هذه العادة قد رسمها الدين الإسلامي بحثه على عفة وسترة المرأة، أما عن المناطق التي تخرج فيها النساء دون حجاب، فإن ذلك يعود إلى عاداتهم ومع ذلك يجب القول أنه مهما كان المسلم متحررا، فإن هذا لا يلغي أبدا غيرته على النساء وحرصه الدائم على صون عفة وشرف أهل بيته.

في المقابل يرى "شلوصر" أن الرجل القبائلي لا يغار على زوجته عندما ينظر رجل آخر إليها أو يخاطبها، وأنهم يهتمون كثيرا بتربية أبنائهم وتعليمهم الدين والقراءة والكتابة في المدارس التي يشرف عليها المرابطون. فضلا عن تعليمهم مختلف الصناعات اليدوية حتى أن كثيرا منهم يرسلون إلى قسنطينة أو تونس من أجل التعلم..<sup>2</sup> وهذا ما نعتبره تعميما في إبداء الرأي فيما يخص القبائلي، فدرجات الالتزام بأخلاقيات الدين تختلف من فرد لآخر في أي مجتمع.

كما يجسد "فاغندر" صورة الجزائري الملتزم بحدود الحرية المتاحة، فهو الصارم الذي يسعى إلى بالانضباط لتنظيم حياته داخل مجتمعه قائلا: «إن مفهوم الحرية عند الجزائريين لا يصل إلى الحد الذي تصبح فيه الفوضى عملا مباحا والجريمة شيئا لا يتطلب العقاب. فالقبائل لم لتلتفت حول الأمير عبد القادر لو لم يقض على الفوضى التي عمت في الجزائر بعد سقوط الحكم التركي... وعلى هذه الصورة انتشرت رقعة سيادة

1. دومينيك فارال. معركة جبال النمامشة 1954 - 1962. تر: مسعود حاج مسعود، ص: 191

2. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو. ص: 100

الأمير عبد القادر وتمت له الغلبة!«<sup>1</sup> يجسد قول "فاغنر" صورة إيجابية عن الجزائري من خلال إدراكه حدود حرته، فهو يرفض الإفراط في الحرية حد الفوضى مما يعكر صفو حياته ويسبب انتشار الجرائم والتعدي على حدود وحقوق الآخرين، ويضرب "فاغنر" مثالا بالقبائل التي التفت حول الأمير "عبد القادر" الذي آمن بالنظام وطبقه في دولته. وتجدر الإشارة إلى أن المجتمع الجزائري كان قبلها لذلك وجد في الأمير عبد القادر صفة القائد الذي بإمكانه تسيير شؤونهم.

### 2.1. صورة الجزائري الكريم (المضيف)

يصف الرحالة الفرنسي "ألفونس دوديه" (Alphonse Daudet) الجزائري بالإنسان الكريم، إذ ينقل جانبا من السلوكيات التي تعكس سمو ورفعة أخلاق الجزائريين ليحدثنا هذه المرة بنوع من الإيجابية عن صفة الكرم والجود التي تميز الشعب الجزائري قائلا: «كان هذا المحل الذي يطلقون عليه اسم "مقهى" شبيها بصالونات الاستقبال في منازل الكبراء العرب، فهو بيت في داخل بيت مخصص للضيوف والسابلة، حيث يقوم فيه هؤلاء المسلمون الخيرون المهذبون الشديديا الحفاوة بواجب الضيافة المقدس، مع الحفاظ في نفس الوقت حرمة الحياة العائلية الخاصة التي يوصي بها الدين.»<sup>2</sup> تجسد هذه الصورة تمثيلا موضوعيا لواقع الجزائري والصفات الملازمة له وللعربي بصفة عامة، فالعربي مضيف بطبعه، إذ لا يتوانى أبدا في الترحيب بضيوفه، وإكرامهم حتى تكتمل سمات الشخصية العربية الإسلامية.

كما تنقل "إيزابيل إيبهارت" صورة إيجابية أخرى وتعبّر عن أعجابها بمسارعة الجزائري إلى الخيرات وهي تنقل مشاهد متكررة ليوم الجمعة، حيث لفت انتباه الرحالة «رجل يرتدي قميصا أبيض، وقد تمنطق بحبل عادي، ورأسه عار، وكان يحمل سطل ماء بارد وكأسا من الطين، أخذ يقدم الماء للشيوخ المسنين والمرضى. وهذا إحسان

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 37.

2. أحمد منور. الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر. ص: 81.

يفرض نفسه هناك كل جمعة.<sup>1</sup> لقد تعود المسلم اغتنام فرصة قدوم يوم الجمعة -الذي يعتبر عيدا أسبوعيا ومناسبة دينية تجمع بين المسلمين- للقيام بمختلف الأعمال الخيرية من تصدق على الفقراء وتوزيع للطعام والشراب بدافع التقرب من الله تعالى.

يقدم الأديب الفرنسي "غي دو موبسان" صورة حية عن كيفية استقبال البدو لضيوفهم، وقد سمحت الدعوة التي تلقاها "موبسان" بالتعرف على بعض عادات وتقاليد البدو، حيث أبدى الرحالة افتتانه بذوق القهوة التي يحضرها البدو في خيامهم المتواضعة، قائلا: «ما إن يجلس الضيوف أو بالأحرى يستلقون يقوم القائد بإحضار القهوة. هذه القهوة لذيدة، مع أن طريقة تحضيرها بسيطة...»<sup>2</sup> لا يتوقف "موبسان" عند لذة القهوة التي أعدها البدو الذين استضافوه في خيمتهم بل راح يسترسل في وصفه لأهم الأطباق التي يحضرها البدو لاستقبال ضيوفهم، والتي يصل عددها إلى خمسة أطباق تقدم بطريقة مرتبة حيث يقدم في البداية الخروف المشوي في الهواء الطلق، والعصيدة بالشعيرية والحميص المحضر بالدجاج أو لحم الخروف، وطبق الكسكس. ويختم "موبسان" كلامه عن طعام العرب مشيرا إلى التحلية التي يمكن أن يقدمها المضيف لضيوفه وهي عبارة عن حلوة بالعسل وعادة ما تكون لذيدة جدا. كما يشير "موبسان" أيضا إلى بعض عبارات التهئة بعد الانتهاء من الأكل.<sup>3</sup>

وينقل الاثنوغرافي الإنجليزي "هيلتون سيمبسون" بعض الصور التي توحى بكرم وحسن ضيافة الجزائري ممثلا في الشاوي، مشيرا إلى الدعوات الكثيرة التي كان يتلقاها من الشاوية من أجل تناول الطعام عندهم وقد ساهمت هذه الدعوات في تعرف الرحالة على أبرز وأشهر الأطباق التي يقدمها الشاوية لضيوفهم. إذ يشير الرحالة إلى بعض الأطباق التي حظي بها بعد استضافته من قبل أحد العرب قائلا: «يقدم في البداية مرق من لحم الضأن والماعز أو الدجاج ويتميز بنكهة الفلفل الأحمر، ويقدم مع الحساء أرغفة وغالبا ما تبع المرق بحساء الفواكه المجففة - مشمش أو برقوق- المطبوخة باللحم

1. إيزابيل إيبرهارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام المودني، ص: 296

2. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 67

3. ينظر: المرجع نفسه، ص: 68، 69

وهذا الحساء عادة ما يكون لذيذا ومستساغا. كما يقدم الكسكس أيضا بعد الانتهاء من الطبق الأول.<sup>1</sup> انطلاقا مما جاء به الرحالة يمكن القول؛ إن هذه النصوص ساهمت في رسم صورة واضحة عن كرم الجزائري وعيائته بضيوفه بغض النظر عن جنسهم ودينهم، بالإضافة إلى مساهمتها في التعريف بعادات وتقاليد الجزائريين لدى الأنا الأوروبية.

بينما يصف البلجيكي "جيل لوكليرك" طريقة استقبال الجزائريين الضيوف بتقديم أشهر أطباقهم التقليدية المعروفة قائلا: «لكن ها هو ما حملته الضيافة التقليدية أو وجبة الضيوف. كانت تتكون من هرم من الكسكس متكس فوق قطعة خشب ضخمة يبلغ قطرها ثلاثة أقدام: في قمة الهرم وضع سكر أحمر، وفي أماكن مختلف كانت تبدو قطع مرققة من لحم الخروف.»<sup>2</sup> تأسيسا على العدد المتواضع من الرحلات التي اطلعت عليها يمكنني القول؛ إن أغلب هذه الرحلات تصف الجزائري بحسن الضيافة والكرم خاصة مع عابري السيل، وهذا ما اعتبره امتدادا لما هو سائد في الشرق - فما إن يستقبل الجزائري ضيفه حتى يكرمه بما لذ وطاب من الأطباق المتنوعة والتي لا يمكن تصورها دون طبق الكسكسي الذي يعد من أشهر الأطباق التقليدية التي تعرف بها دول المغرب العربي.

كما يصور "ليدر" مواقف إيجابية عن كرم العربي وحسن ضيافته ومعاملته للأوروبي، بدأ ذلك جليا في حجم السعادة التي شعر بها بعد أن حظي بدعوة من أم صديقه "الطيب" وقد شعر بفخر كبير لأنها مناسبة للتعرف على البيت العربي من الداخل خاصة ما تعلق بالمرأة العربية الغائبة عن الحياة الاجتماعية قائلا: «جاءت والدة الطيب وكان من السهل رؤية روحها المبتهجة، استقبلتنا بعبارات الترحيب التي ترجمها لنا الطيب إلى الفرنسية... لقد سمعنا الكثير من الضيافة العربية، الحقيقة التي كنا نثبتها بالكامل خلال إقامتنا في بسكرة. في هذا البيت الفقير.»<sup>3</sup> تأسيسا على ما جاء به الرحالة يمكن الجزم أن الفقر لم يمنع أم "علي" من استقبال وإكرام صديقه الإنجليزي "ليدر" الذي لم

1.M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains. Pp: 49

2. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر لكنيزي، ص: 181

3. S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 69 ،70

يتردد في إخفاء إعجابه الشديد وارتياحه لسكان مدينة بسكرة في المقابل يرى الرحالة أنه لا يستطيع أن يشعر بأنه ساهم بشيء ما من أجل إسعادهم.<sup>1</sup> فقد وصف الإقامة بينهم بالسعيدة والرائعة خاصة وأنهم رحبوا به كثيرا، وقدموا له الكثير من الدعوات.

### 3.1. صورة الجزائري الهادئ والشاعري

تقدّم "إيزابيل إيبهرارت" صورة إيجابية عن الجزائري من خلال إعجابها بكل «تلك الأحاديث الهادئة والخفية والمهذبة - والتي تساعد على قضاء النهارات الطويلة والمتشابهة دوما في كل مكان - لم تمس بالحركة الأوروبية الهدامة.»<sup>2</sup> لا نشك في ما جاءت به "إيزابيل"، فسكان الصحراء مشهود لهم بالهدوء والثبات إلى يومنا هذا الشيء الذي نكاد نفتقده في المدن الكبرى التي يكثر فيها الاختلاط. وهي إذ تنتقل هذه الصورة الإيجابية تحاول التكيف مع سلوكات الجزائري اليومية وطباعه إذ ترى أنه «... ينبغي اقتحام أفكارهم، وجعلها أفكارا خاصة بك وتطهيرها وإعادةها إلى منبعها القديم... قلة الكلام، والإنصات كثيرا، وعدم الاستسلام، هي القوانين التي يلزم إتباعها لحيازة الرضى في أوساط عرب الجنوب حتى يكون المرء على سجيته فيها.»<sup>3</sup> تجسد هذه الصورة إذن ثبات الجزائري وهدوءه بل وحكمته من خلال انصاته أكثر من كلامه. وينبغي الإشارة إلى أن الرحالة "إيزابيل" حاولت - بحكم غربتها - التعايش مع سكان الجنوب الجزائري وفق النمط الذي جبلوا عليه.

لم تغفل الرحالة "إيزابيل إيبهرارت" عن نقل صور الحب وقصصه الشعرية التي ينسجها البدو في أرض الجنوب الوهراني، إذ تصفها بالأرض الخشنة التي تخلو من الابتسامة لكثرة النهب، واستعمال البارود من قبل رجال البدو الخشان الذين لم يتمكنوا من إخفاء رومانسياتهم، حيث تتحدث "إيزابيل" عنهم قائلة: «وليست قصص حب البدو بالقصص العادية، وإنما وضعت لكي تضيء على خشونة حياة الرعاة بعض اللمسات

1. المرجع السابق، ص: 18

2. إيزابيل إيبهرارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام المودني، ص: 13

3. المرجع نفسه، ص: 137

الرومانسية، والتي تترك فيما بعد بصمات على كل المظهر الأخلاقي للبدو وعلى شخصياتهم وسلوكاتهم.<sup>1</sup> لا يمكن لأي كان أن ينكر أهمية الحب في حياة الإنسان بغض النظر عن طبيعته، فهو بمثابة الطاقة التي يحيا بها. فالعيش في بيئة صحراوية قاسية لم يكن عائقا أبدا في كبح جماح الحب الإنساني الذي يهذب النفس، ويلين القلب، ويسمو بروح الإنسان البدوي، فيدرك معاني الجمال في الحياة. فهذه الصورة التي نعتبرها موضوعية إلى حد بعيد وهي تنفيذ للرأي الشائع الذي يصف الشرقيين بعديمي الإحساس وغيرها من الصفات التي تسيء لعواطف الرجل الشرقي ونظرته للحب.

لا تكتفي "إيزابيل" بالحديث عن الصورة الإيجابية للحب البدوي وإنما راحت تنتقد موقف الفرنسيين من البدو، حيث ظل الفرنسيون كغيرهم من الأوروبيين المتأثرين بالأفكار والقوالب الجاهزة يرددون عبارة مفادها أن العربي كائن لا تحكمه سوى غريزته. فمن «أبرز نتائج المتخيل الاستشراقي الكثيف والمركز لتحليل العقل العربي والكشف عن إمكاناته هو وضع العقل العربي في خانة الهامش الفكري والثقافي والحضاري عموما».<sup>2</sup> ومن معاني ذلك أنه لا يعرف معنى الحب والإنسانية في مختلف معاملاته... لكن "إيبرهارت" تنفي هذا الحكم الجائر في حق العربي ليس تعاطفا معه بل لأنها عاشت معهم واحتكت بهم فأدركت جوهرهم وفطرتهم؛ فضلا عن افتتانها وعشقها لواحد منهم.

يعترف العسكري الفرنسي "شارل فيرو" بوجود الحب بين المرأة والرجل الجبلي على الرغم من الإنكار لوجود المرأة والبلاهة المحزنة التي تمسك بها «إلا أنه ينبغي الاعتراف بأن هؤلاء الجبليين ليسوا دائما غرباء عن مشاعر الحب الحقيقي. وأستطيع أن أذكر بعض الملامح المؤيدة لذلك».<sup>3</sup> أن يولد الإنسان في الشرق ويعيش في تضاريس وعرة لا يعني أن مشاعره مدفونة، ففي أوروبا التي نزع منها الرحالة إلى الشرق «هنالك اعتقاد بأن الرجل الشرقي معروف بقوة جنسية غريبة، بحيث يستطيع مجامعة زوجاته

1. المرجع السابق، ص: 242

2. محمد صابر عبيد. المتخيل الاستشراقي الأنا والآخر في سرديات سلطان بن محمد القاسمي. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2015، ص: 60

3. شارل فيرو. تاريخ جيغلي. تر: عبد الحميد سرحان، ص: 39

وحريمه معا في ليلة واحدة.<sup>1</sup> فعلى الرغم من صرامة العادات والتقاليد السائدة في المجتمعات الجزائرية المحافظة، إلا أنها لم تفلح في كبح جماح الحب المتقد بين العشاق الذين كانوا يخفون حبهم خشية الانتقام أو القتل في كثير من الأحيان. ومع ذلك لا يجب تأجيج الوضع واتهام الآخر الشرقي بالجفاء والغرائزية في علاقته بالمرأة، مما يجعل من هذه الأفكار مجرد أوهام لا أساس لها من الصحة.

كما يعبر الرسام الفرنسي "ليسور" وصديقه الإنجليزي "ويلد" عن إعجابهما بالجزائريين الذين يجلسون في المقاهي ويستمتعون باحتساء القهوة والتدخين على أنغام الموسيقى التي تعزفها الفرقة أمامهم قائلا: «شعب يثير الإعجاب لأنه يجيد تذوق ملذات العيش الهادئة، ويبدل أدنى ما يمكن من الجهد، ويحافظ على إبقاء حواسه في سكون ثابت دون أن يلحقه الملل أبدا. هنا لا وجود لتمييز قائم على الطبقة والثراء يأتي البدوي المعوز المرتدي أطمارا، فيجلس إلى جانب المغربي الثري الذي يلبس الشفوف. وإن لم يكن له غليون يستعير غليون جاره الثري.»<sup>2</sup> يبدو أن نمط عيش الجزائري قد راق كثيرا للرسام الفرنسي وصديقه، فالمعروف أن الرسامين والفنانين يفضلون الأجواء الهادئة، وهذا ما وجدوه في المقاهي الجزائرية، حيث يسرح الجزائري بخياله وهو يرتشف قهوته على أنغام الموسيقى، وهي صورة إيجابية تجسد شاعرية الجزائري ورومنسيته على خلاف الصورة المضادة التي تشكلت عن الرجل الشرقي.

### 4.1. صورة الجزائري الشجاع والمقاوم

تصور الرحلات الأوروبية الجزائري كإنسان شجاع إلى أبعد الحدود لاعتبارات عدة أهمها أنه صاحب قضية ومن حقه الثورة. ثم إن الكثير من الجنرالات الفرنسيين اعترفوا ببسالة الآخر الجزائري وصموده، إذ يعلق الأديب الفرنسي "أندريه جيد" على شجاعة الجزائري قائلا: «عيب الخوف من الموت هو عيب الفن العربي. العرب لا يتراجعون أمام الموت.»<sup>3</sup> لا يختلف اثنان في مدى شجاعة الجزائري، هذا الأخير الذي

1. وحيد بن بوعزيز. جدل الثقافة مقالات في الآخريّة والكولونيالية والبيدكولونيالية. ص: 137

2. أ. ليسور، و. ويلد. رحلة طريفة في إيالة الجزائر. ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة: 05

3. أندريه جيد. رحلة إلى شمال إفريقيا. تر: محمود عبد الغني، ص: 52

حير كبار الجنرالات الفرنسيين بمدى تعلقه بأرضه التي سقاها بدماء غزيرة، فالكثير من الأوروبيين -بغض النظر عن معتقداتهم وإيديولوجياتهم- أثنوا على بسالة الجزائريين في مواجهة كل من يسيء له أو لوطنه، فتضحيات الجزائريين خير دليل على شجاعتهم وصدق مقاومتهم.

كما يثني عالم الطبيعة الألماني "موريس فاغرن" (Moritz Wagner) على شجاعة وأنفة الجزائري، وهو يستحضر مشهدا لأحد الشبان الذين قررت فرنسا إعدامهم بباب عزون بتهمة التجارة بالبارود والثورة ضد الحكومة الفرنسية قائلا: «تقدم الشاب إلى المقصلة منتصب القامة، مرفوع الرأس، لم يكن في خطاه ما يدل على أنه خائف وألقى نظرة متحدية على الشاوش إبراهيم»<sup>1</sup> كما خصص الرحالة ما يقارب ثمانين صفحة من أجل سرد أحداث الحملة على "قسنطينة" مشيرا إلى مدى بسالة الجزائريين المتواجدين في المدينة أين فضلوا أن تهدم المدينة على رؤوسهم على أن يستسلموا لقوات العدو قائلين له عن طريق أحد الزواوة<sup>2</sup>: «إن في قسنطينة كثيرا من المؤن والذخائر، وإذا كان الفرنسيون في حاجة إلى شيء منها فإن في استطاعتنا أن نزودهم بما يريدون ! أما الاستسلام، فإننا لا نعرف معناه وسنصمد في الدفاع عن مدينتنا ودورنا. إنها لن تسقط في أيديكم مادام مدافع حيا يرزق!»<sup>3</sup> إن تحدي القسنطينيين للجيش الفرنسي الذي يفوقهم عددا وعدة ينم عن مدى تمسكهم بأرضهم ورجبتهم في استرجاع حريتهم المسلوبة، وهو واقع قدمته صورة الرحالة عن شجاعة الجزائري ومقاومته للمستعمر الفرنسي تماما كما أثبتته التاريخ. ومن الصور التي تدل على تمسك الجزائري بأرضه التي تمثل الوطن والهوية ما ينقله "ليسور" عن سكان القصبة الذين ظلوا بها رغم ما حل بها من دمار بسبب الحملة الفرنسية قائلا: «نهج القصبة ونهج الباب الجديد اللذين يصعدان إلى قمة المدينة ثم

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1855.1830). ص:36

2. الزواف: جيش تم تكوينه من طرف فرنسا بعد احتلالها للجزائر، يشتق اسمه من " زواوة " أفراده من منطقة القبائل. وهنا لابد من الإشارة إلى إحدى المغالطات التي يسعى بعض الأطراف إلى ترويجها باتهام منطقة القبائل بالخيانة والعمالة لفرنسا لأنه وببساطة هناك فرق أخرى لخونة ساعدوا فرنسا في إفشال مختلف الثورات على غرار فرقتي: مهاري في جنوب الجزائر (نسبة لثقلها بالجمال). وفرقة القومية في باقي مناطق الجزائر. ينظر: محمد أرزقي فراد، هذه حقيقة فرقة "زواف" العسكرية، جريدة الشروق اليومي، العدد: 5183، 09 أوت 2016.

3. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1855.1830). ص:39

يمتدان إلى أن يلتقيا أمام مسكن الداوي بعد تعريج طويل... ينفر الأوروبيون من الصعود فاستقروا بيوت الجزء السفلي بعد إعادة بنائها وتعديلها حسب ذوقهم... بينما أصبحت أملاك الجزء العلوي تتداعى للسقوط عندما لم تكن أهلة بالعدد القليل من المغاربة الذين مازالوا متمسكين ببلدهم، سواء كان السبب في ذلك تعلقهم بمسقط رأسهم أو من باب الفاقة. وهذه البيوت هي الآن الوحيدة التي مازالت تحتفظ بطابع المدينة الأصلية.<sup>1</sup> وهو ما يجسد صورة الجزائري الشجاع والمقاوم من أجل الحرية إن إيمان الجزائري مما دفعه إلى تحدي المستعمر الفرنسي على الرغم من بساطة الأسلحة التي يمتلكها، حيث رفض الجزائريون المساومة والمفاوضة من أجل حريتهم كقناعة منهم أن الحرية لا تعطى بل تسترد بالقوة ! وهذا ما أثبتته أغلب الرحالة والمستشرقون، والقادة العسكريون الفرنسيون ولأبأس أن نستحضر بعضا من هذه الشهادات.

إن شجاعة و صمود الجزائري شهد له العدو قبل الصديق، فقد قال عنهم الجنرال "دامريمون" (Damrémont) بعد تلقيه لرسالتهم: «إنهم رجال شجعان فليكن ذلك إذن إن المعركة ستكون بالنسبة لنا أمجد! <sup>2</sup> بعد تلقي "دامريمون" لهذا الرد الشجاع قرر المضي في حملته غير أن القسنطينيين دافعوا عن بلدتهم بكل بسالة وكبرياء إلى أن أحسوا بأنهم مغلوبون على أمرهم، فانسحبوا ليواصلوا مقاومتهم في الجبال بينما استشهد البعض الآخر وأسلحتهم في أيديهم. هؤلاء الشجعان الذين وصفهم القائد "لوفيان" (Lufian) بالشياطين لحما ودما وهم يتصدون للجند الفرنسيين.<sup>3</sup>

يواصل "موريس فاغندر" ثناءه على الجزائريين الشجعان وهو يضرب المثل ببعض الجزائريين الذين تم أسرهم بالقرب من "البليدة" في ماي 1837 حيث يقول إنهم «مروا أمام الجنرال "دامريمون" كانوا مرفوعي الرأس، واضحي النظرة، وكانوا يجيبون على أسئلته في أنفة وكبرياء.»<sup>4</sup> إن صورة الشجاعة والمقاومة التي نقلها الرحالة هي ما أثبتته التاريخ وشهادات بعض الفرنسيين أنفسهم، فما مر به الجزائري بسبب الاستعمار الفرنسي

1. أ. ليسور، و. ويلد. رحلة طريفة في إيالة الجزائر. ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة: 29

2. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 39

3. ينظر: المرجع نفسه، ص: 39

4. المرجع نفسه، ص: 37

كان كفيلا بتفضيله للموت على البقاء في ظل الهيمنة الفرنسية على جميع مناحي الحياة، فنسبة الفقر والبطالة والأمية وصلت إلى نسب قياسية منذ قدوم الفرنسيين إلى الجزائر. وقد أشار الفيلسوف والأديب الفرنسي "جون بول سارتر" (Sartre) إلى الحاجة إلى الثورة التي تخلص الجزائريين من دمار الاستعمار و«من هذا البؤس الذي غشيهم واستبد بهم قلنا عليهم ليسوا بشرا فإما أن يلفظوا أنفاسهم أو يؤكدوا إنسانيتهم فإذا هم يستغنون عن ثقافتنا ويتخلون عن قيمنا وتقدمنا المزعوم. وتساوى عندهم أن يطالبوا بصفة الإنسان وأن يرفضوا الجنسية الفرنسية.»<sup>1</sup> يقدم "سارتر" في كتابه "عارنا في الجزائر" اعترافا صريحا ببشاعة الاستعمار الفرنسي وشجاعة الجزائري، فكثيرا ما انتقد السياسة العنصرية التي انتهجتها فرنسا في الجزائر هذه السياسة تسببت حربه في شحن الجزائري على الثورة والتباعد عن فرنسا.

كما يتحدث الأمير "بوكلر موسكاو" عن بسالة الجزائريين وتحديهم وعدم رضاهم بالذل، والهوان ويستشهد بجزء من رسالة قد أرسلتها قبيلة تسكن في نواحي "دلس" كرد على رسالة قد بعث بها الوالي العام الذي يهددهم -بسبب اعتقالهم لجنود إحدى السفن الفرنسية التي غرقت قبالة الساحل- حيث جاء ردهم المفحم كالاتي: «إلى حاكم الجزائر الذي يحكم أبعد مما هو في حوزته، اعلم أن أحرار دلس هم أسياد أنفسهم!»<sup>2</sup> يقدم هذا الخطاب صورة واقعية عن الجزائري الذي قاوم المستعمر الفرنسي دون ادخار أي جهد، فرد أهل "دلس" الشرفاء على حاكم الجزائر إنما هو نابع من أشخاص متحررين لا يرضون أبدا بالإهانة أو الإساءة إليهم؛ لأن الموت يهون عليهم في سبيل كرامتهم واسترجاع حريتهم المسلوبة.

أما الجغرافي الألماني "هاينريش بارت" (Barth, Heinrich)، فقد علق على الأوضاع في الجزائر أثناء وصوله في 03 أكتوبر 1845 قائلا: «إن أهالي البلاد الأصليين يرفضون الاستسلام بسهولة، ولئن أضحت السيطرة على القطر أمرا مفروغا

1. جون بول سارتر. عارنا في الجزائر. تر: عابدة إدريس، سهيل إدريس، ص: 56

2. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 31

منه، فإن ذلك يكلف الفرنسيين دماء غزيرة وأموالا طائلة.<sup>1</sup> ينقل الرحالة صورة الجزائري المقاوم والشجاع في صيغة اعتراف بأن الجزائري لا يستسلم بسهولة على الرغم من بسط فرنسا نفوذها على الكثير من الأقطار إلا أن ذلك لم يمنع أبدا الأهالي الشجعان من مقاومة الاستعمار الفرنسي مخلفين خسائر بشرية ومالية كبيرة. فصورة الشجاعة والتصدي للغزاة تكررت في كثير من النصوص الرحلية.

إن شجاعة الجزائري يشهد لها الأعداء أيضا، حيث يسرد الجنرال الفرنسي "بول أوساريس" (Paul Aussaresses) قصة أحد الجزائريين الذين تم القبض عليهم بتهمة صناعة القنابل، أين يعترف "بول أوساريس" بصمود هذا الرجل وتحمله للتعذيب لدرجة أنه فضل الموت على الخيانة، فقد كان الرجل «في الأربعينات من عمره، وذو جسد نحيف جدا، تم إيقافه من طرف وحدتي عن طريق وشاية، وكان يظهر أن له ملامح العمال النزهاء... وكان يقول بأنه كان مريضا بالسل، وبأنه لا يمكن له صنع قنبلة، بل إنه لا يعرف حتى ما هي القنبلة!... أجري الاستتطاق في مستودع صغير بمكان مقفر، ولم أكن أملك سوى حنفية وأنبوب سقي، وكان الرجل جالسا على كرسي وكنت قبالة. و صوب عينيه في عيني، وابتسم ابتسامة تحدي. وعندما فهمت بأنه لا يريد أن يتكلم، قررت اللجوء إلى استعمال الماء... كان الرجل يختنق ويقاوم، ولكنه لم يرد التكلم، فلقد كان يظن أنه سيقتل سواء اعترف أم لم يعترف، ولهذا فضل عدم خيانتته أحد. وربما كان قد حضر نفسه فترة طويلة لمثل هذه المواقف... وعندما نزع المنديل، كان الرجل قد فارق الحياة.»<sup>2</sup> يعترف الجنرال "بول أوساريس" بشجاعة الجزائريين وتحملهم لمختلف أنواع التعذيب الذي يتعرضون له، فهذا الرجل فضل الموت اختناقا على الوشاية برفاقه في الجبهة وهي صورة موضوعية تجسد روح المقاومة والشجاعة لدى الجزائري وإيمانه الراسخ بقضيته ومدى تعلقه بوطنه، إذ لفظ الكثير من الجزائريين آخر أنفاسهم في مستودعات التعذيب السرية التي تستعين بالضرب، والكهرباء، وكذا الماء من أجل إرغام المساجين

1. هاينريش بارت. سبع رسائل مخطوطة ل: هاينريش بارت عن رحلته إلى تونس 1845-1846. تحقيق وتر: منير

الفندري، بيت الحكمة، تونس، ط 1، 1987، ص: 11

2. الجنرال أوساريس. شهادتي حول التعذيب (مصالح الخاصة الجزائر: 1957-1959). تر: مصطفى فرحات، دار

المعرفة، الجزائر، ص: 124-125

على الاعتراف، حيث كان الماء أشد هذه الوسائل وأخطرها، وقاوموا ذلك دون أن يستسلموا.

يروى "سارتر" في هذا السياق ضمن فصل "شهود من المجندين" شهادات لبعض الجند ورجال الدين الذين يصفهم بالشرفاء لأنهم كانوا معارضين لحجم العنف الذي مارسته فرنسا على الجزائريين قائلًا: «وعن ممارسة الدكتاتورية العنيدة وأساليب العدوان والاستغلال والقسوة، فهناك تسلب الأموال وتنتهك أعراض النساء، وينتقم من المدنيين بممارسة إبادة الجنس وقتل الجماعات دون أدنى محاكمة، ويسامون أبشع أدوات التعذيب في استجوابهم للإدلاء باعتراف أو تقديم معلومات.»<sup>1</sup> لقد استفزت هذه الممارسات الوحشية الفرنسية الكثير من المثقفين الفرنسيين الذي حملوا على عاتقهم، فيما بعد لواء مساندة الشعب الجزائري في تقرير مصيره من خلال فضح مختلف الممارسات النازية التي كان يُعامل بها الجزائري، لكنه في مقابل ذلك اتسم بالشجاعة وروح المقاومة دفاعاً عن وطنه وحرية.

يورد الأسير الألماني "فندلين شلوصر" في عدة متون من رحلته صوراً توحى بشجاعة الجزائري وإصراره على عدم الاستسلام للفرنسيين وحرصه الدائم على مواجهة الفرنسيين مهما كانت نتيجة المعركة، فكان مدينة "قسنطينة" الذين كان أغلبهم من الطبقة المتوسطة والفقيرة «كانوا سيبدلون أقصى جهدهم للمحافظة على المدينة، وكانوا يفضلون الموت على تسليم أنفسهم للفرنسيين. وكانوا قد أقسموا في المساجد كلها بأنهم على استعداد لخنق نسائهم وأطفالهم ثم البحث عن الموت في حراب الفرنسيين.»<sup>2</sup> إن ما جاء به "شلوصر" عن الآخر القسنطيني يجسد صور المقاومة والشجاعة التي ميزت الجزائري، -على الرغم من نغمته على الحكام العثمانيين الذي همشوه كثيراً واستولوا على أمواله بالقوة في كثير من الأحيان- فهو لم يكن ليقدّم تنازلات عن وطنه وأرضه لفرنسا في مقابل تخليصه من الحكام العثمانيين، -كما يدعي الفرنسيون في كثير من الكتابات- فقد فضل الجزائري الموت على تسليم أرضه.

1. جون بول سارتر. عارنا في الجزائر. تر: عادية وسهيل إدريس، ص: 28

2. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 56

كما يستحضر "شلوصر" نوبة الغضب التي اعترت سكان "قسنطينة" عندما حاول قائد الدار (مولى البلاد) وشيخ البلاد إقناع الشعب باستحالة المحافظة على المدينة بسبب الحصار الذي ضربته فرنسا على المدينة بواسطة عدد كبير من الجنود الذين يعسكرون خارج قسنطينة وينتظرون الفرصة لاجتياح المدينة، حيث «هجم عليهما الشعب في غضب، وبصق في وجوههما، وهددهما بالخنق إن هما استلما مرة أخرى رسالة من الكفار، وأخذ الرسالة ومزقها وداسها بأقدامه. وعندما سمع القائد بذلك أمر بوضع الرجلين في القيود وأخبر الباي بذلك خارج المدينة، وبعد انسحاب الفرنسيين عفى عنهما، ولكنهما ألزما بدفع غرامة كبيرة.»<sup>1</sup> لقد استغل معارضوا "أحمد باي"<sup>2</sup> فرصة خروجه شخصيا لإخضاع مدينتي المدينة وعنابة من أجل رزع الفوضى والخوف في نفوس القسنطينيين قصد إرباكهم ليسلموا قسنطينة إلى الفرنسيين، غير أن هؤلاء قوبلوا بغضب كبير من قبل السكان الذين أعلنوا تمسكهم بمدينتهم مهما كانت نتيجة الحرب مع المستعمر، وهذا ما يثبت تعلق القسنطينيين بأرضه وشجاعته بغض النظر عن الظلم الذي كان يمارسه الباي عليهم، فالوطن شيء مقدس ولا يتم التنازل عنه مهما كان حجم الإغراءات التي كانت تروج لها فرنسا وأذئابها من الخونة الذين تخلوا عن وطنهم وباعوا هويتهم مقابل بعض الفرندات والامتيازات.

أما الضابط الألماني "كليمانس لامبينغ" (Clemens Lamping)، فإنه ينحو منحى "إيبرهارت" معتبرا أن اختلاط السكان الأصليين بالفرنسيين قد بدأ يقضي على طبائعهم وخصالهم الحميدة، خاصة وأن طبيعة الجزائري في نظر "كليمانس" تجمع بين صفات متناقضة، ففيها الشدة والحلم، والقسوة والشهامة، والجشع والكرم. كما يشير الرحالة إلى أمر مهم جدا وهو أنه لم ير عربيا واحدا يحاول التشبث بالحياة أو يبكي خوفا

1. المرجع السابق، ص: 57

2. لقد أورد الباي "أحمد" هذه الرواية في مذكراته من أن هؤلاء الخونة عقدوا مجلسا حربيا أثناء هجوم الفرنسيين وأن شيخ البلد قد أشار بالاستسلام ورفع العلم الفرنسي فوق المسجد الأعظم وأن هذا تم بمشاركة كل معارضي أحمد باي في هذه المكيدة. حيث يشير الباي إلى إعدامه للعربي مرابط أما الشيخ، فقد اكتفى بتذكيره بمدى خطورة الخطأ الذي ارتكبه وأنه لولا تقديره له لكان مصيره هو الآخر الإعدام. ينظر: أحمد باي، مذكرات أحمد باي، تر: الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص: 57-59

من الموت.<sup>1</sup> وفي مواجهة الموت والتعذيب تكمن صور الشجاعة والمقاومة لدى الجزائري.

يتفق جميع المؤرخين أن فرنسا سعت جاهدة منذ وطئت أقدامها الجزائر إلى محاولة طمس هوية هذا الشعب، وتجريده من كل خصوصياته الأمازيغية والعربية والإسلامية، فضلا عن الإساءة إليه بأبشع الطرق وهذا سبب مقنع لتخلي بعض الجزائريين عن خصالهم الحميدة خاصة ما تعلق بمعاملتهم للأجانب، فالجزائريون أصبحوا في فترة من الفترات أكثر عدواة وكرهية للأجانب حتى وإن كانوا غير فرنسيين لدواعي سياسية وحتى دينية. أما فيما تعلق بشجاعة الجزائري ومواجهته للموت بدم بارد، فهذا يعود إلى إيمانه بقضيته وتمسكه الشديد بأرضه، فالصراع مع فرنسا كان من أجل الأرض والهوية وإن انتصرت فرنسا وسلبت الأرض، فمن غير الممكن أن تنتصر وتجرد الجزائريين من هويتهم وتاريخهم ودينهم.

### 5.1. صورة الجزائري الإنساني

توحي الصور التي نقلها الاثنوغرافي الألماني "شيمبر" في نصه الرحلي بإنسانية الجزائري من خلال المعاملة الحسنة للمكفوفين وهو يقارن بين المجتمع الجزائري والأوروبيين المتواجدين في الجزائر قائلا لم أر «أوروبا واحدا يقدم لهم أية مساعدة، وعلى العكس من هذا كان موقف المواطنين... يشفقون عليهم ويساعدونهم ما وجدوا سبيلا وقد كانت الشحاذة مقصورة عليهم، أما الأصحاء، فكان من العار عليهم في نظر الجميع أن يمدوا أيديهم تسولا.»<sup>2</sup> لا شك أن طيبة وإنسانية الجزائري نابعة من دينه الإسلامي الذي يدعو إلى مساعدة الضعفاء والمحتاجين وهذا اعتبره تجسيدا للجوانب الإنسانية التي نص عليها الإسلام. هذه الجوانب التي تسهم في تماسك المجتمعات.

يواصل "شيمبر" الثناء على أخلاق الجزائريين وإنسانيتهم إذ يفضلهم على بقية شعوب شاطئ البحر المتوسط باعتبارهم الأكثر تدينا كما يتحدث "شيمبر" عن سكان إحدى القرى الذين استقبلوه استقبالا حسنا والتفوا حوله... فهم حسبه يحبون النظام

1. أبوالبعيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855)، ص: 94

2. أبوالبعيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855)، ص: 15

والنظافة ويمارسون أعمالهم بجد ونشاط، ولا يبذون أي تعصب ويقدم دليلا على عدم تعصبهم هذا ويقول أنهم أعاروه ثيابهم وأدخلوه مساجدهم والتفوا حوله ليسلموا عليه ويسألوا أحواله.<sup>1</sup>

من الأخلاق الفاضلة التي لفتت انتباه الرحالة الإنجليزي "ليدر" احترام الجزائريين لفئة المكفوفين، حيث يقول الرحالة في هذا الشأن: «في زاوية من زوايا السوق تقرص مجموعة من الرجال الفقراء بينهم أربعة مكفوفين، كانوا يتلون آيات من القرآن، وكان يحيط بهم حشد من المتفرجين، بينما كان البعض يعزف على بعض الآلات الموسيقية... أما التلاوة فقد كانت محترمة للغاية... وما إن انتهى أحد المكفوفين من تلاوة القرآن حتى رفع يديه، وشرع في الدعاء وما إن انتهى حتى مسح وجهه بيديه... لما انصرف الحشد بعد أن منحهم كل واحد منهم بعض الدراهم... جاء أحد العرب وشكرنا على وضعنا لبعض المال في دف المكفوفين وأخبرني أنه علينا أن نحترم ونعطف على المكفوفين ونكون مهذبين معهم لأن نبينا قد علمنا ذلك ثم قص علي قصة النبي ﷺ مع عبد الله بن مكتوم المكفوف... التي تحت جميع المسلمين الصالحين على احترام المكفوفين.»<sup>2</sup> نقل الرحالة صورة إيجابية عن إنسانية الجزائري الذي قد استمد الكثير من الأخلاق الفاضلة من الدين الإسلامي، فحتى عامة الناس الذين لم يكونوا على دراية بقصة "عبد الله بن مكتوم" المذكورة في "سورة عبس" ومناسبة نزول السورة، لم يقصروا في حق هذه الفئة.

بيدي الأسير الفرنسي "تيدنا" إعجابه الشديد ودهشته أيضا من المعاملة الحسنة للقراصنة الجزائريين هذه المعاملة التي لم يكونوا في انتظارها أبدا من القراصنة الذين «لم يجدوا فينا مقاومة، وبالتالي لم يجرح أحد منهم، فقد كانوا إنسانيين بعض الشيء طيلة الأربعة أيام التي قضيناها للوصول إلى الجزائر العاصمة.»<sup>3</sup> إن تأثر "تيدنا" بالمعاملة الحسنة التي لقيها أثناء أسره دفعه إلى استحضار صورة البربري الهجري، هذه الصورة النمطية التي مازالت تروج إلى يومنا هذا معتبرا الحكم على هؤلاء الناس بالهمجية والعنف

1. المرجع السابق، ص: 17

2. S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 09–10

3. عميرايو احميدة. الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا). ص: 46

أمر غير منصف أبداً، ولا يمت لواقعهم بصلة وهو يتساءل قائلاً: «أين هي تلك البربرية واللاإنسانية التي تنتسبها معظم أوروبا لهذا الشعب الذي أنتمي إليه حالياً؟ ألا يمكن أن نكونوا إنسانيين تجاهي فقط. فقلت في لنفسي: لا وواصلت القول: يجب على من ينسبوا إليهم ما لا يشرفهم أن يعرفوهم أولاً. لأنهم لم يعيشوا أبداً معهم»<sup>1</sup> فقد كان الرحالة موضوعياً إلى أبعد حد في نقل صور الإنسانية التي ميزت الجزائري، ذلك أنه استدعى الصورة النمطية المضادة لإنسانية الجزائري المندسة في الذهنية الأوروبية، فعلى الرغم من بشاعة القرصنة باعتبارها عملاً منافياً لكل الأعراف والتقاليد إلا أنها لم تؤثر يوماً على أخلاق وإنسانية الجزائريين الذين كانوا يحسنون معاملة أسراهم. ولعل هذا ما شفع لهم عند "تيدنا" الذي دافع عنهم ورفض أن يلقبوا بالهمجيين واللاإنسانيين من قبل الأوروبيين قبل أن يحتكوا بهم ويتعرفوا عليهم عن قرب، فتيدنا اكتشف أن وعيه بالجزائري (البربري) كان زائفاً.

لا يكتفي "تيدنا" بما أوردناه سابقاً، بل إنه «يأمل أن يعامل العبيد من الترك والمغرب الموجودون بين أيدي الإسبان والنبوليتانيين والجنوبيين والمالطيين مثلما يعامل المسيحيون وهم بين أشخاص وصفوا بالوحشية وذلك من أجل كل الإنسانية»<sup>2</sup> إن اعتراف "تيدنا" بالمعاملة السيئة التي يلقاها المسلمون في أوروبا مقارنة بالمعاملة التي يعامل بها الجزائري المسلم للأسرى المسيحيين يدل على التزام الرحالة بالموضوعية في نقله للحقيقة، أما عن السبب وراء المعاملة الحسنة، فهي تعاليم الدين الإسلامي التي تدعو إلى حسن معاملة الأسير حتى يُفتدى.

يشير الرسام الإنجليزي "ويلد" إلى المعاملة الحسنة التي يعامل بها القراصنة أسراهم وهذا ما يعد تقييداً للصورة النمطية التي تجسد هذه الفئة من الناس في خانة المتوحشين والهمج، فعلى الرغم أن «هذه الشعوب تجيز هذا النوع من التجارة المألوفة عندها في كل عهد وتتنظر إليها كعمل بسيط مباح، يجب أن نتحاشى الظن بأن هؤلاء القراصنة كانوا كلهم حيوانات مفترسة، يلذ لهم قطع الطرق والاعتقال. قد تعرفنا على العديد ممن قضاوا في هذه الحرفة جزءاً من حياتهم، هم الآن يعيشون عيشة هادئة لا

1. المرجع السابق، ص: 56

2. المرجع نفسه، ص: 56

نلمس في أخلاقهم أدنى نسبة من روح العدوانية، فكأنهم لم يبرحوا أبدا دكاكينهم.<sup>1</sup> إن ما أورده الرسام شهادة تحسب للقراصنة، ورسالة تدعو إلى تجنب الأحكام المسبقة عن الآخرين نظرا لتداول الأنا الكثير من الصور الجاهزة والأفكار الخاطئة عن الآخر، وهذا ما يستوجب مد جسور التواصل بين الطرفين حتى يزول الغموض وتتضح الحقيقة.

كما يثني "ليسور" عن المعاملة الحسنة والراقية التي يعامل بها الجزائريون العبيد الأفارقة<sup>2</sup> الذين يعملون لديهم قائلا: «لا يعرف هؤلاء السود- في حالة استعبادهم- البؤس إلا نادرا، بل يجدون معاملة الآباء لأولادهم. ولا تشتغل النساء المستعبدات إلا في إطار الأعمال المنزلية، وكثيرا ما تكون خدمتهن أقل مشقة من خدمة من يتحولن عندنا إلى خدمة المنازل.»<sup>3</sup> إن ما جاء به الرسام الفرنسي رفقة صديقه الإنجليزي "ويلد" صورة إيجابية على إنسانية الجزائريين مقارنة بالأوروبيين الذين لا يحسنون معاملة الأسرى أو الخدم في منازلهم.

كما ينقل لنا القائد العسكري الفرنسي "شارل فيرو" صورا أخرى لإنسانية الجزائري تكمن في صورة المتضامن، وذلك بنقله لمشهد من مشاهد المساعدة والتكافل في المجتمع الجزائري؛ وهو يصف هبة أصدقاء العريس الجزائري الفقير -الذين تقاطروا من كل صوب وحذب- لمساعدته في دفع المهر إلى «أب الزوجة (قيمته تتراوح ما بين 70 و90 بسيطة Bacetta -175 إلى 225 فرنك) وفي أغلب الأحيان، كان لا يملك شيئا من هذا المبلغ، ولكنه كان يعتمد على أصدقائه لجمعه. وبالفعل ففي اليوم المحدد للعرس كان كل واحد يأتي حاملا عطيته للزوجين الجديدين، وكان الطبالة والزرنجية يعزفون وبعض فرسان الفرقة يرقصون ببناذقهم في أيديهم، أو بالأحرى يقومون بكل أنواع القفز العجيب،

1. أ. ليسور، و. ويلد. رحلة طريفة في إيالة الجزائر. ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة: 11  
2. ساحة "يوبيا" بالعاصمة: كانت هذه الساحة تستخدم قبل الاحتلال كسوق للعبيد. ينتمي هؤلاء العبيد إلى السود غالبا. يأتي بهم إلى مدينة الجزائر الإباضيون، وهم قوم يسكنون أطراف الصحراء الكبرى، تمتد علاقتهم التجارية إلى تومبوكتو من حيث يكاد يأتي كل العبيد السود الموجودين على الساحل لإفريقيا. ينظر: أ. ليسور، و. ويلد. رحلة طريفة في إيالة الجزائر. ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة: 12  
3. المرجع نفسه، اللوحة: 12

منشدين ومطلقين النار.<sup>1</sup> إن صور التآزر التي أوردها "فيرو" هي صور واقعية لا تزال سائدة في المجتمع الجزائري إلى حد الساعة؛ ذلك أن مثل هذه الهبات التضامنية كانت سائدة قبل الفتح الإسلامي للمغرب العربي عند الأمازيغ والتي اصطلح عليها "التويزة"، إذ نجد أفراد المجتمع على الرغم من محدودية دخلهم المادي يساهمون كل حسب قدرته في مساعدة الآخرين في مختلف المناسبات الاجتماعية والدينية.

لا يكتفي أصدقاء العريس بمساعدته في جمع مبلغ المهر بل إنهم يتعاونون في تشييد بيت له «إن لم يكن للأسرة الجديدة بيت، فإن الأصدقاء يهبون أيضا لمساعدته فالبعض منهم يقطع الخشب من الغابة، أو يعجنون طين اللبنات، والبعض الآخر يجلب الديس... أو قشر الفلين المخصص لتغطية المسكن الجديد.»<sup>2</sup> يبدو أن الجزائري قد وصل إلى أوج عطائه خاصة وأن أصدقاء العريس لم يكتفوا بجمع مبلغ المهر فقط، بل قاموا بالتعاون فيما بينهم قصد بناء بيت من أجل إتمام فرحة العريسين وإن كان تقليديا وبسيطا جدا. إن مثل هذه السلوكيات توحى بتماسك المجتمع الجزائري وقداسة الصداقة عند الجزائري.

يستحضر "شارل فيرو" المزيد من صور الإنسانية التي توحى بتضامن الجبلين في السراء والضراء، فإن حدث وشب حريق مفاجئ وأتلف «منزلا أو عاصفة تخرب محصولا أو أن موتا يهلك أو يخطف قطيعا. فإن كل إخوان القبيلة كانوا يهبون لمساعدة ضحايا النكبة.»<sup>3</sup> إن مثل هذه الوقفات التضامنية التي لا تزال حاضرة في المجتمع الجزائري قد ساهمت في تماسك المجتمع الجزائري وانتصاره لبعضه البعض في مختلف المناسبات، وإن كانت هذه السلوكيات موجودة في المجتمع الجزائري قبل الإسلام إلى أن الإسلام رسمها وأكد على أهميتها. إذ تجسد الصور السابقة مظاهر الإنسانية السائدة في المجتمع الجزائري.

1. شارل فيرو. تاريخ جيغلي. تر: عبد الحميد سرحان، ص: 37

2. المرجع نفسه، ص: 37

3. المرجع نفسه، ص: 42

### 6.1. صورة الجزائري المتعايش دينياً

يصور الرحالة الإنجليزي "هيلتون سيمسون" أخلاق الجزائريين بطريقة موضوعية تتنافى الصورة النمطية التي عهد الغرب الترويج لها والتي لا تخرج الجزائريين عن دائرة البرابرة المتوحشين الذين لا دين ولا أخلاق لهم، فقد أشار في معرض حديثه عن مساجد "القنطرة" إلى تعايش الجزائري المسلم مع المسيحيين قائلاً: «إن المسافر الأوروبي لا يجد حرجاً في دخول مساجد القنطرة وحتى في التلال هذه المساجد التي عادة ما تبنى في اتجاه مكة حيث تشيد بالطوب أما السقف، فهو مدعوم بجذوع النخيل في حين تطلّى جدرانها باللون الأبيض، كما أن لها مئذنة التي ينطلق منها صوت المؤذن في كل مرة ليدعو المسلمين إلى الصلاة.»<sup>1</sup> إن موضوع المعاملة الحسنة التي يلقاها الأجانب في الجزائر قد أثبتته الكثير من الرحالة، فقد أشار إلى هذا الموضوع كل من "فاغنر" و"موبسان" وغيرهم من الرحالة الأوروبيين الذين سُمح لهم بالدخول إلى أماكن العبادة والترحيب بهم، فلولا تسامح الجزائري مع النصارى لما سمحوا لهم بالدخول إلى الأماكن المقدسة ووصفها بدقة وهذا ما يحسب للجزائريين، وينفي عنهم صفة التعصب الديني. كذلك يمكن عدّ تصريح "هليتون" تقييداً لكل تلك الأحكام والأفكار الجاهزة التي تسعى إلى تشويه صورة الجزائري العربي المسلم.

إن ما جاء به الرحالة الإنجليزي يتنافى تماماً مع ما جاءت به كتابات كل من "مارمول (Mármol)" و"دابيير (Dabir)" و"دوتاسي (DeTassy)" عن الجزائر هذه الكتابات التي تتسم بالسطحية والعداء لشمال إفريقيا، الذي كان خاضعاً للسلطة العثمانية<sup>2</sup> حيث استندت المركزية الغربية إلى مجموعة من الرؤى الثقافية التي أدّت إلى خلق ذلك التمايز

1 .M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains. Pp: 28

2. يرى ناصر الدين سعيدوني أن غالبية كتابات الأوروبيين من رحلة ورجال دين تميزت بمعاداة الوجود العثماني في شمال إفريقيا (الجزائر، تونس، طرابلس الغرب) وقد بدت هذه النزعة المعادية في كتابات رجال الدين الإسبان والفرنسيين والإيطاليين على وجه الخصوص مثل هايدوودان ودابر... للتعقّق أكثر ينظر: ج.أو. هابنسترايت. رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ - 1732). دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، ت، ص: 24

بين الغرب والشرق، وبالرغم من إيجابية الصورة التي ينقلها الرحالة عن سكان الجزائر والتي نراها بعيدة عن التعصب العرقي، ومع ذلك يمكن القول إن «هذا الانفتاح الفكري للغرب على الآخر لا يزال هشاً وحديث العهد أكثر من اللزوم، وبالتالي يصعب عليه أن يغذي الأمل بالمستقبل، أقصد الأمل بمستقبل ينظر فيه إلى الآخر وكأنه شخص محترم مثله في ذلك مثلنا أو كأنه شعب له كافة الحقوق المادية والمعنوية تماما كشعوب الغرب.»<sup>1</sup> فمن حق الشعوب الشرقية أن تحظى بالاحترام من قبل بقية الشعوب وخاصة الغرب الذي نصب نفسه مركزا مقابل تهميش بقية الأقطار، ومرد ذلك التشبع بأفكار صليبية معادية لكل ما هو إسلامي وعربي، غير أن ما يبعث على الأسى هو إيمان الكثير من المثقفين الأوروبيين بهذه الصورة المخالفة للواقع الشرقي.

### 2. صورة الجزائري غير المتخلق

لا يخلو مجتمع في العالم - متفتحا كان أم محافظا - من الآفات الاجتماعية، وقد أشار الرحالة الأوروبيون إلى بعض الآفات الاجتماعية المنتشرة في المجتمعات الجزائرية التي احتكوا بها. وحتى لا يخرج بحثي هذا عن إطاره الموضوعي، فقد قمت بنقل مختلف الصور التي توحى بوجود العديد من الصور غير الأخلاقية للجزائري تمثلت في تلك السلوكات المرفوضة في المجتمع الجزائري دون الاستسلام للعاطفة أو النرجسية.

#### 1.2. صورة الجزائري اللص

عرف حوض البحر الأبيض المتوسط خلال الحكم العثماني لشمال إفريقيا بسيطرة القراصنة، الذين زرعو الرعب في الكثير من الدول الأوروبية هؤلاء القراصنة الذين تعددت جنسياتهم - الأتراك والمغاربة - وفي هذا الشأن يقدم الأسير الفرنسي "تيدنا" (Thédnat) صورة موضوعية حيث يستحضر مشهد أسرته من قبل مجموعة من القراصنة الجزائريين الذين أظهروا براعة كبيرة في التمويه، والهجوم على السفينة التي كان يعمل فيها، فالقراصنة حسب الرحالة: «تقفوا أثرنا منذ مدة طويلة من دون أن نلمحهم استعملوا حيلة جعلتهم ينتصرون، إذ ساروا دائما نحو الشمال حتى يخدعونا جيدا. وحينما أصبحوا

1. محمد أركون. نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية. دار الساقي، بيروت، ط1، 2010، ص:339

قرب مركبنا استغلوا شدة الرياح وهجموا علينا.»<sup>1</sup> يقرّ الأسير الفرنسي "تيدنا" ببراعة الجزائري في القرصنة والمناورة البحرية لكن هذا لا ينفى الجرم عن هذا السلوك الذي جعل من حوض البحر الأبيض المتوسط منطقة غير آمنة في تلك الفترة مما دفع بالكثير من الدول الأوروبية إلى المسارعة في التقرب إلى الحامية الجزائرية، وتسديد إتادات سنوية مقابل حماية سفنها وبضائعها التي كانت تسيل لعاب القراصنة المنتشرين في عرض المتوسط.

أما الرسام الفرنسي "ليسور" فقد تحدث عن المكانة والاحترام الكبير الذي يحظى به قادة القراصنة قائلا: «كان قادة القرصنة أو الرؤساء يكونون هيئة خاصة مستقلة ويتمتعون بتقدير فائق نظرا إلى شرف وضعيتهم والأموال التي كانوا يجمعونها بفضلها. كانوا يجهزون السفن على نفقتهم، ويجندون البحارة والعساكر، وبمجرد تقديمهم تصريحاً لوزير البحرية، يحصلون على رخصة تمكنهم من الجولان في البحر ومحاربة السفن التابعة للكفار أو لأعدائهم الشخصيين. وفي حالة إلقاء القبض على سفينة، يشرع في تقسيم الغنيمة إلى حصص، فيعين ما يمنح منها للداي، ثم الريان، ثم لأصحاب الأسهم أو السفينة، وأخيرا للعساكر الذين شاركوا في أسر السفينة.»<sup>2</sup> ينقل الرحالة حقائق موضوعية عن القرصنة التي انتشرت في الجزائر بمجيء العثمانيين لما تدره عليهم من أموال وغنائم كثيرة، لذلك كانت السلطات العثمانية تمنح التراخيص للبحارة من أجل ممارسة القرصنة شرط أن يدفعوا جزءاً من غنائمهم للداي باعتباره السلطان.

أما فيما يخص الأسرى الذين يتم الإمساك بهم في السفن، فإن القراصنة يتم تسليمهم للداي الذي كان يسهر «يسهر في حالة وجود عبيد على اختيار أكثرهم فائدة بالنسبة إليه من حيث المقام والرتبة، بحيث يكفلون له رجاء الحصول على فدية مرتفعة.»<sup>3</sup> بالإضافة إلى الغنائم التي كانت تسلم للداي من طرف القراصنة، فإنه كان يمتلك الحق في التصرف في الأسرى الذين يتم الإمساك بهم، حيث يقوم بإطلاق سراحهم

1. عميرواي احميدة. الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا). دار الهدى عين

مليلة الجزائر، ط1، 2003، ص: 44

2. أ. ليسور، و. و. ولد. رحلة طريفية في إيالة الجزائر. ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة: 11

3. المرجع نفسه، اللوحة: 11

مقابل أموال طائلة بالتنسيق مع القناصل الأوروبيين المتواجدين بالجزائر، بينما يشتغل بقية القراصنة كعبيد، فقد فرضت الجزائر وجودها وهيبتها على البحر الأبيض المتوسط بفضل أسطولها القوي.

كما يصور "غي دو موبسان" المجتمع الجزائري في صورة المجتمع الذي تكثر فيه السرقة، إذ يعزو انتشار ظاهرة سرقة المواشي في الجنوب الجزائري إلى تواطؤ ومباركة الآغا الذي يستقبل البضاعة المسروقة من عند اللصوص، فالعرب حسب الرحالة «في كل أنحاء الجزائر، يسرقون بعضهم البعض. لا تمر ليلة هناك ليلة دون سماع سرقة عشرين من الإبل ومئات من الأغنام والبقر التي بالقرب من بسكرة. اللصوص دائماً مجهولون. حتى ضابط المكتب العربي لا يعرف أين الماشية المسروقة! غير أنه يذهب إلى الآغا الذي يستقبل البضائع المسروقة من جميع قطاع الطرق في الصحراء. حيث يتم هناك خلط تلك الدواب. ويحتفظ ببعضها بينما يقوم برد البعض عندما يحس بأن القاضي سيكشف أمره.»<sup>1</sup> يقدم الرحالة صورة واقعية عن انتشار ظاهرة السرقة في الجنوب الجزائري الكبير فترة الاستعمار الفرنسي، إذ يكشف التاريخ عن حجم الفساد الذي ميز القياد والباشاغاوات الذين عرفوا بالنتكر وخيانة الأهالي، فعوض خدمتهم الأهالي وحماية ممتلكاتهم راحوا يدعمون اللصوص ويتسترون عليهم بدعم من الإدارة التي لا تدفع لهم مرتبا يكفيهم «بل تكتفي بالتعاضي عن الأساليب الحقيرة التي يسلكها لكسب عيشه، وتوسيع ثروته، من عرق جبين الجياح العراة من المسلمين.»<sup>2</sup> إن قانون الأهالي الذي أوجده فرنسا - والذي يعمل بمقتضاه الآغاوات - لم يحمل يوما همّ خدمة الجزائريين بل سعى إلى إبادتهم، وسلب ممتلكاتهم بكل الطرق، ففرنسا تجردهم من الأراضي والآغا من الممتلكات والأموال ما يعني مزيدا من الفقر والحرمان!

### 2.2. صورة المرأة البغي

يتحدث "موبسان" عن بيوت الدعارة والنساء اللواتي يمارسن البغاء؛ هذه الظاهرة التي تشكل أحد المواضيع المسكوت عنها في العالم العربي غير أن ما يلفت

1 . Guy de Maupassant .au soleil 1884.Pp :126-125

2. أحمد توفيق المدني. هذه هي الجزائر. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، دت، ص: 103

الانتباه ويدعو إلى التثبيت هو قول "موبسان" أن «هذه البغايا في الماضي يأتين من قبيلة "أولاد نايل" يكسبن الثروة ويجمعن المهور ويرجعن إلي قبيلتهن ليتزوجن. لم يكن ذلك يقلل من تقدير القبيلة لهن.»<sup>1</sup> لابد من الإشارة إلى أن نساء البغي المنتشرات في دور البغي لسن كلهن من قبيلة "أولاد نايل" وهنا لابد وأن نشير إلى افتراء "موبسان" عليهن، فمن غير المعقول أن يُكِنَّ "أولاد نايل" التقدير لنساء البغي وتشجيعهن على جمع الثروة بهذه الطريقة، فالمجتمعات الصحراوية معروفة بشدة محافظتها وحسن أخلاقها وهذا بشهادة "إيزابيل إيبهارت" وغيرها من الرحالة الأوروبيين. ومع ذلك لا يجب إنكار وجود بيوت الدعارة التي انتشرت في الجزائر في فترتي ما قبل وبعد الاحتلال بقوة نظرا لسوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للبلد، فسوء الأحوال الاجتماعية يترتب عنه تفشي الرذيلة في المجتمعات أما سوء الأحوال الاقتصادية، فهو محفز كبير لبعض النساء لامتهان مثل هذه الأعمال المحرمة دينيا واجتماعيا.

يتحدث الأسير الألماني "سيمون بفايفر" عن صور البغاء قائلا: «يجب أن أذكر هنا أن عدد البغايا في مدينة الجزائر كان ضخما، وأنهن لعبن دورا كبيرا فيها. وهن إما بنات أبوين فقيرين أو فتيات طردهن أزواجهن أو هرين من سوء معاملتهن لهن. وكان بعضهن يعشن بمفردهن، بينما يعش بعضهن الآخر مع أخريات كثيرات. وكانت الحكومة قد سمحت بفتح المباغي العامة، مع أن ذلك كان ممنوعا في تركيا، ووضعت قائمة بأسماء البغايا. ومن ثم كانت تغري الجدد من الأتراك بالحضور إلى الجزائر، حيث يتاح لهم أن يتمتعوا بحياة داعرة لا رادع لها ولا وازع. وكانت البغايا من جهة أخرى ملزمات بدفع ضرائب باهضة للحكومة... وكان عليهن أن يدفعن للحكومة سنويا ألفي دولار.»<sup>2</sup> لا تخرج هذه الصورة عن واقع المجتمع الجزائري أثناء الوجود العثماني، فامتهان بعض النساء لهذه المهنة غير الشريفة كان لأسباب اقتصادية أو اجتماعية كما و اعتماد الأتراك للمباغي العامة التي من شأنها نشر الرذيلة في المجتمع الجزائري خاصة وأن الأتراك لم يكونوا ليسمحوا بفتح مثل هذه الأماكن في بلادهم. وهذا ما يوحى بمكرهم وخبيثهم، فمثل

1. Guy de Maupassant .au soleil 1884.Pp:41

2. سيمون بفايفر. مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر. تر: أبو العيد دودو، ص: 131

هذه الأماكن تدر عليهم بأموال طائلة سنويا في شكل ضرائب يدفعها صاحب المبيع. فالوجود التركي في الجزائر لا يختلف كثيرا عن الفرنسي، فكلاهما استغلال !

يؤكد الرسام الفرنسي "ليسور" ما جاء به "بفايفر" عن أسباب توجه النساء إلى الدعارة قائلا: «والنساء اللواتي يمكن أن يراهن الرجال علانية هن الراقصات اللواتي يوضعن تحت سلطة المزوار. كان البغاء موجودا بمدينة الجزائر في كل العهود. والمزوار يشرف على هذه التجارة الشنيعة، ويجني ثمراتها الجمّة، يدفع للحكومة أجرة هائلة تخوله التصرف المطلق في كل النساء اللواتي يقذف بهن البؤس أو نزعة الشر إلى هذه الحالة من الذل»<sup>1</sup> إن موضوعية هذه الصورة تكمن في أن ظاهرة البغاء في مدينة الجزائر على وجه الخصوص أخذت الطابع الرسمي، فقد سمحت السلطات الفرنسية والعثمانية قبلها بفتح دور البغاء بشرط أن يدفع المزوار وهو الشخص المشرف على تسيير هذه الأماكن بشرط أن يدفع الضرائب، أما عن هذه النساء فإن أغلبهن لجأن إلى هذه الحالة من الذل والهوان حسب "ليسور" بسبب الفقر المدقع الذي ألم بهن.

### 3.2. صورة الجزائري المثلي

يعرض "موبسان" واحدة من الآفات التي توحى بتدني المستوى الأخلاقي لدى فئة من الجزائريين، ولعل أخطرها قضية العلاقات الجنسية بين الرجال أو تسمى اليوم بالمتلية قائلا: «أنه إذا أردنا أن نتحدث عن الحياة العربية أو إظهار الطبع الخاص لهذا الشعب. نصادف في كل خطوة هذا الحب ضد الطبيعة بين شخصين من الجنس نفسه الذي أوصى به سقراط "حب الصبية"... دخل هذا الحب الشاذ في أخلاقيات إفريقيا في العمق حتى اعتبره العرب كالحب الآخر»<sup>2</sup> المعروف أن مثل هذه السلوكيات تتعارض مع قيم أغلب المجتمعات في العالم، وعلى الرغم من تحريم أغلب الديانات لمثل هذه الأفعال إلا أن ذلك لم يحد بعض الرجال من إقامة علاقة مع بني جنسهم. غير أننا نلمس في كلام "موبسان" تأثرا واضحا بوحدة من الصور النمطية المتوارثة في الذهن الجمعي الأوروبي والتي تجسد الشرق على أنه أرض ينتشر فيها الجنس والشذوذ وما إلى

1. أ. ليسور، و. و. و. رحلة طريفة في إيالة الجزائر. ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة: 25  
2. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صيري، ص: 42

ذلك وأنا إذ أقول هذا الكلام لا أنكر وجود مثل هذه الأشياء لكنني أسعى إلى التأكيد بأنها موجودة في كل بقاع العالم بدرجات متفاوتة.

يحاول "موبسان" عبثا الوقوف عند أسباب نقشي هذه الفاحشة القذرة على حد وصفه بقوله أن من أهم أسبابه «قلة النساء إذ أن غالبيةهن متجوزات من طرف رجال أغنياء قد يتزوجن أربع نساء شرعيات بالإضافة إلى عدد من الجوارى إذا استطاع إطعامهن. هل يكون السبب سخونة الجو التي تهيج الرغبات وتضعف عند هؤلاء الرجال حادي الطبع الدقة واللفظ وسوية الذهن، التي تساعد في الغرب على الحفاظ على عاداتنا وتفاذي العلاقات الشاذة؟ ربما يكون نوعا من تقليد سلوك اللواط إرث فاسد عند شعب الرحل الأمي هذا، الذي لا يكاد على التحضر.<sup>1</sup> لا بد من الإشارة إلى أن أسباب المثلية الجنسية كثيرة جدا فهناك من العلماء من يربطها بالجينات، إلا أنه من واجبي التأكيد في كل مرة بأن مثل هذه السلوكات غير الطبيعية ليست حكرا على الشرق فقط لأنها موجودة في كل مكان، لذلك فالأسباب التي قدمها الرحالة غير منطقية ومبالغ فيها إذ لم تقتصر ظاهرة المثلية على الشعوب العربية فحسب- باعتبارها من منظور الرحالة أمية- بل إنها شائعة في الغرب وفي أكثر الدول تحضرا، إذ تتمتع اليوم بكامل حقوقها في الدول الغربية!

كما أن تبرير "موبسان" لنقشي ظاهرة البغاء في بعض المناطق الجزائرية لا يمكن اعتباره بريئا؛ حينما جعل من تعدد الزوجات سببا في نقص النساء وانتشار ظاهرة المثلية، فلا تخلو هذه الصورة من أفكار نمطية «صاغتها المخيلة المسيحية الغربية عن الإسلام، وتتعلق بحياة النبي ﷺ وبعلاقته بالمرأة وموقفه من المسألة الجنسية.»<sup>2</sup> يستدعي المسيحيون قضية تعدد النساء عند المسلمين حتى يتم تصوير الآخر المسلم على أنه إنسان شهواني مدمن على الجنس، وهذا ما يمكن عده تفسيراً سطحياً وغريباً لفكرة التعدد التي أقرها الإسلام. فراح النصارى يسيئون للنبي ﷺ وينتقصون من قيمته -حاشاه ﷺ- بتلفيق العديد من الصور الدنيئة؛ بسبب عدم تقبلهم للدين الجديد الذي راح يتوسع وينتشر

1. المرجع السابق، ص: 42

2. محمد عابد الجابري. الإسلام والغرب (الأنا والآخر)، الكتاب الأول. الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1،

2009، ص: 119

في كل أنحاء العالم مهددا كيان الكنيسة، إذ لم يتمكن الغرب في فهمه للإسلام من الحصول على أية مساعدة من التراث القديم ولا طمأنينة من الحديث، فاعتمد علنا - ولعصر كامل- على الماضي في موارد. وهذه مسألة خطيرة... «أما الإسلام فقد قاوم بعناد هذه المعاملة، وكان نجاحه باهرا، وتلت كل فترة انهيار مبدئي فترة نمو مذهل ومهدد. قاوم الإسلام الغزو والتبشير وأبى أن يذبل.»<sup>1</sup> لقد تسبب الانتشار الرهيب للإسلام في العالم في زعزعة استقرار وهيبة الكنيسة وقد انجر عن ذلك مقاومة رهيبة لهذا الدين الذي وصل إلى أوروبا وتمركز في الأندلس التي كانت بين قبضة الكنيسة. لذلك فالصورة التي قدمها الرحالة غير بريئة ولا تخلو من تشويه للآخر العربي المسلم.

### 4.2. صورة الجزائري المتمرد

يتحدث "القائد العسكري الفرنسي" أدريان بير بروجير (Adrien Berbrugger) عن ورشة تزوير الفرنكات الفرنسية في إحدى القرى التي قامت باستقبالهم ليلا قائلاً: «وذهبنا شبه مبسوطين لننام في المكان الذي أعطي لنا عن كرم، وهو بكل بساطة ورشة لتزييف النقود يتخذه صناع القبائل للتدريب على تزوير قطع الخمس فرنكات الفرنسية، كما كانوا يفعلون في السابق مع عملة (البوجو) وغيرها من النقود التي كانت شائعة في الإيالة. وعلينا أن نعترف بأنهم أناس حذقون وناجحون في هذه المهنة التي لا يعتبرونها أبدا جريمة.»<sup>2</sup> إن تزوير العملة يعد جرما تحاسب عليه جميع قوانين العالم غير أن اعتبار هؤلاء الناس أن التزوير حرفة وليست جريمة يعتبر تحديا كبيرا للمستعمر وتمردا عليه، وعلى القانون السائد مثلما كانوا يتمردون على السلطة العثمانية وهم يزورون عملة البوجو<sup>3</sup> وقد أشار إلى تلك الحرفة إن جاز التعبير العديد من الرحالة الذين عرجوا على منطقة القبائل.

1. ر. و. سذرن. نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى. تر: علي فهمي خشيم وصلاح الدين حسن، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط2، 2002، ص: 18

2. المرجع نفسه، ص: 36

3. ريال بوجو: من النقود الفضية العثمانية المضروبة بالجزائر وعرف في دفاتر المحاكم الشرعية باسم "ريال صغير". ينظر: أبو القاسم سعد الله. دفتر محكمة المدينة أواخر العهد التركي 1255 هـ/ 1839 م. الثقافة، 1984، ص. 164

وينقل الرحالة "أندريه جيد" صوراً أخرى سلبية تجسد التمرد على القوانين السائدة وتجاوزها، مما زاد من انتشار الآفات الاجتماعية في بعض المناطق من الجزائر مثل تجارة الكيف وترويجه بمدينة البليدة التي أصبحت تتعطر برائحة الكيف دائماً قائلاً: «تجارة الكيف ممنوعة، أوسرية إذ شئنا. الشرطة أغلقت كل مقهى يروج فيه الكيف، فهي تفترض أن في الكيف توجد رائحة الجريمة، فلم يعد يدخن إلا قليلاً. مضى زمن على قولي هذا! في كل مكان كانت "البليدة" تتعطر برائحتها المخدرة، أما اليوم بالنسبة لمن يعود بعد سنوات من الغياب يتفاجأ ويسأل "البليدة" عما أعادها إلى صوابها؟ أصبح شارع "كولغليس" بلا رائحة.»<sup>1</sup> لعل السبب وراء تفشي الجريمة في أي مجتمع هي الفوضى والحرب، ففي الجزائر انتشرت الكثير من السلوكات المخالفة للقوانين الفرنسية من تزوير للنقود وتعاطي للحشيش في المقاهي الشعبية، ففرنسا تحارب هذه الظاهرة خوفاً من انتشار الجريمة خاصة وأن الفرنسيين يعتقدون أن الجزائري يستمد شجاعته من غليونه!

تنتقل "إيزابيل إيبهارت" صورة حية عن كيفية تحضير سيجارة من الكيف قائلة: «وكان الطيب مشغولاً بتحضير الكيف على قصعة كسكس مصنوعة من خشب الوزان، وأخذ يقطع أغصان وأوراق القنب الهندي بسكين مغربية طويلة. ثم أخذ يحك القطع بيديه، ويحيلها إلى غبار ويخلطها بالتبغ المغربي المسحوق. وأخذ غليون حديدي صغير على أنبوب طويل من القصب يمر من شخص إلى آخر.»<sup>2</sup> لقد سمح تنكر "إيزابيل إيبهارت" في زي "السي محمود" بالاحتكاك بسكان الجنوب ومن ثم التعرف عليهم عن قرب وبالتالي نقل صورة حية عن طبيعة حياتهم خاصة وأن "إيزابيل إيبهارت" قد كونت صداقات كثيرة مع سكان الجنوب. أما فيما يخص تعاطي الكيف في الجنوب، فالظاهر أنه منتشر كثيراً وأن البدو كانوا يزرعون أيضاً. وهي صورة من صور التمرد الأخلاقي السائدة آنذاك في المجتمع الجزائري.

ويبيد الأديب الفرنسي "غي دو موبسان" دهشته من القضايا التي يرفعها الجزائريون للضابط الفرنسي، فما إن يصل العرب إلى الخيمة التي يوجد بها الضابط

1. أندريه جيد. رحلة إلى شمال إفريقيا. ترجمة: محمود عبد الغني، ص: 58

2. إيزابيل إيبهارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات) تر: عبد السلام

المودني، ص: 172

الفرنسي -الذي تم تعيينه من قبل السلطات العسكرية كقاضٍ للمنطقة- يتقدمون له «بشكاوى غير معقولة، إذ ليس هناك شعب مشاغب يحمل الضغينة ومحب للنزاع أكثر من العرب. أما فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة، فإن إصدار حكم عادل شيء لا يمكن التفكير فيه إطلاقاً. يأتي كل فريق بعدد هائل من شهود الزور الذين يقسمون برفات آبائهم ويؤكدون تحت القسم أكاذيب أكثر وقاحة.»<sup>1</sup> لا يمكن إنكار تفاهة بعض النزاعات، والشكاوي التي يتقدم بها العرب للضابط الفرنسي، كما لا يمكنني إنكار استعانة البعض بشهود زور من أجل كسب القضية، غير أنني أنكر على "موبسان" طابعه التعميمي في نقله لسلبات الآخر الجزائري مما يسهم في تشكيل صورة سوداوية عن الجزائريين.

يتهم "موبسان" الجزائري بالنفور الكبير من القضاء الفرنسي معتبراً إياه من النوع الذي لا يحبذ رفع شكاواه للقاضي الفرنسي بحجة عدم القدرة على رشوته كما يفعل مع القاضي العربي لهذا «لا يلجأ العربي قط إلى قاضي الصلح الفرنسي لأن رشوته غير ممكنة، في حين يقبل القاضي العربي كل ما يطلب منه مقابل المال. علاوة على إحساسه بنفور شديد من شكليات عدالتنا المزعجة.»<sup>2</sup> لا بد من الإشارة إلى نقطة مهمة تتعلق بطبيعة القضاء الجزائري قبل الاحتلال، ففي العهد العثماني كان القاضي العثماني قاسياً جداً مع الطرف الجزائري، وكان يميز بينه وبين الأتراك في تنفيذ العقوبات مما جعل الجزائري ينفر أيضاً من القاضي العثماني ويفضل القاضي الجزائري الذي يكون عادة شيخ قبيلة أو قرية. أما عن أحكامه فهي مجرد اجتهاد شخصي. أما فيما يتعلق برشوة القضاء، فهي ظاهرة كونية تتم عن فساد المجتمع ولا يمكننا إنكار ما جاء به "موبسان" بقدر ما ننكر عليه الطابع التعميمي في تناوله لمختلف الأحداث والأشياء التي صادفها هناك.

### 5.2. صورة الجزائري المجرم (المتوحش)

يروج الأمير "بوكلر موسكاو" كغيره من الرحالة المتأثرين بالقصص والإشاعات الفرنسية اتهاماً خطيراً للحاج "أحمد باي" قائلاً: «وفي اتجاه قسنطينة التي لا

1. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 70

2. المرجع نفسه، ص: 71

تبعد أكثر من ثلاثين فرسخا من هنا والتي لا يستطيع المسافر أن يزورها لأن بايها الحاضر يحب إراقة الدماء وليس له كلمة شرف.<sup>1</sup> تحيلنا القراءة الأولية لهذه الصورة إلى مخالفتها لحقيقة ما يجري على أرض الواقع، فالأمير "بوكلر" تأثر بالإشاعات التي روج لها الجنرالات الفرنسيون خاصة وأنه كان قريبا من ضباط الجيش، فهو يعرف جيدا الجنرال "مونك دوزير" - الذي يصفه "بوكلر" بالجنرال الحازم الذي أعاد لعنابة الأمن والأمان بعد أن كان يخشى الجميع أن تقطع رقابهم- لذلك لا يجب علينا أن نحتار من تصريحاته المشينة ورسمة صورة سوداوية ضد باي قسنطينة، فلم يبق للفرنسيين الذين عجزوا عن دخول قسنطينة سوى تشويه صورة "أحمد باي" فقد فاوضت فرنسا كثيرا من أجل قسنطينة، حيث عرض الجنرال "كلوزيل" (Clauzel Bertrand) على "أحمد باي" الاعتراف به كباي على قسنطينة شريطة أن يدفع له اللازمة والاستسلام ليمنحه قفطان الشرف باسم ملك فرنسا، لكن الحاج "أحمد باي" رفض التنازل على قسنطينة والخضوع للسلطة الفرنسي.<sup>2</sup> وتحسن الإشارة إلى أن الكثير من الرحالة الألمان الذين زاروا الجزائر قبل الاحتلال كانوا قد تلقوا تسهيلات من البايات وهذا ما نراه تتاقضا مع تصريحات الأمير "بوكلر موسكاو".

ليس "أحمد باي" من يقطع رقاب الأبرياء فحسب إذ يتحدث الأمير "بوكلر موسكاو" عن بعض الرجال -من القبائل العدو على حد وصفه- الذين صادفهم وهم يحرقون الفحم وقال عنهم: «لقد كانوا رجالا وسيمين وكانت أجسامهم قوية ولكن تعابير وجوههم كانت مقطبة وقاسية ولا أشك في أنهم مذنبون بارتكاب القتل المنسوب إليهم.»<sup>3</sup> يجسد هذا الموقف صورة عدائية للجزائريين إذ يصورهم في صورة القتلة والسفاحين. فوصف "موسكاو" القبيلة بالعدوة يعني تعاطفه مع المستعمر الفرنسي، فهو يعتبر الجزائريين أعداء ومجرمين حتى وإن لم يتعرضوا له ما يعني «أن نفي الآخر وتنصيبه عدوا، يصبح ضرورة لتعرف الغرب على نفسه، فكل معرفة تمر من خلال الآخر. والآخر

1. أبو القاسم سعد الله. تجارب في الأدب والرحلة. ص: 283

2. ينظر: أحمد باي. مذكرات أحمد باي. تر: محمد العربي الزبيري، ص: 20

3. أبو القاسم سعد الله. تجارب في الأدب والرحلة. ص: 285

الآن هو الإسلام الذي يضمه الغرب كل أنواع السلب ليجعل منه أضحية ممتازة.<sup>1</sup> فخطاب الأمير "بوكلر موسكاو" قد ارتوى بالنزعة الاستعمارية، -التي تعادي الجميع- لدرجة اتهامه لأشخاص لا يعرفهم بالقتلة انطلاقاً من النظرة الأولى إلى وجوههم كما أنه لم يكن شاهداً على ما نُسب إليهم!

يوصل الرحالة حملة تشويهه لصورة الجزائري، متهما إياهم بغير المتعاشين دينياً، فأثناء تواجده بعنابة شعر بحاجة كبيرة إلى وجود كنيسة، فالمرء حسب «يكاد يعيش عيشة كافر لأنه لا يستطيع أن يغامر بالذهاب إلى المساجد حتى ولو شعر أنه متأثر كل التأثر بالإسلام. ويظهر أن الفرنسيين هنا قد تركوا دينهم وراءهم في باريس.»<sup>2</sup> إن تصريح "بوكلر موسكاو" بأنه لا يقدر على الذهاب إلى المساجد حتى وإن تأثر بالإسلام يظهر الجزائريين على أنهم أناس غير مسالمين يتعرضون للنصارى ويمنعونهم من الدخول إلى أماكنهم المقدسة، وهذا ما يدعو إلى الريبة، فابن بلده "موريس فاغتر" الذي زار الجزائر في نفس الفترة تقريباً كان يحضر الصلاة في المساجد دون أن يتعرض له أحد. ما يجعل من تصريحات الأمير "بوكلر موسكاو" مجرد افتراءات كانت تروج لها فرنسا من أجل تشويه صورة الجزائريين وتشبيههم بالهجم والبرابرة الذين يقتلون النصارى واليهود ولا يتعاشون مع الأديان. ثم إننا يجب أن ننوه إلى أمر بالغ الأهمية، فنحن لا ننفي إساءة الجزائريين للنصارى واليهود لكن إن عُرف السبب بطل العجب، ففرنسا التي جاءت بالحضارة للجزائر كانت تحرق المدارس وتهدم المساجد تارة، وتحولها إلى إسطبلات للخيل تارة أخرى سعياً منها إلى طمس هوية الأهالي مقتفية نهج الحروب الصليبية وهذا ما خلق في نفوس الجزائريين الكراهية والحقد ضد الأجانب.

### 6.2. صورة الجزائري المتعصب

يسرد القائد العسكري الفرنسي "شارل فيرو"، مجموعة من القصص التي تؤسس لانتشار ظاهرة الثأر والانتقام عند الجبلين، حيث يرى أن الشرف والكرامة عند القبائلي

1. زكي ميلاد وتركي علي الربيعو. الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل. دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2، 2001،

ص: 25

2. أبو القاسم سعد الله. تجارب في الأدب والرحلة. ص: 286

ترتبط بمدى صيانتته وحمايته لمنزله حتى وإن كان مجرد كوخ منجز بالخشب والقش. ولعل هذا ما يجعل «أكثر إهانة وأكثر عقوبة كان يعاقب بها قبائلي هي حرق منزله، لا لأن هذا المسكن، أو بالأحرى هذا الكوخ يمثل قيمة هامة، ولكن لأن صيانتته وللاحترام الذي يمكن -إن صح التعبير- لهذا البيت ويرتبط به شعور بالحرية أو الكرامة.<sup>1</sup> صحيح أن معظم بيوت الجبليين آنذاك كانت مجرد أكواخ بسيطة لا ترقى إلى منزلة بيت، غير أنها كانت تعني الكثير بالنسبة للقبائلي الذي ينشد فيها كرامته وحرية وهذا ما يجعلها شيئاً مقدساً يستوجب صيانتته وحمايته بكل الطرق. كما أن لجوء الجماعة إلى حرق منزل القبائلي كعقوبة له على ذنب قد اقترفه يعبر أيضاً عن مدى أهمية المنازل وقيمتها المعنوية -نظراً لارتباطها بالحرية والكرامة بالنسبة لهم- عند الجبليين.

يقول "فيرو" أنه إذا توصل صاحب البيت المحروق أو الحقل المخرب إلى معرفة من كان وراء هذه الجريمة التي يعتبرها الضحية إهانة لكرامته وعرشه، فإنه يشتم إلى «الجماعة، فإن كان المجرم ينتمي إلى قبيلة أخرى، حينئذ يحمل السلاح وتقع المعارك، وإن كان من نفس القبيلة كانت الجماعة تنتقل إلى مسكنه وتشرع في تحويله إلى رماد، ثم تذبح مواشيه التي تقدم ضيافة. ومن هنا كانت تنشأ أحياناً عداوة وأحقاد وحروب لا تنتهي.<sup>2</sup> أشرنا فيما سبق إلى ارتباط كرامة الآخر القبائلي بكوخه الصغير الذي يضمن له حرية واستقراره، ولهذا كثيراً ما تتعرض بعض المنازل للحرق قصد إلحاق الإهانة بأصحابها، فكانت الجماعة تتدخل من أجل الاقتصاص للضحية بإحراق منزل المعتدي أما إن كان من قبيلة أخرى، فإن المشكلة تصبح بين القبيلتين مما يتسبب بقيام معارك طاحنة تستعمل فيها مختلف الأسلحة حتى تتحقق نصرته الفرد الذي تعتبر إهانتته من قبيلة أخرى إهانة لقبيلته ككل.

يعتبر "فيرو" الصلح بين القبائل المتخاصمة، مجرد أمر شكلي فقط في نظر الآخر القبائلي، فمثلاً عندما يرتكب أحدهم جريمة قتل يسعى أهل القاتل إلى طلب الصلح من أهل القتيل مثلما هو الحال في كل المجتمعات العربية، فيدفعون لهم الدية، غير أن ما يلفت الانتباه عند الجبليين أنه بعد تلقيها للدية التي تقدر بـ: «بمئة بسيطة

1. شارل فيرو. تاريخ جبلي. تر: عبد الحميد سرحان، ص: 41

2. المرجع نفسه، ص: 21

(Becetta) وكان المبلغ يحفظ كاملا بدقة، ويوضع في قرن ثور، ويخفي في مكان من المنزل، إلى أن يثار أحد من أعضاء الأسرة للقتيل. فكانت المائة بسيطة تخرج في هذا الوقت من مخبئها، وترد إلى أقارب القاتل الأول، ومادامت هذه الإعادة لم تقع، فإنه كان يقال في القبيلة: "إن قرن الأسرة الفلانية لا يزال مليئا، فهي تنتظر رجلا شجاعا لإفراغه".<sup>1</sup> إن قضية الأخذ بالدم أو بالثأر تعد واحدة من القضايا المنتشرة في البيئة العربية منذ العصر الجاهلي مثلما وثقته كتب التاريخ ومختلف القصاصد الشعرية التي وصلت إلينا، فعلى الرغم من اعتذار أهل القاتل إلى أهل المقتول ودفعهم للفدية التي تحددتها جماعة الصلح إلا أن ذلك لا يشفع لهم عند أهل الضحية الذين يحتفظون بالدية ولا يقومون بصرفه لأنه لا يهدأ لهم بال حتى يأخذ أحدهم بالثأر وينتقم ممن قتل قريبه أو ابن قبيلته. وهذا ما يجعل من فكرة الصلح أمرا غير مجد نظرا لضعف الوازع الديني بين هذه الجماعات، وتغليب رأي الجماعة على رأي الشرع عند هذه الفئات.

يذكر "فيرو" بعض التصرفات التي توجب لظاهرة الثأر والصراع القبلي عند القبائل. ولعل أهمها ردة فعل القبائلي الذي يعده والد فتاة ما بتزويجها إياه ثم يخلف وعده بإعطائها لآخر، هذا التصرف الذي يشعره مع أقاربه بأنهم «جرحوا في كبريائهم، وكانوا يحملون السلاح، فكانت تحدث أحيانا معارك ضارية، متعاقبة الفشل والظفر للجهتين، إلى أن يهرب أحد الخصمين، ويعطي الصلح راضيا متخليا عن مطالبته بالمرأة المتنازع عنها». <sup>2</sup> إن ما أورده "فيرو" عن ردة فعل القبيلة التي تدخل خط الصراع كلما تعرض أحد أفرادها للإهانة يعبر عن مدى انتشار الجهل والتعصب وغياب تحكيم العقل والشرع في مختلف القضايا الاجتماعية، فهذه المجتمعات كانت تخضع لرأي الجماعة أكثر من أحكام الشرع.

يعزو "فيرو" اتصاف الجبليين بالطبع العنيف إلى تأثرهم بطبيعة المناخ والتضاريس التي يعيشون فيها لذلك فإن «الانتقام كان يعتبر واجبا، وكان من لم يدعن لهذه العادة، لا يحظى بأي احترام وكان يوصف بالجبان». <sup>3</sup> صحيح أن الإنسان ابن بيئته

1. المرجع السابق، ص: 51، 52.

2. المرجع نفسه، ص: 41.

3. المرجع نفسه، ص: 51.

لكن غياب الوازع الديني والتحلي بالعقل قد سرّع من انتشار ثقافة الانتقام والأخذ بالدم بين القبائل المتصارعة مما يجعل المتصالحين أو المتسامحين جناء في نظر المتشدين بالعادات والتقاليد البالية التي ظل الشرقيون يتوارثونها جيلا بعد جيل، مما ساهم في تفكك المجتمعات وأفقد هذه المجتمعات اللحمة والتماسك.

### 7.2. صورة الجزائري البخيل

يرى "موريس فاغندر" أن الثياب الرثة لا تدل دائما على الفقر والدروشة لذلك يصور الجزائري في صورة البخيل ويستشهد الرحالة بالرجل البسكري الذي «يحمل تحت ثيابه خمسين دولارا اسبانيا ويشد عليها كما يشد على أمعائه، ومع هذا يحمل فان روائح المطاعم الفرنسية الطيبة لا تثير شهيته بأي حال من الأحوال، وإنما يكتفي بالخبز الرديء يأكله مع التين أو التفاح، ويتناول طعامه في قاعة تحت النجوم الجميلة، وهي في الوقت نفسه بهوة وغرفة نوم». <sup>1</sup> إن صور البخل منتشرة في جميع أقطار العالم لذلك، فمن المجحف تعميم هذا الحكم واعتبار كل سكان بسكرة بخلاء، فالثياب الرثة والطعام البسيط ليس مقياسا على بخل الإنسان، كما أن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعيشها الجزائريون من شأنها أن تدفعهم إلى اكتناز أموالهم خوفا من المستقبل الغامض الذي ينتظرهم.

بناءً على ما سبق يمكنني القول؛ إن النصوص الرحلية -نماذج الدراسة- جسدت الكثير من الصور الأخلاقية والأخلاقية للجزائري، فمنها ما كشف عن أخلاق الجزائريين في تلك الفترة كالكرم والجود والإنسانية، والتعايش الديني، وكانت شجاعة الجزائري من بين الصفات التي شهد لها العدو قبل الصدي، حيث وقف في وجه المستعمر الفرنسي ودافع باستماتة عن أرضه، كما تجدر الإشارة إلى أن الصورة الأخلاقية للآخر الجزائري لم تسلم من التشويه خاصة ما كان يروجه الأمير "بوكلر موسكاو" الذي أظهر تحيزا واضحا للطرف الفرنسي، وهذا لا ينفي واقع المجتمع الجزائري الذي انتشرت فيه الصور اللا أخلاقية من تعصب وسرقة وغيرها من السلوكات السيئة التي نقلها الرحالة هذه الصور اللا أخلاقية التي ربطتها "إيزابيل إيبهرارت" بالوجود

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص:32

الفرنسي،<sup>1</sup> ونحن إذ نقول هذا الكلام لا ننكر وجود مثل هذه السلوكات السيئة قبل مجيء الفرنسيين، فالسرقة والزنا وشرب الخمر والعلاقات بين الرجال-فضلا عن القرصنة التي تعتبر نوعا من السرقة- موجودة منذ القدم، غير أن المجتمعات التي تمتزج فيها الأعراق تكون أكثر عرضة لمثل هذه الآفات الاجتماعية، فلكل عرق خصوصياته ومعتقداته...

### رابعاً: صورة الجزائري سياسياً

لا يمكن الحديث عن الحياة الاجتماعية للجزائريين في معزل عن نظم الحكم التي كانت سائدة في تلك الفترة والتي ظلت تسهر رغم بساطتها على تسيير شؤون الجزائريين، والفصل في مختلف القضايا والنزاعات التي كانت تعكر صفو حياة الجزائري بين الفينة والأخرى، وقد أورد الرحالة نماذج الدراسة صوراً عن طبيعة نظم الحكم السائد في المجتمع الجزائري آنذاك حتى تكتمل الصورة الاجتماعية للجزائر.

#### 1. صورة الآغاوات والبشاغوات

يتحدث "موبسان" عن نظام الآغا أو الباش آغا الذي حافظت عليه فرنسا بعد بسط نفوذها على الجزائر باعتبار هذه الفئات تكون قريبة جداً من الأهالي مثل المكاتب العربية التي قام الجنرال "روفيفو"<sup>2</sup> (De Rovigo) بإنشائها، حيث قامت فرنسا بتقليد هذه الرتب لكل الزعماء الذين أبدوا أعلى درجة الوفاء للفرنسيين، فنجح الآغاوات والبشاغوات في السيطرة على كل القبائل في كل البلاد وقدموا خدمات كثيرة من بينها إنقاذ حياة الكثير من الجنود الفرنسيين غير أن الرحالة الفرنسي يقول أن هؤلاء انحرفوا عن المسار الذي كانوا فيه وأصبحوا «متسلطين ومتفردين بالاحترام والطاعة بين القبائل ومصدر خطر دائم لنا وعقبة منيعة للحضارة العربية. غير أن الحزب العسكري يبدو مدافعاً نشطاً عن نظام كبار أهل البلد وضد الميول لتتحيتهم من الحزب المدني.»<sup>3</sup> إن

1. ينظر: إيزابيل إيبهارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات) تر: عبد السلام

المودني، ص: 405

2. دو روفيفو: آن جان ماري روني صافاري (Anne Jean Marie René Savary) 1833-1774م قائد عسكري فرنسي ساهم في احتلال الجزائر.

3. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صيري، ص: 49

مانقله لنا "موبسان" يجسد صورة الآغاوات والبشاغوات الحقيقية في تسلطهم وفسادهم، وقد أثبتت كتب التاريخ ذلك فالآغاوات الذين خانوا الوطن والشعب، مجرد ببادق في يد المستعمر، «الفرنسيون هم رجال السلطة العسكرية والمسلمون فيها هم أعوان تلك السلطة، من قياد، وغيرهم. والقائد، في الإصلاح الإداري الجزائري، هو موظف صغير مسلم، يختارونه غالبا من قدماء المحاربين، ليكون حارسا للنظام في القرى والمدامر والبادية، يعين السلطة على استخلاص الضرائب، ويجند لها الناس، ولا تدفع له الإدارة مرتبا يكفيه...»<sup>1</sup> فعلى الرغم من انحرافهم واستغلالهم للسلطة التي منحتهم إياها فرنسا، إلا أن فرنسا ظلت تغض الطرف عنهم باعتبارهم الوسيط بينها وبين الأهالي، فضلا الخدمات الجليلة التي يقدمونها إليها على غرار جمع الضرائب وتجنيد الجزائريين في صفوف الجيش الفرنسي.

يقف "موبسان" عند أهم السلبات والأخطاء التي ارتكبتها الآغاوات مستشهادة بالهفوات التي قام بها آغا "سعيدة" مما ساهم في التفاف الشعب حول مقاومة الشيخ "بوعمامة"، حيث يقول "موبسان" أن الآغا كان «متقلا بديون لم يستطع دفعها، فجاءته ولا ريب فكرة الغزو في الليل. اجتمع بجماعته وهاجموا الترافس الذين هزموهم في الغارة الأولى، غير أنهم استعادوا قوتهم وتفوقوا فما كان من آغا سعيدة إلا الفرار مع رجاله. بما أن آغا سعيدة حليفنا وصديقنا وبمثابة ملازم أول لنا يمثل السلطة الفرنسية، اعتقد الترافس أن لنا ضلعا في الهجوم وعوض أن يأتوا إلى المعسكر الفرنسي تغييبوا عن الموعد وذهبوا في الحال للقاء بوعمامة لم يتركوه أبدا بعدما صاروا يشكلون قوته الرئيسية.»<sup>2</sup> توضح الصورة التي نقلها "موبسان" حجم فساد نظام الآغاوات، ويكشف عمق معاناة الجزائريين وتعرضهم للمتاعب من فرنسا وأذنبها من الخونة، فالظلم الذي مارسه الآغا في حق الأهالي جعل قبيلة الترافس تنظم إلى عدوه اللدود الشيخ "بوعمامة"، غير أن "موبسان" لم يفوت الفرصة للإشارة إلى الآغاوات الذين يبدون الاحترام للفرنسيين، فيساعدونهم مرة ويخونونهم مرة أخرى أو يدعمون الثورات الشعبية سرا.

1. أحمد توفيق المدني. هذه هي الجزائر. ص: 102، 103

2. المرجع نفسه، ص: 50

## 2. صورة الصوفيين

تشيد "إيزابيل إبيرهات" بالدور الإيجابي الذي لعبه الصوفيون العرب في تغيير العادات السيئة التي كانت سائدة في قنادسة مما أدى إلى انتصار «روح الحكم الديني العربية على الروح البربرية الجمهورية والكونفدرالية، فقائد الزاوية هو السيد الوحيد الوارث للقصر، وهو الذي يفصل في كل القضايا والذي يعين كل القواد العسكريين في حالة الحرب، وهو الذي يقضي بالعدالة الجنائية، بينما يقضي القاضي في القضايا المدنية، لكن هنا أيضا للصوفي الكلمة الأخيرة وتتم العودة إليه في ما قضى به القاضي!»<sup>1</sup> نفهم من كلام "إيزابيل" أن الزوايا في الجنوب هي التي كانت تسهر على تسيير شؤون الشعب باعتبار الزوايا واحدة من المؤسسات الدينية التي تحظى باحترام كبير بين القصوريين؛ فالأضرحة والقباب والزوايا «تؤدي دورا اجتماعيا كإيواء الفقراء والعجزة والغرباء وحماية الهاربين إليها من المجرمين والسياسيين المغضوب عليهم، واستقبال التلاميذ في المساجد المجاورة.»<sup>2</sup> إن ما جعل الرحالة تنقل لنا صورة إيجابية عن الصوفيين هو الدور الهام الذي لعبته الكثير من الزوايا في الجزائر في تلك الفترة، مما يؤكد على مكانة هذه المؤسسة الدينية في تنظيم شؤون الجزائريين، لذلك نرى في لجوء الجزائريين إليها لحل مختلف النزاعات والمشاكل التي تحدث بينهم أمرا منطقيا؛ فالجزائر في الفترة العثمانية لم تكن مؤسسة القضاء فيها متقدمة ومنظمة مثل المحاكم الفرنسية وإنما كانت عبارة عن قاعات صغيرة يشرف عليها الشيوخ أو البايات الذين يحكمون بين الناس من خلال تطبيق الأحكام الشرعية.

وتشير الرحالة إلى كيفية تنفيذ الزوايا الأحكام ضد المذنبين قائلة: «وتتمتع الزاوية بحق حماية من يلجأ إليها، فكل مجرم لجأ إليها يلقى نفسه في مأمن من العدالة البشرية. وإذا كان سارقا يدفعه الصوفي إلى رد ما سرقه، وإذا كان قاتلا، يتعين عليه أداء دية الروح التي أزهقها. وفي ظل هذه الظروف لا ينزل العقاب أبدا بأي مذنب ما إن يلج الزاوية أو حتى أرضا تابعة لها.»<sup>3</sup> يسعى الصوفيون جاهدين زرع التسامح والحلم في

1. إيزابيل إبيرهات. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال. تر: عبد السلام المودني، ص: 303

2. أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. الجزء الأول، ص: 269

3. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 304

صفوف الرعية درأ للأحقاد والانتقام الذي المنجر عن صراعاتهم. فالزواية لا تقوم بتطبيق أحكام الإعدام كما هو الحال بالنسبة للجماعات البربرية وإذا حدث أن أعدم أحد الجناة، فإن ذلك يتم عن طريق أقارب الضحية أو حتى عن طريق أقارب الجاني أنفسهم غير أن بعض الصوفيين المنحدرين من نسل سيدي "بوزيان" يبدون صرامة اتجاه اللصوص أو مثيري الفوضى أو العار بالضرب بالعصا.<sup>1</sup> فقد نقلت لنا الرحالة صورة موضوعية عن الصوفيين والنظم السائدة في الزوايا والتي عملت على تنظيم الحياة الاجتماعية للفرد الجزائري.

### 3. صورة الجماعة (العروش)

ترى "إيزابيل إبيرهارت" أن طريقة الحكم عند البربر تختلف كثيرا عن طريقة الحكم عن الصوفيين، فالبربر الذين لم يتأثروا بالمد الصوفي أو ما شابه كانوا يخضعون للجماعة «وهي المجلس الجماعات أو القصور هي التي تحكم. وكل القضايا السياسية أو الإدارية تخضع لقرارات الجماعة. وإذا ما كانت هناك حاجة إلى قائد فالجماعة هي من تعينه. والقائد يطاع مادام يحافظ على توليته غير أنه يبقى مسؤولا دوما أمام أولئك الذين اختاروه.»<sup>2</sup> لكل منطقة ما يميزها، فإذا كان سكان الجنوب يخضعون إلى سلطة الزواية، فإن سكان الشمال كانوا يخضعون إلى نظام الجماعة أو القبيلة، ففي «القرى والمداشر، والقبائل الجبلية، والبدوية، ينتخب الجزائريون مجالس تدعى "مجالس الجماعات" وتنتخب في مجال محلي ضيق، وليس لرجالها أي سلطة أو نفوذ.»<sup>3</sup> حيث يحتكم المتخاصمون إلى شيخ القبيلة أو العرش ومثل هذه العادات لا تزال قائمة عند البربر كما أن الدولة تولي اهتماما لنظام العرف (الجماعة) الذي يساعدها كثيرا في فك النزاعات التي تقع بين القبائل، فتدخل الكبار والعقلاء يساهم في فض النزاعات بين القبائل والعروش باعتبار المجتمعات الجزائرية قبلية.

1. إيزابيل إبيرهارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال، تر: عبد السلام المودني، ص: 304

2. المرجع نفسه، ص: 303

3. أحمد توفيق المدني. هذه هي الجزائر. ص: 106

يصف الجغرافي البلجيكي "جيل لوكليرك" الجماعات البربرية بالسلطة التنفيذية التي تسهر على تسيير شؤون أهل القرية التي يوجد بها «منزل أكبر قليلا ما من باقي منازل؛ إنه مكان اجتماع أعضاء "الجماعة" وهي نوع من التجمع الشرعي الذي يحكم الجمهورية الصغيرة، لأن القبائل مقسمة إلى جمهوريات صغيرة مستقلة، وهي في الغالب في حالة حرب ضد بعضها البعض. وتتكون الجماعة من رجال قادرين على حمل البندقية.»<sup>1</sup> إن ما جاء به الرحالة يؤكد على أهمية رأي الجماعات الموجودة على مستوى كل قرية، فالقرى المعزولة وغير الخاضعة للسلطة المباشرة للفرنسيين كانت تخضع لرأي الجماعة باعتبارها أعلى هيئة في القرية ويرجع إليها السكان دائما.

أما "إبيرهات" فترى أن الجماعات التي تحكم البربر قد تكون ظالمة في كثير من الأحيان، فهي «صاخبة، وتتحكم فيها الأهواء عادة، وهي عنيفة إذ تنتهي في بعض الأحيان في الدم المراق. ومع ذلك يبقى البربر دوماً غيورين على حريتهم الجمعية. وهكذا فإنهم يدافعون عن أنفسهم ضد الاستبداد مزيجين أولئك الذين يجروون على الطموح إليه.»<sup>2</sup> نقلت الرحالة صورة سلبية عن الجماعات ونظم حكمها، ومهما كانت هذه الصورة واقعية وموضوعية فلا بد من الإشارة إلى أن هذه الجماعات التي تحكم ليست معصومة من الخطأ، فأحكامها مبنية على الاجتهاد كما أنها ليست هيئة قضائية تستند إلى قوانين وأحكام واضحة.

يؤكد القائد العسكري الفرنسي "شارل فيرو" على أهمية رأي الجماعة في المجتمع الجزائري هذه الجماعة التي تصدر الأحكام في مختلف القضايا الاجتماعية كما لو أنها سلطة قضائية أو دينية، فلكل «عرش من أعراسهم جماعة تفصل في قضاياهم حسب العادة السالفة، يعينون من كل قبيلة رجلا أو اثنين أو أكثر يختارون العقلاء والمسنيين وكل من تفضله الجماعة المذكورة كمثّل النكاح وقسم التركة، وقتل النفس والسرقه، وحرق الديار، والزرع والتبن، وسرقه السلاح، والهجوم على المحارم، والتعدي على الحدود

1. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساورى، مراجعة الطاهر

لكنيزي، ص: 179

2. المرجع نفسه، ص: 303

الفاصلة بينهم.»<sup>1</sup> مثلما أشرت سابقا حول موضوعية الصورة وواقعيتها، فإن الأخذ برأي الجماعة أو كبار العرش لا يزال قائما في الكثير من المناطق الجزائرية إلى يومنا هذا نظرا لتوريث هذه الظاهرة بين المجتمعات وهذا ما يجعلنا أمام ثلاثة أنواع من السلطات السلطة الدينية والسلطة القانونية ( القضاء ) وسلطة الجماعة (الأعيان، العروش)<sup>2</sup> التي لها مكانة كبيرة بين أبناء الشعب الذين يؤمنون بوجودها ووجوب احترامها خاصة وأنها كانت تساهم في حل الكثير من المشاكل دون اللجوء إلى القضاء.

### خامسا: صورة القضاء

القضاء جزء لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية، بل هو الدعامة الأساسية للمجتمع المدني، نظرا لدوره الكبير في فك العديد من النزاعات التي تحدث بين أفراد المجتمع وكذا تنظيمهم. فلا يمكن تصور حالة المجتمع دون قاض يسهر على تطبيق العدل بين أفرادهم. يتحدث الأسير الألماني "فندلين شلوصر" في أسطر من رحلته عن بعض الأحكام التي تصدرها سلطة الباي في حق المخالفين للقانون أو الشرع الإسلامي. فمثلا من حق الرجل المسلم تناول جميع المشروبات عدا الخمر ومع ذلك، فإنه يمنع على المسلمين شرب العرق<sup>3</sup> أو بيعه ويستحضر الرحالة حادثة إلقاء القبض على أحد المسلمين الذين تم الإمساك به وهو يشرب العرق رفقة أحد اليهود، حيث عوقب العربي بتلقي خمسمائة ضربة بالعصا في رجليه، أما الحكم على اليهودي بالإعدام لأنه كان يبيعه.<sup>4</sup> أما السرقة فيعاقب عليها بقطع اليد حتى إن كان السارق مسلما، فالرحالة شاهد على تطبيق هذا الحكم على أحد الأطفال الذين قاموا بسرقة دكان. كما حكم أيضا على

1. شارل فيرو. تاريخ جيجلي. تر: عبد الحميد سرحان، ص: 45

2. للإطلاع على مختلف النزاعات التي تطلها الجماعة وتصدر في شأنها أحكاما وعقوبات. ينظر: شارل فيرو. تاريخ

جيجلي. تر: عبد الحميد سرحان، ص: 45 حتى 50.

3. العرق(Arak): نوع من المشروبات الكحولية التي تصنع محليا.

4. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 81

رجلين من بلاد القبائل بقطع يديهما اليمنى والطواف بهما في المدينة لأنهما استعملا نقودا مزورة.<sup>1</sup>

يشير الرحالة أيضا إلى بعض الجرائم التي يعاقب عليها بالضرب عن طريق العصا ويترواح العقاب بين مائتين وألف ضربة كما يشير إلى أن هذه العقوبات لا تسلم منها النساء. غير أن هذه الصرامة تدفع بالقسنطينيين إلى الاحتراس وتجنب رفع قضية إلى القضاء، فإذا «حدثت معركة كلامية أو وقع عراك وخصام، فإن أول القادمين يحاول الفصل في قضية المتنازعين وإعادة الأمور إلى نصابها، ويخاطبهم عادة بقوله: هل أنتم يهود أو مسيحيون حتى يتعذر عليكم أن تتصالحوا فيما بينكم؟ ويكون جوابهم في العادة: لعنة الله على الكفار. نحن مسلمون وإخوة! وبذلك ينتهي النزاع (وهذه فضيلة نتمنى أن تعمل بها أوروبا المسيحية)، أما إذا امتنع الطرفان عن تسوية النزاع فإنهما يذهبان إلى مولى البلاد.»<sup>2</sup> إن مانقله الرحالة صورة موضوعية عن أحكام القضاء وكثيرا ما يلجأ المسلم إلى الصلح دونما اللجوء إليه، فهذه السنة الحميدة اكتسبها العربي من دينه الإسلامي الذي يدعو إلى التسامح والصفح أكثر من الانتقام والقصاص، وهذه العادة لا تزال منتشرة في مجتمعاتنا، فهناك الكثير من النزاعات التي يمكن إنهاؤها بطريقة سلمية دون الحاجة إلى تدخل القضاء وهذا ما يصطلح عليه بالعرف.

بينما يرى "موريس فاغنر" أن المحكمة الشرعية الإسلامية<sup>3</sup> لا تقل أهمية عن المحاكم الفرنسية، فالقاضي الجزائري «يترك المتخاصمين يتراشقان بالكلمات دون أن يبدي حركة تدل على سأم أو ملل... ثم يصدر حكمه في القضية بكل رزانة ووقار فيقبل حكمه دون أن يبدي أحد الطرفين رغبته في استئناف الحكم. وينحني الخصوم لتقبيل يده

1. المرجع السابق، ص: 82

2. المرجع نفسه، ص: 83

3. أشار العالم الألماني "هابنسترايت" إلى وجود محكمتين أولية ويشرف عليها أحد القضاة والثانية يشرف عليها الداي شخصيا في قصره بحيث يمكن لأي كان استئناف أو عرض قضيته على الداي في حالة عدم إنصافه، كما يشير الرحالة إلى مدى التزام القضاة بتطبيق العدالة كلما أقسموا بشرع الله فضلا عن ذلك، فإن النطق بالحكم أو النظر في القضية لا يتطلب وقتا كبيرا. ينظر: ج.أو. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ-1732)، تر: ناصر الدين سعيدوني، ص: 39، 38

قبل الحكم وبعده، وينفذ الحكم عادة في الحين وفي المكان نفسه... ويعاقب المذنبون في الغالب بالضرب على الأرجل، وهم يفضلون الفلقة على السجن.<sup>1</sup> يبدو أن القضاء الجزائري لم يرتق إلى منزلة القضاء الأوروبي، غير أن القضاء الجزائري الذي كان يستمد أحكامه من الشرع الإسلامي آنذاك لم يفقد هيئته ووقاره بسبب بساطة القاعة أو طبيعة القضايا التي تعرض على القضاة، وهذا ما نراه تعارضا و تفنيدا لتلك الإدعاءات التي جاء بها "مويسان" والتي تهدف في مجملها إلى تبخيس القاضي الجزائري والانتقاص من شأنه باتهامه بأنه مرتش ولا يعطي الناس حقهم.

انطلاقا مما جاء به الرحالة يمكن القول إن المحاكم في العهد العثماني كانت تتسم بالبساطة غير أن الشيء الجدير بالملاحظة هو احتكام القضاة بما فيهم الداوي إلى الدين، مما ينم عن تطبيق الأحكام الإسلامية وبالتالي تطبيق شرع الله ورسوله. إلا أن ما يحسب على العثمانيين هو ذلك التمييز بين السكان الأصليين والأتراك فعند تطبيق العقوبة التي يصدرها القاضي أو الداوي، فإن «الأتراك تتم معاقبتهم في سرية حفظا لكرامتهم، بينما تنفذ الأحكام علانية في الحضر وباقي السكان الآخرين عند باب عزون والأسرى المسيحيون غالبا ما يضطرون للقيام بمهنة الجلاد التي ليس فيها ما يعيرهم أو ينقص من مكانتهم لأن أمر تنفيذ الإعدام يتولاه الشواش وهم الضباط الرئيسيون بقصر الداوي في هذا الشأن.»<sup>2</sup> إن التمييز بين الأهالي وعدم المساواة بين والأتراك حتى في تطبيق أحكام الدي. كان يزيد في كل مرة من حجم الهوة بين الجزائريين والأتراك، فمن طباع الجزائريين الثورة على كل ما يسيء لكرامتهم.<sup>3</sup>

أخيرا يمكنني القول؛ إن الرحلات الأوربية قد أسهمت في تجسيد صورة حياة عن الحياة الاجتماعية والسياسية للآخر الجزائري؛ الذي أنهكه الفقر بسبب سياسة فرنسا الاستعمارية والعنصرية، فقد أظهر الرحالة إعجابهم بأخلاق الجزائريين على الرغم مما يشوبها من آفات اجتماعية، وقدموا صورة للمرأة الجزائرية في جمالها وقبحها ووفائها

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855). ص: 60، 61

2. ج.أو. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ - 1732)، تر:

ناصر الدين سعيدوني، ص: 39

3. ينظر: أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الأول: 1500-1830. ص: 15

والتزامها وبين خضوعها للهيمنة الذكورية وتحررها منها، وعبر بعضهم عن استيائهم من عدم مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية، وبذلك تباينت الصور بين السلبية والإيجابية. كما أبدى الكثير منهم اندهاشهم من بعض العادات الغرائبية السائدة في المجتمع الجزائري آنذاك، بينما أبدع آخرون في وصف يوميات الآخر الجزائري بالتفصيل الممل، في حين عرج البعض على أهمية الجماعات التي تحكم بين الجزائريين في مختلف القضايا، وتسعى جاهدة إلى تحسين أوضاع الجزائريين، وهذا ما يجعل من هذه النصوص الرحلية -بصورها السلبية والإيجابية- عالما منفتحا على طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية للجزائريين.

# الفصل الثاني

صورة الجزائر الثقافية والدينية

أولاً: الصورة الثقافية

ثانياً: الصورة الدينية

أسهمت الظروف التاريخية التي مرت بها الجزائر في تشكيل صورة ثقافية متنوعة، فقد استوطن بالجزائر الكثير من المهاجرين الأندلسيين، والأوروبيين، والعثمانيين، بالإضافة إلى السكان الأصليين الأمازيغ والفاثحين العرب وغيرهم من الأجناس المختلفة لغاتهم ودياناتهم، وقد لفت هذا التنوع الاتني والثقافي -الذي تميز به المجتمع الجزائري في تلك الفترة- انتباه العديد من الرحالة الأوروبيين الذين وثقوا ذلك في رحلاتهم. وحاولوا تسليط الضوء على الحياة الثقافية والدينية للمجتمع الجزائري؛ من عادات وتقاليد وأعراف، وكل ما له علاقة بالموروث الثقافي للشعب الجزائري، فضلا عن تعريجهم على الحياة الدينية للجزائريين وواقع الإسلام في الجزائر نظرا لأهمية الجانب الديني بالنسبة للآخر الجزائري. وهذا ما سأنتبعه من خلال هذا الفصل.

### أولا: الصورة الثقافية

#### 1. صورة الجزائري المثقف (المتعلم)

ينقل "أندريه جيد" واحدة من الصور الإيجابية التي توحى بعزيمة وإرادة الجزائري وحرصه على التعلم، حيث يعبر الرحالة عن إندهاشه من عزيمة وإصرار رفيقه الصحراوي "عثمان" على تعلم القراءة والكتابة بطريقة عصامية، فقد كان يقرأ «مثل بوفار» ويكتب مثل "بيكوشي" كان يعلم نفسه بكل ما أوتي من جهد، وينسخ أي شيء... أعطيته "ألف ليلة وليلة" ذات مساء حمل الكتاب إلى "برج بولخراس"، حيث كان يتمدد مع صديقه "باشاغا" من أجل قراءته. وفي الصباح لم يأت إلا في العاشرة، وكان النوم يثقل جفنيه، قرأ هو وصديقه حكاية علاء الدين إلى حدود الثانية صباحا.<sup>1</sup> يصور الرحالة "عثمان" في صورة الشاب الذي يهوى التعلم والقراءة، فعلى الرغم من قدراته المتواضعة إلا أنه لم يتخلف عن التعلم لحظة، حيث كان يستمتع بقراءة الكتب والقصص التي كان يمنحه إياها "أندريه جيد" ولعل هذا ما يجعل منه صورة إيجابية عن الجزائري ومثالا للتحدي والعصامية.

1. أندريه جيد. رحلة إلى شمال إفريقيا. ترجمة: محمود عبد الغني، ص: 17

يستمر "أندريه جيد" في التعبير عن اندهاشه من براعة الجزائري في إتقان اللغة الفرنسية بطلاقة كلغته الأم، كما يشيد الرحالة بالشخصية الجزائرية التي يرى أنها أخذت من كل جنس ميزته الحسنة، فالوقوف عند تركيبة الجزائري يجدها مزيجا من الأجناس والعناصر...» لكن من هذه العناصر المختلفة تكون سلالة جديدة، متكبرة، شهوانية، وجريئة. يبدو أنها أخذت من الأندلس والباسك والبروفانس، وكوستريكا، وصيقلية، وكلمبريا: هذا هو الجزائري. لقد فوجئنا عندما سمعناه يتحدث بالفرنسية.<sup>1</sup> يبدو أن براعة الجزائري في إتقان لغة المستعمر قد راققت كثيرا للأديب الفرنسي، فكثير من الجزائريين قد اكتسبوا اللغة الفرنسية كغنيمة حرب - كما قال كاتب ياسين - على غرار بقية الشعوب التي تعرضت للاحتلال.

لابد من الإشارة إلى سعي فرنسا الحثيث إلى تهميش العربية وتعميم اللغة الفرنسية حتى تخلق شعبا فرنسي الثقافة واللسان غير أن مساعيها قد باءت بالفشل، لأن الجزائري قد عض على لغته ودينه وجعل من استعمال اللغة الفرنسية في تلك الفترة وسيلة للتواصل مع المحتل، بل ظهر جيل من الكتاب الجزائريين الذين كتبوا باللسان الفرنسي عن تردي الأوضاع المعيشية وتفشي ظاهرتي الجهل والفقر بسبب سياسة المستعمر الفرنسي المبنية على العنصرية وتهميشه للأهالي، فكل الكتابات التي صدرت باللسان الفرنسي أيام الاحتلال عرت الواقع الجزائري، وفضحت ممارسات المحتل الفرنسي وأسمنت صوت الجزائريين للعالم، ولعل هذا ما أزعج الفرنسيين الذين لم يتوقعوا أبدا أن يفضحهم تلامذتهم من الأصول الجزائرية على غرار "محمد ديب"، "مولود فرعون"، "مولود معمري"، "كاتب ياسين" وغيرهم ممن وقفوا في وجه الاستعمار وردوا عليه بالكتابة وبلغته، فساهم ذلك في استعطاف الرأي العام الفرنسي آنذاك.

يشير عالم النبات الألماني "فيلهلم شيمبر" إلى انتشار التعليم في أوساط المجتمع الجزائري قائلا: «لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أنني لم أعثر عليه في حين وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فطالما يصادف المرء هنا هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب. ومن الإنصاف أن

1. المرجع السابق، ص: 51

نقول أن الجزائريين يتكلمون الفرنسية بطلاقة. وذلك ما دعا الحكومة الفرنسية إلى استخدامهم في الوظائف العمومية، أما الفرنسيون الذين يتكلمون العربية فلا وجود لهم إلا في النادر جدا.<sup>1</sup> لاشك أن انعدام الأمية في فترة ما قبل الاستعمار يعود إلى الانتشار الواسع للمدارس والكتاتيب، حيث ساهمت هذه الأخيرة في انتعاش الحياة الفكرية والثقافية للمجتمع الجزائري آنذاك. كما يظهر الجزائري حسب "شيمبر" مهتما إلى حد ما باللغة الفرنسية.

أما الرحالة الإنجليزي "هيلتون"، فقد وصف طريقة تعليم الأطفال في "الولجة" بجبال "ششار" بـ: "خنشلة" قائلا: «يتم إرسال عدد كاف من الأولاد إلى المدرسة. يجلسون على نحو نصف دائرة، يتعلمون الحروف العربية باستخدام لوحات خشبية صغيرة، أو تكرر النصوص من القرآن الكريم، فهم يهتمون بشكل الكلمة أكثر من معناها. التعليم بهذه الطريقة بدائي، أما الفتيات اللواتي يشغلن وقتهن بالكامل في المنزل، يتم الاهتمام بهن قليلا من قبل آبائهن حتى يصلن إلى سن الزواج.»<sup>2</sup> تبدو صورة التعليم سلبية انطلاقا من بدائيته لكنها واقعية أيضا، إذ يحسب على الجزائري تعليمه للذكور دون النساء، معتبرا المنزل المكان الوحيد للمرأة، وهذا ما يمكن وصفه بالنزعة الذكورية السلطوية التي مازالت تهيمن على الكثير من المجتمعات الشرقية. وسلبية الصورة لا تنفي دور التعليم آنذاك وإن كان بطرق بدت للرحالة بدائية، فإنها ساهمت إلى حد كبير في الحد من مد الأمية التي تسبب فيها الاستعمار الفرنسي.

وينقل القنصل الأمريكي "وليام شالر" رؤية إيجابية مخالفة للصورة التي نقلها هيلتون، إذ يشير إلى طرائق التدريس المعتمدة بالجزائر في مذكراته قائلا: «ومع ذلك، فإن مدينة الجزائر تملك كثيرا من المدارس العادية التي يتردد عليها الأطفال من سن الخامسة والسادسة فصاعدا، حيث يتعلمون القراءة والكتابة. ونظرا لأن الأمور لا تتطور بسرعة في هذه البلدان، فأنا أميل إلى الاعتقاد بأننا مدينون للعرب بالطريقة التربوية التي

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 13

2 . M.W.Hilton-Simson .Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains .Pp: 220

تعرف عندنا باسم (الأنكاستر)، فكل تلميذ يحمل لوحة يمكن الكتابة عليها ومحو ما كتب بسهولة.<sup>1</sup> ينقل القنصل الأمريكي صورة إيجابية عن طريقة التدريس في الجزائر في فترة ما قبل الاحتلال، كما يوثق ما قاله "شيمبر" من أن الجزائري متعلم وأن هناك الكثير من المدارس على تواضع إمكاناتها تسعى جاهدة لتعليم الجزائريين القراءة والكتابة، كما يشير القنصل الأمريكي إلى سبق العرب في التعليم باستعمال اللوحة.

بينما يتحدث "ليسور" و"ويلد" عن الاحترام الكبير الذي يحظى به المعلم بين الجزائريين في تلك الفترة قائلا: «يوجد بالجزائر العاصمة عدد كبير نسبيا من المدارس يبعث إليها المغاربة أولادهم ليتعلموا القراءة والكتابة. والخوجة أو الكاتب أي المعلم يتمتع باحترام كبير بسبب معرفته ومهنته المحترمة. لا يتعدى علمه في الغالب القرآن كتاب الكتب الذي يحتوي على كل شيء حسب المسلمين.»<sup>2</sup> إن ما أورده الرسام الفرنسي وصديقه الإنجليزي حول طبيعة البرامج والمناهج التي تعتمد عليها المدارس الجزائرية في تلك الفترة، صورة موضوعية منتقاة من الواقع، فهي لا تخرج عن دائرة تعليم الكتابة والقراءة فضلا عن القرآن الكريم وعلومه من فقه وعقيدة وحديثه وغيرها، فالمدرسة الجزائرية لم ترق إلى مصاف المدارس الفرنسية من الناحية الهندسية والتنظيم نظرا للوضع الاقتصادي الذي كانت تمر به الجزائر قبل وبعد الاستعمار؛ ذلك أن الجزائر عايشت ركودا كبيرا في شتى المجالات.

ويقدم الرحالة ذاته وصفا دقيقا لشكل المدارس الجزائرية آنذاك قائلا: «مؤسسة المعلم ليست أكثر فخامة من أتفه دكاكين الباعة بل هي كالدكاكين العادية مفتوحة على الشارع. ولتفادي ضياع الفضاء توجد مقاعد عليا تكون طابقا ثانيا. يكتب المسلمون بقصب يسمونه بالعربية قلما.»<sup>3</sup> إن ما أورده الرسام الفرنسي رفقة صديقه الإنجليزي يظهر مدى تواضع المدارس الجزائرية وبساطتها مقارنة بالمدارس الفرنسية التي سعت فرنسا من خلالها إلى غزوها الثقافي للجزائر حتى تتجح في تعزيز بسط نفوذها على الجزائر وبقية مستعمراتها.

1. وليام شالر. مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824). تر: إسماعيل العربي، ص: 82

2. أ. ليسور، و. ويلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر، ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة: 24

3. المرجع نفسه، اللوحة: 24

يتحدث "موريس فاغندر"، عن تأثير المدارس الجزائرية بالاحتلال الفرنسي الذي تسبب في انخفاض عددها، حيث بلغ عدد المدارس «حولي 100 ولم يبق منها سوى النصف تقريبا، يذكر مواد الدراسة، ويصف علاقة الأستاذ بطلابه والثقة التي تسود هذه العلاقة وبفائها حتى بعد انتهاء الطالب من دراسته»<sup>1</sup> ينقل لنا الرحالة عبر خطابه صورة موضوعية عن تأثير المدارس الجزائرية بالاستعمار، حيث تكشف عن نوايا الاستعمار وسعيه إلى طمس الهوية الوطنية من خلال نشر الجهل والأمية، كما أن موقف الرحالة يكشف عن المبادئ المزعومة التي روجها الاستعمار وهي نقل الحضارة إلى البلدان المستعمرة وتخليصها من حكم القراصنة العثمانيين.

إن مهمة فرنسا الحضارية قد بدت واضحة من البداية من خلال نشر الجهل في أوساط الجزائريين بتهديم المدارس والكتاتيب التي تعلم اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامي، فقد «أضعف الفرنسيون جهاز التعليم منذ البداية فأهملوا المدارس والمدرسين واستولوا على الأوقاف، ووضعوا أيديهم على المكتبات والكتب، وراقبوا مواد التدريس وتحكموا فيها. فكان التعليم (التدريس) أول ضحية لإدارة الاحتلال التي شعرت بعدم الحاجة إليه مطلقا ما دام يتعلق بالمسلمين»<sup>2</sup>. لقد أبانت السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر حجم نذالة الاستعمار الأوروبي وحقده على المسلمين، ففرنسا فرضت على الجزائريين الجوع الثقافي حتى تخرس العقول وتحرمها من التفكير في الاستقلال.

إن همجية المستعمر الفرنسي دفعت بالكثير من المثقفين إلى التعبير عن تضامنهم ورفضهم المطلق للممارسات العنصرية والهمجية التي مارستها فرنسا في حق الجزائريين؛ حيث يبدي الفرنسي "جون بول سارتر" تضامنه الشديد مع الثورة الجزائرية من خلال معارضته لفكرة الاحتلال ومساندته لحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، ففي كتاب "سارتر" المثير للجدل "عارنا في الجزائر" يصرح قائلاً: «ولقد اغتصبنا من المسلمين كل شيء وحرمانهم كل شيء حتى لغتهم... إن الاستعمار يتحقق بالقضاء

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص:33

2. أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. الجزء الرابع 1830-1954. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1،

على الوطنيين لأنهم لم يعودوا يملكون شيئاً، فقد صفت حضارتهم؛ وكذلك حرمانهم حضارتنا.<sup>1</sup> حاول المستعمر الفرنسي تجريد الجزائري من هويته من خلال ضربه للمدرسة الجزائرية المتواضعة ومحاولة استبدالها بأخرى فرنسية قصد نشر الثقافة الفرنسية، غير أن هذا المشروع لم ينجح بسبب تمسك الجزائريين بلغتهم ودينهم، وهذا ما شكل صفة أخرى للسياسة الفرنسية الهدامة.

يشير الرحالة الإنجليزي "ليدر" إلى الدور الإيجابي للمساجد في نشر العلم وتعليم الجزائريين في تلك الفترة مشيراً إلى دور مسجد "سيدي بقط" ببسكرة الذي يعتبره مهماً جداً قائلاً: «إن مسجد سيدي بقط ذو أهمية خاصة، كما أنه مزين جداً وأفضل من أي مكان آخر في الواحة؛ تتصل به مدرسة قرآنية يتعلم فيها شباب المنطقة مختلف المسائل الدينية، وخاصة حفظ القرآن... ومن المتوقع، إذا قررت دخول المدرسة والتحدث مع التلاميذ أو المعلمين ستترك مساهمة صغيرة من أجل كدعم للمسجد والمدرسة، ويجب أن تكون متأكداً من المعاملة الجيدة لهؤلاء... هؤلاء الفتيان يقبون بالباحثين عن المعرفة قد يصبحون مرابطين. في هذه المدرسة يتعلمون النحو، المنطق، الحساب، الجبر، البلاغة والتفسير، الفقه، ومبادئ قوانين الشريعة الإسلامية.»<sup>2</sup> لا يختلف اثنان في الدور المحوري للمساجد والكتاتيب في الحفاظ على مقومات الهوية الجزائرية في تلك الفترة. فالمساجد خاضت مواجهة شرسة ضد مختلف الحملات التي قادتها فرنسا من أجل طمس هوية الجزائريين، فعلى الرغم من بساطة المحتويات وطرائق التدريس إلا أنها أسهمت إلى حد كبير في مواجهة شبخ الأمية الذي ظلت تغذيه القوة الاستعمارية.

### 2. صورة الجزائري الحرفي المبدع

يتحدث الرسام الفرنسي "ليسور" عن براعة الجزائريين في الحرف والصناعات الفخارية المنتشرة في الجزائر، حيث «يوجد في ضواحي الجزائر معامل قرميد عديدة يصنع فيها العرب أواني ورؤوس غلايين صناعة تتم عن مهارتهم الخاصة، وبالرغم من أن أوانيهم الأكثر شيوعاً هشة، غير منسقة، فهي تكتسي شكلاً بسيطاً أنيقاً، يحاكي

1. عازنا في الجزائر. جون بول سارتر. تر: ترجمة عائدة إدريس، سهيل إدريس، ص: 55

2 . S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 235-237

الأواني المصرية واليونانية العتيقة. أباريقهم عبارة عن قوارير قديمة ذات عروتين.<sup>1</sup> إن الصناعات التقليدية جزء لا يتجزأ من التاريخ الثقافي لهذه الأمة وقد أظهر الجزائريون الذين توارثوا هذه الصناعات براعة كبيرة في تشكيل مختلف الأواني المنزلية، هذه الصناعات التي بدأت في الانحسار بسبب التقدم والتطور الصناعي اليوم.

يستمر "ليسور" و"ويلد" في التعبير عن انبهارهما من براعة الجزائريين في الصناعات والحرف اليدوية، فالجزائريون الذين لم يحرزوا إلا النزر القليل من التقدم في فن الميكانيك، وليس لهم مطاحن متواضحة لطحن الدقيق قد برعوا حسبه في «فن استخراج عطر الورد والياسمين، فهم يتقنون صنعة إتقاننا لا يمكن أن يبلغه عندنا الكيميائيون من ذوي الخبرة، وينسجون زرابي تتنافس زرابي "سميرن" و"القسطنطينية" ويعالجون الصوف معالجة دقيقة تمنحها قابلية لاتخاذ كل الألوان.»<sup>2</sup> إن ما جاء به الرحالة يعد صورة إيجابية وشهادة على براعة الجزائري كعطار، ومتخصص في معالجة الصوف ومزج الألوان، فضلا عن براعته الشديدة في النسيج، هذه الحرف التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا لدى الكثير من المجتمعات الأصيلة التي ظلت وفيه لعادات الأجداد وتاريخها.

يواصل "ليسور" ورفيقه "ويلد" الثناء على الجزائري والإعجاب ببراعته في فن الصباغة ومزج الألوان قائلا: «لم يسجل فن الصباغة تأخرا في الجزائر في أي مجال كان، يصنع المغاربة ألوانا تعادل ألواننا زهاء وتفوقها ديمومة، بل يملكون منها ما يتميز بنضارة لم تدركها بعد ألواننا... وهم يولون إعداد ألوانهم عناية تمنحها مزيدا من الإتقان ولمسات أكثر دقة. وبفضل علاقتهم المباشرة بالشرق، يحصلون على مواد أكثر صفاء من موادنا، أضف إلى ذلك أنهم أكثر إتقاننا في استخدامها.»<sup>3</sup> على الرغم من الإمكانيات المتواضعة التي يستعين بها الجزائريون في تلك الفترة مقارنة مع أوروبا التي قطعت أشواطاً طويلة في الصناعات الميكانيكية، إلا أن الحرفيين الجزائريين المهتمين بالصباغة

1. أ. ليسور، و. ويلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر، ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة 18

2. المرجع نفسه، اللوحة: 10

3. المرجع نفسه، اللوحة: 23

قد أبانوا تفوقهم وهذا بشهادة الرسام وصديقه، وهي صورة إيجابية أيضا توحى بازدهار الصناعات والحرف التقليدية في تلك الفترة.

يسترسل الرحالة في استحضار الصور التي توحى ببراعة الجزائريين في صناعات وحرف عدة، فهم يصنعون «بدقة كبيرة لعب الأطفال وكراسي، وأنابيب الغلايين، وملاعق وعلبا وأدوات لا تحصى. ويتعجب الإنسان من تمكن هذا المحترف من تخريط أشياء في هذه الدرجة من اللطافة معتمدا في ذلك على مجرد الروتين دون أي معرفة للنسب والمقاييس الهندسية، ويظهر المغاربة نفس المهارة في النحت والنقش، أي فنين يقتضيان حسب ما يبدو معارف أكثر دقة.<sup>1</sup> إن ما جاء به الرحالة يؤسس لمهارة الجزائريين في الحرف والصناعات اليدوية على غرار النحت والنقش والصبغة، كما يبين النص الرحلي انتشار ورواج الحرف والصناعات التقليدية في تلك الفترة باعتبارها أحد مصادر الرزق في المدن الكبرى.

ويجسد الاثنوغرافي الإنجليزي "هيلتون سيمسون" المرأة الشاوية في صورة المرأة المبدعة في الصناعات الفخارية، حيث وصف مراحل صناعة الأواني الفخارية وصفا دقيقا حتى أنه ذكر بأن المرأة البربرية لم تجد إخراجا في الاقتراب منها قصد تعلم طريقة صناعة الأواني الفخارية والخزفية منها، كما لا يخفي الرحالة انبهاره بدهاء المرأة البربرية. ويذكر الرحالة أنه اشترى بعض الأواني من إحدى النساء سنة 1913. غير أنه فوجئ بارتفاع ثمنها سنة 1919 على الرغم من أن السلعة نفسها والمرأة التي اشترى منها أيضا معتبرا أن التجارة قد تأثرت بفعل الحرب.<sup>2</sup>

أما سكان "قسنطينة"، فيمتنون العديد من الحرف التي أبدوا فيها براعة ومهارة إذ نجد فيها السمكاريين والحدادين والنحاسين وكذا النجارين والخياطين الذين يظهرون مهارة كبيرة في التطريز بالذهب والفضة والحرير فضلا عن النساجين الذين يصنعون

1. المرجع السابق، اللوحة: 22

M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia  
of the Aurès Mountains.Pp :41-42 ينظر: 2

سلالا رائعة وأقمشة صوفية كالسراويل والسترات إلى جانب صانعي السيور والخبازين في حين يحتكر اليهود كل الأعمال المتعلقة بالذهب والفضة.<sup>1</sup>

### 3. صورة الجزائري الفارس

لا تكتمل الشجاعة إلا بالفروسية، إذ يكشف "غي دو موبسان" النقاب عن الحياة الصحراوية من خلال وقوفه على أهم العادات والتقاليد التي تحكم وتنظم المجتمع الصحراوي، "فموبسان" الذي أبدى نفورا من الحياة الصحراوية بسبب ارتفاع درجة الحرارة وافتقارها للرفاهية - التي اعتاد عليها في أوروبا - لم يغفل أبدا عن وصف طبيعة المعيشة في الصحراء في ظل الاستعمار الفرنسي.

يثني الكاتب الفرنسي "غي دو موبسان" على براعة العربي (الصحراوي) في الفروسية من خلال الاستعراض الذي حضره في نواحي "بوسعادة" معتبرا الفرسان البدو الذين «كانوا يتحركون ببطء أو يسرعون ثم فجأة ينطلقون في عدو سريع عنيف لا تتحمله خيول الشمال عندنا دقيقتين. إنه عدو خيول السباق الشبيه بمرور قطار سريع. غير أن العربي يظل منتصبا فوق سرجه بملابسه البيضاء الفضفاضة، وبهزة واحدة يوقف الحصان الذي يثني رجليه، ليقفز إلى الأرض بوثبة واحدة.»<sup>2</sup> لا يمكن تصور الحياة البدوية دون فروسية، فالفروسية جزء لا يتجزأ من الموروث الثقافي الشرقي، فاعتماد سكان المناطق النائية في تنقلاتها على الجمال والأحصنة مكنهم من التحكم في الفرس بسلاسة، دون أن ننسى تعود العرب على إقامة استعراضات للفروسية تكون في شكل سباقات للخيل في مختلف المناسبات الاجتماعية والدينية.

يقر الأسير الفرنسي "تيدنا" هو الآخر ببراعة الآخر المغاربي - ممثلا في الجزائري - في الفروسية حتى أنه تعلم منهم كيفية ركوب الخيل والمناورة بها قائلا: «وكننت أحسن ركوب هذه الخيول العربية وأهرول بها، وفي يدي البندقية أطلق الرصاص منها بمثل السهولة التي يمتلكها المغاربة الذين يتمتعون باستقامة كبرى في هذه الأنواع

1. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 87

2. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صيري، ص: 66

من التدريبات.<sup>1</sup> إن ما أورده الرحالة الفرنسي "تيدنا" يؤكد لما جاء به "موبسان"، فالفرس العربية الأصيلة لا تزال تلهم الشعراء إلى يومنا هذا، "فتيدنا" تعلم المناورة من الجزائريين والمغاربة بصفة عامة لأنهم اشتهروا بالجري بالفرس وإطلاق البارود خاصة في الاحتفالات الشعبية التي تقام في كثير من المناطق الجزائرية.

بينما يصف الجغرافي البلجيكي "جيل لوكليرك" عرض البارود الذي أقامه الميزابيون بمناسبة نهاية شهر رمضان وحلول عيد الفطر قائلاً: «أتاحت لنا فرصة مواتية لمشاهدة لعب البارود كان يتعاطى له الميزابيون بمناسبة نهاية رمضان... كانوا يطلقون البارود نحو الأرض، قافزين مثل نمور في اللحظة التي كانت تتفجر فيها البنادق: ثم كانوا يتظاهرون بالهرب، رامين بنادقهم في الهواء وبمسكونها أثناء العدو بمهارة عجيبة. النساء اللواتي كنا يتابعن البارود كن تشجعن الرماة بزغاريد حادة.»<sup>2</sup> إن ما جاء به "لوكليرك" هو صورة موضوعية عن فروسية الجزائري وبراعته.

يسلط الرحالة الإنجليزي "ليدر" الضوء على شغف الآخر الجزائري بتربية الخيول التي يعتقد الرحالة أن حبها «يسري في عروق كل العرب. هذا الشغف الموروث من النبي بالنسبة لهم لا يزالون يحافظون عليه ويظهر ذلك في سباقاتهم... يعامل العرب دوابهم بهدوء ولطف لأنهم يدركون أنه من الخطأ بالنسبة لهم سوء معاملة جمالهم وبغالهم، لأن نبيهم كان ينهى عن معاملتها بقسوة ويدعوهم إلى الإحسان إليها.»<sup>3</sup> لعل الشيء الذي يلفت الانتباه هو ربط "ليدر" الكثير من الصور والسلوكات التي يقوم بها الجزائري بالدين الإسلامي، إذ يفسر الرحالة هذه السلوكات مستعينا بالقرآن أو السنة النبوية وذلك بمساعدة رفيقه "الطيب"، فالمعلوم أن العربي كان يهتم كثيرا بتربية الخيل، فقد كتب الشعراء عن الخيل وتباهوا بفروسيتهم في الجاهلية وبعدها. أما عن الجوانب الإنسانية في معاملة الدواب، فأعتقد أن الرحالة قد وفق في شرحها، فالرحمة التي يدعو إليها الإسلام قد وسعت كل شيء.

1. عميرايو احميدة. الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجاً). ص: 83  
2. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر لكنيزي، ص: 218

3. S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 257

#### 4. صورة الجزائري الغرائبية

لا تخلو نصوص الرحلة الأوروبية من الصور الغريبة، التي تصور الجزائري في صورة غرائبية ساحرة تثير الدهشة والذهول، ففي رحلة "تيوفيل غوتيه" إلى قسنطينة تجسدت الغرابة في ردة فعل الرحالة عند سماعه للزغاريد في الحفل، إذ يعلق الرحالة على ذلك الموقف قائلاً: «جمدت هذه الزغرودة المخ في العظام، الزغرودة تتم بضرب الفم براحة اليد أثناء خروج الصوت، ويمكننا القول عنها أنها تشبه عواء ذئب مجروح يشكو ألمه لليل.»<sup>1</sup> يبدو أن الرحالة شاهد لأول مرة ما يعرف بالزغاريد، وذلك لاختلاف العادات والتقاليد بين الشرق والغرب، وهي صورة غرائبية أثارت دهشته وذهوله لدرجة أنه وصفه تلك الزغاريد -أو الأصوات الغريبة في نظره- بعواء ذئب يشكو لليل ألم جرحه.

يوصل "تيوفيل غوتيه" حديثه عن النسوة اللواتي شاهدتهن في حفل العيساوة ولكن هذه المرة بنوع من السخرية والتهكم الأوروبي قائلاً: «وانتظرت أن أرى العجائز الساحرات، وهن يمتطين مكنسة تعيدهن إلى ديارهن ولكن التقليد ليس هكذا في إفريقيا، حيث مضين إلى ديارهن راجلات.»<sup>2</sup> يضمّر توقع الرحالة وتخيله لحالة النسوة وهن يمتطين مكنسة سحرية؛ صورة نمطية مندسة في اللاوعي الجمعي عن عالم الشرق، إذ تشكلت هذه الصورة في ذهن الرحالة من تصورات خيالية مجازية مسبقة تشكلت في الثقافة الغربية عن الشرق السّاحر على أنه بلد العجائب والغرائب والخرافات والأساطير «فالنظر إلى العالم الشرقي على أنه عالم إيكزوتيكي صورة نمطية وحس يراود أغلب الرومانسيين. فلا يمكن فصل الرحلات عن طابع العلاقات المتأزم بين الشرق والغرب في القرن التاسع عشر لأسباب عدة لعل أهمها الأطماع الاستعمارية، وسياسة التبشير الديني.»<sup>3</sup> مما جعل هذه الرحلات تربة خصبة للكثير من الانطباعات السياسية،

1. أحمد منور. الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر. ص: 26

2. المرجع نفسه، ص: 27

3. بيير جوردا. الرحلة إلى الشرق: رحلة الأدباء الفرنسيين إلى العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر. تر: مي عبد

الكريم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2000، ص: 9

والأحكام التقويمية التي تفتقر في أغلب الأحيان إلى الحس الاثنوغرافي نتيجة لصعود الشعور الغربي بالتمركز العرقي والديني.

ويتحدث "تيوفيل غوتيه" عن الحركات والطقوس التي شاهدها في الحفل الذي أقامته فرقة العيساوة "بقسنطينة" قائلا: «وتحت تأثير الإيقاع الضاغطة قامت راقصة... لتسلم نفسها لبخور الموقد، وتقدمت حتى وسط الفناء لتلوي ساعديها في تشنج عصبي، وتستسلم، بعد أن أصبحت مسلوقة الإرادة، بلا أدنى مقاومة، للإله أو الشيطان المستحضر.»<sup>1</sup> لا بد من الإشارة إلى تنوع الطرق الصوفية في بلادنا، فهناك الطريقة "القادرية" و"التيجانية" و"البلقايدية" وغيرها من الطرق الصوفية وحتى لا نعمم لا بد من القول إن هؤلاء الصوفيين الذين زارهم "تيوفيل غوتيه" قد تخلوا عن مهمة الزاوية الدينية بتبنيهم مثل هذه الطقوس الغربية التي لا تمت للإسلام بصلة. فقد أسهمت الكثير من الطقوس والأفكار المنتشرة في الشرق في إصاق صورة الغرائبية به، فهذه الطقوس أسست لريادة الشرق في الشعوذة والغرابة والجنون وما تيسر من الأشياء الخارقة للعادة.

لقد أثارت فرقة العيساوة دهشة الرحالة الإنجليزي "ليدر" بطقوسها الغربية؛ خاصة مشاهد تناولهم للزجاج، إذ يعلق الرحالة على ذلك المشهد قائلا: «ارتفع عدد من الشباب، واندفعوا نحو رئيسهم، وهو رجل عجوز طيب وكريم، كان يقف على مشارف الحلبة. تقدم الشباب منه ثم همسوا في أذنه وقبلوا كتفه ثم عادوا إلى الحلبة. دخل كاهن صغير مع بعض الزجاج المكسور، والذي وضعه في يدي حتى أختبره. كان في قطع منحنية مثل زجاجات النبيذ المكسورة.. ما إن رأى الشباب الزجاج حتى اندفعوا نحوه كأنهم حيوانات برية فأسقط الزجاج في أفواههم، بينما كانوا يبتلعونه بعد طحنه؛ ثم فتحوا أفواههم طلبا للمزيد. ومع ذلك لم أر أي تمزقات ولا دماء. ثم سقطوا على وجوههم وبقوا كما لو كانوا في غيبوبة...»<sup>2</sup> إن مثل هذه الطقوس معروفة جدا عند بعض الفرق الصوفية التي تجد تلذذا في إحياء مثل هذه الحفلات التي لا تخلو من الطقوس الغربية والتي تطرح العديد

1. أحمد منور. الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر. ص: 22

2. S. H. Leeder. The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 227

من الأسئلة في أذهان الحاضرين. غير أنه من واجبي التأكيد على براءة الإسلام من هذه التصرفات.

يرى "ليدر" أن الدراويش من المواضيع المطروقة بكثرة في كتابات الرحالة الغربيين، حيث استغرق الأوروبيون في وصفهم ووصف رقصهم وغيره. وقد سمحت الفرصة لـ: "ليدر" هو الآخر لحضور أحد الاحتفالات التي أقامها بعض الدراويش ببسكرة قائلا: «في إحدى الأمسيات، تم تشكيل حفلة أمام فندقنا، وقد أشرف على الحفل يوسف رفقة بعض الشيوخ الكبار وثلاث فتيات وكانت الغرفة المستخدمة من قبل الدراويش صغيرة... وصل الدراويش وولده الذي يبدو عليه نوع من التتويم، بدأ في الرقص، في البداية بطريقة هادئة، وزيادة تدريجيا في حركات غريبة حتى بلغ مرحلة الجنون. ينزل إلى الأرض تارة ويرتفع أخرى، فضلا عن مظهره غير المهذب، فقد كان أحدهم يرتدي تنوره كراقصة للباليه... سحب أحدهم قضبان الحديد الأحمر الساخن من النار ووضعها تحت ذراعيه ثم انتزعها وأغرقها مجددا في النار حتى صارت حمراء... يستمر الدراويش في رقصه الجنوني، ثم أخذ السيف وغرزه في خده، حتى ثقبا نظيفا أي دون خروج الدماء؛ ثم أخذ دبوسا طويلا فغرزه في جفونه، مع القليل من التأثير الواضح.»<sup>1</sup> إن مثل هذه الاحتفالات مازالت قائمة في بعض المجتمعات إلى يوم الناس هذا، فتوارث مثل هذه العادات الغريبة حتى في زمن العولمة يسهم في ترسيخ صورة الشرق الغرائبي في ذهن الجمعي الغربي.

لكن الرحالة يستدرك ويوضح بأن مثل هذه السلوكيات لا تخص المسلمين فقط وذلك على لسان صديقه "علي" الذي أخبره بأن الدراويش ليسوا بالضرورة مسلمين جيدين وأن ما يقومون به ليس من الإسلام. فهؤلاء الرجال من عامة الناس يدنسون إيماننا المقدس! وهذا ما يتوافق مع رأي الباحث "لوريس رين" الذي نفى «أن يكون التصوف إسلاميا أو مسيحيا أو هنديا. فهو في نظره لا هذا ولا ذاك. إنه ليس فلسفة قائمة بذاتها، وليس فرقة دينية معروفة ومحددة بمذهب معين. بل إن التصوف عنده مجرد نمط من العيش في حالة طهر وصفاء كاملين، كما نفى هذا الباحث أن يكون التصوف عقيدة

1. المرجع السابق، ص: 220، 221، 222.

أو قاعدة ثابتة، أو تفكيراً عقلياً معللاً. ذلك أن التصوف الحقيقي لا يظهر إلا في الشعور والإلهام والانطباع وغيرها من المعطيات الغامضة.<sup>1</sup> إن ما جاء به الباحث أراه صحيحاً، فالتصوف نمط عيش ومن غير الممكن أن ينسب لديانة محددة، فالدين واضح، كما أن الطريق إلى الله واضح ولا يحتاج إلى مُعين. فالكثير من الصوفيين قد تخلوا عن رسالتهم - إن سلمنا أن التصوف مرتبط بالدين - وغرقوا في الخزعبلات التي أثارت دهشة الأوروبيين، وأسست لأن يكون الشرق عالماً غرائبياً بامتياز.

لقد راقت فرقة العيساوة كثيراً للأديب الفرنسي "غي دو موبسان" الذي لم يتردد في إبداء إعجابه بهذه الفئة التي لا يرى في تدينها تعصباً قائلاً: «ينشط العيساوة أكلوا العقارب وبائعوا الثعابين، المهرجون والوحيدون ربما إلى جانب بعض النبلاء وضعيفي الإيمان الذين لا يبذون تطرفاً في ديانتهم. هذه الاستثناءات نادرة جداً.»<sup>2</sup> إن ما أورده الرحالة عن هذه الفئة اعتبره أمراً طبيعياً ذلك أن همّ هذه الفئة هو التهريج والإغراق في الخزعبلات وهذا ما يروق للأوروبيين الذين ينظرون للشرق على أنه عالم غرائبي بامتياز تكثر فيه الشعوذة والرقص والطقوس الغريبة!

أخيراً لا بد من التذكير أن عالم التصوف عالم غريب ولا يمكن فهمه في تحت عنوان صغير كهذا، وإنما يستدعي بحثاً طويلاً من مختصين في هذا الميدان، ومع ذلك، فإنني لا أجد للتصوف تعريفاً أحسن من تعريف الشيخ "محمد الموسوم" (الميسوم) الذي يعتبر التصوف «بأنه القيام بالواجبات الشرعية من صلاة وصوم وحج، ومعرفة الله وشكره وحمده والتضرع إليه في كل وقت. وهو ترديد الشهادة كلما أمكن ذلك. ومن واجبات المتصوف... الابتعاد عن مغريات الحياة الدنيا التي يعيش فيها، وأن يضع نصب عينيه دائماً الحياة الأخرى ويستعد لها. كما عليه أن يتخلى عن الحسد والفخر بالنفس. وأن لا يكلف نفسه ما لا طاقة له به وأن لا يلقي بنفسه إلى الهلاك. ويعمل الصوفي جهده للبحث عن مكان (خلوة) يمارس فيها عبادته ونشاطه الروحي بإتقان وخشوع وسط جو من

1. أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. ج 4، 1830-1954، ص: 09

2. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 32

الحرية والإرادة. أما من لا يفعل ذلك فهو ليس من المتصوفة في شيء بل هو مزيف.<sup>1</sup> إن هذا المفهوم للتصوف يختزل بين ثنياه الكثير من الكتابات عن الصوفية، فقد رسم الشيخ حدود التصوف بدقة متناهية قاطعا الطريق أمام الفرق الضالة التي تنسب نفسها إلى الصوفية.

يرى "شلوصر" أن الشعب يعتقد أن للدراويش لهم صلة ما بالله وأنهم لذلك أصحاب كرامات، فتستشيرهم النساء على وجه الخصوص في كل ما يتعلق بالأمراض الجنسية والحمل، وأن هؤلاء المرابطون يعدونهن في كل مرة بأنهم سيطلبون من الله في المناسبة القادمة. ويستحضر قصة الوباء الذي أصاب "قسنطينة" سنة 1834 حيث فسر أصحاب الكرامات هذا الوباء بأنه حشد من المسيحيين الذين يحومون في الجو بصورة غير منظورة بقصد تسميم المدينة! فصدقهم الشعب وأخيرا خرج هؤلاء السذج في موكب كبير يطوفون بالمدينة وبأيديهم عصي طويلة راحوا يلوحون بها في اتجاه الكفار غير المرئيين، ويصيحون ويعوجون ويقومون بحركات كالمجانين.<sup>2</sup>

يبدو جليا من خلال هذه القصص التي أوردها "شلوصر" أن جهل عامة الناس قد وصل إلى حد الجنون، فكيف لهم تصديق هذه الخرافات التي يأتي بها هؤلاء الناس أما عن طبيعة الوباء الذي انتشر، فقد ذكر "أحمد باي" في مذكراته بأنه الريح الأصفر أو الكوليرا هذا المرض الذي كاد يقضي على المدينة حيث مات في اليوم الأول ما يزيد عن 220 شخص وقد استمر مدة 17 يوما.<sup>3</sup> لذلك لا بد من التفريق بين رجال الدين الأتقياء الذين ارتبطوا بعبادة وطاعة الله حتى صاروا صالحين وبين الدراويش الذين يدعون أنهم أصحاب كرامات، فنجدهم يغرقون في الشعوذة والخرافة وإلا ما كانوا ليفسروا داء الكوليرا بأنه مجرد أرواح مسيحية تجوب في السماء، فهم يحسنون العزف على الأوتار الحساسة للشعب الذي يكره المسيحيين بسبب المآسي التي سببتها فرنسا. كما تجدر الإشارة إلا أن

1. أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. ج 4، 1830-1954، ص: 09، 10

2. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 84

3. ينظر: مذكرات أحمد باي. تر: محمد العربي الزيري. ص: 39



الضبع غريبا ومسليا، خاصة تلك الأغنية التي يستعين بها هؤلاء من أجل إخراج الضبع، ولا ننفي أن هذه الطقوس ساهمت كثيرا في ترسيخ صورة الشرق الايكزوتيكي لدى الأوروبيين نظرا لانتشار الكثير من العادات والتصرفات الغربية والتي لا تمت للعقل والمنطق بصلة.

بينما يتحدث "أندريه جيد" عن بعض المعتقدات الخرافية الموجودة في بعض المجتمعات الجزائرية قائلا: «حشد من النساء والعازفين يصعد الشارع الكبير متبوعا بحاملي المشاعل، وبمجموعة من الأطفال الذين يضحكون ويقودون تيسا أسودا من قرنيه، مغطى بالشموع والأقمشة. أسورة معلقة على قرنيه، وخطام ضخم في منخرينه، وقلادة في عنقه. وكان يرتدي خرقة من الحرير قرمزية. في الحشد الذي يتبعه. تعرفت على الشيخ عاشور العظيم. فسر لي أن هذا التيس سيدبح في الليل ليجلب الحظ السعيد للقرية. وقبل ذلك يجولون به في الشوارع لكي تلج إلى داخله أرواح البيوت الشريرة، الواقفة على العتبات وتختفي.»<sup>1</sup> إن الغوص في أعماق المجتمع العربي والجزائري على وجه الخصوص يحيلنا إلى الكثير من المعتقدات السائدة التي تصب في قالب الخرافة والشرك بالله، فالتمتعن في هذه المشاهد التي نقلها الرحالة يدرك مدى التخلف الفكري وضعف العقيدة الذي ألم بكثير من فئات المجتمع التي لا تزال إلى يومنا هذا تتبرك بقبور الأولياء الصالحين وتقدم لهم القرابين والهدايا، فطرد الأرواح الشريرة بالتيس الأسود كبديل عن الرقية الشرعية والتحصين بالأذكار والأدعية، إنما هو مدعاة للشرك والفجور إذا ما سلمنا بأن دين هؤلاء هو الإسلام كما أن مثل هذه التصرفات تجعل من الشرق عالما غرائبيا بامتياز.

من بين العادات الغربية التي لفت انتباهي ما نقله القائد العسكري الفرنسي "شارل فيرور" عن طريقة تصرف العائلة الجبلية عند رفض عريس قد جاء لخطبة ابنتها قائلا: «فإنه منذ الإعلان عن هذا الرفض على عائلتها أن تحرس محيط المنزل بيقظة تامة، اتقاء لمحاولات العشيق المرفوض. وفعلا إن كان الأخير مسعاه في الزواج. لا يفتأ ينتظر اللحظة حيث يكون فيها أهل الفتاة غائبين عن الكوخ. وما إن تكون هذه الفرصة

1. أندريه جيد. رحلة إلى شمال إفريقيا. تر: محمود عيد الغني، ص: 25

سانحة حتى يسارع مع بعض من أصدقائه، وإن ترك الوقت يذبحون جديا على عتبة المنزل. فيلطح دم الحيوان الأرض وتصبح رابطة زواج الجدي مشرعة، ويكون لابد من الخضوع إلى العادة، فقد أعلنت الفتاة مخطوبة، ولا أحد آخر يستطيع أن يتزوجها من غير أن يلحق الإهانة بالمطالب بالزواج، ويمس بعقيدة الشرف التي كونها هؤلاء الجبليون.<sup>1</sup> تأسيسا على ما جاء به الرحالة يمكنني القول؛ إن مثل هذه العادات قد فاقت كل حدود الغرابة كما تجدر الإشارة إلى أن الحكم على صحتها من عدمه يمكن الفصل فيه من قبل المختصين في الانثروبولوجيا. لاعتبارات عدة أهمها مخالفة هذه العادات لكل القيم السائدة في المجتمعات الجزائرية.

كما يتحدث "فيرو" عن عين "الأوقات" أو ما يطلق عليها الجبليون اسم عين "المشاكى"، ويؤمها السكان المحيطون بها ليتطهروا بمياهها لكن ذهابهم إليها لا يخلو من غرابة فإلى «عهد قريب كان لا يزال أحيانا تقع جريمة يؤتى بالمشكوك فيهم، إلى حجر العين، فإن لم يتدفق الماء في مدة وجيزة من الزمن ثبتت الجريمة ضدهم إن الخرافة التي يحفظها المرابطون الذين يقطنون بالقرب من العين، جعلت القبائل يعتقدون أن ملائكة كانوا يطلقون المياه في ساعات مناسبة.<sup>2</sup> لا يمكن إنكار شيوع مثل هذه الخرافات في المجتمع الجزائري، فشدة تقديس الجزائريين للمرابطين جعلهم يصدقون كل شيء يقولونه لهم، مما جعلهم يغرقون في الغرائبية والوثنية في كثير من الأحيان بتصديقهم لأشياء لا يقبلها العقل الإنساني خاصة وأن الاتنوغرافي الاستعماري "فيرو" يعزو سبب انقطاع الماء في بعض الأوقات إلى غياب الشمس التي تذيب الثلوج الموجودة في سفح الجبل.

في حين تستحضر "إيزابيل" واحدة من القصص الغريبة التي يرويها سكان الجنوب الوهراني عن شهر رمضان قائلة: «قديمًا كان دوي مينا عائدين من الحرب في أيام الصيام، وكانوا يعانون من الجوع... وصادف أن لاقوا عربيا كان يمشي وحيدا... سألوه عن اسمه فقال المسكين: "اسمي رمضان"، كذا قال المسكين. فأمسكوه وخاطبوه

1. شارل فيرو. تاريخ جيجلي. تر: عبد الحميد سرحان، ص: 37

2. المرجع نفسه، ص: 32

قائلين: " إذن فأنت هو رمضان الذي يجعلنا نعاني كل سنة من الجوع ومن العطش !" ثم قتلوا المسكين، وأفطروا وعادوا إلى قبيلتهم. وهناك أخذوا يسخرون من أولئك الذين كانوا ما يزالون صائمين قائلين: "لا حاجة للصوم بعد الآن، فقد قابلنا رمضان في الطريق وقتلناه".<sup>1</sup> بغض النظر عن صحة هذه القصة من عدمها لا يمكنني القول سوى إن مثل هذه القصص الغريبة يمكن أن تكون حقيقية، خاصة في المجتمعات التي تعاني من التخلف والجهل وضعف الإيمان. ثم إن مثل هذه المظاهر الغريبة أضفت على العالم العربي صفة العجائبية وساهمت في تنميط الصورة عجائبية الشرق في الذهن الجمعي الأوروبي.

كما لفت انتشار السحر والشعوذة بمنطقة الأوراس انتباه الاثنوغرافي الإنجليزي "هيلتون سيمسون" الذي دفعه إلى التقرب من الشاوية قصد الكشف عن أسباب انتشار هذه الظاهرة التي ربطها بتفشي الخرافة في المنطقة، والتي يعتبرها أيضا واحدة من أسهل الإدعاءات الكاذبة للحصول على المال عند الشاوية والعرب في الجنوب، ويرى الرحالة أن المرأة تلجأ إلى السحرة بسبب انتشار الطلاق في الجزائر «سواء كانت أسبابه منطقية أم لا وهذا ما يدفع بالزوجة المطلقة أو التي بدأت تحس بضعف مشاعر زوجها إلى العجوز الساحرة التي تساعد في استرجاع زوجها أو جعله يحبها، حيث تمضي الساحرة الليل وهي تحفر القبور بحثا عن عظام الموتى حتى تقوم بحرقها مع بعض البخور والأعشاب السحرية بالاستعانة بأحد أعوانها». <sup>2</sup> المعروف عن هذه الظاهرة أنها منتشرة بكثرة في المجتمع الجزائري والمجتمعات الشرقية، حيث يتم تغليب الخرافة على المنطق والعقل، ويصبح التحايل أسهل الطرق من أجل تحقيق الرغبات. لذلك رأى "هيلتون" أن هذه الطقوس تسيء لسكان المنطقة لما فيها من خداع ومكر. ومرد ذلك استغلال السحر لسذاجة الكثير من الناس من أجل إيهامهم وإقناعهم بأنهم قد أصيبوا بنوع من السحر وبالتالي الإيقاع بهم في شركهم.

1. إيزابيل إبيرهات. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). أعده وعلق عليه وقدم

له ماري أوديل دولاكور وجون روني إيلو، تر: عبد السلام المودني، ص: 226

2.M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains. Pp: 46-47

ويتحدث "هيلتون" عن نوع من الطلاسم والأسحار التي شاهدها في منزل أحد القياد بينما كان في طريقه نحو قرى (ولجة، شبلا، تبردقة، خيران - بششار) قائلا: «استقبلنا القايد في غرفة من أجل مشاركته القهوة والحلوى، حيث لاحظنا نقطة متصلة بالخرافات التي لم نشاهد مثلها في بقية أنحاء الأوراس. حيث تعلق التميمة على الأبواب والنوافذ لقد كانت مكتوبة بالسحر، وغير محمية بغطاء من القماش أو الجلد، أما الهدف منها فكان لمنع دخول العقارب إلى الغرفة. العقارب تخرج بكثرة في هذه المنطقة عند حلول فصل الصيف، لقد وجدنا أيضا سحرا مماثلا في كل أرجاء المنزل، هذه العادة التي نجدها غير شائعة في الغرب، فيكفي أن يرتدي الشخص التميمة لتحميه من لسعة الثعابين والعقارب. إن سحرة الأوراس بإمكانهم كتابة الكلمات والعلامات على نوع معين من العظام التي إذا تم ارتداؤها سيتمكن من يلبسها من التقاط أي عقرب بيده دون أن يصاب بأذى.»<sup>1</sup> تجسد الصورة التي نقلها الرحالة حالة من حالات الواقع الجزائري الذي انتشر فيه السحر بغرائبيته وطقوسه، ولا يزال في الوقت الراهن يسيطر على العقل البشري في المجتمعات الشرقية، ومرد ذلك ضعف الوازع الديني لدى هؤلاء.

بينما يصور "شلوصر" النزاعات التي تحدث بين زوجات الرجل الواحد و تدفعهن إلى كتمان غيظهن والمسارعة إلى الطالب الذي «يشكون إليه همومهن، فيكتب لهن حرزا، يحرقنه ويسقين رماده الزوج الخائن أو يعلقنه عندهن أو عند الزوج ويكلفهن هذا الحرز قليلا من المال، وتروي النساء أنه قد أفادهن في عدة حالات.»<sup>2</sup> إن هذه التصرفات التي تتم عن الجهل وضعف الإيمان لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، فالكثير من النساء تلجأن إلى ما يصطلح عليه "الطالب" وكذا قبور الأولياء الصالحين، حيث تقدمن القرابين طمعا في السعادة أو إنجاب الأطفال أو الحصول على زوج وهو ما يدل على ضعف الوازع الديني في نفوس هؤلاء. ولا يستثنى من هذا الرجال لأن هذا الجنون قد حل بالكثير منهم أيضا!

1. المرجع السابق، ص: 217

2. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 94

لا يفوت "ليدر" فرصة تصوير مشاهد عن ظاهرة السحرة وقراءة الطالع وذلك عقب زيارته إلى كوخ أحد السحرة قائلاً: «يعيش الساحر في كوخ صغير بالقرب من فندق روايال، ويرتدي دائماً عمامة خضراء زاهية. تقصده الكثير من النساء، وغالباً ما يمكن رؤيته محاطاً من طرفهن، فقد حضرن إليه من كل مكان من أجل التشاور معه. كان هذا الرجل يأخذ المال دائماً، كان "علي" يعبر عن سخطه على هذا الرجل. قائلاً: إنه ليس جيداً، كما أخبرني أن النبي يرفض مشاوره قارئ الطالع ما دمنا مسلمين، لذلك فإن استشارتهم أمر غير جائز.»<sup>1</sup> إن تصوير الرحالة للنساء على أنهن أكثر الفئات زيارة للمشعوذين والسحرة، هو صورة سلبية لكنها لا تخلو من الواقعية والموضوعية، خاصة أن الإسلام قد نهى عن هذه الظواهر المحرمة، وهذا ما أثبتته الرحالة على لسان مرافقه "علي".

يشرح "ليدر" الغرض من استخدام التمايم والطقوس الغرائبية قائلاً: «يتم ارتداء التمايم من قبل العرب على نطاق واسع لأغراض مختلفة مثل إبعاد الشيطان في الليل، للحفاظ على البصر، لضمان ضد الرغبة، لإبعاد أذى الجن، للحماية من الثعابين، وأشياء أخرى كثيرة، حتى الحيوانات - خاصة الجمال - ترتدي التمايم حول رقابها.»<sup>2</sup> إن لجوء العربي إلى التمايم من أجل حماية نفسه أو ممتلكاته يمكن وسمه بالشرك، فالتمتعن في أحكام الدين الإسلامي يدرك حتماً أن مثل هذه الأشياء محرمة، فتحصين النفس لا يتم إلا بالأدعية والأذكار والرقية الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، لذلك فالسعي وراء السحر والتمايم وغيرها من الطقوس يدل على ضعف الإيمان أو قصور في فهم الدين.

كما لفت انتباه الرحالة الإنجليزي "ليدر" حلي "الخمسة" أو ما يصطلح عليه في بعض الأمصار من الوطن العربي "يد فاطمة الزهراء" -رضي الله عنها- هذا الرمز الذي اشتهر في المجتمع الجزائري والوطن العربي بقدرته على درء العين، حيث يرى الرحالة أن هذا الرمز يُعتبر «بمثابة السحر الذي تزين به العروس عنقها، مثلما يستخدم

1 .S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 230

2. المرجع نفسه، ص: 233

أيضا على أبواب المنازل لدرء العين عنها وقد سألت أحد العرب فأخبرني أن هذه اليد يرمز إلى يد فاطمة الطاهرة بنت النبي، لكنني لا أعرف لماذا قيل أنها يد فاطمة بالضبط»<sup>1</sup>. إن ما أورده "اليدر" صورة واقعية، فالخمس منتشرة كثيرا في المجتمعات العربية التي كثيرا ما ارتبط هذا الرمز بقدرته على التحصين من العين والحسد وطرده الأرواح الشريرة، مما يجعل من الخمسة نوعا من السحر الذي يستعين به العربي من أجل حماية نفسه من مختلف المصائب. والجدير بالذكر أن الكثير من المجتمعات العربية لا تزال إلى يومنا هذا تستخدم مثل هذه العادات الغرائبية، فنتزين النساء بخمس صغيرة بينما يفضل البعض تعليقها عند مداخل منازلهم، مما يجعل من الخمسة موروثا شعبيا يحسبه الناس محصنا لهم !

كما يتحدث الرحالة نفسه عن الشجرة المقدسة -على حد وصفه- والتي وجدها في إحدى زوايا السور المحيط بإحدى الحدائق ببسكرة قائلا: «لاحظت شجرة صغيرة بلا ورق، مربوطة بالكثير من الخرق، وقد أخبرني الطيب أنها كانت شجرة مقدسة، وأولئك الذين ربطوا تلك القطع القماشية التي مزقت من ثيابهم التي كانوا يرتدونها بعد أن رتلوا مجموعة من الأدعية وبعضا من الآيات القرآنية... إنهم يربطون شريطا من القماش الممزق من ملابس الشخص المريض حتى يشفى، ونحن نعتقد أن هناك روحا كبيرة لأحد القديسين ما تزال تجول حول بوابة الحديقة... وقد تذكرت أن "بيرتون"<sup>2</sup> (Burton) قد وضع هو الآخر قطعة من القماش على شجرة مماثلة... لذلك نعثر على الكثير من هذه الأشجار في بلاد المسلمين.»<sup>3</sup> إن مثل هذه السلوكيات قد أسهمت في تشويه صورة العربي-الشرقي- لدى الأنا الأوروبي، فعلى الرغم من تحريم الإسلام للكثير من السلوكيات المشابهة على غرار قراءة الطالع، وتعليق التمام وأداء الطقوس إلا أن الكثير من المسلمين يخالفون هذه التعاليم إقرارا بمقولة كل محذور مرغوب فيه.

1. المرجع السابق، ص: 08

2. ريتشارد بيرتون (Richard Francis Burton): مستكشف وجغرافي ومغامر ودبلوماسي وأديب ومستشرق إنجليزي. صاحب رحلة: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز. ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ج1، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1994.

3. S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 83-84

وقد تحدث "جيل لوكليرك" هو الآخر عن تلك الأشجار قائلاً: «هنا وهناك تلاحظ أشجار مقدسة تتدلى على أغصانها، وفاء بالنذر، أسمال من قماش أحمر.»<sup>1</sup> إن مثل هذه الصور أسست لانتشار البدع والجهل بين الجزائريين في تلك الفترة، وقد زادت مثل هذه المشاهد من شدة احتقار الأنا الغربي للآخر الشرقي الغارق في الخرافة والجهل الناتج عن إيمانه بأشياء لا تتوافق مع عقيدته الإسلامية التي تدعوه إلى تحكيم العقل.

أما الأسير الفرنسي "تيدنا" فيعبر عن دهشته من الجهل الذي ألم بالجزائريين الذي كانوا يطلبون أن يكتب لهم تائم تساعدهم في قضاء حاجاتهم أو تحصين أنفسهم معتقدين أنه «رجل يمكنه تعويضهم في خرافاتهم بشكل أنهم كانوا يقدمون إلي ويتوسلون لي في كل وقت حتى أقدم لهم بعض الكتابات التي تجعلهم محبوبين من امرأة أو من سيدهم، أو تجعلهم قادرين على تحدي طلقات البنادق. كنت أتسلى لكل هذه المطالب التي تعلمني جيداً ببلادهم. والشيء الذي حيرني أكثر هو مشاهدة من بين هؤلاء الجاهلين، يوجد في بعض الأحيان أناس مستقيمون ولهم مناصب عالية، يأتون إلي ويطلبون مني نفس الشيء.»<sup>2</sup> إن هذه الصورة السوداوية التي رسمها "تيدنا" عن الآخر الجزائري في تلك الفترة لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، فهناك الكثير ممن يؤمنون بمثل هذه الخرافات ويستعينون بالدجالين والسحرة من أجل مساعدتهم في تحقيق ما عجزت أيديهم عن فعله، ولو كلفهم ذلك التعدي على الدين والفكر الإنساني السامي ولعل مرد ذلك فراغ ثقافي أكثر منه فراغ ديني.

أخيراً لا يمكنني إنكار ما جاء به الرحالة الأوروبيون، فالجزائري كغيره من الشرقيين يؤمن بالسحر والكثير من الخرافات، والمعتقدات الغريبة التي لا تمت للمنطق بصلة، ويلجأ إلى الكثير من الطقوس على غرار السحر والزرادة وغيرها من الأوهام التي تروج في الشرق، ومع ذلك لا بد من الإشارة إلى أن «أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عبر رسم صور دنيا لهم، بواسطة مخيلة جائعة إلى السحري

1. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر

لكنيزي، ص: 176

2. عميرايو احميدة. الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجاً). ص: 83

والأوروبي والعجائبي، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم... ركز أساسا، على تتبع ملامح النهضة العلمية والصناعية، وتطور العمران، ومظاهر العصرية ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق...<sup>1</sup> وهذا ما كرسه صفة الغرائبية والاكزوتيكية المفرطة في هذه البقاع من العالم بسبب تركيز الإنسان الغربي على الصورة النمطية المندسة في فكره.

### 5. الرقص الجزائري

لا يخلو الحديث عن عوالم الشرق من الخوض في موضوع الرقص الشرقي لما له من خصوصية تميزه عن الرقص الأوروبي، فنصوص الرحلة الأوروبية التي تفتنت في إعطاء صورة كاملة عن المرأة العربية أشارت أيضا إلى براعتهم في الرقص.

يعبر الكاتب الفرنسي "أندريه جيد" عن سخطه من طريقة رقص النساء في "بسكرة" قائلا: «هنا بين الدعائم التي تفتقد إلى الإبداع في القاعة القليلة الإضاءة ترقص نساء بديئات لسن جميلات إلى حد الغرابة. نساء مفرطات في الزينة، يتحركن ببطء. وقوة اللذة التي يبعلن، قوية وسرية مثل الموت... بعض العرب الحالمين ينظرون إلى الراقصة وهي تتلوى على إيقاع موسيقى لا تتغير مثل ضجيج موجة متدفقة.»<sup>2</sup> يبدو أن طريقة الرقص وكذا مظهر الراقصات لم يرق كثيرا للأديب الفرنسي الذي يفسر طريقة رقصتهن بالمملة والثابتة، فطريقة الرقص هذه قد خرقت أفق التوقع لدى الرحالة الذي سمع كثيرا عن الرقص الشرقي الذي استهوى الأوروبيين كثيرا لدرجة أن الكثير منهم قد قرر السفر إلى المشرق طمعا في استكشافه عن قرب والتمتع بجمال طبيعته وكذا نساءه.

يصف البلجيكي "جيل لوكليرك" رقص نساء "بسكرة" هو الآخر بالسيئ وغير المحتشم قائلا: «لا يمكن أن نغادر بسكرة دون مشاهدة النايلات يرقصن؛ إنهن العالمات أو راقصات الصحراء... إذا لم أتحدث عن رقص النايلات فذلك بسبب كونه غير محتشم تماما: وسيكون وصفه تقريبا للحياء على القارئ. لا يمكن أن نعذر عاثرات الحظ هؤلاء

1. خالد التوزاني. الرحلة وفتنة العجيب... بين الكتابة والتلقي. دار السويدية للنشر والتوزيع، أبوظبي، ط1، 2017،

ص: 08

2. أندريه جيد. رحلة إلى شمال إفريقيا. ترجمة: محمود عبد الغني، ص: 06

سوى بسبب جهلهم المطلق بقواعد الآداب الأساسية.<sup>1</sup> نقل الرحالة صورة سلبية عن رقص المرأة البسكرية، وعموما فالرقص الجزائري لم يرق كثيرا لمعظم للرحالة الأوروبيين؛ وقد يكون السبب في نظرة هؤلاء إليهن نظرة أوروبية لا تؤمن بالتنوع والاختلاف الثقافي بين الشعوب، أو أن هذا الرقص قد خرق أفق التوقع مثلما أسلفت الذكر.

لكن "أندريه جيد" لا يخفي رضاه وإعجابه بطريقة رقص نساء مدينة "توقرت" قائلا: «البنات يرقصن هنا أحسن من "بسكرة". كما أنهن أكثر جمالا. لم أرهن يرقصن جيدا إلا هنا. لقد عدنا غير متعبين، إلى هذه الرقصة الصعبة المثاقلة. كل الأيدي تقريبا وكل المعاصم، المحتشمة جدا أو الطائشة تكاد تكون متعبة بهذه الموسيقى المتتالية، السريعة، المنفلتة، المسكرة تقود إلى النشوة، التي لا تصمت عندما تغادرها، بل تلازمي أيضا طيلة ليال مثلما تلازمي الصحراء.»<sup>2</sup> إن هذا المشهد يظهر اختلاف طريقة الرقص من منطقة إلى أخرى، نظرا لاختلاف عادات وتقاليد وثقافة كل منطقة، فالرحالة الذي لم يبد إعجابه برقص البسكريات، قد وجد ضالته أو ما يروق له من الرقص في مدينة "توقرت".

أما "غي دو موبسان"، فقد استغرق صفحات كثيرة في وصفه لطريقة الرقص عند نساء بوقراري قائلا: «قامت اثنتان من بنات أولاد نايل للرقص: وقفنا في أقصى نقطة وتركنا فراغا بين الكراسي وبينهما. تعتبر رقصتهما عبارة عن مشي لطيف يعطيه الكعب إيقاعا فتتحرك خلاخل الرجل. على إثر كل دفقة يتلوى الجسم على شكل عرج، وأيديها مرفوعة وممددة حتى مستوى العيون. تدور بهدوء مع رعشة نشطة وانتفاضة سريعة للأصابع. الوجه مائل بعض الشيء، صارم هادئ ممدد وجامد بشكل مثير فيبدو غامضا، تبقى النظرة مركزة باتجاه تعرجات اليد كما لو كانت مأخوذة بهذه الحركة اللطيفة التي تقطعها كل مرة انتفاضة الأصابع. تتحرك راقصة أخرى باتجاه الأخرى، وعندما تلتقيان تتلامس أصابعهما. تبدوان كأنهما ترتعشان، وسطهما يقلب وينزل فيتحرك خمار

1. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب والجزائر. ترجمة بوشعيب الساورى، مراجعة الطاهر

لكنيزي، ص: 222

2. أندريه جيد. رحلة إلى شمال إفريقيا. ترجمة: محمود عبد الغني، ص: 22

الدانتيل المثبت على الرأس وينزل إلى الرجلين، تتماسان وترتميان إلى الخلف كأنه سيغمى عليهما في حركة حلوة كحمام عاشقة. يخفق الخمار الكبير كجناح، ثم فجأة تستقيم الراقصتان وتسكنان من جديد. بعد ذلك تفترقان وتكمل واحدة منهما ترحلقها البطئ والأعرج إلى خط الجمهور.<sup>1</sup> انطلاقاً مما جاء به الرحالة يمكن القول، إن طريقة الرقص تختلف من منطقة إلى أخرى، فما جاء به "موبسان" يمكن وصفه بالصورة الإيجابية عما جاء به "أندريه جيد" مما ينم عن التنوع الثقافي من منطقة جزائرية إلى أخرى.

### 6. صورة الجزائري الجاهل

يصف الأسير الفرنسي "تيدنا" الجزائريين بالأميين لأنهم انبهروا كثيراً بمكتبته الصغيرة المتنقلة، فالأهالي المحيطون به كانوا «يندهشون لرؤية كتب كثيرة. وفعلاً فإنهم لم يروا قبلها مثلها إنهم شعب جاهل إلى حد أنه لا يوجد في معسكر وهي مدينة كبيرة نوعاً ما، أكثر من 100 شخص يحسنون القراءة، وهذا الجهل يعطي احتراماً بسيطاً إلى كل من يعرف ولو حرفاً واحداً من القرآن، وينظر إليهم من بسطاء الشعب كقديسين.<sup>2</sup> يبدو أن "تيدنا" يببالغ كثيراً وهو يحكم على أهل معسكر بالأميين، فالكثير من الرحالة الذين زاروا الجزائر في تلك الحقبة صرحوا بأن نسبة الأمية تكاد تكون منعدمة في الجزائر، فلا يمكن أن تصادف رجلاً لا يحسن القراءة والكتابة وهذا ما يجعل من كلام "تيدنا" محل شك! لذلك، فأنا أرى في وصف الجزائري بالأمي لمجرد اندهاشه بالمكتبة الصغيرة المتنقلة التي صنعها "تيدنا" لنفسه مبالغة وإجحافاً كبيراً في حقه.

يتحدث "تيدنا" عن البساطة والبدائية التي يعيشها الجزائري بنوع من التهكم والسخرية وهو يصف طبيعة لقاءاتهم مع بعضهم البعض قائلاً إنهم: «لا يعرفون استعمال الكراسي، فإنهم يجلسون حيثما تلاقوا ولو كان ذلك وسط الطرقات، هنا يتسامرون ولم تكن أحاديثهم - وهم يدخنون غليونهم ويمررونه من أحد إلى آخر - إلا حول خيولهم أو أشياء تدل على غباوتهم، فإذا سألت أحدهم مرة عن عمره أو سنة زواجه يقول دائماً بأنه

1. غي دو موبسان. رحلة إلى بلاد الشمس. تر: نادية عمر صبري، ص: 40

2. عميرايو احميدة. الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجاً). ص: 82، 83

ولد أيام حكم باي معين أو عندما كانت البناية المعينة تبنى. وإنه تزوج من زمن كذا أو كذا وهذا ما أكد لي تماما جهلهم.<sup>1</sup> إنه من الطبيعي أن يتحدث أسير فرنسي عن الجزائري بهذه الطريقة، فظروف المعيشة في الجزائر تختلف كثيرا عن أوروبا التي قطعت أشواطاً طويلة في التقدم سواء ما تعلق بالصناعات والتنظيم الإداري مقارنة بالعالم العربي الذي ظل يعاني لسنوات طوال من الحروب التي حرمت شعوبه من التمدن؛ فضلا عن اختلاف العادات والتقاليد العربية عن الأوروبية.

### 7. صورة الزواج التقليدي

إن اهتمام الأنا الأوربي بالآخر الجزائري دفعه إلى تقصي أبرز عاداته وتقاليدته ومن ذلك ما أورده الرحالة الإنجليزي "ليدر" حول اختلاف عادات الزواج بين القبائل الجزائرية، وكثيرا ما يكون السبب الرئيس وراء هذه الاختلافات الحالة المادية للعائلتين ومع ذلك، فإن لها الكثير من السمات المشتركة. إذ يعلق الرحالة على المرحلة التي تسبق الخطبة قائلاً: «إن أول شيء يفكر فيه والدا العريس هو كم يمكنهم إعطاؤه للزوجة المستقبلية أما الشيء الثاني فأين بإمكانهم العثور عن الفتاة الجميلة التي تليق بابنهم... عندما تقرر والدة الرجل الذهاب أخيراً لرؤية إحدى الفتيات تخضع تلك الفتاة لتدقيق كبير، حيث يجب أن تتمتع بمظهر جميل عيون واسعة، وصحة جيدة، وتكون مطيعة، فضلا عن قدرتها على الطهو، وغيره من الأعمال المنزلية.»<sup>2</sup> إن ما أشار إليه "ليدر" يمكنني وصفه بواقع الزواج في المجتمعات الشرقية، فالظروف المادية الجيدة تسهل عملية الزواج، أما عن دور الأم في تلك الفترة فقد كان جوهريا؛ لأنها تتوب عن ابنها مما يحتم عليها حسن الانتقاء. كما يستشهد الرحالة بمثل عربي حول موعد نضوج المرأة العربية وجاهزيتها للزواج قائلاً: تصبح الفتاة جاهزة للزواج بمجرد أن تبدأ النظر في المرأة!

ويشير الرحالة إلى إجبار الوالدين للشباب على الزواج من الفتاة التي أعجبتهم دون الأخذ برأيه، «فالشباب يفاجأ بأنه سيتزوج وأن زوجته قد تم اختيارها لأنها جميلة

1. المرجع السابق، ص: 92

2. S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 202

وساحرة. فينحني الابن لإرادة أبيه، ويذهب حلم خطيبته التي أحبها.<sup>1</sup> إن ما أورده الرحالة صحيح، ففي تلك الفترة كان الوالدان يتحملان مسؤولية اختيار زوجة ابنتهما وهذا ما يمكن وصفه بالتضييق على حرية أبنائهم، حيث يتم إجبار الأبناء على تقبل اختيار والدته على وجه الخصوص، فيتم الاختيار انطلاقاً من قلبها الخارجي.

ينحو الأسير الألماني " فندلين شلوصر " منحى "اليدر" في حديثه كيفية اختيار الجزائري لزوجته، حيث يذكر أن الشاب القسنطيني لا يمكنه أن يقيم علاقة شخصية مع فتاة لأنه لا يمكن أن يجد طريقاً لدخول بيتها، وإذا ما أراد شخص خطبة فتاة ما، فإنه يرسل يهودية إلى بيتها لكي تعرض عليها طلبه، فإن وافقت الفتاة فإنه يتوجه إلى أبيها، حيث يتم الاتفاق بينهم على المهر الذي يتراوح في تلك الفترة حسب الرحالة عادة بين 75 و100 ريال. ثم يحدد يوم ليذهب الأب مع ابنته والعريس إلى القاضي لعقد قرانهما، ويتقاضى على ذلك ريالاً واحداً كرسوم، فيتم العقد.

يرى "شلوصر" أن العربي (البدوي) أكثر حرية في اختيار زوجته ذلك أنهم يتزاورون في خيامهم وهذا ما يسمح لهم بالتعرف على النساء وبناتهن، فإذا أعجب رجل بفتاة، فإنه يحاول أن يعقد صفقته مع أبيها دون الحاجة إلى وسيط، فإن اتفق معه اشترى للعروس لباساً، يتكون من قميص فضي أبيض، ولباساً عادياً بكمين طويلين (قندورة) وحائكاً يتراوح طوله بين 6 و7 أذرع، وتتخلله عادة خطوط بيضاء أو حمراء يلقى فوق اليدين والكفين، ويلف حول الجسد ويمسك بإبر فضية.<sup>2</sup>

أما الرحالة الإنجليزي "هيلتون" الذي حضر إحدى حفلات الزواج بعد إلحاح كبير من سكان الأوراس، فقد تمكن من نقل أجواء هذه الاحتفالات والمراحل التي تسبق الزواج بالتفصيل الممل<sup>3</sup>، مستشهداً ببعض الأعراف التي تقتدي بها بعض العائلات الشاوية قائلاً: «أبناء الأثرياء يتزوجون بطريقة سخيفة في سن مبكرة، أما في العائلات

1. المرجع نفسه، ص: 202

2. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 92

3. M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains. Pp: 52,55 ينظر : 3

الفقيرة -مثل هذه العائلة التي استضافتنا في الولجة من أجل حضور حفل زفاف ابنهم- فيجب على الرجل أن يتمكن من الحفاظ على زوجته،... بعد حفل الزفاف تمنح العروس غرفة وتصبح العروس مساعدا لوالدة زوجها، فتكلف بالكثير من المهام اليومية التي تقوم بها نساء البربر، وهذا ما لا نجده في المجتمعات المتحضرة حيث تشكر الحماة زوجة ابنها إن ساعدتها في موقف ما... مع مرور الوقت تتطلع الزوجة الشابة إلى الإنجاب لأنها تخشى من الطلاق إن لم تتجب... لكن بمجرد تمكنها من الإنجاب وخاصة إذا كان المولود ذكرا تضمن عقد إيجار جديد مع زوجها.<sup>1</sup> ينقل الرحالة صورة سلبية عن الزواج عند البربر بحيث يبدو له سخيفا نظرا لزواج الشاب في سن مبكرة وطاعة الزوجة لحماها واستقرارها معها إلى أن تتجب ذكرا، كل هذه العادات النابعة من طبيعة المجتمع الجزائري كمجتمع ذكوري له تقاليد وخصوصياته الثقافية التي تختلف عما هو سائد في بلد الرحالة الأوروبي من تحرر في اختيار الزوجة أو الزوج واستقلالية كل منهما قبل وبعد الزواج عن الأسرة، لذلك كان على الرحالة نقل الصورة بموضوعية دون المبالغة في الإساءة للجزائري والسخرية من عاداته.

يشير البحار الفرنسي "تيدنا" إلى واحدة من العادات التي لا تزال قائمة في المجتمعات العربية، فبعد دخول العريس على زوجته يجدها «وحيدة، جالسة على سرير، مزينة يغطي وجهها منديل من الحرير. وبعد إتمام الزواج يدخل الأب ويخرج العريس ليعود إلى المدعوين. يجرّد الأب ابنته ويأخذ قميصها الذي يهدأ من روعه، فيريه لكل ضيوفه ثم يرسله إلى الأصدقاء ليبرهن للجميع على عفاف ابنته.»<sup>2</sup> لا تزال الكثير من المجتمعات العربية تبرهن على عفاف نسائها بإظهار قميصها بعد إتمام الزواج بين العروسين ذلك أن المجتمعات العربية تربط شرف المرأة بعزيرتها وهذا ما يعد إجحافا في حق المرأة.

يتحدث "تيدنا" عن الخلع الذي تطلبه المرأة من القاضي في حالة إذا قصر الزوج في واجباته نحوها. مشيرا إلى تبعات الطلاق أو الخلع وأثره الكبير على الأطفال

1. المرجع السابق، ص: 219

2. عميراي احميدة. الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا). ص: 90

متهما المرأة العربية بعديمة الحنان قائلا: «وقد كان هذا شائع جدا وأراه -كمسيحي- سيئا جدا وخاصة إذا كان بينهما أطفال حيث يحدث في هذه الحالة أن يأخذ الأب الذكور من أبنائه، تأخذ الأم البنات منهم وينفصلان إلى الأبد. هذا ما لا نراه عند المسيحيات إذ أن الأم المسيحية تتمنى الموت على أن تترك ولدها إلى الأبد، أما هنا فالنساء الموريات يتخلين عن أبنائهن من دون أن يشعرن باي ألم (عدا حالات شاذة) وقد شاهدت بعض هذه المناظر الفظيعة.»<sup>1</sup> لقد شرع الإسلام الخلع ما توفرت شروطه، فمن حق المرأة أن تطلب الخلع مثلما يطلب الرجل الطلاق حتى لا يظلم أحدهما الآخر، والظاهر أن "تيدنا" لا يعلم أن أبغض الحلال عند الله الطلاق نظرا لتأثيراته السلبية خاصة على الأبناء الذين وزعهم "تيدنا" بين الأب والأم بطريقة مشبوهة، فحسبه الرجل يأخذ الأولاد والمرأة تأخذ الإناث للأبد وهذا ما يتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي الذي يعطي حضانة الأطفال الصغار (غير البالغين) للمرأة ما لم يختل شرط من شروط الحضانة كما أنه من غير المنطقي أن يأخذ الزوج أو الزوجة الأبناء إلى الأبد ويحرم الطرف الثاني من رؤية أبنائه وهذا ما غاب عن "تيدنا" وإن سلمنا بوجود مثل هذه الحالات التي يتحدث عنها "تيدنا"، فلا يسعني القول إلا أنه تمرد صارخ على أحكام الدين الإسلامي نظرا لقصر يد القضاء في تلك الفترة مقارنة مع وقتنا هذا، وإن كانت صورة جزئية ونسبية لا يمكن تعميمها على كل جزائري.

### 8. صورة الأسرة الجزائرية

يصف الاثنوغرافي الإنجليزي "هيلتون سيمسون" طبيعة العلاقة التي تربط الرجل العربي بزوجته بالفاترة بينما يكون حنونا مع أبنائه، «فالزوج العربي يكون حنونا لفترة وجيزة مع عروسه الجميلة، وأنه عادة ما يكون متساهلا مع أبنائه، كيف ينظر إلى الجنس الأنثوي بشكل عام؟ وهذا ما يجعل فهم الأوروبيين للعقل الشرقي أمرا مستحيلا.»<sup>2</sup> إن ما أورده الرحالة يمكن وصفه بأنه محاولة للانتقاص من قيمة الآخر العربي الذي كثيرا ما

1. المرجع السابق، ص: 91

2. M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains. Pp: 34

تصوره الكتابات الأوروبية على أنه إنسان شهواني تحكمه الغريزة فقط، وبذلك يسقطون عنه صفة الإنسانية، ونحن إذ نقول هذا الكلام فإننا لا ننفي واقعية الصورة التي أوردها الرحالة؛ ولكن الانتشار الكبير للصور المشوهة التي تستهدف الإنسان العربي أساسا ساهمت بشكل كبير في تذبذب العلاقة بين الشرق والغرب، الأمر الذي يستدعي من القارئ التثبت والتريث والتأني في التعامل مع مثل هذه الكتابات التي تحمل بين ثناياها أحكاما جازمة عن الآخر العربي.

ينقل الرحالة الألماني "شيمبر" -المهتم كثيرا تفاصيل الجزائري - في المقابل صورة مغايرة تماما لما أورده الإنجليزي "هيلتون سيمسون" قائلا: «وقد أتيح لي أن أراقب أسرة كانت تسكن بجواري. فحين يعود الرجل إلى البيت تستقبله الزوجة معانقة إياه مقبلة. وتجلسه قريبا فوق الأريكة وتحدثه ويحدثها، ويسرع الأطفال كذلك إلى أبيهم فرحين، فيضمهم إلى صدره في حنان وحب ويأخذ في مداعبتهم.»<sup>1</sup> إن المتأمل لهذه العلاقة الطيبة التي تجمع بين أفراد هذه الأسرة الجزائرية يدرك حتما أن الأسرة الجزائرية كغيرها من الأسر العربية المسلمة مبنية على أسس متينة أهمها الحب، والمودة اللذان أمر بهما الدين الإسلامي. ف: "شيمبر" يفند الادعاءات التي تصف الرجل الشرقي باللائسانية على غرار ما جاء به الإنجليزي "هيلتون".

وأخيرا يمكن القول إن احتكاك الرحالة الغربيين بالجزائريين سمح لهم بنقل مختلف الصور الثقافية، فتباينت بين صور إيجابية كصورة المتعلم وصورة الحرفي المبدع والفارس وبين صور سلبية كصورة الجاهل، وقد كانت هذه الصورة واقعية كونها مرتبطة بالسياق الاستعماري، كما نقل الرحالة الأوروبيون صورا سلبية أخرى عن عادات وتقاليد الجزائريين في الرقص والزواج التقليدي، فكانت أحكامهم نابعة من اختلاف الخصوصيات الثقافية بين الشرق والغرب. فضلا عن الصورة الغرائبية عن الجزائري، والتي تعد واقعية وموضوعية أيضا لكن ينبغي أن نشير إلى أن الغرائبية ليست حكرا على المجتمع الجزائري، فهي موجودة في كل المجتمعات البشرية وفي كل الحضارات الشرقية والغربية، غير أن تحكم الصورة النمطية المندسة في فكر الأوروبيين عن الشرق

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 12

العجائبي الساحر، هو ما جعل اللاوعي موجه دائما نحو تقصي وتصوير كل ما هو غريب في هذا المجتمع من طرف الرحالة الأوروبيين.

### ثانيا: الصورة الدينية

أولى الرحالة الأوروبيون عناية بالغة بوصف الحياة الدينية للجزائريين، نظرا لأهمية الدين والمعتقد بالنسبة للفرد والمجتمع باعتباره مكونا أساسيا من مكونات الهوية، حيث تمكن البعض من زيارة أماكن العبادة، ووصف مختلف الشعائر، والاحتفالات الدينية التي يقيمها الجزائري.

#### 1. صورة الجزائري المسلم

نقل الرحالة الأوروبيون العديد من الصور والمشاهد التي توحى بتدين الجزائريين وامتثالهم لتعاليم الدين الإسلامي والتي نجملها فيما يلي:

##### 1.1. صورة الجزائري الملتزم دينيا

خصت "إيزابيل إبيرهارة" -كونها مسلمة- جزءا من رحلتها لتصوير الحياة الدينية في الجنوب الجزائري الكبير، فتحدثت عن أجواء الصلاة في المساجد، وعن الاحتفالات التي يقيمها الصوفيون في زواياهم كما تحدثت أيضا عن الأولياء الصالحين الذين كانوا يحظون باحترام السكان.

ترى "إبيرهارة" أن مدينة وادي سوف تمثل منارة للإسلام وشعلة للإيمان والتوحيد، فهناك في البعيد «خلف البحر الأزرق، وخلف التل الخصب، وخلف الأوراس الكثيب، والسبخات الكبرى، التي ستجف توجد الأرض المحروقة، أرض صوف، الأرض الصلبة واللامعة، حيث تتوقد شمعة الإيمان الملتهبة، وينتصب مع كل خطوة مسجد أو قبة أو مقام ولي، أو قبر خارق، وحيث الصوت الديني الوحيد هو الآذان الإسلامي الذي يردد خمس مرات، وحيث الصلاة وحيث الإيمان... هناك رجال ببرانص حمراء يلجون مع الضباب المنازل الكثيبة ذات القباب، أو يجتمعون على حصائر القصب في مقهى بلقاسم

ببياشي. وهناك الزوايا المقدسة ورؤساؤها المجلون.<sup>1</sup> لقد شعرت "إيزابيل إبيرهارت" بحلاوة الإسلام، وهي بين سكان "وادي سوف"، فكل شيء في هذه الأرض يشع بالإيمان ويوحى بتدين الآخر السوفي، كما أن تواجدها بالمنطقة سمح لها بالتعرف على الزاوية القادرية التي تلقت مبادئها وأصبحت واحدة من رواد وخدام الزوايا بعد استقرارها بالمدينة سنة 1900.

تستمر الرحالة في سرد مختلف الصور والمشاهد التي توحى بتدين "السوفي" وهي تشاركنا كيفية استجابة سكان "الوادي" لنداء المؤذن للصلاة كغيره من سكان الجنوب الذين تستهويهم الصلاة، فيلبون النداء دون تكاسل، فما إن يتردد «صوت جهوري بطيء من كل المساجد الكثيرة الله أكبر الله أكبر آه كم ترن غريبة هذه النداءات الأليفة للإسلام، كما لو أنها شوهدت وأعتمت بفعل أصوات المؤذنين الفضة والخشنة ولكنتهم الصحراوية وينزل شعب بأكمله من كل الكثبان والأودية الصغيرة التي تبدو خالية وقد لبسوا لباسا أبيض موحدًا في صمت وخشوع قاصدين الزوايا والمساجد.»<sup>2</sup> يكفي أن نتأمل قول الرحالة (ينزل شعب بأكمله من الكثبان والأودية) حتى ندرك حجم تعلق الصحراوي ممثلاً في السوفي بالصلاة التي تعد عماد الدين الإسلامي. فالمتأمل في وصف "إبيرهارت" لإقبال الجزائريين على الصلاة يظهر تمسك والتزامهم بتأدية العبادات المفروضة عليهم.

وتوحى بعض الصور بتجذر الإسلام في الجنوب الجزائري الكبير من خلال ما أوردته "إيزابيل" عن كيفية استجابة سكان المسيلة لآذان الفجر «...سمعت أيضاً، كما لو أن ذلك يأتي من بعيد، الصوت الملح لرجل كان مع ذلك قريباً جداً، على عتبة المقهى، يوقظ النائمين قائلاً: "الصلاة خير من النوم" وأخذت أشكال بيضاء تهتز، وتتمطى وتنهض، وبدأت القرب تصدر أصواتاً وهي تحتك بحواف المغاسل. ثم غرق كل شيء في عتمة العدم لنوم ثقيل.»<sup>3</sup> تشير هذه الصورة التي وصفت بها الرحالة إقبال سكان

1. إيزابيل إبيرهارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام

المودني، ص: 86

2. المرجع السابق، ص: 49

3. المرجع نفسه، ص: 127

الصحراء على صلاة الفجر إلى تمسك الآخر "المسيلى" الشديد بصلاته التي استقى منها أخلاقه النبيلة، وتؤكد على انتشار الإسلام في كل ربوع الجزائر.

تُعبرُ "إيزابيل إبيرهارت" عن إحساسها العميق بالراحة والأمان وهي في بيت الله قائلة: «آه ما أجمل أن أستلقي على زرابي أحد المساجد الهادئة، بعيدا عن الصخب البليد للمدينة الملوثة، بعينين مغمضتين، بينما أرفع عيني الروح باتجاه السماء، وأنصت إلى الأبد إلى نشيد انتصار الإسلام.»<sup>1</sup> ليس هناك مكان يمكن للمرء أن يشعر فيه بالراحة والسكينة غير المساجد، هذا الهدوء الذي لفت انتباه حتى المسيحيين الذين سمحت لهم الفرصة بالدخول للمساجد على غرار الألماني "فاغنر" والفرنسي "موبسان"، وغيرهم.

بينما يعبر "غي دو موبسان"، عن إعجابه واندهاشه في الوقت ذاته من طريقة تأدية الصلاة في جامع الجزائر الكبير -الذي دخل إليه وحضر أجواء الصلاة- والتي وصفها بقوله: «يدخل العرب بسرعة، وهم حفاة، يحملون أحذيتهم في أيديهم. يصطفون في صفوف طويلة ومنظمة، متباعدة عن بعضها البعض يستقيمون كأنهم جنود يخضعون لتمرين... ويظلون بلا حراك كما أنهم التماثيل، ويولون وجوههم اتجاه القبلة. صوت الإمام في هذا المسجد لطيف جدا يمتاز بنبرة حزينة لا تنسى، يغير الإمام نغمة التجويد من فترة إلى أخرى. يقوم المصلون بحركات موحدة أثناء السجود والركوع لا نسمع لهم ضجيجا... إنه جو رائع يمتزج فيه الخشوع والنظام وتتابع الحركات... لا يمكن لأي كان أن ينظم هؤلاء العرب المتعصبين بهذه الطريقة غير الدين الذي يشعرون بالرهبة والخشوع والانتظام إنه منظمون كأنهم جنود بروسيون يستعدون للقيام بمناورة.»<sup>2</sup> لا يخفي "موبسان" إعجابه الشديد بطريقة صلاة الجزائريين وخشوعهم، حتى أنه فضل وصف انضباطهم وتنظيمهم لصفوفهم بانتظام الجنود البروسيين الذين يستعدون للمعركة؛ بحكم أن "موبسان" قد شارك كجندي في الحرب الفرنسية البروسية. ولا تتضمن هذه الصورة جانبا إيجابيا فحسب، بل احتوت على موقف سلبي اتجاه العرب كونهم متعصبين، وإن كان التعصب موجودا في جميع الأمم عربية كانت أم غربية، إلا أن هذا الوصف الذي

1. المرجع السابق، ص: 384

2. Guy de Maupassant .au soleil 1884. Pp:41

نقله الرحالة نبع من الصورة النمطية التي كرسها الثقافة حول العربي والعربي المسلم خاصة؛ كونه متعصبا ومتوحشا وغيرها من الصور المسيئة إليه، وهي صور مندسة في اللاشعور الجمعي تجدد نفسها باستمرار لتظهر في الخطابات والسلوكيات والمواقف بشكل عام.

ويصف "موبسان" الأجواء داخل المسجد قبل إقامة الصلاة قائلا: «تقدمت فوق السجاد وسط الأعمدة الناصعة المنتظمة التي يكتظ بها هذا المسجد الصامت والفسيح والمنخفض... بعضهم ساجدون وآخرون واقفون، يرددون بصوت منخفض بعض الآيات القرآنية في أوضاع معينة، ويتحدث آخرون بصوت منخفض وهم جالسون على الأرض على طول الجدران... كل شيء هادئ داخل هذه الملاجئ، ملاجئ الإيمان، المختلفة تماما عن كنائسنا المزينة المثيرة، التي عندما تكون مليئة، تصدح بأجيج القداس وحركة الحضور وأبهة الاحتفالات والأغاني المقدسة. وتصبح حزينة، مؤلمة إلى درجة تصيب القلب بالكآبة عندما تكون خاوية، كأنها غرفة شخص يحتضر، غرفة باردة من الحجر الذي مازال المصلوب يحتضر فوقه.»<sup>1</sup> قدم "موبسان" صورة إيجابية عن أماكن العبادة عند المسلمين مقارنا بين المساجد المليئة بالمصلين طوال اليوم، فيشعر الزائر لها بالهدوء والسكينة والدفء عكس الكنائس التي تكون في معظم أوقاتها خاوية وحزينة، فنثير الخوف والرعب.

لفت انتباه "موبسان" دخول العرب غير المنقطع للمسجد هذا الصرح المقدس الذي يجمع جميع فئات المجتمع، فيدخله «المتواضع والغني، حمال الميناء والرئيس القديم. النبيل في لباسه الحريري الناصع، كلهم حفاة الأقدام ويؤدون الحركات نفسها، يعبدون الإله نفسه بالإيمان المتقد والبسيط عينه، دون راحة ولا تسلية... إنهم مستسلمون مأسورون بقدرة المولى.»<sup>2</sup> مما هو معروف عن الدين الإسلامي أن جميع الناس سواسية عند الله، فلا فرق بين أبيض و أسود أو غني وفقير إلا بالتقوى، فكل المصلين يتجهون

1. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 102، 103.

2. المرجع نفسه، ص: 103

إلى قبلة واحدة دون تمييز بين طبقة وأخرى متضرعين لله الواحد الصمد، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الصورة الواقعية نصادفها في كل البلدان المسلمة.

يصور الجغرافي البلجيكي "جيل لوكليرك" طريقة أداء المسلمين للصلاة في أحد المساجد التي زارها قائلاً: «حين دخلت المسجد كان وقت الصلاة، رأيت ما لا يرى أبداً في قرطبة، كان المسلمون مصطفين بتناظر تخت الأقواس الموريسكية داعين الله. يذكرنا ترتيلهم البطيء والصارم بغير وضوح بترتيلنا الغريغوري، ومن حين لآخر كانوا يسجدون سوية دفعة واحدة ملصقين جباههم بالأرض، وتخيلت أسلافهم بقرطبة يرتلون ويسجدون بنفس الطريقة، منذ ستة قرون. حين انتهت الصلاة خرجوا في صمت، انتعلوا بلاغيهم التي كانوا قد تركوها بباب المسجد وذهبوا للتوضوء.»<sup>1</sup> لا يخفي الجغرافي البلجيكي هو الآخر إعجابه بطريقة تأدية المسلمين لصلواتهم، لكن الشيء الذي يضيء على رحلته أهميته هو مقارنته المستمرة بين ما يراه انطلاقاً من رحلاته السابقة، مما يجعل من رحلته مصدراً غنياً بكثير من المعلومات.

يظهر الاثنوغرافي الألماني "موريس فاغندر" نوعاً من الاهتمام الزائد بتفاصيل الجزائريين خاصة ما تعلق بالجوانب الدينية، "فاغندر" يقدم وصفاً للمؤذن الذي يدعو المسلمين إلى الصلاة قائلاً: «ويقف المؤذن بثيابه الجميلة وسط أضواء المصابيح، ويرفع العلم الأبيض ثم يدعو المؤمنين إلى الصلاة. وليس هنا مسلم راشد لا يسرع إلى تلبية النداء فلا الشيخوخة ولا الثروة تحول بينه وبين المضي إلى بيت الله.»<sup>2</sup> يصور "فاغندر" الجزائري في صورة المتدين والمحافظ على صلواته، فالجزائري حسب الرحالة لا يثنيه عن عبادة الله تعالى شيء.

لم يكتف "فاغندر" بتصوير المشاهد التي تبين مدى تدين الجزائري بل كان يحضر الصلاة معه بصورة منتظمة قائلاً: «مع أنني لم أكن مارقاً، وكان الفضول، تلك الرغبة الخاصة بنا نحن الألمان في مشاهدة المناظر الغامضة، يدفعني، كلما سمعت

1. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب والجزائر. تر: بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر

لكنيزي، ص: 147، 148

2. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 66

صوت المؤذن إلى المسجد، وكنت أحيانا أشارك في صلاة الجماعة الغامضة بالنسبة لي.<sup>1</sup> إن إعجاب "فاغنر" بمنظر المسلمين وهم يؤدون صلاة الجماعة دفعه إلى مشاركتهم الصلاة. لكن الشيء المهم الذي علينا أن الإشارة إليه هو مدى التسامح الذي أبداه الجزائريون مع الآخر المسيحي حيث سمحوا له بالدخول إلى المسجد شريطة أن يخلع حذاءه ويحافظ على طهارة وقداسة المكان كغيره من المسلمين.

أما عن أجواء الخشوع والتواضع لله والسكينة التي تصاحب الصلاة، فيقول "فاغنر": «يؤم الناس فيها شيخ الإسلام، فالمسلمون يصطفون خلف الإمام دون أن يقيموا وزنا للأصل والنسب، فهناك الحضر والأتراك والكراغلة والعرب والقبائل والبسكريين والزنوج، بحيث يكاد لكل ناحية من الجزائر من يمثلها. فيجلس التركي بثيابه الفاخرة إلى جانب البسكري المتسخ الثياب، والحضري الشاحب يبدو بجماله إلى جانب الزنجي المشوه، وكلهم متجهون بمشاعرهم المتعبدة إلى ذلك الجوهر الذي انبعثت منه ألغاز الألوان والأشخاص.»<sup>2</sup> لاشك أن هذه الصورة المنقولة من المجتمع الجزائري موجودة في كل المجتمعات الإسلامية، فلا فرق بين أعربي ولا أعجمي إلا بالتقوى.

يصور "فاغنر" مدى إلتزام الجزائريين في تطبيق الدين وخصوصا في أداء فريضة الصيام قائلا: «استخدمت أحد الجزائريين لاستعين به خلال بعض الرحلات التي كنت أقوم بها داخل البلاد، ف وقعت لنا حادثة مؤلمة، أضعنا فيها كل ما كان معنا من مؤونة، ففضينا أربعاً وعشرين ساعة في المناطق الشرقية من سهل متيجة بدون طعام، ووصلنا إلى مدينة الجزائر مع الفجر، فدفعت لمستخدمي البسكري أجرته وأسرعت لتناول فطوري. وبعد حوالي ساعة وجدته جالسا في الميناء فسألته ما إذا قد تناول طعامه، ولكنه أشار برأسه قائلا: ( الله أمر بالصوم) وقضى يومه كله هكذا حتى المساء، مع أن الجوع كان قد أنهكه، وظهرت آثاره في ملامح وجهه النحيف، وما كان ليتناول شيئا ولو قدم له نظير ذلك ما قدم. وما إن سمع طلقة المدفع حتى أخرج الخبز من قطنسوته وراح يلتهمه

1. المرجع نفسه، ص:66

2. المرجع السابق، ص:67

بجشع كالمجنون.<sup>1</sup> لقد اختزل هذا المشهد صورة الالتزام الديني بأداء فريضة الصوم من فاحترام هذا البسكري لحرمة رمضان وتقديسه له دفعه إلى تحمل مشقة الصيام لأكثر من 24 ساعة !

لكن "فاغندر" يقدم إلى جانب الصور الإيجابية صورا سلبية تسيء للجزائريين حين يصف طريقة انصراف المصلين بعد أداء الصلاة -التي تتم في خشوع ووقار- قائلا: «فيذهب الحضري إلى بيته حيث تستقبله زوجته مداعبة ومبتهجة، والعربي إلى باديته، والقبائلي إلى جباله. وفي طريقهم لا يتورع هؤلاء المصلون الأتقياء عن سلب إخوانهم في الدين أو قتل المسيحي الذي يجدونه وحيدا.»<sup>2</sup> تتضمن الصور التي قدمها الرحالة عن الجزائري المسلم -الملتزم بدينه والمتعايش مع الآخر المختلف عنه دينيا - تناقضا، إذ تصف هذه الصورة الجزائري المسلم بما ليس من صفات المسلم من سلب ونهب وقتل المسيحيين التناقض، فالإسلام ينهى عن قتل أو التعرض للآخرين دون سبب مقنع مهما كان جنسهم أو دينهم، لذلك فالتعميم الذي اعتده الرحالة في نقل صورة تسيئ للإسلام لا يعد خطابا بريئا، لأن مثل هذه السلوكات منافية لمبادئ الإسلام وإن كان ما شاهده "فاغندر" صحيحا، فإنه استثناء لا يقاس عليه ولا يوصف به المسلم، ولعل السبب وراء ذلك ما تتعرض له الجزائر من حملات صليبية وما خلفته هذه الأخيرة في نفس الجزائري، فعلى سبيل المثال لا الحصر الرحالة الألماني "ج.أو.هابنسترايت" قرر التوجه إلى تونس عقب تصاعد التوتر بين الجزائر وإسبانيا وهذا خوفا من ردة فعل الجزائريين.

ويقدم الرحالة الإنجليزي "ليدر" صورة عن كيفية تأدية صلاة عيد الفطر أو ما يصطلح عليها الفرنسيون "الصلاة الكبرى"، حيث يقول الرحالة: «في صباح اليوم الأول سنرى، على السهل في بسكرة العجوز، منظرا مثيرا للإعجاب بالنسبة لمعظم الأوروبيين، لا يحدث سوى مرتين في السنة." وجدنا عددا من الرجال العرب تم تجميعها بالفعل، بينما كانت مجموعات أخرى تأتي من كل الاتجاهات باستمرار، يرددون عبارات من القرآن حتى وصولهم إلى السهل الذي ستقام فيه الصلاة، وجلسوا في خطوط مستقيمة. وقد تم

1. المرجع نفسه، ص:68

2. المرجع السابق، ص:67

هذا بطريقة غريزية. وجوه المصلين تشع بالحماس الروحاني؛ بمجرد جلوس هؤلاء الرجال يبقون أعينهم نحو مكة، بالكاد يتحدثون ولو بكلمة واحدة مع بعضهم البعض... في الواقع، هم "أرواح في راحة" تتأمل كمال الله.<sup>1</sup> إن ما نقله الرحالة في هذه الصورة يعكس التزام الجزائري بأداء المناسك الدينية و العبادات المفروضة عليهم كغيرهم من المسلمين. فقد تمكن الرحالة من وصف أجواء صلاة العيد بدقة كبيرة، وكذا أجواء الخطبة والخشوع الكبير الذي ميز الصلاة فضلا عن وصفه للأجواء الودية والأخوية التي تعقب صلاة العيد.

ويضيف "ليدر" صورة أخرى معبرا عن دهشته من التغيير الذي طرأ على مدينة بسكرة لما لاحظ امتناع المدخنين عن التدخين والمرح مع حلول شهر رمضان الذي «يبدأ عندما يظهر قمر جديد، ويستمر حتى ظهور القمر الجديد الموالي، وخلال تلك الفترة يجب على المؤمنين الامتناع عن ذلك الأكل والشرب وجميع الشهوات، من الفجر حتى غروب الشمس. بإمكانهم الأكل والشرب حتى يتبين الخيط الأبيض والأسود من الفجر... وقد لاحظت أنهم يعانون فلا شيء يدخل أفواههم حتى أنهم يتجنبون رائحة العطر لأنها مفطرة، ويجب أن لا يستحموا، أو يبتلعوا الريق عمدا.»<sup>2</sup> كما لا يفوت الرحالة فرصة وصف كيفية استعادة المقاهي لحيويتها عقب الإفطار قائلا في لحظة معينة تم إطلاق النار، فاسترجع الناس حيويتهم، بعد أن تمت تهدئة العطش والجوع، فعمت البهجة الناس. وأصبحت المقاهي مكتظة، كما استعادت المنازل وأكشاك المرطبات نشاطها.<sup>3</sup> تقدم هذه الصورة الإيجابية التزام الجزائري المسلم بصيام شهر رمضان على الرغم مافيه من مشقة خاصة بالنسبة لسكان الجنوب الذين يجتهدون كثيرا في الشهر الفضيل ويتحملون مشقة الصيام والحر.

ولم تتوقف الصور التي نقلها الرحالة الأوروبيون عند شعائر الصلاة بل نقلوا صورا عديدة عن فريضة الصوم، فكان أن لفت انتباه "موبسان" -أثناء تواجده في الجنوب

1 .S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 48

2. المرجع السابق، ص: 44، 45

3. ينظر: المرجع نفسه، ص: 46

الجزائري- شدة صبر الجزائري على مشقة الصيام في المناخ الصحراوي القاسي إذ «يصوم الرجال والنساء والأولاد من سن الخامسة عشرة والبنات عند البلوغ، وكلهم يبقون دون طعام وشراب. وقد يستطيع المرء الاستغناء عن الطعام طوال النهار، لكن الامتناع عن الشراب في هذا القيظ الشديد أمر فظيع. ليس هناك إعفاء لشهر الصوم هذا.»<sup>1</sup> إن ما أورده "موبسان" عن صبر الصحراوي على مشقة الصيام في ظل الارتفاع الشديد لدرجات الحرارة في الصحراء يوحي بمدى تدينه واستجابته لتعاليم الدين الإسلامي ثم إن هذا الصبر سمة يشترك فيها جميع المسلمين.

يستمر "موبسان" في نقل الصور عن شهر الصيام مشيراً إلى احترام وتقديس الجزائري لشهر رمضان كثيراً، فما إن يقبل شهر رمضان «لا أحد يجرؤ على طلب حتى بنات الهوى في أولاد نايل اللواتي يكثرن في الأماكن العربية والواحات الكبيرة يصمن مثل النساك وربما أكثر.»<sup>2</sup> المعروف أن صيام المسلم لا يقتصر فقط على الإمساك عن الطعام والشراب. بل يتعداه إلى العديد من الأمور المتعلقة بكف النفس البشرية عن الانصياع وراء شهواتها المختلفة، ثم إن إقلاع المذنبين عن اقتراف المعاصي في شهر رمضان ينم عن مكانة الشهر الفضيل في نفوس هؤلاء على الرغم من أن الله موجود في كل زمان ومكان.

يرى "موبسان" أن شهر رمضان يفسد طباع العرب ويجعلهم متشددين بعد أن كانوا في نظر الفرنسيين «متحضرين ومتعاونين في الأيام الأخرى، ومستعدين لمشاركة أفكارنا وتقبل عاداتنا ومساندة تحركاتنا، تجدهم يصبحون فجأة في شهر رمضان متعصبين بوحشية وورعين بغباء. من السهل إدراك هذه الحماسة الجارفة الموجودة لدى العقول المحدودة والمتصلبة في تطبيق هذه الديانة الصارمة. يبتعد هؤلاء البؤساء طوال النهار وبطنهم فارغة، وهم يطالعون الروم الذين يأكلون ويشربون ويدخنون أمامهم.»<sup>3</sup> يمثل هذا الخطاب صورة عدائية للإسلام يضمها الكثير من الرحالة الغربيين للآخر الشرقي، فعوض أن يحترم "موبسان" دين الجزائري التي يأمره بالصلاة والصيام... راح

1. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 31

2. المرجع السابق، ص: 31

3. المرجع نفسه، ص: 31، 32

يعتبر صبر الجزائري عن الطعام والشراب نوعا من الحماسة والغباء. كما أن مثل هذه السلوكيات العدائية هي التي من شأنها أن تعمق الهوة بين الفرنسيين والجزائريين وليس الدين الإسلامي وشرائعه خاصة وأن الفرنسي يسعى دائما إلى الإساءة إلى الخصوصية العربية الإسلامية بحكم المرجعيات الاستعمارية.

ويقدم "موبسان" صورة أخرى عن طريقة الإعلان عن موعد الإمساك والإفطار، فيقول أن فرنسا أرادت في البداية «استمالة المهزومين ومجاملة ديانتهم فهذه أحسن طريقة لكسبهم، حيث تقرر أن يعطي المدفع الفرنسي إشارة الإفطار خلال الفترة المقدسة فيرسل بذلك المدفع طلقة مع بداية احمرار الفجر معلنا بداية الصيام، وفي المساء بعد عشرين دقيقة من غروب الشمس، من كل المدن والحصون، ومن كل الأماكن العسكرية تنطلق ضربة مدفعية أخرى تؤدي إلى إشعال آلاف السجائر وشرب آلاف الأباريق وإحضار عدد لا حصر له من أطباق الكسكس في كل الجزائر»<sup>1</sup> إن طريقة الإعلان عن دخول وقت الإمساك والإفطار صحيحة مثلما أشار الرحالة عن طريق إطلاق الجيش الفرنسي لطلقات مدفعية. لكن الشيء الذي لم يقله "موبسان" وقاله غيره من الرحالة أن الجزائريين كانوا يدفعون أموالا للفرنسيين مقابل هذه الطلقات !

ويتم الإعلان عن حلول شهر رمضان الفضيل بإطلاق مائة طلقة من مدفع كبير «أقيم في الميناء وليست هذه الطلقات إحسانا من جانب الحكومة الفرنسية، ذلك أن السلطات المدنية تحتم على المسلمين أن يدفعوا خمسة فرنكات لكل طلقة في مقابل هذه التحية. وبعد هذه الطلقات توقد مصابيح كثيرة فوق منارات المساجد تضيء الهلال الذي يتوج رؤوسها»<sup>2</sup> توحى الصورة بالتزام الجزائري المسلم بصيام شهر رمضان على الرغم من الوضع المتأزم الذي تعيشه الجزائر، فإن الجزائري لا يفوت فرصة التحضير لشهر رمضان من استئجار للمدافع من أجل إطلاق عدة طلقات تعلن عن بداية شهر رمضان وتزيينه للمساجد والمنارات بالمصابيح المختلفة الألوان والأشكال، وهي صورة واقعية وإيجابية، فالدين الإسلامية في الواقع لم يتأثر أبدا بالاحتلال الفرنسي وظروفه وظل

1. المرجع السابق، ص: 32

2. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 66

راسخا في عقول وقلوب الجزائريين الذين حاولت الدول الغربية استمالتهم إلى المسيحية عن طريق حملات التبشير التي باءت بالفشل بفضل تمسك الجزائري بدينه حتى في ظروفه الصعبة خاصة فترة الاحتلال التي تضاعفت فيها الحملات التبشيرية، فضلا عن تهديم فرنسا للكثير من المساجد أو تحويلها إلى كنائس أو إسبيلات رغبة منها في توجيه الجزائريين نحو المسيحية.

يقدم "موبسان" صورة سلبية لتشويه للعقل العربي من خلال استخدام الدين كوسيلة لاختزاله، ويتبنى أحكاما جاهزة وغير مؤسسة حين يقول: «الدين أكبر ملهم في تصرفاتهم وأرواحهم ومحاسنهم ومساوئهم، فبالدين نجدهم طبيين، شجعانا، حنونين، ومخلصين. ولا يمثلون شيئا في حد ذاتهم لو لم يلهموا أو يؤمروا بإيمانهم. قلما نكتشف الطبيعة العفوية أو الفطرية للعربي، أي بدون أن يوجه من قبل العقيدة والقرآن أو السنة.»<sup>1</sup> إن ما جاء به الرحالة يصب في خانة التشويه الممارس على الشخصية العربية، فهي «صورة تعكس قبل كل شيء استيهامات المحتل وإرادة القوة ونزعة القتل وروح الإبادة. عمد المستعمر إلى رسم صورة فولكلورية ومقيتة عن الجزائري بصفته إنسانا بدائيا متوحشا تحكمه الغرائز والنزوات والذهنية الأسطورية. إنها صورة تعكس كل شيء رغبات المحتل الدفينة ومكبواته العنصرية.»<sup>2</sup> وإلا كيف نفسر تغييب "موبسان" للعقل العربي أو الشخصية العربية التي يربطها "موبسان" بالدين الإسلامي الذي يعتبره الملهم الأساسي للفكر العربي. صحيح أن الدين الإسلامي منهج حياة لكنه لم يأت ليلغي الفكر العربي والشخصية العربية بمحاسنها ومساوئها، فمن غير المنطقي اعتبار الدين الإسلامي الملهم الأول والأخير لكل تصرفاتهم وسلوكاتهم !

تنقل "إيزابيل إيبهارت" صورة عن أجواء الإعلان عن موعد الإفطار قائلة: «وهكذا، علا من مكان بعيد جدا من خرابات القصر، وفي عمق الوادي، صوت بطيء وحزين. كان صوت المؤذن الذي يعلن عن صلاة المغرب وحلول موعد الإفطار.

1. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 101

2. الطيب بودريالة. «صورة الجزائر في الرواية الفرنسية». مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، العدد

وتصدر عن الصدور زفرة ارتياح قوية، ويسبح الله بصوت مرتفع. أما الرجال الورعون، ذوو الحركات البطيئة فعوض أن يلقوا بأنفسهم مثلما يفعل الشبان على التبغ والقهوة، يخرجون إلى الطريق من أجل الصلاة من دون استعجال وبوقار مثل عاداتهم.<sup>1</sup> ليست "إيزابيل" وحدها من نقل صورا إيجابية تعكس مدى التزام الجزائري وحرصه على فريضة الصيام و مدى صبره خاصة سكان الجنوب، فقد أشار إلى ذلك أغلب الرحالة الأوروبيين الذين عايشوا شهر رمضان في الجزائر، حيث أبدى هؤلاء الرحالة اندهاشهم من صبر الجزائري على مشقة الصيام، خاصة وأن الكثير منهم كانوا يشتغلون كفلاحين وحمالين وهم بصبرهم أثبتوا تدينهم وإخلاصهم في عبادتهم. كما تنثي "إيزابيل" على الروح الأخوية والأجواء الحميمة التي تعم المقاهي في رمضان.

يقدم البلجيكي "جيل لوكليرك" صورة أخرى عن الالتزام الديني من خلال احترام القبائلي لحرمة رمضان بصبره على مشقة الصيام رغم العناء الذي لقيه أثناء تسلق جبال جرجرة بغية الوصول إلى قمة لالة خديجة قائلاً: «ظننا بأنهم استغلوا الرخصة التي ينعم بها المسلمون أثناء السفر، وقدمنا لهم نصيباً من زادنا. لكن بصرامة الحافظين لتعاليم دين محمد، لم يريدوا قبول أي شيء ولم يأكلوا ولم يشربوا طول النهار. ارتعشنا من فكرة القيام بتسلق أعلى قمة لجرجرة صائمين.»<sup>2</sup> إن الصوم يُتعب كثيراً الطبقة الدنيا بمعنى الفقراء الذين يكسبون قوت يومهم من الأعمال الشاقة عكس الحضر الذين يتجنبون الإجهاد ويهيئون ليلاً ما يقومون به نهاراً. غير أن مانقله الرحالة عن التزام الفئات الفقيرة بفريضة الصيام على الرغم من مشقة الأعمال التي يقومون بها يومياً، وصعوبة المناخ الصحراوي يمثل صورة إيجابية على مدى تقديس الجزائري المسلم لمختلف الشعائر الدينية كالصلاة والصوم والاحتفال بالأعياد الدينية.

تعد الأعياد الدينية مناسبات مهمة بالنسبة للمسلمين لذلك نقل أغلب الرحالة صورا ومشاهد عن الاحتفالات السائدة إذ ينقل الألماني "فاغنر" صورة دينية تخص عيد

1. إيزابيل إيبرهارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام

المودني، ص: 227

2. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة

الطاهر لكنيزي، ص: 187

الفطر وأجوائه قائلاً: « ويرتدي الأهالي في أيام العيد الثلاثة أجمل ما لديهم من ألبسة. وخاصة الأطفال الذين يرتدون في هذه الأيام الثياب المطرزة بالذهب والفضة، والسرراويل المصنوعة من الصوف أو القطن، مما يجعل منظرهم في منتهى الروعة. والنساء والفتيات محجبات، إلا أن عددن في الشوارع والميادين العامة لا يقل عن عدد الرجال. وهن يكتفين بالنظر والتسلية، وبينما يعانق الرجال في الشوارع معارفهم، ويرش الأطفال الأوروبيين بماء الورد تحية لهم.<sup>1</sup>» يستقبل الجزائري- كغيره من المسلمين- عيد الفطر بثياب جديدة مطرزة بألوان زاهية، فيتبادلون التهاني ويحيون حتى الأوروبيين. وهي صورة واقعية عن الاحتفاء بالأعياد الدينية من قبل المسلمين من الجزائريين وغيرهم في بقاع العالم.

صور الأمير الألماني "بوكلر موسكاو" هو الآخر مشاهد لمختلف الاحتفالات التي يقيمها الجزائريون بمناسبة عيد الفطر عقب تأخر سفر الرحالة إلى تونس، حيث يقول الرحالة أنه: «بعد طلاقات مدفعية طويلة ( والعرب يببالغون في حب ضجيج البارود) اجتمع موكب الصبايحية رؤساء البدو الممتطين صهوات الخيول، واللابسين أفخر الألبسة في ميدان واسع قرب المدينة، وقد أحاط به سكان عناية في شكل دائرة واسعة. ووسط ذلك نصبت خيمتان أحدهما للجنرال والثانية لأركان حربه. وعند الإشارة بآخر طلقة نارية بدا العرب نوعاً من السباق الذي أظهروا فيه حركات شبه حربية وألعاباً مختلفة.»<sup>2</sup> إن الصورة التي نقلها الرحالة تعد جانباً من جوانب الاحتفال بالأعياد في المجتمع الجزائري في فترة الحكم العثماني، الصورة ذاتها قد أشار إليها الألماني "فندلين شلوصر" الذي كان يعيش في قصر "أحمد باي" كأسير. فالجزائريون كانوا يحتفلون بمثل هذه المناسبات السعيدة بالبارود والاستعراضات التي يؤديها الخيالة وما زالوا على عهدهم إلى حد الساعة.

إن تواجد "شلوصر" في عمق الشعب الجزائري سمح له بالتعرف على أعيادهم خاصة الأعياد الثلاثة المهمة عيد الفطر والأضحى والمولد النبوي الشريف. فعقب الإعلان عن عيد الفطر يقول "شلوصر": «أن الفرحة تعم، فيقبل الحضر والفلاحون،

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 70

2. أبو القاسم سعد الله. تجارب في الأدب والرحلة. ص: 287

أصدقاء وغرباء، بعضهم بعضا في الرأس أوفي الكتف اليمنى ويتبادلون التهاني. وينظم الباي ليلة العيد حفلة عشاء، تعزف خلالها الموسيقى، وفي يوم العيد يستطيع كل إنسان أن يدخل القصر ليتمنى لسيدة الباي عيدا سعيدا... ويجلس الباي خارج المدينة فوق مخدة في رحبة، ويبدأ سباق الخيل الذي تصاحبه أنغام الموسيقى، ويمر كل قائد مع فرقته، ويطلقون النار كلهم... وبعد ذلك يوزع الباي الهدايا على خدامه وحراسه، ويقدم الجوائز لأحسن الفرسان. أما الأطفال فتقام لهم أراجيح وخيام، يتناولون فيها عصير الليمون والبرتقال مجانا... ويصدر عادة العفو عن الأسرى الذين شفّع فيهم.<sup>1</sup> إن مانقله الرحالة يمثل صورة عن مدى التزام الجزائري المسلم بإحياء الشعائر والاحتفالات الدينية تمسكا بدينه، فالجزائريون كغيرهم من الشعوب الإسلامية يقدسون الأعياد الدينية كثيرا ويحتفلون بها بطرق متنوعة، فما إن ينتهي الناس من أداء صلاة العيد يشرعون في تبادل التهاني، حيث يكون للأطفال حظ وافر من الهدايا واللعب، فالأسير الألماني يشير إلى نقطة مهمة وهي فتح قصر الباي للجميع قصد تقديم التهاني له فضلا عن التكريمات التي يحظى بها المقاتلون والفرسان عقب الاستعراضات دون أن ننسى العفو عن الأسرى في هذه المناسبات وهذا ما يعد سنة حسنة وصورة إيجابية وواقعية عن الجزائري المسلم.

ويصور الجغرافي "جيل لوكليرك" أجواء عيد الفطر بقسنطينة قائلا: «كانت قسنطينة تعرف حيوية غير مألوفة، كان العرب يحتفلون بنهاية رمضان عبر لعب البارود وأشكال أخرى من الاحتفال. تحلى الكل بأجمل ملابس العيد. كانوا يلبسون بدلات براقية: معاطف حريرية حمراء وزرقاء وحضراء وصفراء وطرايش مطرزة برسوم ذهبية وسراويل قصيرة مزخرفة بتطريزات: كانت الأعين مبهورة تماما. وكانت المقاهي المغربية تعج بالناس، وكان الأطفال ينخرطون بالشوارع في كل أصناف اللعب، وكان الفرسان يمتطون خيولهم الأكثر رشاقة والمسرجة جيدا على الطريقة المغربية.»<sup>2</sup> لا يخرج الوصف الذي قدمه "لوكليرك" عما جاء به الرحالة السابقون ما يؤكد مكانة عيد الفطر كمناسبة

1. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 86

2. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة

الطاهر لكنيزي، ص: 199، 200

دينية في نفوس الجزائريين الذين لم يتأثروا بوجود المستعمر الفرنسي وأصروا على إحياء هذه الأعياد الدينية كما ينبغي.

كما يعرض "أندريه جيد" صورة عن من الأفكار والمعتقدات الدينية المتوارثة في الذهن الجمعي العربي، ليعرفنا على رأي صديقه الصحراوي "عثمان" في ما تعلق بالموسيقى قائلا: «من اخترع الموسيقى؟ سأل عثمان. أجبت: الموسيقيون. لم يقتنع، ألح في السؤال أجبت: الله. لا قال في الحال إنه الشيطان. وفسر لي أنه بالنسبة للعرب كل الآلات الموسيقية هي آلات جهنمية باستثناء الكمان ذو الوترين.»<sup>1</sup> ينسب "عثمان" اختراع الموسيقى إلى الشيطان ومرد ذلك الخلط بين تحريم الإسلام للموسيقى باعتبارها مزمارة من مزامير الشيطان وبين الآلة كاختراع، فإجابة وتفسير "عثمان" يبقى قاصرا وينم عن فكر محدود، ومع ذلك يمكن القول؛ إن نفور "عثمان" من سماع الموسيقى دليل آخر على التزامه وتدينه كمسلم.

كما ينقل الرحالة الإنجليزي "ليدر" صورة حية عن أجواء الاحتفال بعيد الأضحى الذي يعد من أعظم الشعائر الدينية لدى المسلمين قائلا: «كانت الباحة ممثلة، كان الجميع يرتدون ملابس جديدة. حتى الفقير تمكن من الحصول على ثوب جديد واحد أو زوج من الأحذية على الأقل، حفاظا على التقاليد التي تتطلب شراء ملابس جديدة في كل عيد، في عيد الأضحى يتم شراء أواني جديدة للطهي... الأطفال يمرحون اليوم بالركوب في السيارات العامة، التي زينت خصيصا لهم... المدينة مزدحمة جدا حتى على الأسطح نشاهد الشباب وهم يمرحون، يغنون، ويهتفون ويصدرون أصواتا بأبواقهم الصغيرة، بينما كنت أنا وصديقي نحبيهم كلما نظروا إلينا... كان علينا أن نشرب الكثير من أكواب القهوة في الخارج.»<sup>2</sup> لقد تمكن الرحالة الإنجليزي "ليدر" من تقديم صورة حية عن واقع الجزائريين بشكل جيد. كما وصف "ليدر" المرأة العربية واحتفائها بالمناسبات الدينية من خلال احتفالها في المنزل، بعد ارتداء كل ما لديها من حريير ومجوهرات، تستقبل بها الصديقات، فيتبادلن الهدايا... أما بعد الظهر فتذهبن رفقة أطفالهن إلى

1. أندريه جيد. رحلة إلى شمال إفريقيا. ترجمة: محمود عبد الغني، ص: 26

2. S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 58

المقابر في المركبات إن وجدت أو سيرا على أقدامهن، وكن محجبات بالكامل فلا يظهر سوى ثقب صغير فوق العين إنه العرف.<sup>1</sup> فقد سعى الرحالة إلى التعريف بالجزائري المسلم خاصة ما تعلق بحياته الدينية مما دفعه إلى الاستغراق في وصف وتحليل الكثير من السلوكات والعبادات التي يؤديها الجزائري.

يقدم "اليدر" صورا في المجتمع البسكري مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدين الإسلامي، حيث يصف استيلاء أحد الصبية بعد مصافحة الرحالة له بيده اليسرى قائلا: «قدم لي أحد الأصدقاء يده من أجل المصافحة - كما يفعل العرب باستمرار - فمددت له يدي اليسرى، فسحب الصبي يده بنوع من الاستياء، وقال لي: لا تصافحني بيدك اليسرى! ثم أخبرني بأنهم يفضلون اليد اليمنى على اليسرى، باستخدام اليد اليمنى لكل الأعمال الشريفة في حين تستخدم اليد اليسرى لغير ذلك... فما كان مني إلا أن اعتذرت للصبي وأخبرته أنني لم أقصد إهانته... وقد ذكروا لي أحد الأحاديث التي يحفظونها عن نبيهم بفضل المصافحة بين المسلمين.»<sup>2</sup> ينقل الحوار الذي كان بين الرحالة وصديقه صورة واقعية عن مدى التزام الجزائري بتعاليم الدين الإسلامي انطلاقا من ردة فعل الصديق التي تعدّ طبيعية جدا بالنسبة له كمسلم تعود على المصافحة باليد اليمنى، أما عن استشهاد الصبي بالحديث النبوي الذي يوضح أهمية المصافحة ومساهمتها في التأليف بين قلوب المسلمين؛ فإنها صورة تجسد الوعي الديني لدى الجزائري وامتثاله لتعاليم الإسلام.

كما يعرض "اليدر" صورة دينية أخرى عن بعض آداب الأكل التي يتحلى بها الجزائري على غرار رفع المسلم للكأس إلى فمه وهمسه قائلا: "بسم الله" ثم الجلوس والشرب بهدوء. كذلك من بين الأشياء التي لفتت انتباه الرحالة هو إكرام العربي للصحن حيث ميز بين الجشع وإكرام الصحن عندما أخبره مرافقه "علي" أن النبي ﷺ قد حثهم على فعل ذلك، فضلا عن امتناع المسلم عن شرب الخمر، كما يذكر الرحالة أن البسكري

1. المرجع نفسه، ص: 59

2. المرجع السابق، ص: 29

المتدين كان يعارض ويبيدي استنكاره من كل الأشياء الفاسدة التي أتى بها الأوروبيون من كازينوهات ومقامر، ومخامر وغيرها.<sup>1</sup>

يستمر "اليدري" في نقل أبرز صور الالتزام الديني لدى الجزائري المسلم قائلا: «عمل آخر شائع جدا معنا، وهو مقيت للعرب، هو التثاؤب. لقد اكتشفت أن التثاؤب أمام العرب بمثابة نضح للجماعة بالماء البارد، بينما بدا لي أن العطس بالنسبة لهم مستحب ولا يبدو أي نفور منه. كما اكتشفت أنه يجب تسميت العاطس، والسبب وراء ذلك أن النبي محمد ﷺ قال لهم "الله يحب العطس ويكره التثاؤب".<sup>2</sup> يبدو أن الرحالة الإنجليزي يولي اهتماما كبيرا بالحياة الدينية للمسلمين حتى أنه يستشهد في كثير من الأحيان بأحاديث نبوية<sup>3</sup> وآيات قد سمعها عن العرب حتى يتمكن من تفسير أي من السلوكات التي يمارسها البسكرة أمامه، إذ تكمن موضوعية الصورة وواقعيتها من خلال عدم اكتفاء الرحالة بالملاحظة والكتابة فقط بل بالبحث عن تفسير ديني لكل ما يراه، فكثيرا ما نجده يبحث عن مبرر مقنع أو خلفية لأفعال المسلمين وممارساتهم اليومية مما يجعلنا أمام صورة مفصلة في نصه الرحلي عن الحياة الدينية للجزائريين.

### 2.1. صورة الداعية

يسرد الأسير الألماني "شلوصر" إحدى القصص عن محاولة بعض الجزائريين دعوته ومن معه من الأسرى إلى الإسلام، بينما كانوا منهمكين في حفر بئر لسيدهم الجديد، حيث كان يأتيهم بين الفينة والأخرى مجموعة من العرب أو البدو الذين كانوا يرددون على مسامعهم أكثر من مائة مرة: «شهدوا! ولم يكن في استطاعتنا أن نرد عليهم ولذلك كانوا يقولون لنا قولوا: لا إلا إلا الله محمد رسول الله... وحين طلبوا منا أن نردد هذه الكلمات فعلنا ذلك عدة مرات ومع ذلك لم يرضوا عنا لأننا كنا ننطق بكلمة (قولوا) مع الشهادة بسورة مستمرة، فكان جزاؤنا الضرب والشتم بالإضافة إلى الاهانات

1. المرجع نفسه، ص: 62، 65

2. المرجع السابق، ص: 30

3. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعُطَّاسَ، وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ، فَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَحَقَّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يُشَمَّتَهُ، وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ فَأَيْمًا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلْيُرِدْهُ مَا اسْتَطَاعَ فَإِذَا قَالَ: هَا ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ). روى البخاري (6223) - واللفظ له - ومسلم (2994)

الأخرى.»<sup>1</sup> يجسد خطاب الرحالة صورة الداعية المتشدد الذي يجبر الآخر على اعتناق دينه ويمارس العنف عليه، فإذا اعتبرنا أن هذه الصورة تتسم بالموضوعية؛ فإن ذلك يرجع إلى سبب واحد هو صدورهما من عامة الناس، وقد تكون صورة خاطئة هدفها تشويه الإسلام وترويج الشبهات والاتهامات لدعاته في ظل الحرب الشرسة ضد الإسلام وتعاليمه في الغرب، لأن الدعوة إلى الإسلام لا تكون بالإكراه والعنف وإنما بالحكمة والحسنى كما جاء في قوله تعالى «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» النحل 125 فدعاة الإسلام الحقيقيون قدوتهم ومثلهم الأعلى في ذلك الداعية الأول محمد عليه الصلاة والسلام، وهم على وعي بوسائل الدعوة كما أمرهم الله ورسوله.

في المقابل يصف "شلوصر" سيده الجديد الشيخ "علي بن عيسى" بالورع الذي كان يستقبلهم في ساعات محددة في النهار حتى يعلمهم الشهادة ويحفظهم الفاتحة، وبعد عشاء حفظ "شلوصر" الفاتحة وعند قراءتها على سيده فرح كثيرا وأعلن الخبر في القرية وقد تم تكريمهم بتقديم طعام لذيذ لهم، وقد علمهم بعد ذلك كيفية الوضوء ثم يقول الرحالة أنه «لم يتبق سوى عملية رئيسية يتميز بها إعلان الإسلام الرسمي، وهي الختام، وهو ما نقبل به أي شكل من الأشكال. وحين سألنا عن ذلك لأول مرة أجبناه جوابا ملتويا دون أن نرفض صراحة، فأعلن عندئذ أنه يأسف لكونه لا يريد على أية حال ارغامنا عليه. لأن تعاليم دينه لا تسمح له بذلك. غير أنه يأسف لكونه لا يستطيع أن يحتفظ بنا في منزله إن نحن استمررنا في رفضنا... وعندما نفذ صبره أخبرنا والدموع في عينيه أنه لا يجوز له ما دمنا لا نرغب في الدخول في الإسلام أن يأوبنا في منزله بصفتنا مسيحيين لمدة أطول.»<sup>2</sup> إن مانقله الرحالة يجسد صورة الداعية الحكيم الذي يدعو إلى الإسلام بالحكمة والحسنى، وهي صورة واقعية انطلقا مما ينص عليه الدين الإسلامي، إذ تبدو الطريقة التي انتهجها الشيخ "علي بن عيسى" في تعليم "شلوصر" حكيمة وفيها الكثير من الثبات والعقلانية وتلك سمة الداعية المسلم.

1. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 17.

2. المرجع السابق، ص: 20، 21.

### 3.1. صورة الصوفي

اهتمت "إيزابيل إبيرهارت" بعالم التصوف والزهد، مما دفعها إلى زيارة الكثير من الزوايا وتتبع أخبار الأولياء الصالحين، والزهاد الذين تعلق قلبهم بالله واختاروا الزهد والتخلي عن الدنيا. حيث تورد الرحالة صورة للمستنير (الزاهد) الذي هجر المدينة مفضلاً العيش «في قمة البرقة، وسط ركام الصخور السوداء، وكان يلبس خرقة سوداء على قامة فارعة وجسد هزيل، وجهه دقيق مسمر تكفّ شفتاه عن الهمس بالأدعية الصوفية عينها التي تحفظ منذ ما يقرب من عشرين سنة نشوته الثابتة.»<sup>1</sup> لقد عرف الزهاد بتطبيقاتهم للدنيا وتفرغهم للعبادة ابتغاء لما عند الله من أجر وثواب، وحتى ينجح هؤلاء، فإنهم ينعزلون في أماكن بعيدة حتى يتمكنوا من الاجتهاد في مختلف العبادات التي تقربهم من الله تعالى لذلك يمكن القول أن ما جاءت به الرحالة هو صورة وقائعية لهذه الفئة.

تذكر "إيزابيل" أن الزاهد قد سافر في سنوات شبابه، ولم تكن قد شملته بعد عناية اللاوعي كثيرا في المغرب وفي الجزائر وفي صحراء السودان... ثم لما تعب من غرور العلم البشري، ومن رتابة الأشياء، عاد الزاهد إلى أرضه الأم، وانعزل إلى الأبد في زنزانته الكئيبة، التي لن يخرج منها أبدا إلا محمولا من قبل المؤمنين باتجاه الهدوء النهائي، حيث مدن الأموات السفلية الغامضة.<sup>2</sup>

كما تتحدث "إيزابيل إبيرهارت" عن بعض الطقوس التي يؤديها المتصوفون المسيليون المنتسبون إلى الزاوية القادرية -التي ينتشر أتباعها في آسيا وإفريقيا- حيث كان يتابع «المتصوفان تسيحهما الهادئ بمظهريهما الغامضين في ثقل المسيلة النائمة بعقيدتهما القديمة وسط المشهد الثابت للأرض وللشمس... بعد غروب الشمس، وفي قاعة قديمة من الطوب العتيق البالي مسودة بالدخان، وأسفل عارضات السقف الخشبية حيث خمسة جذوع الأشجار رديئة القطع بضربات فأس كانت ما تزال تحمل العروق الصلبة لأشجار الجنوب الهزيلة، مجموعة بتنافر غريب، كان مصباح عتيق يصدر دخانا

1. إيزابيل إبيرهارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام

المودني، ص: 289

2. المرجع نفسه، ص: 289

ويضيء ثلاثة رجال مقلنين يضربون بناديرهم المجزعة ويتمايلون على الإيقاع نفسه مرتلين برتابة وبطء صلواتهم لإمام بغداد الأكبر، سيدي عبد القادر... ويحمل الضوء الأحمر للمصباح بلطف ظلالهم المشوهة على الجدران الغليظة حيث تمر في بعض الأحيان بعض العقارب الصفراء الصغيرة الخفية أو عناكب رمادية».<sup>1</sup> إن ما صورته الرحالة عن واقع الصوفية وطقوسهم المختلفة يقترن بالمد الصوفي الذي وجد في الصحراء الجزائرية تربة خصبة، إذ تعرّف الجزائر انتشارا واسعا للزوايا أو ما يسمى بالمدارس الدينية الصوفية التي يزيد عددها عن ألف زاوية، ولعل من أشهرها زوايا سيدي "أحمد التيجاني"، الزاوية البلقايدية، والطريقة القادرية... وتلعب الزوايا دورا مهما في تدريس القرآن الكريم وعلومه وكذا الحفاظ على الهوية الإسلامية والعربية للبلد. ولما كانت "إيزابيل إيبهرارت" واحدة من أتباع الطريقة القادرية، فقد خصصت للزوايا جزءا مهما من رحلتها فنقلت الكثير من المعلومات التي تخص الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر.

بينما يرى "شلوصر" أن المرابطين في الجزائر نوعان ويتمثل النوع الأول في «أصحاب المساجد الذين تعلموا القرآن، فصاروا يعرفون القراءة والكتابة، ويعلمون الأطفال. أما النوع الثاني فيمثل رجال دراويش، يظنون في الهواء الطلق ليلا ونهارا كيفما كانت الأحوال الجوية ويحيون على طريقتهم الخاصة حياة صالحة».<sup>2</sup> إن ما جاء به "شلوصر" قريب إلى الحقيقة خاصة ما تعلق بالنوع الأول وهم المتعبدون والأشخاص الزاهدون الذين تعلقوا بالعبادة، أما فيما تعلق بالنوع الثاني، فهم موجودون في مجتمعاتنا غير أن نمط معيشتهم يبعث الريبة والشك، فضلا عن هيئتهم ولباسهم المتسخ الذي يدفعنا إلى التساؤل عن سر البركة التي يُزعم أنهم يأتون بها؟

### 4.1. صورة الولي الصالح

يخصص "موبسان" حيزا لا بأس به للحديث عن أضرحة الأولياء الصالحين مبينا مدى تعلق الجزائري بها خصوصا النساء لاعتقادهن أنّها جالبة للحظ، ومختصة من كافة الشرور. أما من بين الأضرحة التي زارها الأديب ضريح الولي "عبد الرحمن

1. المرجع نفسه، ص: 128

2. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العبد دودو، ص: 84

الثعالبي" الذي يعد أهم أضرحة مدينة الجزائر، من حيث مكانة صاحبه وشكل الضريح، إذ يصور "موبسان" الضريح على أنه «زاوية لطيفة تتكون من بنايات صغيرة وأضرحة مربعة مستديرة ونائثة، على طول الدرج على شكل تعرجات من سطح إلى سطح. المدخل مغطى بجدار كما لو كان مبنيا من الثلج الفضي، ومحاطا ببلاط من الخزف الأخضر، ومليئا بالفتحات المنتظمة التي نرى من خلالها مرسى الجزائر.»<sup>1</sup> إن وصف الرحالة ضريح الولي الصالح والاهتمام بهندسته هي صورة عن مكانة الولي ذاته في المجتمع الجزائري، إذ يحظى الولي الصالح باحترام وتقديس عند معظم الأفراد بغض النظر عن الهدف من ذلك، وإن كان يؤدي بهم في أغلب الأحيان إلى الشرك بالله.

لا يخفي "موبسان" دهشته وذهوله من النساء اللواتي يجلسن حول الضريح الذي يشبه السرير الملون المغطى بالقماش الحريري، والرايات والهدايا «ويحكين للولي همومهن ومشاكلهن مع أزواجهن. إنه اجتماع خاص وعائلي من الثثرة حول رفات الولي. هذا المصلى مليء بهباتهن الغريبة: ساعات من كل الأحجام تتحرك تسمع دقات الثواني لتعلن الوقت، رايات مقدسة، ثريات من كل الأشكال من الجلد والكريستال. الثريات عديدة لدرجة أنه لا يمكن رؤية السقف، تعلق واحدة بجانب أخرى من أحجام مختلفة مثل محلات المصابيح. الجدران مزينة بزخارف أنيقة ورسوم لطيفة يطغى عليها اللون الأخضر والأحمر. البلاط مغطى بالسجاد.»<sup>2</sup> إن الصورة التي أوردها "موبسان" بقدر ما هي صورة سوداوية بقدر ما هي صورة واقعية، فالكثير من النساء يزرن قبور الأولياء الصالحين بغية التبرك بهم، والتضرع لهم من أجل مساعدتهم على قضاء حوائجهم، وهي ظاهرة غريبة لا تزال قائمة حتى في عصر العولمة. ومثل هذه السلوكيات جعلت من الشرق عالما يبعث على الغرابة، فغرق الآخر الشرقي في مثل هذه البدع والاعتقادات السخيفة جعله هشا وسخيفا وغيبيا في نظر الأنا الأوروبي المتشبع بثتى العلوم والثقافات. أما نحن باعتبارنا مسلمين، فنغزو انتشار مثل هذه المشاهد إلى تفشي الجهل واللاوعي الديني الذي يهوي بهم إلى الشرك والإيمان بالأولياء الصالحين وتقديسهم، فيضعف

1. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 105

2. المرجع السابق، ص: 107

إيمانهم بالله، فإذا كانت لهم حاجة اتجهوا مهرولين إلى ضريح الولي بدلا من الرجوع إلى الله والتقرب إليه، وكان من المفروض أن يكون الولي قدوة لهم في صلاح أعماله وورعه وإيمانه بالله بدلا من عبادته أو جعله كواسطة وبالتالي الشرك بالله والوقوع في الكبائر.

كما ينقل "موبسان" صورة أخرى عن الولي الصالح وأهميته كوسيط عند النساء قائلا: «يمكن للنساء المسلمات دخول المسجد مثل الرجال، لكنهن قلما يأتين، فالله مهيب بعيد في أقصى الأعالي بالنسبة لهن، ولا يجرؤن على شكوى همومهن وأحزانهن ومسؤولية الزوج والأطفال. ينبغي وجود وسيط أكثر تواضعا بينهما وبينه، فهو عظيم وهن بالغات الصغر هذه الوساطة هي الولي الفقيه. أليس عندنا في الديانة الكاثوليكية القديسون ومريم العذراء المدافعون الطبيعيون عن الأفراد الخائفين أمام الله؟ أما المرأة العربية إذا أردت أن تراها فاذهب إلى الزوايا.»<sup>1</sup> إن ما اعتقده الرحالة عن الولي الصالح نتج عن رؤيته المتكررة للنسوة وهن يترددن على أضرحة الأولياء الصالحين والتقرب منهم، وبالتالي تجلت صورة الولي الصالح له على أنه الوسيط بين الله وبينهن. ولا نستغرب من إصداره لهذا الحكم فهو ليس مسلما ولا يعرف أن ما تقوم به هاته النسوة نوع من الشرك، فالتواصل مع الله لا يحتاج وسيطا! كما هو الحال بالنسبة للنصارى الذين يستجدون القس أو الراهب من أجل تكفير خطاياهم.

في المقابل يرى "موبسان" أن الرجال المسلمين يأتون إلى الزاوية لإظهار ورعهم وعبادتهم «ليس للولي صاحب المكان، إذ أنهم حين يبدون احترامهم للقبر فإنهم يتوجهون نحو مكة لعبادة الله، فلا ألوهية إلا الله كما يرددون في صلواتهم.»<sup>2</sup> إن ما جاء به "موبسان" يمكن اعتباره صورة واقعية، فرواد هذه الأماكن أغلبهم من النساء بسبب إنسياقهم وراء تلك الخرافات التي تتسج حول الضريح. وأنا إذ أقول هذا الكلام لا أعممه على كل النساء.

يرى "موبسان" أنه مهما بلغت درجة قدسية الزوايا، فإنها لا ترقى إلى منزلة المساجد باعتبار هذه الأخيرة المكان الوحيد لعبادة الله عند المسلمين، فالزوايا التي يوجد

1. المرجع السابق، ص: 103

2. المرجع نفسه، ص: 107

بها أضرحة الأولياء الصالحين ما هي إلا «صالون صغير مزين بذوق طفولي لنساء متوحشات، غالبا ما يأتي عشاقهن لملاقاتهن وإعطائهن موعدا في هذا المكان، ويهمسون لهن بكلمات في السر. حتى الأوروبيون الذين يتكلمون العربية يقيمون علاقة مع هذه المخلوقات الملفوفة والبطيئة التي لا نرى منها إلا النظرة.»<sup>1</sup> إن ما أورده "موبسان" عن مثل هذه الأماكن واقع لا مفر منه، فهذه الأماكن لا تحظى بالقدسية، والاحترام الذي تحظى به المساجد التي تخلو من مثل هذه السلوكات، والخرافات التي تتم عن جهل كبير قد ألم برواد مثل هذه الزوايا التي تشجع على الاختلاط والشرك بالله وذلك بإيهام الناس بأن الولي من شأنه أن يساعدهم على قضاء حوائجهم وتخليصهم من همومهم !

يوثق البلجيكي "جيل لوكليرك" نفس المشهد الذي نقله "موبسان" وهو يتحدث عن لجوء النساء إلى أضرحة الأولياء الصالحين "بتلمسان" قائلا: «كانت الشمس تغرب حين أخذت طريق تلمسان. توقفت بالطريق بقبة سيدي يعقوب؛ الذي تستجد به النساء العقيمت. تحتل هذه القبة الموقع الأكثر رومانسية الذي يمكن أن يحلم به.»<sup>2</sup> إن مبالغة هذه الفئة من الجزائريين في احترام هؤلاء الأولياء الصالحين لدرجة التضرع إليهم تشعرنا بأن هؤلاء يعيشون في جو أسطوري وخرافي يرقى فيه الأولياء الصالحون إلى مرتبة الآلهة أو أنصاف الآلهة وهذا ما لفت انتباه أغلب الرحالة.

يستحضر "شارل فيرو" مقطعا لأحد الأشخاص الذين يتضرعون لقبر المرابط سيدي "وشناك" الذي توجد مزارته على جبل بين فج "الأربعاء" وفج "فدولس" من أجل مساعدته في الوصول إلى مكة بسلام قائلا: «يا سيدي وشناك، أنا ماشي للقبلة في حماك، إذا رجعت على خير وعافية، إذا رجعت على خير وعافية، نعطيك الوعدة، خبيزة دي بومعراف، وحد الشميعة وزوج سوردي دي الجاوي.»<sup>3</sup> إن المتمعن في هذا الخطاب الموجه إلى الولي الصالح -طبعاً إذا سلمنا بصحته- يوحى بقداسته ومكانته لدى الجزائريين في تلك الفترة، فهم يعتقدون أن للأولياء الصالحين قوى خارقة وبإمكانهم

1. المرجع نفسه، ص: 107

2. جبل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب والجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر

لكنيزي، ص: 156

3. شارل فيرو، تاريخ جيغلي، تر: عبد الحميد سرحان، ص: 35

مساعدتهم في مختلف مسائل الحياة من ذرية ومال... إن هذا التقديس قد وصل إلى درجات لا يحمد عقباها، فكيف للإنسان المسلم الذي يؤمن بوحداية الله تعالى أن يقدم القرابين لشخص قد توفي لكي يساعده على قضاء حوائجه !

أعتقد أنه من الواجب التذكير بأن «الزيارة ظاهرة أخرى مشتركة بين مختلف الطرق<sup>1</sup>، وأيضاً لدى المرابطين، وهي تعني التوجه إلى شخص مقدس أو مكان معظم دينياً. وقد تكون الزيارة لأضرحة. وهي عادة مرفوقة بالعطاءات، من دراهم وغيرها.»<sup>2</sup> وهنا يجب التمييز بين الزيارة وبين التضرع للولي، فزيارة المقابر لم تتكرها أو تحرمها ديانة، بقدر ما ننكر على هؤلاء مبالغتهم في التضرع للموتى، فالطريق إلى الله عند المسلمين لا يحتاج إلى واسطة.

في حين يعبر الأمير "بوكلر موسكاو" عن إعجابه الشديد بالمكان الذي دفن فيه "سيدي عيسى" بالرأس الأحمر في مدينة "عناية" قائلاً: «إنه من الصعب أن تجد مكاناً أكثر رومانتيكية للدفن. فهو ضريح يقع في سفح الجبل المطل على البحر داخل صخرة رخامية من آثار الرومان وحوله الزهور والأعشاب وأشجار الكروم والتين التي تعطي ثمارها. ألا يكون من الأفضل لأحد الكهان أن يرتمي هكذا على أقدام قديسه ! ذلك أن سيدي عيسى لم يكن مدفوناً في الأرض ولكنه كان في غرفة منحوتة من صخرة رخامية يصعد إليها المرء ماشياً على جميع أنواع الأعشاب المشوكة. وقد نصب سرداق على الصندوق وضعت فيه بقاياها. وفوق ذلك السقف تتدلى منه الأعلام القديمة. وكانت أوامر الجنرال تقتضي احترام الضريح، ولكن فضول المسيحيين لم يتوقف عنه. وفي أعلى نفس الجبل يوجد ضريح لمرابط آخر أقل شهرة.»<sup>3</sup> لقد أشار الكثير من الرحالة الأوروبيين إلى أهمية أضرحة الأولياء الصالحين بالنسبة للجزائري الذي كان يقدها بل إن هناك من يقدم لها القرابين مقابل أن تساعد على تلبية طلبه خاصة بالنسبة للنساء اللواتي يمضين النهار كله وهن يطلبن الزواج والذرية والحظ من أصحاب القبور.

1. يقصد الطرق الصوفية.

2. أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. ج 4، 1830-1954. ص: 20

3. أبو القاسم سعد الله. تجارب في الأدب والرحلة. ص: 288

ونظرا للمكانة المقدسة التي يحظى بها الولي الصالح في المجتمع الجزائري فقد نقل الكثير من الرحالة صورا خاصة بالاحتفالات التقليدية الموسمية التي تقام في العديد من المناطق الجزائرية احتفالية الزردة<sup>1</sup>. وقد سمحت الفرصة للرحالة الإنجليزي "ليدر" بالتعرف على هذه العادة ببسكرة، فنقل للقارئ الأوروبي صورة هذه المناسبة الاجتماعية قائلا: «جمع الدراويش كل الوسائل من أجل إقامة زردة سيدي زرزور الكبرى - الكسكس، اللحم المشوي والخبز - بفضل مساهمات الأثرياء. يقام هذا الاحتفال في دوار سيدي زرزور، بالمسجد الصغير. هذا المسجد العظيم المبجل في بسكرة. حيث عاش به زرزور آنذاك... تم ذبح الثور وتم إعداد الكسكس، بينما تدفقت القهوة باستمرار. في الصباح كان هناك رقص جميل وضبط للنفس من قبل النساء المتدينات، ثم انطلق صوت يطلب من الله إرسال المطر نظرا لحاجة هؤلاء العرب للماء من أجل زراعتهم، لقد كان الاحتفال هادئا.»<sup>2</sup> تجسد هذه الصورة واقع الاحتفاء بالولي الصالح، فالزردة تقليد موسمي مرتبط به يجسد مظاهر التعاون والتآزر بين أفراد المجتمعات على غرار التوزيع المنتشرة في شمال إفريقيا، غير أن ما يميز احتفالية الزردة هو ارتباطها الوثيق بالأولياء الصالحين، حيث يصاحب هذه الاحتفالية جملة من الطقوس الفولكلورية التي يؤديها الدراويش، لكن تجدر الإشارة إلى أن مثل هذه المناسبة بدعة شركية لا تمت بصلة للدين الإسلامي لما فيها من تضرع للولي الصالح من أجل إنزال المطر وإحياء للزرع ونشر للبركات؛ كذلك فإن المكان الذي أقيمت به هذه الزردة ليس مسجدا بل ضريحا.

ويصف "هيلتون سيمسون" كيفية تنظيم سكان "القنطرة" لاحتفالية الزردة كل سنة للتعبير عن احترامهم لوليهم من خلال زيارته والتضرع له، حيث تساهم «كل أسرة حسب إمكانياتها وهذا ما يجعل من الأغنياء أكبر المساهمين إذ يساهمون بالأغنام ومنهم من يساهم بالمال، أما أفقر شخص فيساهم بقليل من الشعير ولا حرج من عدم المساهمة

1. من بين الممارسات الصوفية العزلة عن الناس، والاختلاء، والسهر في العبادة، والصيام، وحضور الحضرة والزردة، وغيرها من التجمعات، ثم أداء الزيارة ( الصدقات والعطايا) وتقديم الهدية للشيخ أو خليفة زاويته أو مقدمه وممارسة الذكر المخصوص عليه في كل طريقة. للتوسع ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، 1830-1954، ص: 20

2 . S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 223-225

إن كان معدما فلا حرج أن يساهم ببعض الفلفل الأحمر لإضافة نكهة للأطباق... يجتمع في هذا اليوم الرجال وعدد من النساء اللواتي يقمن بطهي الكسكس في فناء المبنى الذي يوجد به ضريح الولي الصالح، وعادة ما يكون في شكل قبة بينما يشعل البعض بعض البخور بجانب قبر الولي الصالح الذي عادة ما يزين بأقمشة حريرية ملونة مع أعلام مبهرجة، حيث تقام مثل هذه الطقوس طلبا لبعض البركة التي يمنحها هؤلاء الأولياء الصالحون.<sup>1</sup> إن ما أورده الرحالة صحيح ويمكن وصفه بأنه جزء من واقع بعض المجتمعات الأخرى على غرار المجتمع الجزائري، والأشخاص الذين اعتنقوا هذه الأفكار الغربية التي دفعت "هيلتون" إلى التعبير عن اندهاشه من هذه الاحتفالات التي لا يجد لها نظيرا في أوروبا.

بينما يصف "ليدر" طريقة خروج "الشاوية" في جماعات في طقوس مشابهة للاحتفالات التي يقوم بها عرب "القطرة" بالقرب من ضريح وليهم وذلك بعد فترة طويلة من الجفاف قائلا: « يغنون في الشوارع وحرصا منا على معرفة ما يجري فقد توجهنا إليهم فشهدنا الفتيات يحملن ملاعق خشبية كبيرة ويرتدين مناديل حريرية ودبابيس وأقراط فضية ويصرخون: "اسمح للمطر أن يسقط"... بينما يسأل البعض الصدقة: الفواكه المجففة، السميد، وغيرها من المواد الغذائية حيث تأخذ تلك الأطعمة إلى المساجد أو إلى شجرة مقدسة وهناك يتم طهيها واستهلاكها على أمل أن تتسبب في البركة المرجوة وينزل المطر.»<sup>2</sup> نقل الرحالة صورة واقعية تعكس جانبا من السلوكات التي لا تخرج عن دائرة الخرافة، كما أن مثل هذه العادات التي لا تزال منتشرة في الكثير من الزوايا التي حادت عن طريق تنوير العقول ونشر الدين باعتناقها لمثل هذه الترهات التي تهدف في مجملها إلى الانتقاص من قدرة العقل العربي، وإضفاء البدع على الدين الإسلامي. فهذه السلوكات قد حفزت الرحالة كثيرا للبحث في الخرافات المنتشرة في هذه المجتمعات.

1 .M.W.Hilton-Simson .Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains. Pp: 27

2 .S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 45-46

لعل من أهم الأشياء المسيئة للجزائري احترامه المبالغ فيه للأولياء الصالحين لدرجة تقديم القرابين والتضرع لهم من أجل مساعدتهم على قضاء حوائجهم، وهذا ما اعتبره كثير من العلماء شركا بالله وإساءة للإسلام الذي ينهى عن هذه الأعمال، ومن ذلك احتفالية الزردة التي أفرغها الكثيرون من محتواها الاجتماعي التضامني بسبب إقامتها على حواف قبور أوليائهم الصالحين والتضرع لهم بمختلف الابتهالات من أجل إنزال المطر.

أخيرا لا بد من القول إن الرحالة الأوروبيين كشفوا الستار على جوانب مهمة من الحياة الدينية للجزائريين في فترة مهمة من تاريخ الجزائر الكبير، فقد اتفق الرحالة نماذج الدراسة على تدين الجزائري وممارسته لعبادته بكل اجتهاد وإخلاص، وسعيه إلى نشر الدين الإسلامي بشتى الطرق، كما اتفق هؤلاء على انتشار المد الصوفي في الجزائر وتنوع الطوائف الصوفية في الجزائر خاصة في الجنوب الجزائري الكبير الذي يمكننا وصفه بمنارة التصوف بإفريقيا. لكن من واجبي أيضا الإشارة إلى إغراق بعض الجماعات الصوفية في الخزعبلات والطقوس الغريبة والشركية وهذا ما أراه منافيا لمبادئ الزوايا التي تهتم عادة بتعليم القرآن وعلومه وغيرها من العلوم الشرعية. قد لفت ذلك انتباه أغلب الرحالة الأوروبيين الذين تباينت آراؤهم حول هذه الطقوس بين معجب بغرابتها التي تؤكد على غرائبية الشرق. وبين مندهش بسبب عدم منطقية تلك السلوكيات والطقوس. مما دفعهم إلى الاستهزاء برواد هذه الأماكن، واختزال العقل العربي إلى عقل غارق في الخرافة.

## 2. صورة اليهودي الجزائري

لا تخلو النصوص الرحلية الأوروبية من الحديث عن الجزائري اليهودي<sup>1</sup> هذه الفئة التي عُرفت بهيمنتها على كل سبل التجارة، والمتاجرة في كل شيء. والذين كان

---

1. تتكون الجالية اليهودية التي عاشت بالجزائر طيلة العهد العثماني من فئتين رئيسيتين هما: اليهود الأهالي، ذوي التاريخ العريق على هذه الأرض الذين توالوا على البلاد منذ ما قبل الميلاد حتى الفترة التي سبقت المطاردات المسيحية الإسبانية لليهود في القرن 14م و القرن 15م ودفعت بالآلاف منهم إلى الهجرة إلى الجزائر. وكذلك اليهود القاديمين منذ هذا التاريخ من أوروبا ومن إسبانيا بصفة خاصة إلى مختلف المدن الجزائرية حيث استمر تدفقهم على البلاد حتى وقت متأخر من فترة الحكم العثماني. الفئة الأولى تدعى "توشابيم" (tochabim) بالعبرية و (Les tochab) بالفرنسية والأهالي بالعربية، أما الفئة الثانية فتعرف بـ: ميغورشميم (Mégorachim) بالعبرية و (Les Mégorach) بالفرنسية

عددهم في مدينة الجزائر حسب "أ. ليسور" وصديقه "ويلد" «كبير جدا في مدينة الجزائر، وقد تفاقم منذ حررتهم الهيمنة الفرنسية من نير الأتراك ومنحتهم المساواة في الحقوق المدنية. وكثير منهم أصبحوا أثرياء على إثر تغيير أولياتهم وذلك باضطلاعهم بدور الوسيط بين الغزاة والأمة المهزومة.»<sup>1</sup> تتفق الرحلات الأوروبية على المعاملة السيئة التي كان يلقاها اليهود الجزائريون من قبل العثمانيين<sup>2</sup> وقد اعتبرها الكثير منهم مسوغا للتعبير عن فرحتهم بالاحتلال الفرنسي والتعاون معه، وهذا ما أكسبهم فيما بعد النفوذ والسلطة على بقية الجزائريين بسن فرنسا لعدة قوانين في صالحهم أهمها قانون "كريميو" 1870 الذي يقضي بالتجنيس الجماعي والإجباري ليهود الجزائر بالجنسية الفرنسية، فصاروا أوروبيين بذلك وهذا ما زادهم تجبرا على الجزائريين.

### 1.2. صورة اليهودي الماكر

يرى "مويسان" أن يهود الجنوب يختلفون كثيرا عن اليهود الذين شاهدتهم في العاصمة وأوروبا. لأن يهود الجنوب قبيحون جدا وماكرون لدرجة لا توصف، ففي بوسعادة تجدهم «مقرفصين في أركان قذرة وكريهة وقد نفختهم الشحوم يترقبون العربي كما يترقب العنكبوت ذبابة. ينادون عليه ليقرضوه مئة فلس مقابل توقيعه على سند. يعي الرجل الخطر يتردد، يرفض غير أن الرغبة في الشراب ورغبات أخرى تلاحقه، والمائة فلس تمثل له كثيرا من الملذات. أخيرا يستسلم يأخذ القطعة النقدية ويوقع الورقة الملطخة بالشحم. بعد ثلاثة أشهر يكون مدينا بعشر فرنكات، ومئة فرنك بعد سنة ومائتي فرنك بعد ثلاث سنوات. ومن ثم يدفعه اليهودي إلى بيع أرضه إن كان يملك أرضا، وإلا يبيع جملة أو حصانه أو حماره، أي كل ما يملك.»<sup>3</sup> يجسد الرحالة عبر هذا الخطاب صورة اليهودي الماكر الذي يعيش في الجنوب الجزائري، إذ يتميز بشدة الدهاء والمكر بسبب استغلاله

ويهود الأندلس أو إسبانيا بالعربية. للتوسع ينظر: فوزي سعد الله. يهود الجزائر هؤلاء المجهولون. شركة دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ط2، 2004، ص: 142

1. أ. ليسور، و. ويلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر، ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة: 39  
2. لا بد من التذكير بنقطة مهمة وهي غلاظة ودموية العثمانيين مع الجزائريين أيضا؛ حتى لا ننساق وراء الإدعاءات التي روح لها المؤرخون اليهود.  
3. غي دو مويسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صيري، ص: 93

لحاجة العربي المتمرغ في الفقر ليقوعه في شرك الدين الذي يصعب الخروج منه، فالمبلغ يتضاعف كلما طالت المدة مما يؤدي بالعربي إلى الإفلاس وبالتالي بيع أغلى ما يملك وهي أرضه أو حماره الذي يتنقل به يوميا في الصحراء المقفرة.

يمكن اعتبار ما أورده "موبسان" جزءا مهما من حقيقة اليهود. فقد حطم اليهود الجهاز الإنتاجي الزراعي والحرفي الجزائري باحتكارهم للسوق، وفرضهم على المنتجات الوطنية أسعار احتكارية منخفضة لم تكن تغطي حتى نفقات، وتكاليف إنتاجها، مما أدى إلى إفلاس الفلاحين والحرفيين، وبالتالي إلى إفلاس البلاد رغم إمكانياتها البشرية والطبيعية الضخمة خصوصا بعد أن ضعف الأسطول الجزائري.<sup>1</sup> فظهرت بوادر الكساد الاقتصادي العام مما أدى إلى انتشار الفقر وكافة الآفات الاجتماعية بسبب مكر اليهود من الجزائريين.

### 2.2. صورة اليهودي الجشع

يُورد "موبسان" بعض الصور التي توحى بجشع يهود الجنوب موضحا أن ضحايا اليهود كثيرون، فقد «يقع القادة والأسياد والباش آغات في برائن هؤلاء الجشعين الذين يمثلون آفة وجرحا داميا في مستعمراتنا، والعائق الأعظم في وجه الحضارة ورفاهية العربي».<sup>2</sup> لا يتوقف جشع مكر اليهود عند إرغام العربي على الاستدانة منه فقط بل إنه فاق كل حدود الدناءة والقدارة، فكلما توجه «رتل فرنسي للإغارة على قبيلة متمردة، تتبعه مجموعة من اليهود ليشتروا الغنائم بثمن بخس ويعيدون بيعها إلى العرب بمجرد ابتعاد الفيلق. عندما يتم حجز ستة آلاف خروف على سبيل المثال في منطقة ما. كيف يمكن التصرف في هذا القطيع أخذه إلى المدينة؟ ستموت الدواب في الطريق... اليهود مستعدون لشرائها بفرنكين للخروف الذي ثمنه الأصلي عشرون فرنك».<sup>3</sup> إن لجوء يهود الجنوب الجزائري إلى مثل هذه السلوكات الخسيسة في معاملاتهم التجارية المبنية على المكر والابتزاز دفعت الجميع إلى كراهيتهم والحقد عليهم، فهم يعيشون عن طريق الابتزاز

1. ينظر: فوزي سعد الله. يهود الجزائر هؤلاء المجهولون. ص: 230

2. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس"، ص: 93

3. المرجع نفسه، ص: 93، 94

والمعاملات الربوية، يتاجرون في كل شيء ويكفي أن تشير إلى نقطة مهمة وهي عدم تضررهم من الاحتلال، فالظاهر أنهم يعيشون في سلام في ظل الاحتلال بينما يُقتل العربي وتصادر أمواله وأملكه كل يوم. وإلا كيف نصف إتباعهم للجيش الفرنسي من أجل شراء غنائم القتلى والمشردين العرب الذي أغارت فرنسا على قبيلتهم لكي يعيدون بيعها لهم من جديد بعد انصراف الجيش الفرنسي. ومن الأمثلة الحية على جشع اليهودي لابأس أن أذكر «أن المصدرين اليهود الذين كانوا يُحصّلون من مقاطعات وهران على 7000 قنطار من القمح و6000 قنطار من الشعير سنويا في المتوسط. هؤلاء المصدرون، لم يكن لديهم أي انشغال على احتياجات البلاد، حيث باعوا القمح الجزائري للأجانب حتى في أوقات المجاعات وحققوا أرباحا ضخمة؛ فالقمح الذي كانوا يشترونه بـ: 10 فرنكات في 1808 ومن بين 3 إلى 5 فرنكات في أعادوا بيعه 1830 بـ: 18 إلى 20 فرنك بأوروبا.»<sup>1</sup> مما ساهم في تفشي المجاعة في وسط الجزائريين فصورة الجشع التي نقلها الرحالة عن الجزائري اليهودي أثبتتها كتب التاريخ.

### 3.2. صورة اليهودي الخائن

يصور "بفايفر" يهود الجزائر في صورة الجبناء والخونة وذلك بعد فرارهم من القذائف، وعدم مشاركتهم في مواجهة الفرنسيين قائلا: «قد تركوا المدينة خوفا من القذائف، وصعدوا جماعات إلى الجبال التي ترتفع خلف المدينة، ولكنهم لم يطمئنوا على حياتهم، فقد اتهمهم الانكشاريون بأنهم قد تسللوا ليلا إلى معسكر العدو، ولم يزودوه بالمواد الغذائية فحسب، بل إنهم دلوه أيضا على جميع الطرق التي تسهل له الصعود إلى الجبال. وهكذا هاجم المسلمون اليهود الخونة وقتلوا بعضهم ونهبوا آخرين.»<sup>2</sup> إنه لشيء مؤسف أن تشوه هذه الطائفة نفسها بمثل هذه السلوكات البشعة، فكيف يسمح هؤلاء لأنفسهم بخيانة وطنهم والعمل على مساعدة الفرنسيين في الدخول إلى المدينة. وحتى لا يخرج بحثي عن إطاره الموضوعي لا يجب تعميم هذه الصور على كل يهود الجزائر،

1. ينظر: فوزي سعد الله. يهود الجزائر هؤلاء المجهولون. ص: 229

2. سيمون بفايفر. مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر. تر: أبو العيد دودو، ص: 98

فوجود يهودي خائن يعني بالضرورة وجود مسلم خائن، وقد وثقت كتب التاريخ هذه الحقائق.

يصف "بفايفر" الفرحة التي عمت يهود الجزائر بعد وقوع المدينة في قبضة المحتل الفرنسي قائلا: «يطوفون في الشوارع فرحين مبهجين، ونظرا لأنه كان محرما عليهم سابقا ارتداء غير الثياب السود والزرق الغامقة... فقد ارتدى بعضهم قلنسوات حمراء، وراحوا يجوبون الشوارع وهم راكبون على البغال، وكانت الآلاف تسير خلفهم وتصيح "يهود مسرح" وكانت أصوات هذا الشعب القدر تتعالى بهتافات "فيفا لافرنسيص- يحيا الفرنسيين" فأظهر بذلك أنه غير جدير بالحرية.»<sup>1</sup> يبدو أن فئة اليهود التي يقصدها النص الرحلي لم تكن ودية لوطنها، ولم تكلف نفسها عناء حمل السلاح والوقوف في وجه المستعمر الفرنسي، ولعل هذا ما جعل "بفايفر" يصفهم بأنهم غير جديرين بالحرية، والدليل تنكرهم للوطن وترحيبهم بالمحتل الفرنسي. وتجدر الإشارة إلى أن الكثير من كتب التاريخ قد وثقت هذه المشاهد المخزية. ومن ذلك ما كتبه المؤرخ الفرنسي "شارل أندريه جوليان" "Charles-André Julien" عن يهود الجزائر قائلا: «لقد استقبل يهود الجزائر المحتلين بالفرح، وعندما انتشر الجنود الفرنسيون في فوضى ينهبون المنازل كان اليهود يوجهونهم نحو الأماكن التي بها ما ينهب ويقومون بشراء ما نهبوا منهم بأبخس الأثمان.»<sup>2</sup> إن ما أورده المؤرخ الفرنسي عن يهود الجزائر يؤكد خيانة ونذالة يهود الجزائر هذه الفئة التي تنكرت لوطنها بمساندتها للمحتل الفرنسي، فضلا عن الاستقواء على الجزائريين المسلمين في ظل الوجود الفرنسي.

يواصل الأسير الألماني "سيمون بفايفر" سرد القصص التي توحى بخيانة البعض من يهود الجزائر قائلا: «وما إن رأى اليهود أن الفرنسيين يفضلونهم على أبناء البلاد، حتى ركبوا رؤوسهم وتظاهروا بالشجاعة، واتسمت تصرفاتهم وبالجرأة والوقاحة، فكانوا يعتدون على المسلمين، لاسيما الأطفال منهم، حين يلتقون بهم في طريقهم،

1. المرجع السابق، ص: 109

2. علي محمد محمد الصلابي. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر (تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى). دار المعرفة، بيروت، 2015، ص: 297

ويسئون معاملتهم بصورة فظيعة، ومع هذا الغرور والتعالي والعجرفة، فإني أعتقد أن في استطاعة تركي واحد مسلح أن يهزم الآلاف منهم. إلا أن القائد العام سرعان ما وضع حدا لغرورهم هذا إلى حد ما. وذلك عندما أنشأ مجلسا بلديا، يتكون من أغنياء المدينة، للمحافظة على الحقوق والنظم بين المسلمين.»<sup>1</sup> يصور "بفايفر" يهود الجزائر بالخونة الذين تجاوزوا كل حدود الدناءة، فبعد ترحيبهم الحار بالوجود الفرنسي أصبحوا يستغلون تعاطف الفرنسيين معهم من أجل إذلال أو الإساءة لأطفال المسلمين قبل أن يضع القائد العام حدا لنذالتهم بسنه لقوانين تنظيمية للبلديات في الجزائر.

إن خيانة اليهود للجزائر ليست بالجديدة، فقد عبروا عن فرحتهم العارمة أيضا لما احتل الإسبان مدينة وهران، وتعاونوا مع الإسبان<sup>2</sup> إلى أبعد الحدود وصالوا وجالوا ضد المسلمين، وظلموا وتعدوا على حرمتهم أيضا ما يوحي بأن الخيانة متجذرة في نفوس غالبيتهم. وقد حاول المؤرخون والكتاب الأوروبيون واليهود تبرير انحياز اليهود للفرنسيين وخيانة الجزائر بمختلف التبريرات ولعل أهمها تصوير وضع اليهود في البلاد أثناء العهد العثماني بأشع الصور وإبرازه كمرحلة ظلم وظلام واضطهاد وعنصرية عرقية ودينية «وكأنها كانت مقتصرة فقط على اليهود رغم أن معاناة المسلمين منها لم تكن أقل من معاناة اليهود أو ربما أكثر منها. فسلوك الحكام العثمانيين تجاه اليهود لم يكن سلوكا أقل من عنصريا نابعا من التمييز الديني بل كان تجسيدا لتقاليد وفلسفة الحكم العثماني ونتيجة أيضا للفساد السياسي والأخلاقي على العموم.»<sup>3</sup> انطلاقا مما سبق يمكن القول إن اليهود قد عاشوا في العهد العثماني محترمين ولكن ليس بالضرورة محبوبين، فضلا عن ذلك فإن الجزائريين أيضا كانوا يتقاسمون معهم المعاناة والقسوة الممارسة من قبل العثمانيين ومع ذلك فإنهم لم يظهروا ترحيبهم بالمحتلين وتعاونهم مع الفرنسيين ضد العثمانيين لأنهم كانوا يدركون جيدا أن الوجود الفرنسي احتلال لذلك وقفوا ضد الفرنسيين مع العثمانيين وقفة رجل واحد.

1. المرجع نفسه، ص: 109، 277

2. للتوسع أكثر ينظر: فوزي سعد الله. يهود الجزائر هؤلاء المجهولون. ص 194

3. ينظر: فوزي سعد الله. يهود الجزائر هؤلاء المجهولون. ص: 191

### 4.2. صورة اليهودي المنبوذ

لعل أهم شيء لفت انتباهي أثناء تصفحي للنصوص الرحلية نماذج الدراسة هو نظرة ومعاملة الجزائري (المسلم) لفئة اليهود معاملة لا تخرج عن دائرة العداء، فالجزائري المسلم ظل ومازال إلى يومنا هذا يكن العداء والكرهية لليهود، ولم يسلم من هذا العداء حتى يهود الجزائر، فقد اكتشفت من خلال ما كتبه الرحالة الأوروبيون على اختلاف مشاربهم الإيديولوجية أن الجزائري لا يطبق اليهودي وكثيرا ما كان يحتقره أو يسيء معاملته.

يصف الأسير الألماني "شلوصر" معاملة سكان قسنطينة لليهود بالسيئة جدا، فاليهود الذين كان عددهم حوالي تسعة آلاف في تلك الفترة كانوا «بصورة عامة محتقرين في قسنطينة، فكان اليهودي يعامل معاملة العبد، فإذا احتاج الباي إلى المال فإنه يطلبه من اليهود، وحين يكون لشخص ما عمل لا يليق به، فإنه يأخذ اليهودي ليقوم بذلك العمل. وإذا وصلت مثلا الرؤوس المقطوعة إلى المدينة وأصابها الفساد لبعد مسافة النقل، وشدة حرارة الشمس، فإن اليهود يأخذون من بيوتهم ودكاكينهم ويعطى لكل واحد منهم رأسان، يطوف بهما في المدينة، ثم يحملها إلى الرحبة، وإن امتنعوا عن ذلك فإنهم يتعرضون لإهانات مختلفة»<sup>1</sup> يظهر اليهودي إنسانا غير مرحب به في أوساط الجزائريين حتى وإن كانوا من أبناء هذا الشعب، فالكثير من الرحالة أشاروا إلى احتقار الجزائريين لليهود. غير أن حظ يهود "قسنطينة" يظل أسوأ بكثير من باقي اليهود المتواجدين عبر التراب الوطني، فكل الأعمال القذرة كانت تتسبب لهم.

بينما ينقل الفرنسي "أدريان بير بروجير" شقا من الحوار الذي جرى بين أحد الشيوخ الجزائريين وأحد اليهود الذي كان متوجها نحو الأمير "عبد القادر" حتى يعطيه مبلغا من المال قدره: 300.000 فرنك - كان الأمير قد أودعها في داره- إذ يقول أدريان: «وفي اللحظة التي دخلنا فيها عند بني هني وجدنا الإسرائيلي الأمين يطلب من شيخ الدوار، بلهجة أمرة: "البيض والزبدة له والتبن والشعير لمطيطه". وقد ظل الشيخ ساكنا لا يتحرك وصامتا كأنه لم يسمع شيئا، فكرر اليهودي الطلب بلهجة فيها غضب

1. فنديلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 82

حاد، فنهزه الشيخ باحتقار قائلاً: ومن أنت حتى تأتي وتصدر الأوامر هنا؟ فأجاب اليهودي بلهجة فيها انكسار: "أنا يهودي السلطان". فرد عليه الشيخ: "يهودي السلطان أو يهودي الشيطان، ما أنت إلا كلب حقير ليس له كلمة أمام مسلم". وكانت ملامح الشيخ عند كلامه السابق شديدة لدرجة أن الرجل الإسرائيلي أحس بدنو جرة اليقطن، فتوقف عن مواصلة الحديث مع هذا المحادث الصلب.<sup>1</sup> إن هذا المشهد الذي نقله "أدريان" يجسد صورة الجزائري اليهودي كإنسان منبوذ كثيراً في نظر الجزائري المسلم ولعل مرد ذلك إلى خبث اليهود وتملصهم من العهود -مثلما جاء في القرآن الكريم- أما عن تاريخ يهود الجزائر، فهم موجودون منذ أكثر من 2000 سنة إلى غاية 1962.<sup>2</sup> غير أن نفوذهم قد زاد في الفترة العثمانية، فبرزوا في التجارة بكل أنواعها (ذهب، فضة، قمح، أراضي...). وقد بلغ نفوذهم ذروته مع مجيء المستعمر الفرنسي الذي منحهم الجنسية الفرنسية والحماية بمرسوم "كريميو 1870".

تورد "إيزابيل إيبهارت" قصة "حاييم" الجواهري الذي كادت أن تغتصب زوجته "إستيرا" من قبل مجموعة من البدو الذين اعترضوا طريقها رفقة أمها بقصر "أودارير". حيث تنقل "إيزابيل" حالة الحزن واليأس التي أصابت الزوج الذي لم يجد من يعينه على الانتقام لما حدث لزوجته. وخير دليل على المعاملة السيئة التي يلقاها اليهود في الجزائر ما ورد على لسان المخزني الذي كان يرافق "إيزابيل" وهو يقول لها: «عندما يحل بنا أمر مماثل يجد الرجل الجاني ويقتله. أما هم فيكتفون بالشكوى مثل الجرذان وطأ أحدهم على ذبولهم، زد على ذلك اليهودية جميلة. كان الرعاة على حق. وهي ساذجة فعلاً إذا قاومتهم. انظر إلى يهوديها ما أقبحه!»<sup>3</sup> إن المتمعن فيما جاء به مُرَافِقُ "إيزابيل" يدرك حتماً حجم معاناة طائفة اليهود في الجزائر ويوضح مدى حقد البدو على اليهود.

1. أدريان بير بروجير. مع الأمير عبد القادر - رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837-1838). تر: أبو القاسم سعد الله، ص: 35-36

2. ينظر: فوزي سعد الله. يهود الجزائر هؤلاء المجهولون. ص: 05

3. إيزابيل إيبهارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام

المودني، ص: 220

تستمر "إيزابيل" في سرد معاناة اليهودي "حاييم" الذي لم يترك بابا إلا وطرقه من أجل الإمساك بالبدو الذين كادوا يغتصبون زوجته وهي تنقل الحوار الذي جرى بينه وبين جماعة "زناغة" حيث «توقف حاييم هناك طالبا الانتصاف من الرعاة الذين اعتدوا على زوجته... عندما انتهى صدرت عن رجل من مقوس ذي نظرة ما تزال تحمل القسوة أسفل حاجبين أبيضين غليظين، حركة مشوشة قبل أن يقول: ما الذي نستطيع فعله في هذا؟ لو كان من أزعج زوجتك من جماعتنا لعاقبناها، أما أولئك البدو الرحل... أنت الجاني لأنك سمحت لزوجتك بأن تتجول وحدها في القصور... كلا أيها اليهودي لا نستطيع فعل شيء!«<sup>1</sup> بناء على رد الجماعة يمكن القول؛ إن جماعة "زناغة" لم يكن لديها أي سلطة على البدو الرحل الذين عرفوا بتمردهم؛ لأنهم دائمو التنقل ويصعب على السلطة الإمساك بهم وتسليط مختلف العقوبات عليهم وهذا ما زاد من معاناة اليهود، فالمسلمون بإمكانهم البحث عنهم والانتقام منهم لكن اليهودي لا يقوى على ذلك لأنه مستضعف.

تقول "إيزابيل إيبهارت" أن الجزائري (المسلم) متمثلا في بدو الجنوب ينظر للمرأة اليهودية على أنها «نجسة». ولم يلاحظ البدو أبدا الجمال الأبيض السقيم بعض الشيء لبنات الملاح. العرقان يتجاوران ويتسامحان من دون أن يختلطا أبدا أو حتى يتقاربا.<sup>2</sup> من المعروف أن الدين الإسلامي لا يجيز للمسلم أو المسلمة أن ينكح غير المسلمين (نصارى، يهود، بوذيين) حتى يسلم لكن الإسلام لم يمنع التعايش السلمي مع هؤلاء، ومع ذلك يجب القول «إن اليهود عاشوا محترمين في الجزائر، لكن ليس بالضرورة محبوبين لأن أحداثا عديدة كانت تسيء إلى علاقات المسلمين باليهود وتزرع الأحقاد وتضعف الثقة بين الطرفين.»<sup>3</sup> ولذلك نحن نرى في الإساءة لطائفة اليهود على وجه الخصوص أمرا منافيا للدين الإسلامي وعادات وتقاليد البلد.

انطلاقا مما سبق يمكنني القول؛ إن الرحالة الأوروبيين قد ساهموا في الكشف عن مختلف الجوانب الثقافية والدينية للجزائريين، ويظهر ذلك جليا في العدد الهائل من الصور

1. المرجع السابق، ص: 221

2. المرجع نفسه، ص: 330

3. ينظر: فوزي سعد الله. يهود الجزائر هؤلاء المجهولون. ص: 192

التي ساهمت في وصف عادات وتقاليد الجزائريين في شتى المناسبات، فضلا عن الصور والمقاطع التي عبرت عن الحياة الدينية في المجتمع الجزائري والتي اتفقت في مجملها على تدين الجزائريين، وقد ظهر ذلك جليا في إقبالهم الشديد على مختلف العبادات والسلوكات، وتجدر الإشارة إلى أن هذا التدين لم يسلم من بعض الطقوس الوثنية إن جاز التعبير خاصة تلك المرتبطة بالدرابيش والاحتفالات التي تقام على حواف أضرحة الأولياء الصالحين. والتي أساءت كثيرا للعقل الجزائري وساهمت إلى حد كبير في تقديم صورة الجزائري مرتبطة بالغرائية والسذاجة نظرا لهيمنة الجانب الخرافي والفتنستيكي عليها. وقد انتبه الرحالة -نماذج الدراسة- إلى انتشار اليهود في الجزائر هذه الفئة الأقلية المختلفة دينيا التي لا تحظى بمعاملة جيدة من قبل الجزائريين نظرا لمكرها وهذا بشهادة أغلب الرحالة نماذج الدراسة ووثقته كتب التاريخ أيضا.

# الفصل الثالث

صورة الجزائر الإثنية والتاريخية

أولاً: الصورة الإثنية

ثانياً: الصورة التاريخية

يمثل أدب الرحلة جوانب مهمة من حياة الإنسان في مختلف نواحيها الاجتماعية والتاريخية والسياسية والثقافية وغيرها، وهذا ما يجعل «الرحلات من المصادر المساعدة للتاريخ وهي أحيانا بمثابة الشريط السينمائي يصور منظرا أو يلتقط حدثا»<sup>1</sup> ولما كانت الجزائر من دول الشرق المهمة، فقد زارها الكثير من الرحالة الأوروبيين، حيث وثقت كتابات هؤلاء الرحالة سيطرة الجزائر على حوض البحر الأبيض المتوسط وأخذها الجزية من أكبر دول العالم، - أثناء الوجود العثماني- مما أكسبها مكانة واحتراما كبيرين.

إن هيمنة مملكة الجزائر<sup>2</sup> على حوض البحر الأبيض المتوسط خلقت الفضول في نفوس الأوروبيين، فتقاطروا عليها من كل مكان قصد التعرف على البربر العنيد، واستكشاف بلدهم، نمط عيشتهم، نظم حكمهم... بينما فضل البعض القيام بمثل هذه الرحلات لأهداف عسكرية (التجسس) في محاولة للكشف عن نقاط ضعف هذا الشعب العنيد الذي سيطر على حوض البحر المتوسط لقرون، وقاوم المستعمر الفرنسي بشجاعة مفرطة، فكانت كتاباتهم بمثابة وثائق مهمة وسجل حقيقي لمظاهر الحياة التاريخية والإثنية.

### أولا: الصورة الإثنية

يشغل الجانب الإثني للجزائر حيزا محترما من متون الرحلات الأوروبية، فالأوروبيون (قناصلة، مستشرقون، تجار، جواسيس، أدباء...) حاولوا التقرب من الجزائريين والتعرف على خصوصياتهم من أجل تكوين صورة كاملة عن سكان بوابة

1. مولاي بلحميسي. الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص: 08

2. كثيرا ما يلقب الرحالة الألماني ج.أو. هابنسترايت في رحلته بالمملكة وهذا اعتراف بمكانة البلد وقوته العسكرية التي فرضت على الدول الكبرى احترام الجزائر. للتوسع ينظر: ج.أو. هابنسترايت. رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ - 1732). تر: ناصر الدين سعيدوني ص: 29

إفريقيا، وقد لفت انتباه الرحالة الأوروبيين -المتباينة أهداف رحلاتهم- التنوع الإثني في الجزائر مما استدعى تدخل أقلامهم من أجل توثيق هذه الحقائق والكشف عن خصوصيات كل عرق من الأعراق التي تعيش في الجزائر.

لعل أهم ما يميز التركيبة العرقية للمجتمع القسنطيني على سبيل المثال هو التنوع الإثني الذي أضفى على أزقة المدينة حركية كبيرة مقارنة مع أحياء العاصمة، فقسنطينة حسب "مويسان" «زاخرة بالحياة المتدفقة دون توقف، بمخلوقات مختلفة: العرب، القبائليين، البسكريين، المزابيين، السود، المغريبات المحجبات، الفرسان الحمر، الأتراك الزرق، القضاة الوقورين، الضباط اللامعين، باعة يسوقون أمامهم الحمير».<sup>1</sup> إن المتأمل في تاريخ المدينة العريق يدرك حتما أن التنوع العرقي لسكانها أمر منطقي غير أن ما يهمننا هو ذلك التآلف والتآخي والحركة التجارية الكبيرة التي تشهدها أسواق المدينة مثلما صرح "مويسان".

ويتحدث "مويسان" عن الطابع الإسباني لمدينة وهران في خضم حديثه عن النسوة الإسبانيات اللواتي رآهن بوهران قائلا: «وهران مدينة أوروبية بامتياز، تجارية، إسبانية أكثر منها فرنسية. نلتقي في الشوارع الفتيات الجميلات ذوات العيون السوداء، والبشرة العاجية، والأسنان اللامعة. عندما يكون الطقس جميلا، يمكننا رؤية السواحل الإسبانية في الأفق: وطنهن».<sup>2</sup> إن الموقع الاستراتيجي للجزائر، جعل من سواحلها -وهران والمرسى الكبير- عرضة للكثير من الحملات البرتغالية والإسبانية التي اشتدت في وقت ما بين الغزاة من أجل التوسع على حساب أراضي شمال إفريقيا. لما تزخر به هذه الأقاليم من ثروات وتضاريس متنوعة قد أسالت لعاب الكثير من الدول الاستعمارية. فسقوط غرناطة في يد الإسبان سنة 1492 يُعد مرحلة جديدة في برنامج التوسع الإسباني.<sup>3</sup> أما عن سر اكتساب وهران للطابع الإسباني أكثر من الفرنسي، فيعود إلى احتلال الإسبان للمدينة مطلع القرن السادس عشر، فهي لم تتحرر من قبضة الإسبان

1. غي دو مويسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صيري، ص: 99

2 . Guy de Maupassant .au soleil 1884. Pp:15

3. ينظر: مبارك الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ص: 20

حتى نهاية القرن الثامن عشر ولعل هذا ما يفسر الطابع الإسباني للمدينة، فعلى الرغم من إجلاء القوات الإسبانية من قبل العثمانيين لا يزال البعض منهم متواجدا في وهران ما يدل على التنوع الإثني في الجزائر.

بينما يرى "شلوصر" أن سكان قسنطينة «بلغ عدد أفرادها ثلاثين ألفا، خليط من الأتراك والعرب واليهود، وكان بينهم أناس أغنياء جدا، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يرى ثروتهم أبدا، فما من رجل إلا ويعرف كيف يخفي أمواله خوفا من جشع الباي، ويتظاهر بالفقر من خلال ثيابه الرديئة وصناعته الصغيرة.»<sup>1</sup> إن ما أورده "شلوصر" و"موبسان" هو صورة حقيقية عن واقع سكان قسنطينة في تلك الفترة، فقد كانوا عربا وأتراكا ويهودا بالإضافة إلى أقلية من الأعراق الأخرى. غير أن الملفت للانتباه هو انتباه الرحالة للظلم الممارس من قبل العثمانيين على السكان، خاصة ما تعلق بتلك الضرائب الكبيرة المسلطة على السكان، وقد سبق وأشرنا إلى هذا بالإعتماد على جملة من المصادر التاريخية.

كما يتحدث الرسام الفرنسي "أ. ليسور" وصديقه الإنجليزي "ويلد" عن وجود العرق الإفريقي بمدينة الجزائر قائلا: «يعقد سوق في هذا الممر كل صباح. تأتي الزنجيات إلى هذا السوق بأرغفة صغيرة من طحين البر أو الذرة في سلال من أسل وبأقراص حلوى. للباسهن طابع خاص... على يسار الممر تبصر مقهى يرتادها عادة زوج البلد.»<sup>2</sup> إن ما جاء به الرسامان يؤكد التنوع الإثني في المجتمع الجزائري، حتى أنهما تحدثا عن سوق للعبيد الأفارقة بساحة "يوبيا" بالعاصمة. فضلا عن اليهود الذين ينتشرون في كل المدن الجزائرية ويحتكرون التجارة.

غير أن الشيء الملفت للانتباه هو احتكار الأتراك الحكم وعدم سماحهم للجزائريين بأن يشغلوا مناصب سياسية سامية باعتبار الجزائريين أصحاب الأرض ومن حقهم تسيير شؤونهم وتمتعهم بالحكم الذاتي، غير أنني لا أنكر فضل الإخوة "بربروس" في إنقاذ السواحل الغربية من الغزو الإسباني؛ فالحكام العثمانيون لم يحترموا هذا المبدأ وورثوا الحكم ونظروا للجزائريين نظرة الغالب للمغلوب «وكان من المفروض أن يطبق

1. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 79

2. أ. ليسور، و. ويلد، رحلة طريفية في إيالة الجزائر، ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة: 35

الحكام العثمانيون تعاليم الإسلام في الحكم، وأن يؤاخوا بينهم وبين السكان وأن يشاوروهم في الأمر وأن يفسحوا المجال أمامهم، وأن يختلطوا بهم ويخالطوهم. ولكنهم في الواقع أساؤوا التصرف، كمعظم الحكام عندئذ فحكّموا كفة متميزة واحتكروا الحكم في أيديهم طيلة الفترة العثمانية واستبدوا بالسلطة واستذلوا السكان واستعلوا عليهم وعاملوهم معاملة المنتصر للمهزوم.<sup>1</sup> لم يكتف الأتراك بالهيمنة على المناصب السياسية والعسكرية فقط بل نظروا إلى الجزائريين نظرة يشوبها الاحتقار ووصفهم على أنهم مجموعة من العصاة أو الخارجين عن القانون؛ لذلك لم يجندوا أحدا منهم في الحامية.<sup>2</sup>

إن احتكار الأتراك للمناصب السياسية، واحتقارهم وتهميشهم لأصحاب الأرض وإرغامهم على دفع الكثير من الضرائب مسوغ لخروج الجزائري عن الطاعة وامتناعه عن دفع الضرائب فمن غير المعقول أن يؤدي الإنسان واجبه دونما تمتع بالحقوق التي تشعره بالانتماء والمواطنة، فهو صاحب الأرض التي اختطفها الأتراك. كذلك فإن نظرة الأتراك الدونية للآخر الجزائري ليست حكرا على الرجال فقط، فحتى النساء التركيات يحملن نفس النظرة عن الجزائريين. أما عن الزواج فيقول الرحالة إن الأتراك يتزوجون من المسيحيات أو مع الجزائريات غير أن أولادهم الذين يحملون اسم الكراغلة<sup>3</sup> (cololis) يسمح لهم فقط بالانضمام إلى الجيش.<sup>4</sup>

يوثق العالم الألماني "هابنسترايت" جانبا من التهميش والإقصاء الذي يعيشه الحُضر الذين يسكنون مدينة الجزائر، حيث فرضت «عليهم التبعية المطلقة، فليس لأحد منهم الحق في حمل السلاح، كما أن أملاكهم معرضة للمصادرة لأقل خطأ يصدر منهم

1. للتوسع ينظر: أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، (1500-1830). ج1، ص: 141

2. ج.أو. هابنسترايت. رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ - 1732). تر:

ناصر الدين سعيدوني، ص: 29

3. الكراغلة: قول أوغلي أي أبناء العبيد، على اعتبار أنهم عبيد السلطان حسب العرف العثماني، وهم جماعة المولودين من آباء أتراك وأمهات جزائريات، لم يسمح لهم بتولي المناصب السامية التي ظلت حكرا على الأتراك القادمين من المشرق، وهذا ما سبب توترا في علاقتهم بديوان الجزائر وأدى إلى طرد جماعات منهم من مدينة الجزائر إلى بلاد القبائل سنة 1693. ينظر: ج.أو. هابنسترايت. رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس

وطرابلس (1145هـ - 1732). تر: ناصر الدين سعيدوني، ص: 29

4. المرجع نفسه، ص: 29

في حق الأتراك، وهم مجموعهم يشتغلون كعمال وتجار.<sup>1</sup> يبدو أن ولاء (خضوع) الحضر للسلطين العثمانيين لم يشفع لهم، فهم يتعرضون للتهميش ومصادرة حقوقهم وأموالهم كلما أساءوا التصرف مع الأتراك مما يعني أنهم في فوهة البركان. فليس لهم الحق في حمل السلاح والدفاع عن أنفسهم وأموالهم مقارنة بالعرب والبربر.

بينما يرى الرحالة ذاته أن القبائل والعرب البدو الذين يسكنون في الأرياف بعيدا عن المدن «يتمتعون بحرية كبيرة، وهم ينقسمون إلى قبائل وعشائر تعيش تحت الخيام وعندما ينتقلون من مكان إلى آخر يحملون معهم كل ما يملكونه من أقوات ومتاع وحيوانات.»<sup>2</sup> إن بعد القبائل والعرب عن المدن وتواجدهم في المناطق النائية والجبال الوعرة والصحراء الشاسعة قد مكنهم من العيش بسلام وحرية بعيدا عن الاضطهاد الذي كانت تمارسه السلطات العثمانية في حقهم. كما أن امتلاكهم للسلاح سمح لهم بالتهرب من دفع الضرائب، والتصدي لجند المجلّة المكلفين بجمع الضرائب والتوغل في عمق الصحراء كلما حان وقت جمع الضرائب.

انطلاقا من صور التعددية الإثنية التي أوردها "موبسان" ووثقها قبله "هابنسترايت" و"أ. ليسور" وغيرهم من الرحالة حول التنوع الإثني للمجتمع الجزائري، سأركز على أهم الأعراق التي نقلها الرحالة ممثلة في العرق الأمازيغي والعربي، باعتبارهما من أهم الأعراق التي يتشكل منها المجتمع الجزائري.

### 1. الأمازيغ

#### 1.1. الميزابيون

قدم الكاتب الفرنسي "غي دو موبسان" -الغائص في أعماق الصحراء الجزائرية- صورا إيجابية عن بالمجتمع الميزابي الذي كثيرا ما وصفه بالمنظم، وقد حفزه ذلك إلى وصف كل النواحي المتعلقة بحياتهم وصفا دقيقا، فتحدث عن الجوانب السوسيوثقافية والاقتصادية والدينية للميزابي الذي يراه متفوقا عن بقية الأعراق الموجودة في الجزائر.

1. المرجع السابق، ص: 32

2. المرجع نفسه، ص: 32

### 1.1.1. صورة الميزابي المنظم (الصارم)

يعبر الكاتب الفرنسي "غي دو موبسان" عن دهشته وانبهاره من طريقة تنظيم وصرامة الميزابي، وكذا إتقانه للعمل، فقد وصف منطقة "ميزاب" بأنها «جمهورية أو بالأحرى كومونة كالتى حاول الثوار الباريسيون تأسيسها سنة 1871. لا يحق لأحد في ميزاب أن يبقى عاطلا بلا عمل. ما إن يصبح طفلا قادرا على المشي وحمل شيء ما حتى يمد العون لوالده في ري البساتين التي تمثل العمل الدائم والأهم بالنسبة للسكان.»<sup>1</sup> يتلقى الميزابي المبادئ الأولى للعمل في البساتين منذ نعومة أظفاره بإشرافه في أعمال بسيطة حتى يتعود على العمل وكسب قوت يومه عند الكبر. وهذه الصورة بقدر ما هي حقيقية بقدر ما هي إيجابية، فهي تعبر عن تقديس الآخر الميزابي للعمل، واعتماده على نفسه منذ الصغر وهذا ما عرف عنه في الواقع.

ويصف "موبسان" الميزابيين بالغيورين على وطنهم، مندم السبعة المزدهرة -على الرغم من قسوة الصحراء- لأنهم «يمنعون، ما أمكن، الأوروبيين من دخوله. يمنع في بعض المدن كما هو الحال في "بني أسقوم" كل غريب من النوم هناك ولا حتى ليلة واحدة. يقوم الجميع بدور الشرطة ولا يرفض أحد المساعدة إذا اقتضى الأمر ذلك. لا يوجد في هذه البلاد فقراء وملتسولون، حيث يتم أطعام المحتاجين من القسم المخصص للصدقة.»<sup>2</sup> إن ما أروده الرحالة ما هو إلا صورة إيجابية توحى بتحلي الميزابي بالروح الوطنية التي تظهر جلية في غيرة الميزابي الشديدة التي لا تسمح بدخول الغريب إلى المدن الميزابية. أما عن خلو المدينة من الفقراء والمحتاجين، فإنه يبين أننا أمام مجتمع متضامن. هذا التضامن النابع عن تدين الميزابي الذي كان يحرص على التصديق على الفئات المحتاجة التي تجد في صندوق الصدقة ما يسكت جوعها ويمنعها من التسول في الشوارع.

كما يقدم "موبسان" وصفا ماديا لسكان منطقة ميزاب قائلا: «هؤلاء العرب المعروفون بقاماتهم الأقصر والأمتن من بقية الشعوب الأخرى، ووجوههم المسطحة غالبا

1. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 96

2. ينظر: المرجع نفسه، ص: 97

والأكثر اتساعا، والشفاه الغليظة والعيون المغروزة في كثير من الأحيان تحت حواجب مستقيمة بالغة الكثافة.<sup>1</sup> لاشك أن انبهار "موبسان" بهذا الشعب المنظم قد دفعه وصفهم وصفا ماديا حتى يتمكن القارئ الذي لا يعرفهم من تخيل أشكالهم وصفاتهم الفيزيولوجية.

يستحضر الإثنوغرافي الإنجليزي "ليدر" أهم صفات التي توحى بصرامة الميزابي وتميز عاداته وتقاليده قائلا: «هؤلاء الميزابيون يأتون من ميزاب، مستعمرة سبع واحات مجاورة في الصحراء، على بعد أميال تقريبا من الجزائر العاصمة، وحوالي 400 ميل من الأغواط إلى الجنوب. وعددهم 25000 نسمة، ويمكن تمييزهم والتعرف عليهم في لمحظة... هم صارمون كثيرا حيث لا يسمح للميزابي أن يجلب زوجته، أو أي طفل يقل عمره عن عشرة سنوات بعيدا عن بلده كما لا يسمح له بالزواج في مكان آخر مهما كان... الرجال يغادرون ميزاب من أجل الانخراط في كل أنواع التجارة والصناعة فمهارتهم تجعلهم أنجح المصرفيين والجزارين والبقالين وعمال المناجم وتجار الفحم في جميع المدن الجزائرية... متى اكتسب الميزابي الخبرة يعود إلى بلده بينما يخلفه شخص آخر من العائلة.»<sup>2</sup> لا يختلف ما جاء به "ليدر" عما ذكره كل من "موبسان" و"إيبرهارت"، فالميزابي اشتهر بممارسة التجارة ليس فقط في مسقط رأسه بل في كل المدن الجزائرية غير أن الشيء الملفت للانتباه هو امتناع الميزابي عن اصطحاب زوجته، ولو كان عمله خارج المدينة حتى يظل مرتبطا بوطنه، في حين إذا أخذ زوجته سوف يستقر في وطنه الجديد وبالتالي سيقبل شوقه لأرضه. وهي صورة إيجابية توحى بمكانة الوطن في نفس الميزابي وتعلقه الشديد بأرضه.

### 2.1.1. صورة الميزابي الفاضل

إن ولوج "موبسان" في أعماق الصحراء الجزائرية، حيث يقطن بنو "ميزاب" كشف له عن الكثير من التفاصيل والصفات الحميدة التي يتمتع بها الميزابيون الذين وصفهم بالمجتمع الفاضل قائلا: «في هذه الجمهورية الصغيرة لهؤلاء المسلمين الفاضلين نكتشف بدهشة المبادئ الحكومية للمجتمع الاشتراكي، وفي الوقت نفسه تنظيم الكنيسة

1. المرجع السابق، ص: 94

2. S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts .Pp: 37-38

الكلفانية في اسكتلندا في آدابهم الأخلاقية القاسية والمتعبة الصارمة. يكرهون إراقة الدماء ولا يلجؤون إليه إلا للدفاع عن النفس... العزوبية بالنسبة لهم تدفعهم إلى الفجور والغضب، والأغاني والموسيقى والرقص، وكل أشياء البذخ كما الدخان، والقهوة في الأماكن العامة.<sup>1</sup> يظهر الميزابي من خلال هذا المقطع الرحلي في صورة الشخص الشريف الذي لا يريق دماء الآخرين إلا من أجل الدفاع عن كرامته وشرفه، وفي صورة الملتزم حين يحاول تحصين نفسه قدر الإمكان من الآثام ويتجنب المحرمات التي نهى عنها الدين الإسلامي من إراقة للدماء وموسيقى ورقص ليظهر الجزائري ممثلاً في الميزابي في صورة الآخر الشريف العادل والملتزم أخلاقياً.

ويتحدث "موبسان" عن نزاهة وتدين الميزابيين المنتشرين في كل أقطار الجزائر من أجل ممارسة تجارتهم قائلاً: «كل مكان في أعلى المدينة العربية بين تجار الأقمشة والتوابل والفواكه، نجد الميزابيين النزيهين المتميزين بالأخلاق الإسلامية التي لا يشوبها إلا اختلاطهم برجال ليسوا عفيفين مثلهم، وهم سيخضعون عند رجوعهم إلى وطنهم لتطهير عميق للتخلص من فضلات الجسد الآدمي المتراكم في أجساد البشرية.»<sup>2</sup> إن ما نقله الرحالة يمكن اعتباره اعترافاً صريحاً بتدين الآخر الميزابي. فنزاهته في تعاملاته مع الآخرين إنما هي نابعة عن امتثاله لتعاليم دينه، وخصوصية المجتمع الفاضل. فحفة الأخلاق تلازم الميزابي دائماً.

استوقفت صرامة وتدين الميزابي الرحالة الإنجليزي "اليدر"، حيث يصفهم بالورعين قائلاً: «أنهم يخضعون لرقابة دينية صارمة، فإذا أدين ميزابي بشرب الخمر أو القهوة أو التدخين أو التردد على منازل الهوى فإن إخوته ينزلون عليه العقاب البدني في أي وقت ومكان قبل أن تتدخل السلطات الفرنسية... وهذا ما يجعل الميزابي يشعر بالتفوق على بقية البشر.»<sup>3</sup> يبدو الميزابي أكثر تمسكاً بتعاليم الدين الإسلامي، فالميزابيون يخضعون لرقابة كبيرة من قبل مجلس العزابة (إعزابن) الذي يمكن وسمه بأعلى هيئة في

1. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 136

2. المرجع نفسه، ص: 105

3. S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts .Pp: 38

المجتمع الميزابي، وهذا المجلس يتكون من شيوخ ورعين ذوي تجربة وحكمة تسمح لهم بالحكم في مختلف القضايا التي تطرح عليهم.

### 3.1.1. صورة الميزابي المتفوق

ينقل "موبسان" واحدة من الصور الإيجابية التي توحى بالتفوق والنجاح الذي حققه الآخر الميزابي في حياته الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية في قوله: «وأهل ميزاب واليهود هم وحدهم التجار، والمفاوضون، والمهرة الحاذقون في كل هذه البقعة من إفريقيا... يعتبر العربي القح رجل الخيمة كل الأعمال معيبة ويحتقر التاجر "الميزابي" غير أنه يأتي في فترات محددة ليتزود من متجره ويعهد إليه بالتحف التي لا يمكنه أنه يحتفظ بها في حياة تشرده. هناك نوع من الميثاق الدائم القائم بينهما»<sup>1</sup> يظهر الميزابي من خلال ما نقله الرحالة "موبسان" شخصا متفوقا على بقية الأعراق بإتقانه لعمله وتمكنه من التجارة فضلا عن ذلك، فإنه موضع ثقة مقارنة مع العرب الذين يصورهم الرحالة العرب في صورة الكسالى الذين يتكبرون على العمل ويحسدون الميزابي لأنه متفوق عليهم. غير أنهم يسارعون إلى الميزابي بغرض اقتناء بعض الأشياء منه وترك بعض تحفهم عنده لكي يحتفظ بها بسبب ارتحالهم الدائم.

ومن الصور التي تجسد تفوق الميزابي ونجاحه في حياته الثقافية والعلمية تصوير "موبسان" للميزابي في صورة الإنسان المتعلم، فمن بين المشاهد التي لفتت انتباه الأديب انتشار المدارس بمنطقة بني ميزاب، حيث «يتقن الجميع القراءة والكتابة وتنتشر المدارس والمؤسسات القروية المهمة في كل مكان. يعود كثير من أهل ميزاب بعد قضاء وقت في مدنا إلى مسقط رؤوسهم وقد تعلموا الفرنسية والإيطالية والإسبانية»<sup>2</sup> يظهر المجتمع الميزابي من خلال هذه المقطع من المجتمعات المهمة بالتعليم خاصة وهم يحرصون على انتشار المدارس في جميع المناطق الميزابية، مما ساهم في القضاء على الأمية في المنطقة، فلا يوجد هناك شخص لا يتقن القراءة أو الكتابة. غير أن الملفت للانتباه هو عدم اقتصار التعليم على الحضر فقط، فحتى سكان القرى كانوا يدرسون

1. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص:93

2. المرجع نفسه، ص:97

بفضل الانتشار الواسع للمدارس. كما يغتتم الميزابي فرصة وجوده خارج البلد في تعلم لغات أجنبية أخرى من أجل تسهيل عملية تواصله مع الأجانب خاصة وأن الجزائر في فترة الاحتلال كانت تعج بالكثير من الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم.

أدرك الاثنوغرافي الإنجليزي "ليدر" -بعد دراسة معمقة- أن الميزابيين يتفوقون على العرب في العديد من الأشياء ومن أهمها «تفوقهم في الصناعة والمهارة التجارية والاستقرار، في حين لم يحدث مطلقاً أن صادف رجلاً أو ولداً ميزابياً يتحدث العربية إذ يفضلون الحديث بلغتهم -المختلفة عن العربية - التي أدركت أنها كبريائهم الذي لا يمكن التنازل عنه.»<sup>1</sup> إن قضية تفوق الميزابي قد لفتت انتباه أغلب الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الجزائر، لدرجة وصفها بالجمهورية من قبل "موبسان" وتشبيهها بكمونة باريس، أما فيما تعلق بلهجة الميزابي، فشأنه شأن القبائلي والشاوي جميعهم يفضل الحديث باللسان الأمازيغي؛ وهذا ما يعتبر تمسكاً بالهوية والخصوصية الأمازيغية.

### 2.1. الشاوية

#### 1.2.1. صورة الشاوي المناضل

ينتمي معظم سكان منطقة الأوراس إلى الأصول الأمازيغية (البربر) هذه السلالة التي سكنت أكثر المناطق قسوة ووعورة، فهذه الكتل الجبلية الوعرة حسب الضابط الفرنسي "دومينيك فارال" «مأهولة منذ أقدم العصور، من طرف البربر وهم أقوام جموحون ذوو أنفة وعزة نفس، لم يخضعوا ولا استكانوا طيلة تاريخهم الطويل والحافل بالوقائع.»<sup>2</sup> يشهد الضابط "دومينيك فارال" بعزة النفس والشجاعة التي لازمت البربر منذ القرون الأولى، وقد ثبت عنهم ذلك من خلال الحروب الكثيرة التي خاضها قادتهم ضد الرومان والغزاة الذين كانوا يهددون بلادهم واستقرارهم، فالضابط لا يكاد يضرر إعجابه بقيادة البربر على غرار "حنبل" و"ماسينيسا" و"يوغرطة".

1 .S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts .Pp: 36

2. دومينيك فارال. معركة جبال النمامشة 1954 - 1962. تر: مسعود حاج مسعود، ص: 09

أما الكولونيل "شاتو جوبير" الذي حارب على رأس الكتيبة الثانية من المظليين، فإنه يرى أن «الداخل إليها لا يخرج سالما... إنها قلعة حصينة للشاوية شديدي البأس والمولعين بالمنازلة والصدام، إنهم عدو لدود متشبث بالأرض يستدرج خصمه لوقعه في الشراك، وإذا ما أحيط بهم فإنهم يستمرون في القتال حتى آخر رمق.»<sup>1</sup> يقال خير شهادة لك التي تأتيك من عدوك. فالكولونيل الفرنسي يعترف بشجاعة الشاوي ونضاله الدائم لخوض المعارك مهما كانت نتائجها لأن تعلقه بأرضه يدفعه دائما إلى الكفاح المستمر من أجلها، فالأمازيغ عرفوا منذ القرون الأولى بشدة بطشهم على أعدائهم وقدرتهم الشديدة على الصمود، فيكفيهم فخرا أن انجازت "ماسينيسا" و"يوغرطا" لازالت تحتفظ بها ذاكرة التاريخ إلى يومنا هذا.

بينما يتحدث الضابط الفرنسي "دومينيك فارال" عن العناد والصدود الكبيرين الذي واجه به البربر السلطات العثمانية وكذا الفرنسية خاصة ما تعلق بهويتهم كاللغة والعادات والتقاليد، فسكان المنطقة لم يظهروا أي تسامح مع من يمس بهويتهم وخصوصية المنطقة. فقد «صمد البربر بعناد وإصرار، في معاقلم الجبلية، وعضوا بالنواجذ على لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم في زمن السيطرة التركية ثم الفرنسية (...). كانت جبال النمامشة مسرحا لمعارك ضارية يمكن اعتبارها نموذجا ملموسا لحرب العصابات والحرب المضادة.»<sup>2</sup> يقدم الرحالة "دومينيك" صورة إيجابية عن الجزائري الشاوي الذي اتسم بعناده وصدوده الكبير اتجاه من يعاديه. غير أن أهم ما أشار إليه الضابط هو حرص الأمازيغ على حفظ لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم، فلا قيمة للإنسان الذي يذوب في غيره على حساب عناصر هويته، وهي صورة واقعية إلى أبعد حد، فقد حاولت فرنسا بكل الطرق تغيير دين ولغة الجزائريين ولكن كل محاولاتها قد باءت بالفشل. أما فيما تعلق بالمعارك الضارية التي تحدث عنها الضابط، فلا بد من الإشارة إلى أنها قد أضحت في تلك الفترة جزءا من يوميات الأشاوس الذين يتحصنون في تلك الجبال والمغارات الوعرة، حيث استنزفوا قوى فرنسا بحرب العصابات.

1. المرجع السابق، ص: 19

2. المرجع نفسه، ص: 10

لا يخفي الضابط الفرنسي الأسباب الحقيقية التي ساقط الاحتلال الفرنسي إلى غزو المنطقة، هذا الغزو الذي جاء لاعتبارات عدة لعل أهمها «أن البربر كانت لهم في القديم وشائج متينة مع أمم الغرب، وسبق لهم أن صمدوا في وجه التعريب فكان في إمكانهم الرجوع إلى أصولهم وعودة قسم منهم إلى أحضان المسيحية. لو حدث ذلك لكان بمثابة جسر بين الجزائر ودول الغرب، ولكن حدث العكس فتواصلت عملية التعريب في ظل السيطرة الفرنسية على حساب الخصوصية البربرية. لقد ساعد الاستعمار الفرنسي على تركيز دعائم الاستعمار العربي وخصوصا ما تعلق بأسوأ الجوانب وأكثرها سلبية.»<sup>1</sup> إن هذا المقطع يظهر أن الحرب التي تخوضها الدول الأوروبية على دول شمال إفريقيا -على وجه الخصوص- إنما تهدف في مجملها إلى إعادة بعث دولة روما التي سيطرت في فترة من الفترات على شمال إفريقيا، فالقوات الفرنسية اختارت الجزائر وتونس والمغرب بعد عودتها إلى تاريخ المنطقة الذي جمع هذه الدول تحت راية روما المسيحية بالرغم من علمهم أن "يوغرتة" قد حارب روما رفضا للتبعية وطالبا للاستقلال عنها. ثم إن الضابط كان موضوعيا، إذ يعترف في الأخير بمساهمة الاستعمار الفرنسي في زيادة تعلق وتمسك الجزائري بلغته وهويته على الرغم من كل الإغراءات التي كانت تقدمها فرنسا، وهي صورة إيجابية تحسب لبربر الجزائر.

ينقل الجغرافي البلجيكي "جيل لوكليرك" صور النضال المستميت لدى الشاوية وتمردهم على المستعمر الفرنسي قائلا: «تجاوزنا عرب مشكلين لحرس القايد: كانوا يلبسون برانس من صوف أبيض، وكانوا يعتمرون بعمائم من خيط وبر الجمال كانوا يهرولون والبنادق على الأفخاذ؛ كانت الخيول والفرسان متغطرسة صراحة. كان هؤلاء الجنود ذاهبين إلى الأوراس من أجل تأديب القبائل التي تمردت مؤخرا؛ كان بعض المتمردين يريد الوصول إلى تونس عبر الصحراء، حيث قضوا حتفهم من شدة

1. المرجع السابق، ص: 51،52

العطش.»<sup>1</sup> إن ما أورده الرحالة يوحى بتمرد الشاوية وإزعاجهم لفرنسا وأذنايها مما استدعى تجهيز القايد لفرسانه في محاولة لصددهم.

يشير الرحالة الإنجليزي "هيلتون" أيضا إلى صور النضال من أجل الحرية والهوية لمنطقة الأوراس التي شهدت الكثير من الحروب على غرار الاحتلال الروماني والفتح الإسلامي وأخيرا الغزو الفرنسي للمنطقة؛ معتبرا أن الحروب الكثيرة التي خاضها الشاوية ( الأمازيغ ) لم تثن من كرامتهم وأن السيف لم يؤثر يوما عليهم بقدر ما نجح الإسلام في التأثير على عاداتهم، فأكسبهم تدريجيا العديد من العادات في المقابل ظل الشاوية « محتفظين بلغتهم البربرية القديمة على الرغم من أنها ليست مكتوبة، حيث اعتنق هؤلاء الإسلام طواعية دون اللغة العربية.»<sup>2</sup> لعل من أبرز الصفات التي ميزت ولازمت السكان الأصليين لشمال إفريقيا (الأمازيغ) هو نضالهم من أجل الحرية وتمسكهم بهويتهم، وهذا ما سطرته كتب التاريخ التي تزخر ببطولات الأمازيغ الذين أذاقوا الرومان هزائم كثيرة معبرين عن رفضهم لكل أشكال الوصاية الرومانية على المنطقة. وتجدر الإشارة إلى أن البربر لم يسلموا طواعية فقد «ارتدت البربر اثني عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة.»<sup>3</sup> مما يؤكد على عناد سكان المنطقة، الذين كانوا يضايقون الرومان والبيزنطيين قبل مجيء الفاتحين العرب.

أما فيما يخص اعتناق الدين الإسلامي، فإن ذلك استغرق قرونا حتى ينتشر في المنطقة ككل نظرا للمقاومة الشديدة التي لقيها الفاتحون آنذاك. أما فيما تعلق باكتساب الأمازيغ للغة العربية، فيمكن وصفه بالأمر الطبيعي؛ لأن فهم الدين الجديد يستدعي تعلم اللغة التي جاء بها. ثم إن الاحتكاك الحاصل بين الأمازيغ والفاثحين ساهم في تعلمهم اللغة العربية لكن ليس على حساب لغتهم الأم.

1. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر لكنيزي، ص: 204

2 . M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains. Pp:16

3. ينظر: عبد الله العروي. مجمل تاريخ المغرب 1. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 1996،

### 2.2.1. صورة الشاوي المحافظ

يصف الإنجليزي "هيلتون سيمسون" الشاوية بالمحافظين الذين ظلوا متمسكين بعاداتهم وأفكارهم ولم يتأثروا بما مرت به الجزائر قائلًا: «إن سكان الأوراس لم يتغيروا بقدر ما تغير أبناء عموماتهم القبائل الذين يسكنون بالقرب من الساحل الذين كانوا أكثر تفتحًا في تبني الأفكار الغربية.»<sup>1</sup> تبدو الصورة التي نقلها الرحالة صورة موضوعية لأن علاقات التأثير والتأثر القائمة بين المجتمعات تختلف شدتها من مجتمع إلى آخر، فهناك مجتمعات تتأثر كليًا حد الذوبان في الآخر، ويجد بعضها صعوبة أو نوعًا من الحذر في عملية الاحتكاك والتأثر بالآخر، ولعل الكاتب يقصد بقوله هذا فترة الاستعمار الفرنسي. وهذا ما يثبته الرحالة عندما يصرح أن الطريقة المثلى للاقتراب من سكان القرى والتعرف عليهم عن قرب هي إدعاء أنك صياد وأن تداوم على زيارة المقاهي. مما يعني أن التقارب بين الأجنبي والأهالي أمر صعب. كما ينقل "هيلتون" صورًا أخرى عن الشاوي المحافظ وذلك عند تطرقه لاختلاف اللهجات في الجزائر معتبرًا أن «لغة البربر (الشاوية) والتي يتحدث بها سكان القبائل أيضًا لا تحمل أي تشابه مع لغة البدو والواحات (العربية).»<sup>2</sup> إن اللغة العربية المنتشرة في الجزائر قاطبة إنما هي نتيجة للفتح الإسلامي للمنطقة وهذا ما يعمق الاختلاف بينها وبين اللغة الأصلية لسكان شمال إفريقيا الأمازيغية المنقسمة إلى عدة لهجات من بينها الشاوية والقبائلية والتارقية...

### 3.1. القبائل

يذكر "شلوصر" أن القبائلي القرى والمدن الصغيرة النقية الهواء الواقعة فوق قمم الجبال، هذه القرى المبنية بالحجارة على الطريقة الأوروبية، حيث تحيط بها مختلف الحدايق التي تلمع فيها الغلال البديعة، ولعل هذا ما جعل القبائلي يحن إلى مسقط رأسه

1 .M.W.Hilton-Simson ,Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains, Pp: 16

2. المرجع نفسه، ص: 40

مثل السويسري. أما أعظم ثرواته، فهي غابات الزيتون، التي تتزين بها الهضاب. فضلا عن اشتغال القبائلي كثيرا بتربية النحل.<sup>1</sup>

أما البلجيكي "جيل لوكليرك" فيقدم وصفا فيزيولوجيا للعرق الأمازيغي متمثلا في القبائلي قائلا: «ولا يشبه الرجل القبائلي المغربي في شيء وعادتهما مختلفة تماما، وتختلف عن عادات العرب الرحل الذين ليس لهم سوى سكن متقل. القبائلي فلاح: يزرع ما يمتلكه من أرض، التي في ملكيته، ويظل مرتبطا بالمكان الذي رأى فيه النور. يدلل العربي حصانه، بينما يبقى الحيوان المفضل لدى القبائلي هو الثور... النساء القبائليات قويات ونشيطات، لا يمتلكن الجمال الذابل للمغربيات: فهن علاوة على ذلك، في الغالب ما يكن مشوهات الوجه بسبب التهابات العيون. والرجال بشكل خاص هم أكثر عرضة لهذه العاهة.»<sup>2</sup> إن ما جاء به الرحالة يؤكد تباين نمط العيش العربي والقبائلي، فعلى الرغم من عيشهما في أرض واحدة إلا أن ذلك لم يمنع من اختلاف عادتهما ولو نسبيا، أما العاهة التي أصابت أغلب القبائل فسببها تعرضهم الدائم لأشعة الشمس. كذلك إن اعتماد الرحالة على نمط المقارنة بين الأشياء التي رآها في رحلته يساهم بشكل كبير في إفادة القارئ بمزيد من المعلومات.

وقد أنتجت نصوص الأوروبيين جملة من الصور المتعلقة بالعرق القبائلي وبخصوصيته الثقافية والاجتماعية والايديولوجية، ولعل هذه أهم الصور التي تظهر من خلالها القبائلي في نصوص الرحلة نماذج الدراسة.

### 1.3.1. صورة القبائلي المتمرد والشجاع

يقدم "شلوصر" القبائلي في صورة المتمرد والشجاع في آن واحد إذ يشير إلى براعته في صناعة البنادق، والبارود، واهتمامه باستخراج المعادن من الجبال خاصة الفضة. وامتهان عدد كبير منهم تزوير النقود، على غرار العملة الإسبانية والفرنسية بصورة خادعة ويدسونها بين العرب وسكان الصحراء. كما يشير الرحالة إلى مهارة

1. فنديلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 96

2. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر

لكنيزي، ص: 166، 167

القبائلي في القتال الفردي، حيث يقوم بمهاجمة عدوه بكل شجاعة خاصة وأنه لا يحبذ الحرب في مجموعة، وإنما يندفع بمفرده كقناص إلى الإمام؛ لأن سرعته في القتال كبيرة حتى أنه يحشو بندقيته وهو يركض. كما أن القبائلي يحسن الرمي جيدا فلا ينجو منه حيوان ذلك أنهم يتعلمون الرمي منذ الصغر.<sup>1</sup>

تتفق كتابات الرحالة الأوروبيين على وصف رجال القبائل بالمتمردين على السلطان، هذا القوم الذي يسكن في الجبال «وعددهم غير معروف الآن، حتى الداوي نفسه لم يكن يعرف ذلك. ويحكمهم شيخ، وهم لا يعترفون بحكم غير حكمه هو، ولا يهتمون لا بالداوي ولا بالباي. والحق أنهم لا يشبهون البدو الرحل، فهم يقيمون في هذه المنطقة ويعيشون من لحوم الصيد وقطعان الماشية وحقول الحنطة التي يزرعونها في سفوح جبالهم، والقبائلي رجل حيوي ماهر، يكتفي بامرأة واحدة، يكن لها الاحترام والإجلال، ويحيا حياة متوسطة، ويمتاز بالقسوة على عدوه، ولكنه يقري الضيف الغريب الذي يضل طريقه في جباله.»<sup>2</sup> اتصف البربر منذ القديم بصفة التمرد وتوارثتها الأجيال جيلا بعد جيل، وقد رصد أغلب الرحالة الأوروبيين شغب سكان القبائل وتمردهم على السلطات العثمانية. خاصة وأن العثمانيين كانوا يسيئون معاملة الجزائريين وكثيرا ما كانوا يضطهدونهم وهذا ما ولد في أنفس الجزائريين الحقد والكراهية اتجاه الأتراك.

ويصور الرسام الفرنسي "أ. ليسور" وصديقه الإنجليزي "و. ويلد" سكان مدينة "بجاية" في صورة المتمردين قائلين: «يتميز العرب في هذه الناحية بطبع عدواني متحرر. وإلى الآن لم تتمكن من قهره أي دولة من دول الأتراك والإسبانيين والجنوبيين الذين أتوا للسيطرة على المدينة.»<sup>3</sup> لقد عبر القبائل عن رفضهم للسلطة العثمانية والإسبانية وغيرهم ومقاومتهم للجيش الانكشاري خاصة وأن القبائلي يمتلك الأسلحة. ولعل هذا ما دفع "سيمون بفايفر" إلى القول؛ إن الأتراك لم يخشوا دخول الفرنسيين بقدر ما كانوا يخشون

1. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 97

2. سيمون بفايفر. مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر. تر: أبو العيد دودو، ص: 127

3. أ. ليسور، و. ويلد، رحلة طريفية في إيالة الجزائر، ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة: 42

ثورة الجزائريين ضدهم.<sup>1</sup> وهذا دليل على هشاشة العلاقة بين السلطة العثمانية والجزائريين.

ويشير الجغرافي البلجيكي "جيل لوكليرك" أيضا إلى شراسة سكان القبائل ورفضهم الشديد لكل أشكال الاستعمار قائلا: «سهول متيجة بجمال القبائل: مر عبر هذا الشعب الرومان والوندال والعرب والأتراك: كلهم اصطدموا بمقاومة لا تقهر لهذه الشعوب الشرسة. المتعصبة للحرية والاستقلال، مر الفرنسيون لأول مرة هنا سنة 1838، لكن لم ينته الغزو إلا بعد مرور عشرين سنة بعد ذلك.»<sup>2</sup> صور لنا الرحالة الإنسان القبائلي في صورة الشجاع والشرس والمتمرد إذا ما تعلق الأمر بأرضه وهويته، وهذا ما أثبتته التاريخ، فقد وجد المستعمر حقا صعوبة بالغة في بسط نفوذه على منطقة القبائل، وفرنسا التي تملك جيشا مجهزة وعتادا عسكريا لا يستهان به، قد لاقى مقاومة شرسة من سكان القبائل الأحرار مما استدعى عشرين سنة من أجل بسط النفوذ على الأرض.

يتحدث الاثنوغرافي العسكري "شارل فيرو" كغيره من القادة العسكريين والرحالة الأوروبيين عن تمرد القبائل الشرقية على غرار سكان "جرجرة" قائلا: «كانت القبائل المنيعه في جبالها تعيش قبل الفتح فوضى تامة، مستقلة عن بعضها البعض، ولم يكونوا يخضعون إلا لجماعتهم الموقرة، التي تتكون من القدامى أو من الذين يفرضون احترامهم على الجمهور بقيمتهم وثروتهم أو قوتهم البدنية. وكان لبايات قسنطينة عليهم بالأحرى تأثير اسمي أكثر منه فعلي، لقد كانوا عاجزين عن فرض سيطرتهم عليهم وبالأحرى إبطال بعض العادات.»<sup>3</sup> إن صورة التمرد على السلطات العثمانية والفرنسية التي نقلها الرحالة كان نتيجة وعورة المناطق التي يقطنها سكان القبائل الشرقية، فقد كان الجبلون يتحدون السلطات العثمانية بعدم دفعهم للإتاوات التي كانت تفرض عليهم ناهيك عن مختلف القوانين الأخرى التي يرونها لا تتناسب ومقاييسهم، فكانوا يكتنون الاحترام لشيخ

1. ينظر: سيمون بفايفر. مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر. تر: أبو العيد دودو، ص: 73

2. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب والجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر لكنيزي، ص: 163

3. شارل فيرو. تاريخ جيجلي. تر: عبد الحميد سرحان، ص: 35

القبائل أو كبار العروش الذين فرضوا عليهم احترامهم لعدد من الأسباب؛ لعل أهمها ما جاء على لسان الفرنسي "فيرو".

يتحدث الضابط الألماني "كليمانس لامبينغ" عن شجاعة القبائلي وهو يواجه الفرنسيين بشهامة قائلا: «إن القبائل كانت تهاجم معسكرات الجيش الفرنسي باستمرار ويلتحمون معه في معارك طاحنة في ربيعة النهار، ثم يعودون إلى أماكنهم، ولما شعر الجيش الفرنسي بعجزه عن التغلب على رجال القبائل، والحيلولة دون تكرار تلك الهجمات، أصدر القائد أوامره للفرقة الأجنبية بالهجوم ليلا على القرى الآمنة التي تسكنها القبائل.»<sup>1</sup> إن الصورة الإيجابية التي نقلها الضابط الألماني حول شجاعة الآخر القبائلي يشهد التاريخ عليها، حيث لَقِّن القبائل فرنسا درسا في حروب العصابات المنتشرة في تضاريس المنطقة الجبلية، هذه الأخيرة التي صعبت كثيرا العمليات العسكرية الفرنسية. فمنطقة القبائل كانت مسرحا هاما للثورة التحريرية المجيدة، فعلى الرغم من الأسلحة البسيطة التي يمتلكها رجال القبائل إلا أنهم خلفوا الرعب في نفوس الفرنسيين الذين صعبت عليهم المواجهة نهارا فقرروا الإغارة ليلا كمحاولة لثني عزيمة أجداد "كريم بلقاسم" و"العقيد عميروش" وغيرهم. وهذا ما يمكن عده ضربا من الخيال ذلك أن الثورات الشعبية ظلت متقدة حتى اندلاع الثورة التحريرية المباركة.

### 2.3.1. صورة القبائلي المتعصب

يرى "فيرو" أن سكان القبائل الشرقية قبلت «ظاهريا من القرآن كل ما يمكن أن يشجع منافعهم، أو يصفع تصورهم الخرافي، إلا أنهم لم يستطيعوا التخلي عن العادات الموروثة عن أجدادهم فإن أراد قاض أو طالب في أحيان معينة تطبيق الشريعة الإسلامية، والاحتجاج ضد هذا الوضع، فإن صوته لا يحترم وإن إرادة الجماعة والعرف التقليدي يرجحان دائما، ومن جاء المثل: "عند القبائلي القاضي يقضي والجماعة تلغي".»<sup>2</sup> إن صورة التعصب التي نقلها الرحالة من خلال احتجاج السكان على أحكام الإمام وتعصبهم لرأيهم، تعد صورة واقعية نتيجة لهيمنة الحكم القبلي على المنطقة،

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 95

2. المرجع نفسه، ص: 36

وتمسك السكان بمعتقداتهم وأعراف القبيلة، حيث وجد المتعصبون ضالته في أحكام الجماعة؛ لأنها تنسف أحكام الأئمة وتتسم بالتخفيف وليس لها مرجعية شرعية صارمة كشرع الله تعالى وهذا ما يعد تمردا على سلطة القاضي والإمام اللذان يحكمان بشرع الله. وكان ذلك انطلاقا من مكانة الجماعة لدى البربر، هذه الجماعات التي تحكم بين الناس بالعرف الذي له امتداد للتراث البربري السابق للإسلام، فقد كانوا يلجئون إلى تهديد الشيخ وإرغامه بالقوة حتى يغير حكمه.

ويمكن الإشارة إلى أن صورة السلطة الموازية التي نقلها الرحالة لا تزال قائمة إلى يومنا هذا والتي يصطلح عليها بنظام العروش عند القبائل والشاوية وغيرهم من المجتمعات الجزائرية فـ "فيرو" يلفت الانتباه إلى أهمية دراسة العرف المحلي، «وقد كانت هذه الدراسة ومثيلاتها من بين العوامل التي جعلت قيادة الشؤون الأهلية في الحكومة الفرنسية تعتني بتكوين وترسيم جماعات العرش بقرار مشائخي في كل دوار و قبيلة في عموم الجزائر والهدف كان دائما هو امتلاك آليات التحكم في شعب محتل حديثا.<sup>1</sup> تحتكم البربر في كثير من الأحيان إلى كبار القوم أو ما يصطلح عليه أيضا بالأعيان باعتبارهم الأكبر سنا والأكثر تجربة، فيبادرون لجلسات الصلح وغيرها من القضايا والمناسبات الاجتماعية تحت تسمية "العرف" أو نظام العشيرة ، وله أهميته ومكانته عند هذه المجتمعات إلى جانب الأحكام الشرعية والقانون الجزائري.

يرى الضابط الألماني "كليمانس لامبينغ" أن الكثير من القبائل الجزائرية قد انشغلت عن قضيتها الأساسية لتوجه اهتمامها وقوتها في الإغارة على بعضها البعض. فلو «استطاع هؤلاء الناس أن يكونوا شعبا واحدا... ولو أن هذه القبائل المشتتة اجتمعت على كلمة واحدة فوجدت بينها الأخوة الصادقة، لأصبحت أمة من نوع فريد إنها حينئذ لن تتحدى فرنسا وحدها، وإنما ستتحدى العالم كله، إلا أن بذرة الفساد فيها أن القبيلة تغير على الأخرى، والطائفة تغالب الطائفة وتحاربها، وذلك ما جعلها لقمة سائغة بالنسبة للفرنسيين الذين يضحون بكل شيء من أجل تقوية هذه العداوة، فهي كسب لهم، وقد

1. محمد العربي عقون. «الاثنوغرافيا "الاستعمارية". فيرو نموذجا». مجلة إنسانيات، عدد 28، أبريل-جوان 2005،

مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر، ص: 70

نجحوا الآن في أن يجعلوا الجزائريين يتربصون بالجزائريين ويعلنون عليهم الحرب المبيدة.<sup>1</sup> إن صورة الصراع العشائري الذي نقله الرحالة كان ولازال ناتجا عن التعصب، وهي صورة سلبية تحسب على الإنسان القبائلي خاصة وأن هذا الصراع كان سببا في عدم توحيدهم، وشكل نقطة ضعفهم المناسبة للاستعمار الفرنسي، «وهو يسعى جاهدا إلى إشعال الحرب بين العرب والأمازيغ ومن خلال الترويج للهجات المحلية واللسان العامي على حساب اللغة العربية، فشجعوا اللهجة البربرية "الأمازيغية" واتبعوا كل سبيل لمحاربة اللسان العربي، معتبرين اللغة العربية لغة ميتة.»<sup>2</sup> فلا يمكن لفرنسا أن تعمر طويلا إلا إذا تمكنت من زرع الفرقة بين الجزائريين ، فلولا مثل هذه الممارسات والسياسة لما تمكن المستعمر من ضرب الوحدة الوطنية. وكم ساهمت سياسة (فرق تسد) التي انتهجتها فرنسا في الجزائر في زيادة عمر الاستعمار.

يضيف الرحالة البلجيكي "جيل لوكليرك" هو الآخر صورة من صور التعصب القبائلي على غرار ما جاء به "لامبينغ" قائلا: «هذه القرى في الغالب ما تكون في حالة حرب فيما بينها، تحتل دائما مواقع من المتعذر الوصول إليها تقريبا.»<sup>3</sup> إن هذه الصراعات القبيلية ساهمت في تشتيت الجزائريين. وأشغلتهم كثيرا عن القضايا الكبرى. فالتعصب تسبب في تضييع الكثير من الوقت، وهذا ما ساهم في إطالة الأزمة وسيطرة المحتل الفرنسي على أغلب الأراضي الجزائرية.

## 2. العرب

اهتم الرحالة الأوروبيون بدراسة المجتمع الجزائري أيما اهتمام، فاستفاضوا في التعريف بعادات وتقاليد المجتمع الصحراوي هو الآخر ليكشفوا لنا عن جزء من الحياة الصحراوية.

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص:96

2. مصطفى عاشور. «الجزائر.. تضحيات ومجازر (في ذكرى الاتفاق الجزائري الفرنسي: 12 شوال 1381هـ)».

موقع: <https://.islamonline.net>، يوم: 2017.08.05، 15:45 سا.

3. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة يوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر

لكنيزي، ص: 171

يقدم "شلوصر" وصفا عاما لطريقة معيشة وأهم أعمال سكان الصحراء أو المناطق الحارة على -حد قوله- قائلا: «وفي الصحراء قسم كبير ليس له حاكم، وقسم آخر يترأسه شيوخ، يختارون من طرف رعاياهم... وسكان الصحراء يسكن بعضهم الخيام، ويبني بعضهم الآخر بيوتا من الطين والحجارة وتتمثل ثروتهم في قطعان الجمال والأغنام وغابات النخيل. ويتاجرون تجارة كبيرة بالتمر والصوف، وتقود القوافل ما بين جملين وثلاثة جمال إلى تونس وقسنطينة، أما الغلال فإنهم لا يزرعون منها إلا ما يسد حاجتهم الذاتية. وتقوم الجمال لديهم مقام الجمال لديهم مقام البقر المعدوم عندهم. فيشربون حليبها، ويأكلون لحومها ويستعملونها لحمل الأثقال...»<sup>1</sup> إن ما أورده "شلوصر" يمكن وصفه بالصورة الواقعية لنمط معيشة سكان الجنوب الجزائري، هذا النمط المخالف تماما لنمط عيش سكان الشمال وخاصة الأمازيغ، فسكان الجنوب تتسم حياتهم بالبساطة والبدائية؛ نظرا لقسوة المناخ والامتداد الكبير للإقليم الصحراوي. فالسكان الذين يعيشون في الخيام هم البدو الرحل الذين تقوم حياتهم على التنقل المستمر بحثا عن الكأ والماء لقطعان الإبل والأغنام. أما الفئة التي تبني بيوتا طينية أو من حجارة فهي الفئة التي تسكن الواحات والمدن الصغيرة، وتعتبر تجارة التمر مصدر رزقهم.

يشغل سكان الجنوب الجزائري حيزا لا بأس به من متون الرحلة الأوروبية التي صورت عرب الصحراء في جملة من الصور التي نحسبها مختلفة إلى حد ما عن تلك الصور التي جسدت الجزائري الأمازيغي. ولعل من أهمها ما يلي:

### 1.2. صورة العربي البدائي

يتهجم الأديب الفرنسي "غي دو موبسان" في رحلته على البدو الرحل الذين تقوم حياتهم على التنقل الدائم في الصحراء بحثا عن الماء والكأ لأنعامهم، واصفا إياهم بشعب غريب «طفولي، ظل بدائيا كما في بداية العصور. يمر بالأرض دون أن يتعلق بها أو يستقر فيها. لا يملك بيوتا باستثناء أقمشة مشدودة على عصي. لا يملك شيئا من الأشياء التي بدونها تبدو الحياة مستحيلة. لا أسرة، لا شرشف، لا طاولات، لا كراسي، ولا شيء واحدا من الأشياء التي تجعل الحياة مريحة... ولا صناعة ولا فن ولا معرفة في أي

1. فنديلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 101، 102

مجال... شعب لا يبدو أنه مرتبط بالأرض أو الحياة.<sup>1</sup> من الغريب أن يطلق مثقف فرنسي حكما كهذا على البدو، فوصف البدو بأنهم غير مرتبطين بأرضهم أو بالحياة إساءة لهم، فموبسان لم يحترم دينهم في الحياة وتهجم عليهم بطريقة غريبة. كما جعل من وجودهم أمرا عبثيا حين يضيف «حنطت هذه النظرة الإنسان الجزائري وأفرغته من ديناميكيته وفاعليته وإنسانيته وكيونته التاريخية، بحيث لا نلمس فرقا بينه وبين الأحجار والأشجار والحيوانات. توحى هذه الصورة بأننا أمام جماعة بشرية بدائية معزولة في الزمان والمكان ومرشحة للانقراض لتدخل متحف التاريخ.»<sup>2</sup> إنها صورة سلبية لبدو العرب، والواقع أنهم تشبثوا بهويتهم القائمة على التنقل ورفضوا مبدأ الاستقرار؛ لأنهم يعتبرون التنقل والترحال جزءا من عاداتهم وتقاليدهم، لذلك يمكن وصف مقارنة "موبسان" الحياة البدوية بالحياة الأوروبية أمرا خاطئا فلا مجال للمقارنة بين أوروبا المتقدمة والجزائر الغارقة في وحل الاستعمار الفرنسي والانتداب العثماني.

يستمر "موبسان" في الإساءة إلى البدو مذكرا بأن للزنج أكواخا، ولالأرانب جحورا، للإسكيمو بيوتا من الثلج بينما يمر العرب «تائهين دوما دون قيود، دون تعاطف مع هذه الأرض التي نملكها ونجعلها خصبة، ونحبها بشغف قلوبنا المفعمة بالإنسانية. يملكون بسرعة على خيولهم مفنقرين إلى ما نقوم به من دون أعمال، وغير مكترئين بهمومنا كما لوأنهم قاصدون مكانا لن يصلوا إليه أبدا. ظلت عاداتهم بدائية. تمر عليهم حضارتنا دون أن تمسهم. يشربون من الفوهة حتى وإن كانت جلد ماعز. غير أنهم يقدمون الماء للأجانب في مجموعة من الأواني الغريبة التي لا تصدق.»<sup>3</sup> يجب الإشارة إلى أن هذه الصورة السلبية وإن كانت تعبر عن الواقع إلا أنها غير موضوعية، لأنه لم يذكر بصفة صريحة أسباب عدم تقدم العرب في هذا، على الرغم من أنه أشار في موضع آخر إلى معاناة الجزائريين من الاستعمار الفرنسي و أن كل الأراضي الزراعية الخصبة قد سلبتها فرنسا منهم ووهبتها للمعمرين.<sup>4</sup> لذلك فوصفه يضر نزعة التعالي

1. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 67

2. الطيب بودريالة. «صورة الجزائر في الرواية الفرنسية». مجلة اللغة العربية وآدابها، ص: 08

3. المرجع نفسه، ص: 68

4. للتعلم أكثر ينظر: المرجع نفسه، ص: 45

والفوقية التي تميز الأوروبي والفرنسي خاصة في نظرتهم للآخر الجزائري المستعمر نظرة إقصاء واختزال واستبعاد.

كيف نحكم على شعب ما بعدم تعلقه بأرضه بمجرد أن طريقة معيشته تعتمد على التنقل في الصحراء؟ وكأن "موبسان" نسي أن الشيخ "بوعمامة" الذي صدع الجزائرلات الفرنسيين بدوي هو الآخر، فلو كان "موبسان" موضوعيا في حكمه على البدو لما سمعنا بمقاومة الشيخ "بوعمامة" للمستعمر الفرنسي. لذلك ينبغي القول؛ إن "موبسان" قد تسرع في وصف البدو بهذه الصفات، فموقفه من البدو تجسيد للمركزية الغربية التي تسعى إلى تبخيس كل ما هو شرقي، فالرحالة يدرك جيدا أن فرنسا لم تنقل الحضارة للجزائر بقدر ما نقلت التشريد والقتل والتدمير والإساءة للجزائريين. فمن المجحف أن نصف الجزائري (البدوي) بأنه غير متعلق بأرضه كونه يعتمد على الترحال والتنقل الدائم.

### 2.2. صورة العربي الوديع

تعرفنا "إيزابيل إيبهرارت" الغائصة في الجنوب الغربي للجزائر بسكان مدينة "بشار" وهي تورد بعض الصفات التي تميزهم عن بقية سكان الجنوب الجزائري قائلة: «وأهل بشار حرطانيون سود في غالبيتهم، ولكنهم بلسان عربي، وهم هادئون وحذرون. ويتصفون ببعض العجرفة المغربية، ونفور من أهل الشرق المزانات. ومع ذلك فهم قصوريون، وبستانيون ودعون وليسوا رجال بارود.»<sup>1</sup> يعد رأي الرحالة "إيزابيل إيبهرارت" حول سكان مدينة بشار صورة إيجابية على خلاف "موبسان" فحديث سكان "بشار" باللسان العربي يعود إلى أصولهم العربية، أما عن سبب وصف الرحالة لهم بأنهم ليسوا أصحاب بارود، فهي تعني أنهم مسالمون مقارنة مع البدو الرحل المنتشرين في الصحراء والذين كثيرا ما تصفهم "إيزابيل" بأصحاب البارود نظرا لاعتمادهم على البارود في القتال والسرقة.

انطلاقا مما سبق يمكن القول؛ إن الصور التي نقلها الرحالة حول الأمازيغ والعرب نابعة من خصوصية الواقع الإثني الجزائري بجوانبه السلبية والإيجابية. إذ صورت

1. إيزابيل إيبهرارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام

النصوص الرحلية - نماذج الدراسة - واقعا قائما على التعددية الإثنية، غير أنني ركزت على تتبع صورة السكان الأصليين للبلد من أمازيغ وعرب دون سواهم، وقد تجلى العرق الأمازيغي في صور إيجابية كالصرامة والاخلاق الحسنة والشجاعة والنضال والعناد والصمود من أجل تحقيق الحرية والحفاظ على الهوية، ماعدا صورة التعصب القبائلي التي نقلها الرحالة كصورة سلبية وواقعية لأنها أثرت على التحام الشعب الجزائري زمن الاستعمار ومازال نظام العشيرة إلى يومنا هذا يتحكم في سلوكيات الأفراد ويوجهها، وكذلك تباينت صورة العرق العربي بين الإيجابية والسلبية وبين الموضوعية والذاتية فتجلى العرق العربي عند الرحالة الفرنسي "موياسان" في صورة سلبية غير موضوعية كونه عد وجودهم نوعا من العبث لأن أغلبهم بدو رحل غير متمسكين بأرضهم، وبالتالي فهم خارج الزمان والمكان وفي طريقهم إلى الانقراض على حد قوله، وقد كان وصفه غير برئ ولا يستند إلى مبررات أو دلائل موضوعية، إذ إن نزعة التعالي وال فوقية هي التي توجه الاستعمار في الحكم على العرب كشعب مستعمر، كما أنه يدرك جيدا أثر الاستعمار في تخلف أو تقدم الشعوب، ومع ذلك لم يقف عند الأسباب واكتفى بنقل صورة سلبية مجفة وقاسية على خلاف ذلك تجلى العرق العربي في صورته الإيجابية عند إيزابيل إيبهارت" انطلاقا من وداعته وأخلاقه الفاضلة وبساطة الحياة ونمط المعيشة. وقد نتجت هذه الصورة عن احتكاك الرحالة العميق مع العرب ووجودها بينهم لفترة طويلة.

### ثانيا: الصورة التاريخية

تكمن القيمة التاريخية للرحلات الأوروبية في اهتمام الرحالة الأوروبيين بجوانب مهمة من مقاومة الجزائريين للمستعمر الفرنسي، فقد اهتم الكثيرون بتقصي أخبار المقاومة الجزائرية للفرنسيين، فوصفوا قادة الثورات الشعبية، ووثقوا جزءا مهما من نضالهم ضد المستعمر الفرنسي، فتجسد ذلك في الصور الآتية :

## 1. الهيمنة والاستسلام

تستدعي العودة إلى الفترة العثمانية من التاريخ الجزائري؛ الحديث عن صور الهيمنة الجزائرية على عرض البحر المتوسط إذ يشير "سيمون بفايفر" إلى الضرائب التي كانت تفرضها الجزائر على فرنسا قائلا: «كان على فرنسا، بمقتضى المعاهدة المعقودة بينها وبين الجزائر سابقا أن تقدم للجزائر إتاوة سنوية، وبارجة حربية، وكمية مناسبة من البارود وقذائف للمدافع. وكان على الداوي أن يسمح لها في مقابل ذلك بمرور سفنها في حوض البحر الأبيض المتوسط وإقامة مركز لصيد المرجان بعنابة. ويقال أن هذه العلاقة بقيت قائمة إلى زمن الجمهورية الفرنسية.»<sup>1</sup> يُجمع المؤرخون على قوة الأسطول الجزائري وهيمنته على حوض البحر الأبيض المتوسط حيث أُرهب كبار الدول الأوروبية في تلك الفترة، فقد «كانت البواخر الجزائرية حينذاك تسيطر على حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى مضيق جبل طارق، ثم مدت نشاطها شمالا حتى بلغت شواطئ بريطانيا وإيرلندا. ويؤكد قس فرنسي عاش في ذلك العهد أن الجزائر كانت تملك أقوى قوة بحرية يمكن تصورها في ذلك الحين.»<sup>2</sup> إن قوة البحرية الجزائرية أجبرت أكبر الدول الأوروبية على دفع إتاوات سنوية للداوي في مقابل توفير الجزائر الحماية لسفنهم الحربية والتجارية التي تعبر البحر الأبيض المتوسط، ففي ظل الانتشار الواسع للقرصنة في تلك الفترة أصبح محتما على هذه الدول حماية سفنها ومواطنيها من هجمات القراصنة ولو استدعى ذلك دفع مبالغ طائلة للجزائر.

يقر الرحالة والمؤرخ الألماني "هيرمان هاوث" بالدور السيادي للجزائر على البحر الأبيض المتوسط -قبل الاحتلال الفرنسي- الذي يعد أهم أسباب الغزو الفرنسي معتبرا احتلال الجزائر أهم حادثة وقعت في القرن 19، فقد أرعبت الجزائر «الشعوب التجارية واستبدت بالبحر الأبيض المتوسط، وأرغمت "شارل الخامس" (Charles V) على الفرار أمامها بصورة مخزية. ومع أن إنجلترا نفسها كانت سيدة البحار، فإنها لم تستطع أن تملّي

1. سيمون بفايفر. مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر. تر: أبو العيد دودو، ص: 34

2. مبارك بن محمد الهلالي الميلّي. تاريخ الجزائر القديم والحديث. ج3، ص: 165

3. شارل الخامس (Charles V): ملك إسبانيا (1516 . 1556). رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1519 .

1556). يُعتبر أحد أعظم الملوك في تاريخ إسبانيا كله. عن ويكيبيديا

اتفاقياتها على الجزائر إلا بصورة مؤقتة. وكانت الجزائر قد أجبرت الشعوب خلال قرون عديدة على دفع إتاوة لها نظير مرور سفنها التجارية بالبحر الأبيض المتوسط.<sup>1</sup> إن صورة الهيمنة التي نقلها الرحالة لا تخفى على المطلعين على التاريخ، حيث يتجلى الدور السيادي للجزائر في حوض البحر المتوسط، واستسلام الدول لدفع الضرائب. هذه الإيالة العثمانية التي كانت تُؤمن طريق السفن الأوروبية وتوفر لها الحماية مقابل أموال طائلة، فالكل يدفع لداي الجزائر بما في ذلك كبرى الدول الغربية، ففوة الأسطول الجزائري أكسبت الجزائر احترام كل دول العالم غير أن أطماع الفرنسيين ومكرهم مكنهم من احتلال الجزائر.

ويشير "هرمان هاوف" إلى الأطماع الشخصية الفرنسية في احتلال الجزائر والنيل من ثرواتها تحت غطاء القضاء على القرصنة التي كانت تمارسها في حوض البحر الأبيض المتوسط قائلا: «مما لا شك فيه أن هذه الحملة التي بدت في ظاهرها عملا إنسانيا وحضاريا، ارتبطت بأطماع شخصية بحتة.»<sup>2</sup> إن ما أورده الرحالة الألماني يفند كل المسوغات التي ظلت فرنسا تردها قصد كسب تأييد الرأي العام الدولي، فمهمة فرنسا الحضارية والإنسانية ولدت ميتة بمجرد تمكن الفرنسيين من النزول في شواطئ "سيدي فرج" وبسط النفوذ على الأراضي الجزائرية.

إن المهمة الإنسانية والحضارية التي يزعم الفرنسيون أنهم جاؤوا من أجلها إلى الجزائر تذكرنا بالرسالة التي بعث بها "نابليون بونابرت" (Napoléon.B) إلى المصريين في محاولة لتبرير سياسته الاستعمارية هناك، حيث يخاطب المصريين قائلا: «يا شعب مصر، سيقولون لكم أنني جئت للقضاء على دينكم، فلا تصدقوهم. بل قولوا لهم إنما جئت لأرد لكم حقوقكم، وأعاقب مغتصبيكم، وإنني لأوقر الله ورسوله والقرآن أكثر من المماليك.»<sup>3</sup> إن الهدف من هذه الخطابات هو بلورة فكرة الريادة الحضارية لفرنسا ودورها الكبير في العالم من خلال نشر العلم والأخلاق الفرنسية النبيلة وما تعلق بثقافة المجتمع

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 25

2. المرجع نفسه، ص: 26

3. جوزيف ماري مواريه. مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر. تر: كميليا صبحي، المجلس الأعلى للثقافة،

القاهرة، 2000، ص: 31

الفرنسي، فالقراءة الأولية لهذا البيان الذي أرسله "بونابرت" إلى المصريين يُجسدهم في صورة الشعب الضعيف المغلوب على أمره، والذي لا يمكنه استرجاع حقوقه المسلوبة من قبل المماليك كما يزعم "بونابرت" الذي يدرك جيدا في قرارة نفسه أن حكام المماليك كان لهم دور بالغ في تاريخ الإسلام وذلك بعد إجلائهم للمغول من بغداد في معركة "عين جلوت"<sup>1</sup> هذه المعركة التي أبانت حُسن نية هؤلاء في توحيد الإمارات الإسلامية فضلا عن ذلك تحريرهم لكل الأراضي التي قام الصليبيون بافتكاكها في فترة تخاذل بعض الأمراء العرب.

يحلينا النباش في كتب التاريخ إلى الكثير من الخطابات التي تتبع من التماذي في نزعة التفوق والتعالي الأوروبية<sup>2</sup> التي لا ترى إلا نفسها في هذا العالم، كما أن مثل هذه الأفكار تتبع من شعور الأنا الأوروبي بالعظمة والهيمنة التي عادة ما يكون مسوغها «الرغبة في التفوق وضرورة أن يكون هنالك غالب ومغلوب، أو متفوق ومتخلف. فكل حضارة راقية تنشئ علاقة تراتبية أو هرمية تستبعد من خلالها ما عداها من الثقافات المهمشة لتتفرد بالتفوق والقوة في تجلياتها السياسية والعلمية والاقتصادية والعسكرية.»<sup>3</sup> فالرغبة الملحة في التفوق وهيمنة المركزية الأوروبية لا يتأتى إلا في مقابل الضعف والهوان الذي يميز الآخر -غير الأوروبي- سواء كان عربيا أم غير ذلك، فالعربي عاش

1. معركة عين جالوت: (658 هـ - 1260م) هي إحدى أبرز المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي؛ إذ استطاع جيش المماليك بقيادة سيف الدين قطز "إلحاق أول هزيمة قاسية بجيش المغول بقيادة كتيغا. وقعت المعركة بعد انتكاسات مريرة لدول ومدن العالم الإسلامي.

2. خطاب البريطاني "آرثر جيمس بلفور" (Arthur .J.B) في خطابه الذي ألقاه في 13 يونيو عام 1910، مبررا احتلال مصر بمعرفة الإنجليز بمصر وأحوالها وتاريخها وحضارتها، وضرورة احتلال إنجلترا لمصر تتبع من معرفة بلفور والإنجليز بتاريخ هذا البلد. ينظر: عبد العليم محمد. «أوروبا الاستعمارية كيف رأت الآخر؟». مجلة العربي، الكويت، العدد 529، الأحد 01 ديسمبر 2002 .

3. محمد شوقي الزين. الذات والآخر: تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع. منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012، ص:09

دائماً في خيام بالية وبنائيات هشة تحت وطأة الفقر والتخلف والهمجية وما تيسر من الصفات البشعة والمقززة.<sup>1</sup>

وتجدر الإشارة إلى أن مرحلة احتلال الجزائر مرحلة مهمة جداً؛ إذ شجع الوجود الفرنسي بالجزائر على انطلاق العديد من قوافل الرحالة الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم ومشاربهم الإيديولوجية. الأمر الذي ساهم في إنتاج جملة من الصور التي لها علاقة وثيقة بصورة الجزائر التاريخية ولعل من أهم الصور ذات البعد التاريخي ما يلي:

### 1.1. صورة الحاكم العثماني الهمجي الماكر

يُورد الأسير الألماني "سيمون بفايفر" وصفا لحال الجزائريين في ظل الحكم العثماني قائلاً: «لقد أثار الأتراك الشعب الجزائري ضدّهم بسبب ما ألحقوه به في عصور مضت من أذى وإهانة واضطهاد. ومن ثم بدأ الجزائريون يشعرون على مهل بقواهم الكامنة في أعماقهم ويطالبون بحقوقهم كاملة، فأجبروا الداي على أن يعترف لهم كل يوم بنصيب أكثر من هذه الحقوق، حتى أنه لم يكن من النادر أن ينتقموا من الأتراك ويلحقوا بهم الهوان والمذلة. وكثيراً ما سمعت الأتراك يقولون فيما بينهم: "لقد تغير الموقف الآن. هذا ما يريد القدر في هذه اللحظة، ولكن أمهلونا قليلاً أيها العرب الملاحين... فعندما تنتهي الحرب مع فرنسا، ويرضى عنا السلطان ثانية، ونصبح في غير حاجة إلى مساعدتكم، ينبغي لكم أن تضطهدوا من جديد، وتشعروا مرة أخرى، بثأرنا منكم!" هكذا كانوا يتحدثون فيما بينهم، ولكنهم في الظاهر كانوا يعاملون الجزائريين برفق ولطف ومروءة.»<sup>2</sup> إن صورة المكر والخداع التي نقلها الرحالة تحيل إلى واقع عاشه الجزائريون

1. إن هذه الصور التي عادة ما تتعارض مع الواقع كثيراً ما تستلهم أولئك الذين ساندوا الاستعمار وروجوا له من خلال كتاباتهم، وهذا ما نجده في كثير من المذكرات التي دونها القادة العسكريين الذين يعمدون إلى تصوير الآخر العربي بالتخلف، والدونية، والهمجية، والكثير من الصفات الدنيئة التي تتم عن نظرة استعمارية استعلائية لا تؤمن أبداً بالمنطق أو الموضوعية. ومن ذلك ما أورده الضابط الفرنسي جوزيف ماري مواريه (Joseph. M.M) الذي شارك في الحملة الفرنسية على مصر وأصر على تصوير البدو على أنه «ليس لهؤلاء البدو من مهنة إلا السرقة والنهب والقتل وقطع الطريق.» ينظر: جوزيف ماري مواريه. مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر. تر: كميليا صبحي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص:31

2. سيمون بفايفر. مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر. تر: أبو العيد دودو، ص: 74

في العهد العثماني، حيث كان الأتراك يتوددون إلى الجزائريين إلى حين التخلّص من الفرنسيين، وهذا ما نعتبره تصرفاً غير لائق، فقد سلّحوا الجزائريين وقدموا لهم تنازلات كثيرة من أجل رصهم في الصفوف الأولى التي تواجه الغزاة الفرنسيين حتى يضمنوا وجودهم في الجزائر، كما فعلت فرنسا مع الجزائريين الذين جنّدتهم في الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا.

ويقدم "شلوصر" وصفاً لحجم الخوف الذي أصاب الأتراك لما أحسوا بإقتراب زوال حكمهم وضياع الإيالة. الأمر الذي دفعهم إلى مغازلة الشعب، فقدموا للجزائريين عدة تنازلات في الوقت بدل الضائع، فقد استمر الداي في تقديم تنازلات للعرب وسمح لهم «بحمل السلاح، الذي كان محرماً عليهم حمله سابقاً... فالأتراك لم يكونوا يخافون نزول الفرنسيين فحسب، بل كانوا يخشون أيضاً ثورة الجزائريين ضدهم»<sup>1</sup> أشرنا فيما سبق إلى المعاملة السيئة التي كان يلقاها الجزائريون من قبل العثمانيين، فالمعروف أنهم حرّموا من المناصب وحمل السلاح خشية تمردهم على السلطان. فمعاملة الأتراك السيئة للجزائريين مسوّغٌ كافٍ لتمردهم وثورتهم على هذه الأوضاع المزريّة. فالأتراك حكموا الجزائر بيد من حديد متجاهلين حقوق الجزائريين.

وينقل "شلوصر" أيضاً جانباً من همجية السلاطين والبايات العثمانيين عقب انتهاء المفاوضات التي جرت بين الباي "أحمد" والشيوخ الذين انقطعوا عن دفع العشور وتاجروا مع الجزائر العاصمة الخاضعة لفرنسا بدلاً من قسنطينة، حيث قال لهم الباي: «لستم في حاجة إلى دفع العشور لي، ولكن ما رفضتم أن تأتونني به، سأخذه بنفسِي، والآن فإن كل مدخراتكم ملك لي. وبعد هذه الكلمات أشار إلى الجلاّد، وأمره بقطع لكل منهم لسانه ويده، وطيف بهم مشوهين على هذه السورة في المعسكر، وينادي عليهم: صار أنت رومي! ولكن انتقام الباي لم يكن يعرف الحدود، فبعد عودتهم، أمر بقطع أنوفهم وآذانهم وأيديهم اليسرى أمام الخيمة، ثم الطواف بهم في المعسكر. وعندما سقطوا في النهاية فوق الأرض جراء النزيف الكثير تركهم نصف ساعة في الشمس عرضة للذباب، وبعد ذلك أمر بقطع

1. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 65

رؤوسهم»<sup>1</sup> إن خروج الباي إلى هذه المعركة كان يهدف إلى إعادة بسط النفوذ على الأراضي التي كانت تابعة له خاصة وأن سكانها قد تخلوا عنه وأصبحوا يتعاملون مع المستعمر وذلك بتواطؤ أعداء "أحمد باي" على غرار باي قسنطينة السابق "إبراهيم"، وكذا باي التيطري "مصطفى بومرزاق"<sup>2</sup> وهذا ما أضفى على المعارك الطابع الدموي، فالباي خرج لينتقم من خصومه الذين خانوه. فلا يخفى على أحد أن الحكام العثمانيين كانوا جفاة غلاظا، فعهدهم تميز بالعنف الدموي وقصر فتراتهم في الحكم وبالفوضى وانتشار الرشوة والظلم والفساد وربما هذا ما يحسب عليهم.<sup>3</sup> وبالتالي فصور العنف والمكر والهمج التي نقلها الرحالة تعد من التاريخ الوقائعي للجزائر في العهد العثماني.

كما يستحضر الأسير الفرنسي "تيدنا" بعض المشاهد التي توحى بهمجية وطمع السلطان العثماني ممثلا في باي معسكر وهو ينهب أموال وأملاك الدواوير التي رفضت طاعته أو أن تدفع له الضرائب، والتي وقعت على بعد 200 فرسخ عن معسكر، حيث خرج حوالي «15000 رجل وتمكن من الانتصار رغم المقاومة التي وجدها والتي خسر فيها ثلاثين شخصا من رجاله من بينهم 5 أو 6 من البارزين. وقد نهبنا 14 أو 15 دوار... وأخذنا كذلك 67000 رأس من الحيوانات الصوفية و 5000 جمل و 653 دابة و 720 بقرة وثورا، أما حاجيات الخيام فهي أبيحت ملكا للفرقة بأن سمح لمن يريد أو يتمكن منها بأخذها، وأخذنا ستين شخصا ذلك، أغلبهم من النساء.»<sup>4</sup> توثق كتب التاريخ الكثير من

1. المرجع السابق، ص: 51

2. بدأت الخلافات بين الباي أحمد ومصطفى بومرزاق (باي التيطري) عندما احتلت مدينة الجزائر ولم يجد باي التيطري سبيلا للعمل مع الفرنسيين مقابل الاعتراف به وتركه في منصبه وعندما عجز على ذلك عين نفسه باشا وراسل الباي أحمد يطالبه بطاعته ودفع اللازمة له غير أن الباي رفض الانصياع لباي في مقامه وقال أن الفيصل بيننا هو البارود. وهذا ما جعل بومرزاق يعلن عزل الباي أحمد وتعيين إبراهيم الذي كان بايا سابقا على قسنطينة مكانه ولكي تتجح هذه الخطة تحالف إبراهيم مع فرحات بن سعيد الذي عينه شيخا للعرب. غير أن الباي هزمها في المعركة التي دارت بينهم واضطر هؤلاء المتمردون إلى الفرار. ينظر: أحمد باي. مذكرات أحمد باي. تر: محمد العربي الزبيري، ص: 25-26

3. ينظر: أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، ج1. ص: 15

4. عميرايو احميدة. الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا). ص: 84.85

المجازر التي ارتكبتها السلاطين العثمانيين في حق الجزائريين الذين رفضوا دفع الجزية أو لم يتقبلوا فكرة الخضوع للأتراك.

إن صور الهمجية والطمع التي نقلها تيدنا "تيدنا" أمر فظيع جدا، فمشاركة الباي بنفسه في معركة طاحنة مع الأهالي وقتله المئات من الجزائريين لأنهم تخلفوا عن دفع الضرائب أو لم يعترفوا به كسلطان يجعل من النظام العثماني «نظام الحكم الفاسد المبني على العنصرية والاستغلال وانصراف الترك إلى ملء جيوبهم، وإشباع شهواتهم، وترك البلاد للفقر، والجهل، والمرض.»<sup>1</sup> كانت الظروف الاجتماعية والاقتصادية المتدهورة التي كان يعيشها العرب إبان فترة الحكم العثماني سببا وجيها لتغير طباع بعض سكان هذه المناطق وتوجههم نحو التمرد. فالكثير من الجزائريين فضلوا التخندق في الجبال والوعرة والصحاري حتى يتمكنوا من مقاومة البايات والمضي في عصيانهم لهم.

وحتى لا يخرج بحثي عن إطاره الموضوعي لا بد من الإشارة إلى المقاومة الشرسة التي واجه بها "أحمد باي"<sup>2</sup> فرنسا رافضا كل أشكال الإغراء التي كانت فرنسا تهدف بها إلى التخلص من مقاومته بأقل الخسائر، فقد عرضت عليه الاعتراف به كباي وتسلمه لباس الملك لكنه رفض تسليم "قسطنطينة" مقارنة مع الداوي "حسين" الذي ما إن وقع معاهدة الاستسلام حتى سافر إلى فرنسا أين أكمل حياته هناك...

### 2.1. صورة الجزائري الثائر

لم يتأخر الجزائريون ولو للحظة عن تلبية نداء الداوي-رغم معاملة الأتراك السيئة لهم- الذي لان كثيرا في معاملته للعرب عند شعوره بقرب نهاية حكمه، حيث يخبرنا "بفايفر" أنه «قد وقف أغلب أفراد الشعب بجانب الداوي، باستثناء نواحي البليدة، فالأمر هناك لم يكن كما ينبغي. والسبب في ذلك أن قائدها كان قد ألقى القبض على

1. الطاهر أحمد الزاوي. ولاية طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد الترك. دار الفتح للطباعة والنشر.

بيروت، ط1، 1970، ص:266

2. اعترف الحاج أحمد باي أنه كان على استعداد للتفاوض مع الجيش الفرنسي والاحتفاظ بمرتبه كباي، ولكن عندما رأى أنهم جاءوا بباي ليستبدلوني ويهينوه بعد اختيارهم لمملوك من تونس، حينها لم يجد سبيلا غير المقاومة النشيطة... للتوسع ينظر: علي محمد محمد الصلابي. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر (تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى). ص: 431

اثنين من مشايخ القبائل، الذين يسكنون الجبال المجاورة، وسجنهما في مدينة البليدة، فثارت بلاد القبائل، وسار رجالها مدججين بالسلاح إلى البليدة وأخرجوا الشيخين من السجن بقوة. فغضب الداوي وأراد في بداية الأمر معاقبتهم على هذا الاستبداد في الرأي دون الرجوع إليه، إلا أن القبائل ازدادوا عنادا وتحديا من يوم لآخر. وفي النهاية هددوه بأنهم لن يساعده ضد الفرنسيين، إن هو استمر في معاملته لهم بهذه الشدة، فارتاع الداوي لذلك وراح يعزف على وتر آخر، فلم يكتف بالعفو عنهم، بل أهدى أيضا إلى بعض شيوخهم سيوفا فاخرة وبرانس حمراء.<sup>1</sup> إن تلبية الشعب الجزائري لنداء الداوي لم يكن حبا في العثمانيين وإنما ثورة على الفرنسيين ودفاعا عن أرضهم، وكان تصرفهم رسالة قوية لكل من يدعي أن الجزائري غير متعلق بأرضه وأنه كان يرحب بالاستعمار الفرنسي، فعلى الرغم من المعاناة التي ظلت تلازم الجزائري منذ استلام الأتراك سدة الحكم إلا أنه لم يتخلف يوما عن الدفاع عن وطنه.

يصف "بغايفر" ردة فعل الجزائريين عند مشاهدتهم للأسرى الفرنسيين الذين تم إلقاء القبض عليهم بعد أن اصطدمت سفينتهم الحربية بإحدى الصخور المقابلة للسواحل الجزائرية قائلا: «وكان الشعب قد اصطف على أرصفة الشوارع لرؤيتهم، وما إن اقتربوا من المدينة حتى أحاط بهم الآلاف من السكان، وهم يهتفون باللغة العربية: " الخير والنصر للمسلمين والشر والموت للأعداء" واشتد حماس الجماهير وبهجتها، وارتفعت الضجة في كل مكان، واقترب البعض من الفرنسيين، وازدحموا حولهم، بحيث لم تتمكن بغالهم من السير، وتعرضوا هم أنفسهم لشيء من سوء المعاملة. ووصلت في تلك اللحظة فرقة من الإنكشارية، وراحت تضرب بعصيها على رؤوس الجزائريين السود العارية، ففقد هؤلاء الرغبة في الصياح والهتاف وانفلتوا هاربين.»<sup>2</sup> إن ردة فعل الجزائريين إتجاه الفرنسيين يمكن اعتبارها أمرا طبيعيا. فالاستعمار يولد الرفض والرفض يولد الثورة، فمن غير المنطقي أن يرحب الإنسان بعده ! كما أن هتافهم بهذه الطريقة يعني أن الداوي قد نجح في إقناعهم بأن الحرب القائمة حرب دينية بين الإسلام والمسيحية وهذا حافز كبير

1. سيمون بغايفر. مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر. تر: أبو العيد دودو، ص: 64، 65.

2. المرجع نفسه، ص: 70

لانضمام الشعب لهذه المعركة الحاسمة. ولأبأس أن أذكر بأن الاحتلال الفرنسي للجزائر يمكن عده امتدادا للحروب الصليبية، فالغزو الفرنسي للجزائر تم بمباركة الكنسية، التي لعبت دورا كبيرا في تمويل الكثير من الحملات التبشيرية عقب الاحتلال.

يستمر "بفايفر" في نقل صور الثورة وردة فعل الجزائريين، فيما تعلق بالجنود الفرنسيين الذين قتلوا وأسروا من قبل رجال القبائل معتبرا أن ما حدث للفرنسيين كان «مبعث فرح وغبطة وبهجة كبيرة بالنسبة لأهالي الجزائر، خاصة الطبقات الدنيا الجاهلة، التي لم يكن لها ما تفقده ولا ترتدي السراويل على الأغلب وتعيش مما تحمله لها الصدف، أما الأغنياء أتراكا وعربا، فكان أمرهم مغايرا لذلك تماما حيث التزموا الصمت، وكانت تجارتهم قد كسدت، ولاح أمام أعينهم مستقبل مفرع مخيف، وشعر بعضهم بالدمار الذي هو مقبل عليهم، وكانوا ينتظرون في حزن وكآبة نزول الفرنسيين إلى البر»<sup>1</sup>. بالإستناد على ما جاء به "سيمون بفايفر" يمكنني القول إن قلق الأغنياء وكبار التجار الجزائريين لم يكن يوما على الوطن وإنما خوفا على مصير أموالهم وتجارتهم أما عامة الشعب المتشبعون بفكر ثوري رافض للهيمنة الاستعمارية وبروح وطنية تأبى الاستسلام، فلا يهمهم شيء وبكفيهم فخرا أنهم لم يخشوا الموت ليس لأنهم لا يملكون شيئا أو لأن حياتهم معدومة؛ بل إيماننا منهم بأن الذود عن الوطن أهم من ترف الحياة وبذخها في حضن المستعمر الفرنسي.

يعبر "فندلين شلوصر" عن اندهاشه من طريقة تواصل العرب أثناء الاعلان عن الحرب أو لمح العدو، فهم حسبه «لم يكونوا في حاجة إلى الطنبور واللجوء إلى دقات الطبول... وخلال دقيقتين كان هؤلاء قد تقلدوا أسلحتهم، وامتطوا جيادهم، واندفعوا في سرعة البرق نحو أعلى قمة الجبل، وراحوا يصرخون بصوت عال جدا، سمع على مسافة ساعتين، وقد فهم الناس عن بعد معنى تلك الصرخة، فصعدوا بدورهم فوق الجب، ليرددوا الصرخة نفسها، فتلقاها آخرون ووصلوها بدورهم إلى من يليهم. ولم يكد تمضي نصف ساعة حتى امتلأت المنطقة بالمحاربين ما بين راكبين وراجلين وتحركت جموعهم في

1. المرجع السابق، ص: 72

الحال»<sup>1</sup> لا يخفى على جزائري أن هذه الطريقة في التواصل بين الثوار والتي يراها "شلوصر" غريبة هي وسيلة من وسائل التعبير عن الرفض والثورة، فافتقار الأهالي لوسائل التواصل التي أشار إليها الأسير الألماني قد عوضتها حناجر الرجال الذين كانوا يزأرون من أعالي الجبال ويمررون تحذيراتهم بطريقة بسيطة لا تخلو من أهمية وفعالية، فمن بين العبارات الشهيرة التي كانت تردد بين المجاهدين والثوار نذكر على سبيل المثال: (أو عليكم من قالمة- أو عليكم بالبلاندي- العافية، العافية...) التي كان يطلقها المجاهدون حتى يحذروا أو يطمئنون رفاقهم في الجبال.

### 3.1. صورة الجزائري المنهزم

يصف المؤرخ الألماني "هيرمان هاوف" وضع الجزائريين بعد الاحتلال قائلاً: «لقد ظنوا بعد طرد الأتراك أن في مقدورهم الآن أن يرفعوا رؤوسهم خاصة بعد أن عين البعض منهم في مناصب معينة، غير أن الفرنسيين سرعان ما أظهروا لهم أن عليهم أن يخضعوا للفرنسيين كما خضعوا للأتراك قبلهم. ومنذ تلك اللحظة عاود الجزائريون الحنين إلى أسيادهم السابقين... لأن عهدهم كان أنسب لهم من جميع الوجوه»<sup>2</sup> يجسد الرحالة "هيرمان هاوف" الجزائري في صورة المنهزم والخاضع للاستعمار، وتبدو هذه الصورة نسبية وغير موضوعية، لأن الواقعي حقا هو أن الجزائري لم يرحب أبدا بالاحتلال الفرنسي، لأنه قاوم الاحتلال الفرنسي أول ما وطئت أقدامه شواطئ "سيدي فرج"، كما أنني لا أنكر اشمئزاز الجزائريين من العثمانيين لأنهم قاموا بتهميشهم وإرهاقهم بالضرائب. ومع ذلك يبقى المؤرخ الألماني "هيرمان هاوف" من بين الرحالة الذين وقفوا عند الأسباب الحقيقية التي أدت إلى احتلال الجزائر من قبل فرنسا دون إبداء أي تعاطف مع الفرنسيين.

1. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 21

2. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 27

## 2. المقاومة والانتصار

### 2. 1. صورة الأمير عبد القادر

يعد الأمير "عبد القادر" من الشخصيات البارزة في تاريخ الجزائر الحديث ويعود له الفضل في تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة. ولما كان لشخصية الأمير وزن ثقيل على الساحة السياسية والعسكرية، فقد سعى العديد من الرحالة والقادة العسكريين الأوروبيين إلى التقرب من الأمير في محاولة للتعرف على شخصيته أو تقصي أخباره وأخبار مقاومته، وهذا ما استوقفني أثناء قراءتي للنصوص الرحلية نماذج الدراسة.

#### 2.1.1.2. صورة الأمير الشجاع

يورد الأمير "بوكلر موسكاو" صورة من الصور التي توحى بشجاعة وتحدي الأمير "عبد القادر" لحاكم وهران. وذلك من خلال ما نقله للكثير من المراسلات التي جرت بين الأمير والجنرالات الفرنسيين، قائلاً: «من جملة الرسائل الرسالة التي أرسلها الأمير عبد القادر إلى حاكم وهران، وأنكر عليه فيها تهديده إياه بإعلان الحرب عليه إن هو لم يعمل على تطبيق شروط المعاهدة. وفيها يخبر الأمير الجنرال المغرور أن البدوي لا صنعة له غير الحرب وأنه في انتظار مرتزقته في أي وقت كان... وخيوله نفسها تحمم تشوقاً للحرب والنزال!»<sup>1</sup> يظهر الأمير في صورة القائد الشهم المتعطش لقتال العدو الفرنسي، فعلى الرغم من إمكانات الجزائريين الحربية المتواضعة مقارنة مع ما تمتلكه الجيوش الفرنسية، إلا أن الجزائري متمثلاً في شخص الأمير "عبد القادر" الذي بين لعدوه أنه لا يهاب الموت أبداً وأنه لا يرضخ لأي تهديد وإملاءات الحكام والجنرالات الفرنسيين. وبالفعل فقد انهزم الجنرال الفرنسي "تريزيل" في معركة المقطع على يد جيش الأمير "عبد القادر" سنة 1836.<sup>2</sup>

يشير الرحالة الجاسوس الفرنسي "أدريان بير بروجير" إلى شدة إيمان الأمير بقضيته وهو يرد على إحدى رسائل التهديد التي وصلتته -وهو في مرحلة ضعف- هذه

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 30

2. للتوسع أكثر ينظر: علي محمد محمد الصلابي. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد

القادر (تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى). ص: 419

الرسالة التي لم يذكر الضابط صاحبها، حيث يجيبه الأمير قائلاً: «عندما تكون جالسا على الشاطئ وأنت تنظر إلى السمك السابح بحرية في البحر، فإنه يخيل إليك أن الأمر لا يحتاج إلا إلى مد اليد لصيده، ومع ذلك فإنه يجب توفير كل المهارة وشباك الصيد إذا كان المرء يرغب في أن تكون سيد الموقف، والأمر كذلك بالنسبة للعرب.»<sup>1</sup> على الرغم من الوضع السيئ الذي يمر به جيش الأمير إلا أنه لم يقدم أية تنازلات لخصومه، فرده على صاحب الرسالة يظهر الأمير في منتهى القوة والشجاعة، مما يعني أن إيمانه بقضيته قد فاق كل التصورات وهذا ما حتم على العدو احترامه قبل الصديق.

كما يعترف "بير بروجير" بعظمة طموح الأمير على الرغم من الاتهامات المغرضة التي يلقفها "ليوغرطة" الصغير على حد وصفه قائلاً: «ولكن طموحه، وهو أعظم من كل شيء يدفعه إلى الأمام، ولذلك فهو لا يتوقف إلا إذا رأى آخر فرنسي قد ركب آخر سفينة وارتحل أو إذا قامت فرنسا بقصم ظهره هو.»<sup>2</sup> يعترف "بير بروجير" بشجاعة الأمير "عبد القادر" فهو صاحب قضية وأن طموحه في إجلاء الفرنسيين مستمر حتى ينتصر أو يموت. ويضيف "أدريان بير بروجير" صورة أخرى عن شجاعة الأمير عبد القادر في الانتصار على خصمه قائلاً: «ولكننا لا نستطيع أن نمنع من الاعتراف بأن هذا الزعيم كان دائماً جديراً بحظوظ عالية، ففي نفس الوقت الذي عرف فيه كيف يغتتم الظروف المواتية كان أيضاً لا يترك الفرصة لخصمه أن يهزمه.»<sup>3</sup> فخير وأصدق شهادة قد يحظى بها الإنسان هي شهادة تأتيه من عدوه، خاصة وأن "بير بروجير" واحد من الجواسيس الفرنسيين الذي شغلوا مراكز مهمة في الجيش الفرنسي أهمها الكاتب العام للمريشال "كلوزيل".

يصور "موريس فاغندر" الأمير "القادر" في صورة الرجل القوي والفارس البارع، وهو يصف لحظة لقاء الأمير بالجنرال "بيجو" من أجل إمضاء معاهدة تافنة، فما إن لمح هذا الأخير الأمير حتى «دفع جواده بضع خطوات نحوه داعياً إياه بلطف أن يفعل

1. أدريان بير بروجير. مع الأمير عبد القادر. تر: أبو القاسم سعد الله، ص: 83

2. المرجع نفسه، ص: 90

3. المرجع نفسه، ص: 82

مثله. إلا أن الأمير لم يعبأ به، بل حمل جواده الصحراوي البديع على الرقص والتهادي، وأظهر في أثناء ذلك مهارة فائقة في الفروسية... وإذ لم يرد الأمير السير لملاقاة الجنرال، فقد وثب بيجو فوق جواده إليه ومد يده لمصافحته، فمسكها الأمير في عزة وأنفة وبصورة مهينة لجنرالنا... وكان الجنرال بيجو قد نزل عن جواده، ونزل الأمير كذلك واستلقى على العشب من غير أن يدعو الجنرال إليه. أما نحن فإن الأمير لم يتكرم علينا بنظرة واحدة. وقد بدا عليه أنه يحتقرنا احتقار الكلاب.»<sup>1</sup> إن الصورة التي ينقلها النقيب السويسري تظهر الأمير "عبد القادر" في أوج قوته وشجاعته، فخرج الجنرال "بيجو" شخصيا للقاء الأمير وتودده له وانتظاره الطويل للأمير، إنما يدل على حاجة الفرنسيين إلى عقد هذه الهدنة مع الأمير وذلك لحاجتهم إلى السلم في الغرب الجزائري من أجل أخذ قسط من الراحة والتمكن من التفرغ لمحاصرة "قسطنطينة" كمحاولة منهم لمحو عار الهزيمة الأولى تكبدها الجيش الفرنسي في قسطنطينة التي أراد ربطها بالعاصمة.<sup>2</sup>

ولكن صور شجاعة الأمير عبد القادر لا تخلو من محاولات تشويهها وذلك مانقله الرحالة "بوكلر من خلال شهادة صديقه "كليميرات" قائلا: «إن الانطباع الذي تركه الأمير في نفسي هو انطباع سياسي أوروبي حاذق لبق أكثر منه انطباع محارب عربي مخيف.»<sup>3</sup> يجسد هذا الوصف صورة سلبية هدفها تشويه الجزائري لأن الرحالة اختزل اللباقة والدهاء في السياسيين الأوروبيون دون الجزائريين، نافيا بذلك حنكة الأمير "عبد القادر" كرجل سياسة ومقاومة له الفضل في تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة بحنكته السياسية والعسكرية التي ساعدته كثيرا على بناء دولته وتنظيم شؤونها، مما جعل الكثير من الأوروبيين بمن فيهم الجنرالات الفرنسيين يكونون له التقدير والاحترام ويحسبون له ألف حساب قبل مفاوضاته وقتاله. وبالتالي فهي صورة منافية للواقع ولسيرة الأمير "عبد القادر"، وهذا ما يجعل من نظرة الأنا الأوروبية إلى الآخر العربي نظرة دونية بإصرارهم

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855). ص: 48

2. للتوسع ينظر: ليون روش. مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847. تر: يوسف مناصرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص: 23

3. المرجع نفسه، ص: 31

على اعتباره طرفا مهماً في مقابل تمركز الأنا الأوروبي في الريادة بعده صفة الأجناس وأكثرها ذكاء وحنكة ونبوغاً.

### 2.1.2. صورة الأمير المتدين (الفاضل)

يصور "فاغندر" الأمير "عبد القادر" في صورة الشخصية المتدينة الزاهدة قائلاً: «وكان الأمير تقياً ورعاً متحمساً لدينه، وكان يلقي الخطب في بعض الأحيان وقد ألقى خطبه في جامع معسكر، فمكنته هذه الخطب من أن يضم قبيلة بني عامر إلى صفه بعد أن كان شيوخها قد قرروا الخروج عليه، فأصبحوا منذ ذلك الحين من أخلص أتباعه»<sup>1</sup>

تبدو صورة الأمير لدى الرحالة الألماني "فاغندر" مخالفة تماماً لما جاء به الكاتب الفرنسي "ألفونس دوديه" الذي جعل منه شخصاً سيئاً ينهب قصور الآخرين ويقطع أشجارهم ويأخذ خيول ونساء الآخرين بالقوة كما لو كان الأمير مجرماً كبيراً، فالأمير حسب "فاغندر" شخصية متدينة تتميز بالحكمة والعدل، ولعل هذا ما جعل الكثير من القبائل تلتف حوله وتدعمه في كل شيء.

يستمر "فاغندر" في الثناء على أخلاق الأمير "عبد القادر" الذي يعتبره حليماً مع رعيته بقدر ما «كان الأمير يسوس رعيته بالعدل، ولم تقل عمليات الإعدام أبداً بقدر ما قلت في أيامه، والجدير بالاعتبار أيضاً أنه لم تقع قط محاولة لاغتياله حتى أيام محنته وهزيمته... في حين أن أغلب الدايات كانوا قد انتهوا نهاية دموية، وأن الدايات حسين آخر دايات الجزائر كان يلزم القسبة ولا يتركها، وأن الدايات لم يكونوا أبداً يجرؤون على القيام بنزهات من غير أن يرافقهم عدد كبير من الحرس التركي، أما الأمير فكان يسكن في خيمته مفتوحة ويسير بمفرده بين القرى من غير سلاح وكان يُستقبل أينما حل باحترام بالغ وتقدير فائق»<sup>2</sup> إن ما أورده "فاغندر" حول الأمير يُبين مدى الاختلاف بين الأمير "عبد القادر" وبين السلاطين العثمانيين الذين لا يحتكون بالشعب أبداً وإن صادف وخرجوا، فإنهم يخرجون رفقة عدد هائل من الجند لذلك يمكن القول إن عدل الأمير مع رعيته منحه الأمن والاحترام بين الناس.

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 56، 57

2. المرجع نفسه، ص: 58

يستدل "فاغئر" على حلم الأمير "عبد القادر" بعفو هذا الأخير عن قبيلة الحشم التي خدعته بعد سقوط معسكر، حيث تقابل مع شيوخهم بعد معاهدة تافنة -التي زادته قوة وبينت مكانته العسكرية في المنطقة- مستفسرا عن سبب خيانتهم له بنهبهم لقصره وسرقة ممتلكاته وقد أجابه شيوخ القبيلة الذين وصفهم "فاغئر" بشاحبي الوجه قائلين: «عفوك. لقد خلب الشيطان لبنا، فظننا أن الله تخلى عنك، فلك أن تعاقب أكبرنا ذنبا. فقال الأمير بلطف مثير للإعجاب: امضوا في سبيلكم ! لقد عفوت عنكم ونسيت ما مضى. لقد أراد الله أن يعلمكم نظامي مرة أخرى. احتفظوا على كل حال بما سلبتموه مني إذا كان لا يعذبكم ما تأكلون من مال حرام.»<sup>1</sup> إن ما أورده "فاغئر" صورة إيجابية للأمير، فحلمه وعفوه عن أساء له أكسبه ثقتهم. إذ يذكر الرحالة أن قبيلة الحشم قد أخلصت للأمير منذ تلك الحادثة وأن الأمير لم يندم على صفحه عنهم.

يحاول الرحالة الألماني "موريس فاغئر"، نقل صورة تصف في مجملها طبيعة الحياة التي يحياها الأمير "عبد القادر" قائلا: «وحياة الأمير بسيطة كثيابه، فهو يسكن منذ أن هدم قصره في معسكر خيمة عادية لا يتركها إلى قصره الجديد في تقدمت إلا مدة قصيرة. وطعامه زهيد، ولا يخشى الأمير الجوع ولا التعب، ويعتبر أحسن الفرسان في بلاد الجزائر.»<sup>2</sup> إن الوصف الذي جاء به "فاغئر" عن الأمير "عبد القادر" لا يكاد يخرج عما جاءت به كتب التاريخ، وما كتبه بقية الرحالة الذين أتحت لهم الفرصة لرؤية الأمير، فالكل شهد بورع وبساطة الأمير فضلا عن شجاعته وفروسيته<sup>3</sup> التي أبهرت الجنرال "بيجو" شخصيا.

بينما يرى الضابط الألماني "كليمانس لامبينغ" أن الأمير "عبد القادر" يشبه إلى حد بعيد "يوغرطة" إلا أن الأمير يتفوق عليه في نبله، ومرد ذلك أن الأمير حرم «على رجاله قتل الأسرى وكان يعامل المرضى معاملة إنسانية كبيرة، ويرجع ذلك في نظره إلى ثقافة الأمير الأوروبية التي تلقاها عن والده، وكان والده عاش مدة في إيطاليا

1. المرجع السابق، ص: 58.

2. المرجع نفسه. ص: 55.

3. للتوسع ينظر: علي محمد محمد الصلابي. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر (تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى). ص: 443.

واطلع على عادات أهلها وتقاليدهم... البدو يجلبون الأمير منتهى الإجلال لعدة اعتبارات... منها أنه خليفة عليهم.<sup>1</sup> يبدو "لامينغ" غير مطلع على القيم الإسلامية التي تدعو إلى حسن معاملة الأسرى -مهما كان جنسهم ودينهم- وعدم الإساءة إليهم، فالضابط يحاول نسب هذه الأخلاق الفاضلة إلى أوروبا زاعماً أنها ثقافة أوروبية قد ورثها الأمير عن والده "محي الدين" وهذا ما يُعد تجسيدا للمركزية الغربية، ورفضاً للآخر العربي الهامشي الذي كثيراً ما يتم تصويره من قبل الأوروبيين في صورة المتخلف والهمجي العنيف واللاإنساني، ثم يتم توارث مثل هذه الصور السلبية عن العربي -المسلم خصوصاً- في الثقافة الأوروبية لتصبح فيما بعد صورة نمطية تلاحقه إلى الأبد.

ينحو الألماني "لودفيغ بوفري" منحى "كليمانس لامينغ" معتبراً أن صفات "يوغرطة" قد تجلت في الأمير "عبد القادر" قائلاً: «إن أوصاف يوغرطة كما ذكرها لنا سالوست قد تجلت مرة أخرى في شخصية الأمير "عبد القادر" عندما اقتضت الظروف ظهوره على مسرح الأحداث، فقد جعلت منه الحوادث التي جرت في بلاده بطلاً، ولولاها لظل مجرد رجل بسيط أو مرابط ذي نفوذ كبير، وهي أقصى مكانة يمكن أن يصل إليها تحت الحكم التركي. إن الأحداث قد جعلت منه رجل تاريخ.»<sup>2</sup> كثيراً ما لمسنا تشبيه الأوروبيين للأمير "عبد القادر" "بيوغرطة" ذلك أن حنين الأوروبيين إلى أسلافهم الرومان جعلهم يسقطون حرب الأمير مع فرنسا على حرب "يوغرطة" مع الرومان.

لم يغفل الفرنسيون في تعاملهم مع الجزائريين ماضي الجزائر التي كانت تابعة في وقت من الأوقات لروما المسيحية ويبدو ذلك جلياً في رسالة الأسقف "ديبيش" بمناسبة تكليفه بإحياء الكنيسة الإفريقية بتنصير سكان الجزائر والتي يقول في مقطع منها: «يجب أن تكون رسالتنا بين الأهالي... وينبغي علينا أن نعرفهم بدين أجدادهم الأولين بالخدمات الخيرية.»<sup>3</sup> إن الحركات التبشيرية يمكن اعتبارها إحدى سواعد الاستعمار التي تفتح له الطريق باستمالة السكان روحياً. فقد استثمرت فرنسا وشجعت ودعمت الحركات

1. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855). ص: 96

2. المرجع نفسه، ص: 99

3. خديجة بقطاش. الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871. ص: 52

التبشيرية في الجزائر عن طريق أعمال خيرية يقوم بها الرهبان والقساوسة الذين يستثمرون في تاريخ المنطقة من أجل استمالة قلوب الجزائريين وتنصيرهم، مما يسمح لهم بالتعمير إلى الأبد ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، حيث لقيت هذه الحركات التبشيرية صَدًا كبيراً من الجزائريين بسبب تمسكهم الشديد بمعتقدهم ولغتهم.

أما المؤرخ والجاسوس الفرنسي "أدريان بير بروجير" فينقل بعض الصفات الفيزيولوجية للأمير عبد القادر قائلاً: «وعلينا أن نعترف بأنه لا يشبه في أي شيء الصورة البذيئة التي تروج عنه في فرنسا مع الإدعاء أنها صورته... إن عبد القادر على العكس من ذلك، فهو رجل متميز بمظهر الوداعة والحزن الذي يحتفظ به حتى في الوقت الذي تفرض عليه طبيعة عمله، فإن المشاعر التي تغطي على ملامحه هي مشاعر ذات طبيعة كلها دينية، إن الوجه له شيء من ذلك الورع الذي يذكر المرء برؤوس الرهبان الجميلة.»<sup>1</sup> لقد سمحت اللقاءات المتكررة للوفد مع الأمير بتحليل شخصيته حسب "أدريان" وهذا ما دفع بصاحب الرحلة إلى نفي الصورة المشوهة التي التي كثيراً ما كانت تروجها السلطات الاستعمارية عن القادة والزعماء الذين تصدوا لها، ففي كثير من الأحيان يلجأ المستعمر إلى تشويه صورة الثوار الفيزيولوجية. أما فيما تعلق بوصفه بالإنسان الورع والمتدين، فقد أشار إلى هذا العديد من الرحالة الذين شاهدوا الأمير على غرار "فون مورلت" و"كليمانس لامينغ" وغيرهم كما أشاد الرحالة بفصاحة الأمير "عبد القادر" وهذا أمر لا نشك فيه وهو الشاعر حتى أن الرحالة شبهه برهبان الكنائس ذوي الوجه الحسن.

### 3.1.2. صورة الأمير السفاح

لا تخلو نصوص الرحلة الأوروبية من تشويه لصورة الجزائري وخاصة ما تعلق بمعتقده الديني وحياته الاجتماعية والتاريخية، إذ يحوي نص الرحالة الفرنسي "ألفونس دودي" صوراً مشوهة للجزائري تهدف في مجملها إلى تزيف الحقائق وتحريف التاريخ كما تضمّر الكثير من حقد والكراهية للأمير "عبد القادر" قاهر الجيوش الفرنسية، حيث يحاول الرحالة من خلال القايد "سيد عمر" الذي يتهم الأمير بالسرقة والقتل والتعدي على

1. أدريان بير بروجير. مع الأمير عبد القادر. تر: أبو القاسم سعد الله، ص: 99

النساء، على الطريقة الفرنسية.<sup>1</sup> وتتضح هذه الصورة في قوله: «وبعد أن كان سيد عمر عدوا لنا وحليفا لعبد القادر انتهى إلى الاختلاف مع الأمير، وأعلن خضوعه للسلطة الفرنسية. ولكي ينتقم الأمير منه دخل إلى مليانة في غياب سيد عمر، ونهب قصوره، وقطع أشجاره، وأخذ خيوله ونساءه، وسحق رقبة أمه تحت غطاء صندوق كبير.»<sup>2</sup> يُظهر النص الرحلي الأخير الأمير "عبد القادر" على أنه شخص سفاك لا إنساني، فالرحالة يبدي تعاطفه مع أحد (القياد) الخونة الذين تخلوا عن بلدهم الجزائر من أجل فرنسا، مما يجعلنا نصطدم بصورة مزيفة لم تثبت تاريخيا، لأنّ التاريخ وحده كفيلا يكشف الحقائق وإزالة الستار عن المضمرة والخفي ذلك أن «الثقافة الأوروبية الحديثة قامت على أساس خرافة مفادها الإدعاء بالاستمرارية في تاريخ القارة الأوروبية وإبداع جذور قديمة وهمية للتضاد بين هذا التاريخ المزعوم وبين تاريخ المنطقة التي تقع على الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط، هذا هو مضمون التمرکز الغربي وهو مضمون قسّم العالم إلى مركز وأطراف، استنادا إلى اختراع خرافة "الغرب الأبدي" المضاد "للشرق الأبدي" وقد كان هذا الاختراع المزدوج ضروريا من أجل تأكيد غلبة عناصر التطور المستمر في "الغرب" وغلبة عناصر الثبات في "الشرق".»<sup>3</sup> لذلك يجب أن ندرك أن مثل هذه الصور المشوهة قد تم تشكيلها وفق مرجعية إمبريالية استعمارية، وتمّ تمثلها في النص الرحلي كصورة نمطية ثابتة في اللاوعي الجمعي لأننا الفرنسي السلطوي الذي صاغ الكثير من الحقائق المزيفة تاريخيا ليبرّر سياسته الاستعمارية التوسعية.

### 2.2. صورة الشيخ بوعمامة

استهوت الجزائر الأديب الفرنسي "غي دو موبسان" كثيرا لدرجة أنه أصيب بشغف ورغبة كبيرة لاستكشاف هذا البلد الجميل، فهوس الغوص في أعماق الصحراء

1. لابد أن أشير إلى نقطة مهمة وهي الأخلاق التي دعا إليها الإسلام أثناء الحروب من عدم قتل الأبرياء والنساء والشيوخ وكذا الإفساد في الأرض بقطع الأشجار وإبادة الحيوانات. ونحن لا نشك في التزام الأمير عبد القادر بهذه النصائح التي أمر بها النبي(ص) المسلمين في حروبهم مع الكفار. لذلك من غير الممكن أن يسمح الدين الإسلامي وأخلاق الأمير عبد القادر بمثل هذه الأفعال التي لا يتقنها سوى فرنسا وحلفاؤها.

2. أحمد منور. الجزائر في كتابات الأديباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر. ص: 56-57.

3. عبد الله إبراهيم. المركزية الغربية. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010، ص: 20

الجزائرية والتمتع بمناظرها البديعة كان شديدا عند "موبسان" كغيره من الأدباء الغربيين الذين ضاقوا ذرعا من الحياة الأوروبية. فضلا عن رغبة الأديب في التعرف على الجزائري ونمط معيشته، فإن "موبسان" أبدى اهتماما بالغاً بشخصية الشيخ "بوعمامة" خاصة وأنه سمع الكثير عن انتفاضته التي ذاع صيتها في الأوساط العربية والغربية وكم عرّض "موبسان" نفسه للخطر رغبة في لقاء الشيخ "بوعمامة" غير أنه فشل في ذلك والتعرف عليه عن قرب. ومن بين الصور التي تجسد فيها الشيخ "بوعمامة" في رحلة "موبسان" هي كالاتي :

### 1.2.2. صورة المقاوم

لم يفوت الأديب الفرنسي فرصة التعرف على "بوعمامة" انطلاقا من القصص التي كان يرويها القادة العسكريون الفرنسيون الذين تواجهوا مع "بوعمامة" هذا الأخير الذي وصفه الرحالة الفرنسي بالمقاوم المراوغ «والشبح الذي أفرغ جيشنا في إفريقيا، ثم اختفى تماما حتى رحنا نشك في وجوده... على أي حال لم يكن هذا الجوال سوى رئيس عصابة قليلة العدد دفعته المجاعة للثورة. لم يقاثل هؤلاء الناس إلا لسلب صوامع القمح أو نهب القوافل، وليس في تصرفهم ما ينم عن دوافع كره أو تعصب ديني. يهدف نظامنا الاستعماري إلى تدمير العربي، وسلبه بشكل متواصل وملاحقته دون رحمة وبضراوة وإنهاكه بالبؤس، لذا سنرى مزيدا من الفتن الأخرى.»<sup>1</sup> يصور "موبسان" الشيخ "بوعمامة" في صورة القائد الذكي والمراوغ الذي أزهق الجيش الفرنسي وكبده خسائر كبيرة بسبب براعة مقاتليه في الكر والفر ومعرفتهم الجيدة لطبيعة المناطق الصحراوية الوعرة، فسرعة مقاتلي "بوعمامة" في الهجوم كانت مرعبة. غير أن تفسير "موبسان" لسبب قيام هذه المقاومة لا يخرج عن الخطاب الكولونيالي الذي يهدف إلى تصوير الآخر المستعمر في صورة المتخلف التابع الذي لا يمتلك شخصية ولا طموحا؛ فمثل هذه الخطابات تؤسس للمركزية والهيمنة الغربية الثقافية والعسكرية.

إن ما يقوله الرحالة يحاكي تصريحات الجيش الفرنسي الذي يعتبرها مجرد حرب ضد مجموعة من العصابات الثائرة بسبب المجاعة، وأنها تهدف في مجملها إلى

1. غي دو موبسان. رحلة إلى بلاد الشمس. تر: نادية عمر صبري، ص: 23

الحصول على المؤونة، وهذا ما يعتبر مغالطة كبيرة للرأي العام الدولي، كما أن هذا التبرير يهدف إلى اختزال هذه المقاومة والانتقاص من قيمة الرجل الذي كان يحمل هم قضية وطنية، فالسبب الرئيسي لهذه المقاومة «يمكن إدراجه ضمن مقاومة التوغل الفرنسي الذي وصل حينئذ إلى مشارف المجال الذي كان يسيطر عليه أولاد سيدي الشيخ، أي المنطقة الواقعة غرب قصور أولاد سيدي الشيخ، والممتدة إلى بني ونيف وقصور فقيق وفي اتجاه الشمال والجنوب.»<sup>1</sup> إن الجوع لم يكن يوما سببا في قيام مثل هذه المقاومات الشعبية الشديدة، مما يجعل من اختزال مقاومة شعبية -دامت ما يقارب ثلاثة عقود من الزمن- في ثوب معركة يحركها الجوع صورة سوداوية يحاول "موبسان" إصاقها بالجزائري الثائر والمدافع عن وطنه والرافض لكل أنواع الاستعمار.

يعبر الأديب الفرنسي "موبسان"<sup>2</sup> عن دهشته من عجز جنرالات فرنسا على القضاء على مقاومة "بوعمامة" على الرغم من امتلاكهم لأسلحة خفيفة لا تتعدى مجموعة من البنادق والسيوف! وهذا ما دفع الرحالة في كثير من الأحيان إلى السخرية من الجيش الفرنسي الذي أضحى عاجزا على تحديد مكان الشيخ "بوعمامة"، فكل الأخبار العسكرية عن "بوعمامة" لم تكن دقيقة أبدا. ففي «اليوم نفسه أعلن عن وجود بوعمامة في ست نقاط مختلفة من قبل قادة حسبوا أنهم حاصروه.»<sup>3</sup> يمكنني الجزم أن الشيخ "بوعمامة" قد وضع الجيش الفرنسي في حرج كبير، فمعرفته الجيدة للصحراء مكنته من الإغارة السريعة على العدو الفرنسي ثم الفرار إلى وجهة مجهولة.

كما يحاول "موبسان" عبثا البحث عن أسباب عجز الجيش الفرنسي القوي على وضع حد لثورة المتمردين على حد وصفه. وعدم تمكنه رغم قوته على مقارعة مطارق وبنادق العرب القديمة، لكن "موبسان" سرعان ما يستعين بتجربته العسكرية في البحث عن الأسباب الفعلية التي أدت إلى انتصار العرب في هذه المناطق المكشوفة والوعرة

1. عبد الحميد زوزو. ثورة بوعمامة 1881-1908. ج:1، موفم للنشر، الجزائر، 2010، ص:42.

2. يُحمل "موبسان" السياسة العسكرية الفرنسية -القاسية على العرب- مسؤولية قيام هذه الانتفاضات؛ معتبرا أن فرنسا كانت قاسية مع العرب وكانت تضيق على الشعب الجزائري وترتكب في حقه الكثير من المجازر وهذا ما زاد من حدة التوتر بين الطرفين ويسبب مزيدا من الثورات على فرنسا مستقبلا.

3. غي دو موبسان. رحلة إلى بلاد الشمس. تر: نادية عمر صيري، ص: 26

قائلا: «على أي حال، يتفوق العرب علينا بميزة جعلنا نجاهد دون فائدة، إذ أنهم أبناء البلد، يعيشون على بضع حبات من التين وقليل من الطحين. لا يتعبهم الطقس الذي يرهق رجال الشمال، ويمتطون جيادا قانعة زاهدة مثلهم، ومثلهم تتحمل الحرارة وتسير مئة أو مئة وثلاثين كيلومتر في اليوم دون أمتعة أو مواكب أو مؤونة تجرها خلفها. يتحركون بسرعة مذهشة، ويمرون بين رتلين معسكرين.»<sup>1</sup> إن ما أورده "موبسان" نعتبره اعترافا ضمنيا بقوة العربي وصبره على قسوة الحرب والطبيعة، ثم إن التبريرات التي قدمها الرحالة منطوية إلى حد ما، فالأوروبيون لا يمكنهم الصمود في وجه هذه البيئة القاسية كذلك، فهم لا يعرفون هذه الأراضي جيدا ولا يمكن لأي جيش في العالم تغطيتها. في مقابل قوة العربي على تحمل الطقس الحار والجوع.

يشرح "موبسان" أسباب إخفاق الجيش الفرنسي في القضاء على الشيخ "بوعمامة" مستعينا بتجربته كجندي فرنسي في الحرب الفرنسية البروسية قائلا: «في حروب أوروبا، لا ينتقل الجيش مهما كانت سرعة تحركه دون أن يكون بوسعنا معرفة ذلك... على نقيض ذلك لا تترك فرقة عربية أي أثر في طريقها كما لو كانت طيوراً محلقة. يمر هؤلاء الفرسان المتجولون جيئة وذهابا بخفة صنارة السنونو. لينقضوا على قرية تحسب نفسها آمنة لنهبها. ثم يختفون دون ترك أثر ليعودوا فجأة حين نظن أنهم بعيدون.»<sup>2</sup> إن ما جاء به "موبسان" يمكن اعتباره تفسيراً منطوقاً وصورة واقعية لحقيقة المقاومة و لسبب فشل الفرنسيين على القضاء على ثورة الشيخ "بوعمامة". ذلك أن الجيش الفرنسي قد وجد صعوبة بالغة في الإحاطة بثورة الشيخ "بوعمامة" لاعتبارات عدة أهمها عدم قدرتهم على تحديد موقع الشيخ بدقة نظراً لبراعته في تغيير موقعه بسرعة رهيبية، فجيش "بوعمامة" لا يملك الكثير من العتاد وليس جيشاً مقيماً في معسكر أو ثكنة يسهل اكتشافها. فالحروب القائمة على الكر والفر ترهق الجيوش النظامية، وذلك سر نجاح مقاومته.

1. المرجع السابق، ص: 28

2. المرجع نفسه، ص: 29

## 2.2.2. صورة المجرم

يصور "موبسان" الشيخ "بوعمامة" في صورة قاتل الأسرى مستشهدا بما رواه له الأسير الإسباني "بلاس روجو بلاسييري" الناجي الوحيد حسبه من معسكر "بوعمامة" قائلا: «... لكن مجموعة من العرب انقضت عليهم، سلم الإسبان أنفسهم كونهم لا يملكون إلا بندقية واحدة، رغم ذلك تم اغتيالهم باستثناء "بلاس روجو" الذي عفوا عنه، لا ريب بسبب صغر سنه وجمال هيئته. لا يخفى علينا أن العرب يهتمون بجمال الرجال.»<sup>1</sup> إن الصورة التي ينقلها "موبسان" عن الأسير الإسباني لا تتضمن مصداقية خاصة إذا تمعنا في سبب إطلاق سراحه، فمن غير الممكن أن يقتل جيش "بوعمامة" جميع الأسرى- إن صح كلام "موبسان"- بينما يتم استثناء هذا الأسير لجمال وجهه، وتهدف مثل هذه الكتابات إلى تشويه صورة المقاومة والمجاهد الذي يناضل من أجل قضية كبرى وهي تحرير أرضه، «وبقدر ما كان الجهاد مبدأ مقررا في الإسلام، فإن الآلة الدعائية المسيحية أعطت لهذه المسألة بعدا دراميا لتصوير المسلم في صورة أكثر شيطانية وشراسة ووحشية.»<sup>2</sup> إن تصوير المسلم المدافع عن شرفه ووطنه في صورة إنسان متوحش يخضع لغريزته، هو نوع من الحرب الإعلامية التي نراها إمتدادا للحروب الصليبية، فالكنسية لم تستوعب فكرة انتشار الإسلام في للعالم، الأمر الذي دفعها إلى مباركة ودعم كل الحروب على المسلمين، وراحت تقدم الإسلام كديانة للعنف والهمجية.

كما أن محاولة "موبسان" لبث فكرة حب الغلمان في أوساط جند الشيخ "بوعمامة" تهدف إلى تجسيد فكرة الشرق الجنسي الذي تكثر فيه قصص حب الغلمان والوحشية وغيرها من الصور الزائفة. «ومن الطبيعي والحالة كهذه، أن تنتوع الكتابات الفرنسية والغربية عن الجزائر. ونادرا ما نجد أنفسنا أمام محاولة موضوعية عالمية، بل إن معظم الكتب التي غمرت السوق الفرنسية؛ هي كتابات متحيزة، متجنية، تتجاهل الواقع، وكذا مسارات ومدارات المقاومة الوطنية والانتفاضات الكبرى التي عرفتها الجزائر.»<sup>3</sup>

1. المرجع السابق، ص: 27

2. محمد عابد الجابري. الإسلام والغرب (الأنا والآخر). الكتاب الأول، ص: 119

3. ينظر: حفناوي بعلي. صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين. دروب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016،

انطلاقا مما سبق يمكن القول؛ إن مختلف الكتابات المتعلقة بتاريخ الجزائر يكتنفها الشك في ذكر الحقيقة التاريخية إلى حد ما. فالذاتية والتحيز للأفكار المسيحية ذات الطابع الاستعماري تهيمن على مختلف الكتابات الغربية خاصة الفرنسية كتلك المتشعبة بالقومية والعنصرية.

يستمر "موبسان" في الإساءة إلى أخلاق جيش الشيخ "بوعمامة" متهما إياه بارتكاب مجازر كبير في حق الإسبان الذين وجدهم الجيش الفرنسي «بعد خمسة عشر يوما من حدوث المجازر، انطلقت القطارات ليل نهار على خط سكة حديد البحيرات المالحة الصغيرة. في كل لحظة يتم استقبال الإسبانيين البؤساء المشوهين وفتيات جميلات عاريات مغتصبات مخضبات بالدماء. لم يكن بمقدور القوة التغلب على حفنة من المتمردين»<sup>1</sup> لا يمكن أن نصدق هذه الرواية خاصة وأن "موبسان" لم يكلف نفسه عناء تقديم تاريخ ومكان هذه المجازر المزعومة. لم يقابل الرحالة الشيخ "بوعمامة" أبدا وكان يعتمد على مروييات الجيش الفرنسي؛ لذلك فالصور السلبية المشوهة لشخصية بوعمامة غير موضوعية، والأفضل ترك الحكم على صدق أو كذب هذه الرواية للمؤرخين باعتبارهم أصحاب الاختصاص نظرا لانتشار الكثير من الكتابات غير البريئة التي تهدف إلى تشويه صورة المقاومة الجزائرية التي أخرجت الجيش الفرنسي.

إن تجسيد "موبسان" الشيخ "بوعمامة" في هذه الصور المشوهة، ينم عن دعم الأديب الفرنسي لسياسة بلاده الاستعمارية خاصة، وأنه قد شارك كجندي في الحرب الفرنسية البروسية. ف: "موبسان" الذي تنقل عبثا إلى الجزائر من أجل لقاء الشيخ "بوعمامة". صورته في صور تحقيرية، تهدف في مجملها إلى تشويه صورة المقاوم الجزائري، انطلاقا من المعلومات التي يستقيها من الجنود الفرنسيين الذين كان يرافقهم في عملية البحث عن "بوعمامة".

تشير الأدبية السويسرية "إيزابيل إيبهارت" - في مقابل ذلك - إلى الاحترام الكبير الذي يحظى به الشيخ "بوعمامة" في الجنوب الوهراني قائلة: «وخلال كل تلك الأحاديث كان اسم يتردد كثيرا بإجلال وحب مثيرا ذكرى السيد الشيخ بوعمامة. وفي كل

1. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 28

مرة يذكر اسمه كانت الأيدي اليمنى ترفع إلى الجباه ومنها إلى الشفاه كعلامة للخضوع والاحترام وكان اسم بوعمامة يعود في كل لحظة ذلك أنه كان في أولاد داود، وحتى العموريين السمر الصغار، من يحملون اسم بوعمامة.<sup>1</sup> لا يختلف اثنان في دور الشيخ "بوعمامة" في مقاومة المستعمر الفرنسي، هذه المقاومة الشرسة التي منحته الكثير من الاحترام بين أبناء الجنوب، فمقاومة الشيخ كانت بمثابة الرد العنيف على كل من يشكك في وطنية البدو ويعتبرهم غير متعلقين بأرضهم لأنهم يكثرون من التنقل !

### 3.2. صورة العقيد زيغود يوسف

يُسَوِّقُ الجنرال "بول أوساريس" اتهامات مغرضة في حق قائد هجومات الشمال القسنطيني العقيد "زيغود يوسف" وهو يتهمه بارتكاب جرائم بشعة في حق المعمرين (المدنيين) بإحدى القرى بمدينة "سكيكدة" قائلا: «كانت الهالية تجمع ألف مسلم ومئة وثلاثين أوروبيا، وكان الجميع يتلقون أجرة متساوية ويحظون بنفس الامتيازات الجماعية، وكانت هذه الوضعية بالذات هي التي لا يمكن لجبهة التحرير أن تتحملها... لكن زيغود يوسف" كان قد أعطى تعليمات تقتضي بقتل المدنيين الأوروبيين، وبأبشع الطرق الممكنة. ومن هذا المنطلقات والأعمال، كان يأمل من الفرنسيين - تحت وقع الدهشة والصدمة والخوف- أن يقوموا بعمليات قهر غير مسبوقه حتى يتم توحيد الشعب المسلم نهائيا ضد الأقدام السوداء ويقومون بتوعية الرأي العام الدولي.»<sup>2</sup> يظهر أن الجنرالات الفرنسيين لم يستوعبوا بعد فكرة نجاح الثورة التحريرية، فهم مازالوا إلى حد الساعة ينظرون إلى المجاهدين على أنهم إرهابيون ثاروا ضد فرنسا وأنهم همجيون لدرجة أنهم يقتلون المعمرين والأطفال دون رحمة. فالجنرال الفرنسي الذي عذب وقتل آلاف الجزائريين يحاول تلميع صورة المستعمر والمعمار الفرنسي وتجسيده في صورة المتعاش مع الأهالي، بقوله إن الجزائريين كانوا يتلقون نفس الامتيازات مع المعمرين. لذلك فإن تصريحات الجنرال لا تخرج عن الرؤية الاستعمارية التي تتعامل «مع العرب كما لو كانوا متخلفين

1. إيزابيل إيبرهارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام

المودني، ص: 224

2. الجنرال أوساريس. شهادتي حول التعذيب (مصالح الخاصة الجزائر: 1957-1959). تر: مصطفى فرحات،

ص: 51

ومتوحشين. وترد على مطالبتهم باستقلال بلدانهم بالعنف والإرهاب»<sup>1</sup>. وهذا ما يعد ضرباً لقيم المجتمع الجزائري المسلم، فمن غير الممكن تصديق هذه الأكاذيب التي لا يزال أصحابها يروجون لها حتى بعد الاستقلال.

كما يتهم الجنرال العقيد "زيغود يوسف" بالتخلي والتضحية برفاقه الذين سقطوا كجرحى في ميدان المعركة قائلاً: «وفي الواحدة زوالاً انتهى كل شيء، وتبعاً لتعليمات زيغود يوسف، انسحب القواد... لقد تركوا رجالهم هناك، سالمين أو جرحى ليواجهوا مصيرهم معنا، لقد حسب زيغود يوسف ببرودة الخسائر الفادحة التي سيتعرض لها، وذلك لأن رجاله لم يكونوا جد مسلحين، لأن المهم في كل هذا هو تنبيه الرأي العام... لقد جعل زيغود يوسف في الواجهة رجالاً كانوا تحت تخذير الحشيش. ولم يكن موتهم - بالنسبة إليه - أكثر من موت المدنيين الذين أمرهم بقتلهم»<sup>2</sup> إن الجرائم التي ينسبها الجنرال إلى العقيد "يوسف" إنما تهدف في مجملها إلى تشويه صورة القائد الذي أرقق الفرنسيين، فاتهمه بقتل الرضع واغتصاب النساء إنما هي تهم باطلة. فمن غير الممكن أن يتخلى الجنود عن رفاقهم الجرحى لأنه فعل غير إنساني، أما فيما يخص قضية إتهامهم بالإدمان، فإنه لا يسعني القول سوى أنها مجرد حرب إعلامية تهدف في مجملها إلى تشويه صورة المقاومة الجزائرية.

### 4.2. صورة العربي بن مهدي

يصور الرحالة "بول أوساريس" العربي بن مهدي في صورة الخارج عن القانون أثناء حديثه عن أبطال الثورة التحريرية المجيدة، فعلى سبيل المثال كانت المنطقة المستقلة في العاصمة وضواحيها تحت قيادة "العربي بن مهدي" هذا الأخير الذي «زاول دراساته في المسرح قبل أن يخوض غمار العمليات الخارجة عن القانون، وكان يخطط لأن يصعد من درجة الإرهاب إلى حد أن تضطر فرنسا للتخلي عن الجزائر... وكان بن مهدي معاناً من طرف "ياسف سعدي"، أحد الخبازين في القصبة وعمره 28 سنة، وكذا

1. محمد الداوي. صورة الأنا والآخر في السرد. رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013، ص: 114

2. الجنرال أوساريس. شهادتي حول التعذيب (مصالح الخاصة الجزائر: 1957-1959). تر: مصطفى فرحات،

من طرف المهاب "علي لابوانت".<sup>1</sup> لا تختلف صورة العربي بن مهدي عن صورة رفيقه في السلاح "زيغود يوسف"، حيث يصورهما الجنرال دائماً في صورة الخارجين عن القانون الفرنسي الذي فرضته فرنسا بالقوة على الجزائر باحتلال أرضيها ونهب ثرواتها !

إن تخلي "بن مهدي" عن دراساته في المسرح والتحاقه بركب الثورة يعد إنجازاً في حد ذاته، فلو كان الشباب الجزائري بخير أثناء الاحتلال كما تدعي فرنسا لما اضطروا لحمل السلاح في وجهها. كما أن حنكة "بن مهدي" العسكرية والسياسية جعلته يتقلد مناصب رفيعة في صفوف جبهة التحرير الوطني في سن مبكرة جداً ! أما عن بطل معركة الجزائر "علي لابوانت"، فقد كان مهاباً فعلاً وسط الفرنسيين، فعملياته الفدائية التي نفذها في قلب العاصمة زرعت رعباً كبيراً وسط الجيش الفرنسي والمعمرين على وجه الخصوص. في حين ينسب الجنرال كل العمليات الفدائية التي حدثت في العاصمة إلى "العربي بن مهدي" باعتباره -حسب الجنرال- المسؤول الرئيس عن كل العمليات الإجرامية بصفته البطل الأول في معركة الجزائر.

ويستحضر الجنرال "بول أوساريس" جانبا من الحوار الذي دار بين الجنرال "مارسيل بيجار"<sup>2</sup> والشهيد البطل "العربي بن مهدي":

- «بيجار: هل لديك شعور ما بأنهم خانوك؟
- العربي بن مهدي: ومن يخونني؟
- الجنرال بيجار: رفاقك في لجنة التنسيق والتنفيذ، فهم جميعاً قبائل وأنت عربي.
- العربي بن مهدي: مبتسماً لم يخني أحد حضرة العقيد.
- فقد بيجار ضبط أعصابه نوعاً ما وقال: وما الذي فعلناه حتى نلقي القبض عليك؟

1. المرجع السابق، ص: 70

2. بعد إلقاء القبض على "بن مهدي" في فيفري 1957 من قبل قوات الجنرال "مارسيل بيجار" "Marcel Bigeard" جاء دور المخابرات الفرنسية لكي تبدأ مهامها الفدائية وذلك بعد عجز الجنرال "بيجار" عن أخذ معلومات أو وشاية من البطل "بن مهدي"، حيث كلف الجنرال "بول أوساريس" بمواصلة التعذيب طمعا في نيل معلومات تتعلق بجبهة التحرير إلا أن محاولاتهم الفدائية باءت بالفشل. ينظر: المرجع السابق.

- العربي بن مهدي: لقد كنتم محظوظين فقط.<sup>1</sup> لقد حيرت ابتسامه "العربي بن مهدي" جلديه هذه الابتسامه المشبعة بالتحدي والنصر، فكل محاولات الجنرال "مارسيل بيجار" استنطاق أسيره قد باءت بالفشل مما استدعى تدخل المخابرات الفرنسية التي كان "أوساريس" واحد منها. حيث تم تعذيب البطل "بن مهدي" حتى استشهاده في إحدى الورشات السرية التي وجدت خصيصا للتكامل بالجزائريين الثائرين ضد الاحتلال الفرنسي آنذاك. لذلك فالصور التي نقلها الرحالة حوله غايتها تشويه قادة الثورة التحريرية وتاريخ الجزائر المجيد.

## 5.2. صورة علي لابوانت (روين وود الجزائر)

يرى الرحالة الجنرال "بول أوساريس" أن "علي لابوانت" قد اكتسب شعبية كبيرة في العاصمة وذلك بسبب عملياته الفدائية التي كان ينفذها آنذاك، فهو كان بمثابة «"روين وود" الجزائري، حيث كان ينجو دائما من دورياتنا بالتخفي في زي نساء.»<sup>2</sup> لقد سجل "علي لابوانت" اسمه بأحرف من ذهب في تاريخ الجزائر باعتباره أحد أبطال معركة الجزائر التي ألفت برعب كبير وسط المحتل الفرنسي حتى أنها أخلطت كل حساباته آنذاك. أما عن تخفي البطل في زي النساء، فلا أرى فيه حرجا نظرا لصعوبة التنقل والقيام بعمليات فدائية في قلب العاصمة التي تعج بالجند والشرطة الفرنسية ناهيك عن عملاء الاستخبارات الفرنسية، ففي الحرب كل شيء مباح المهم أن تكسب الرهان ! لذلك فالصورة التي نقلها الرحالة لا تعبر إلا عن صور الشجاعة والتحدي والبطولة.

## 6.2. صورة عباس لغرور

إن الحديث عن "خنشلة" في فترة اندلاع ثورة التحرير المجيدة يستدعي الحديث عن أبطالها الذين خلدوا أسماءهم بأحرف من ذهب في سجل الجزائر الحافل بالبطولات. فتواجد الرحالة الضابط "دومينيك فارال" ضمن كتيبة المرتزقة بولاية "خنشلة" في السنوات الأولى من اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر مكنه من التعرف على أبطال هذه المنطقة الذين فضلوا مواجهة المحتل بشجاعة لا تضاهي في الجبال الشامخة للمدينة.

1. ينظر: المرجع السابق، ص: 131

2. المرجع نفسه، ص: 137

## 1.6.2. صورة القائد الشجاع والمحنك

لا يخفي الرحالة الضابط العسكري الفرنسي "دومينيك فارال" دهشته من شجاعة "عباس لغرور" ونجاحه العسكري، على الرغم من كل الاتهامات التي ساقها ضده. فقد برهن "عباس لغرور" مرة أخرى أنه «لا يتردد عن مجابهة القوات الفرنسية النظامية، ولقد ناور بكفاءة فائقة وكان في إمكانه إلحاق خسائر فادحة في صفوف المرتزقة كما تمكن من الإفلات بمهارة من وضعية حرجة.»<sup>1</sup> إن اعتراف "فارال" بكفاءة "عباس لغرور" القتالية في أكثر من مناسبة صورة إيجابية مشرفة تضاف لسجل البطل الحافل بالإنجازات. فعلى الرغم من قلة المؤونة والأسلحة عند الثوار الذين انتفضوا ضد فرنسا إلا أنهم حققوا نتائج مبهرة على الأرض حتى صار العدو يحسب لهم ألف حساب.

كما يصور الرحالة "دومينيك فارال" البطل "عباس لغرور" في صورة القائد المحنك الذي يمتلك خبرة عسكرية أهلته لإرياك الجيش الفرنسي، حيث طبق "عباس لغرور" «أحدث التقنيات المعروفة في حرب العصابات ولقد برهن على امتلاكه موهبة عسكرية فذة بالرغم من أنه هزم في آخر المطاف، وذلك لأن أساليب الرد والمجابهة كانت متوفرة ولئن لم يكن التحكم فيها أمرا هينا.»<sup>2</sup> إن ما أورده الضابط عن الشهيد "عباس لغرور" يعد اعترافا بالموهبة العسكرية للبطل، فعلى الرغم من صعوبة تطبيق تقنية حرب العصابات في الجبال والمناطق ذات التضاريس الوعرة إلا أن "عباس لغرور" قد نجح إلى حد بعيد في تطبيقها بجبال الأوراس وهذا بشهادة ألد أعداءه.

يشرح الرحالة خطة أو إستراتيجية رفاق "عباس لغرور" في القتال قائلا: «حين تشعر إحدى المجموعات المتمردة بأنها على وشك أن يكشف أمرها فإنها تبادر إلى إخفاء أسلحتها وتفترق عناصرها في شتى الاتجاهات. ثم بعد ذلك يظهرون بين المدنيين فيتوزعون بين شتى المخيمات ولا يكونون عرضة للشاوية أبدا إما لأن الشاوية يؤيدونهم أو يخشونهم.»<sup>3</sup> إن الصورة الإيجابية التي نقلها الرحالة اعترافا بتحكم رفاق "عباس

1. دومينيك فارال. معركة جبال النمامشة 1954 - 1962، ص: 124

2. المرجع نفسه، ص: 16

3. المرجع نفسه، ص: 87

لغرور" في حرب العصابات التي تستدعي الكثير من الفطنة والسرعة، فمهما كانت شجاعة الجزائري، فإنه يحتاج إلى كثير من التخطيط حتى يتمكن من مواجهة الجيش الفرنسي الذي يفوقه عدداً وعدة. أما فيما تعلق باختلاط الثوار بين المدنيين عند الإحساس بالخطر، فإنه يدل على الثقة المتبادلة بين أبناء المنطقة مما يلغي الخيانة باعتبارها أمراً مرفوضاً وخلقاً مذموماً لذلك لا يمكن تفسير امتناع السكان عن خيانة إخوانهم خوفاً منهم.

يؤكد ما سبق "جون بول سارتر" في كتابه "عارنا في الجزائر" إلى الثقة المتبادلة بين الثوار الجزائريين والشعب قائلًا: «وفي الجزائر، انتشر جيشنا في كل بقعة فيها: فنحن نملك الجنود والسلاح والمال، أما الثوار فلا شيء يملكونه إلا الثقة وتأييد الشعب لهم.»<sup>1</sup> إن ما أورده "جون بول سارتر" حول العلاقة المتينة المبنية على الثقة بين الثوار وبقية أبناء الشعب الجزائري ينفي كل الإدعاءات الفرنسية التي تصف جنود جيش التحرير الوطني على أنهم مجموعة من قطاع الطرق الذين يرهبون الشعب ويعاملونه بقسوة حتى يسمح لهم الشعب بالاختباء بينه وتزويده بالمؤونة.

### 2.6.2. صورة القائد الديكتاتوري

يُجسد الرحالة -الضابط الفرنسي- "دومينيك فارال" "عباس لغرور" في صورة العسكري الديكتاتوري معتبرا الانجازات التي حققها بفضل مهارته الفائقة في تقنيات الحرب الثورية وما تعلق بها من مناورات عسكرية «كانت تحمل في طياتها بذور الفشل، ذلك أن البربر كانوا يتحملون على مضض كل أشكال الجور والقهر وكانوا يضيقون ذرعا بتلك الدكتاتورية الثقيلة الوطأة.»<sup>2</sup> يحاول "دومينيك فارال" كغيره من الضابط الفرنسيين تشويه صورة "عباس لغرور" الذي يعد من أهم أبطال منطقة الأوراس خاصة وأن الضابط يتهمه بممارسة القهر والجور على سكان المنطقة (البربر) كأن "دومينيك" قد نسي أن "عباس لغرور" واحد من أبناءهم، فقد توارث الأوروبيون هذه الصورة السوداوية عن الآخر البربري عن أجدادهم اليونانيين، فالعالم البربري بالنسبة للفيلسوف اليوناني "إكزينوفون" (Xenophon) - على سبيل التمثيل - «واسع ومتنوع، إقطاعي وقديم، وقبلي ومتوحش،

1. جون بول سارتر. عارنا في الجزائر. تر: عائدة إدريس، سهيل إدريس، ص: 53

2. دومينيك فارال. معركة جبال النمامشة 1954 - 1962، ص: 97

بينما العالم اليوناني محكم وموحد بحدود البحر، ومتماثل بصفة أساسية في مقاربتة الحياة. وكان البربر في المعتقد أن البربر هم بالطبيعة عبيد، وأن الأساليب البربرية غير مقبولة كليا لليونانيين المتمدينين.<sup>1</sup> لولا تلاحم البربر مع الثوار ومساندتهم لهم لما شهدت المنطقة أعنف المعارك، فتصريحات العسكري الفرنسي تحمل بين ثناياها الكثير من التناقض، فقد صرح بأن خيانة قادة الثورة هنا تكاد تكون منعدمة. لذلك أرى في اتهام الضابط "عباس لغرور" بالديكتاتورية محاولة تشويه فاشلة غايتها التعظيم على انجازاته العسكرية.

يُصر الضابط الفرنسي على تشويه صورة رفاق "عباس لغرور" واصفا إياهم بالديكتاتوريين، إذ يتهم رفاق "عباس لغرور" - الذين لا يعلم أي كان مكانهم - بتهريب السكان ذلك أن «كل من يقدم معلومات عنهم يخشى على نفسه من انتقامهم، فكل من لا يمثل لأوامرهم جزاؤه الموت ذبحا، وتلك مية فظيعة، أو التتكيل بجسده أو دفع غرامة أو اختطاف بعض نساء عائلته.»<sup>2</sup> إن هذه الاتهامات المغرضة التي ينسبها الضابط الفرنسي لرفاق "عباس لغرور" إنما تهدف في مجملها إلى تشويه صورة المجاهدين، فاتهمهم بذبح معارضيتهم والتتكيل بأجسادهم يظهرهم في هيئة وحوش تفترس كل من يعترض طريقها. فضلا عن ذلك فإن الدين الإسلامي يحرم التتكيل بجثث الموتى، فمن أين استقى "فارال" هذه الرواية؟

### 7.2. صورة المجاهدين

تعج متون الرحلة الأوروبية بصور المقاومين الجزائريين، هذه الصور التي لم تسلم من التشويه لاعتبارات عدة؛ أهمها تبني الرحالة الفكر الاستعماري، أو إنتماء مدون الرحلة للجيش الفرنسي، على غرار القادة العسكريين والأسرى على اختلاف جنسياتهم. ومن الصور السلبية الرائجة أذكر:

1. الطاهر لبيب. صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2008، ص:

2. دومينيك فارال. معركة جبال النمامشة 1954 - 1962. تر: مسعود حاج مسعود، ص: 86-87

1.7.2. صورة المجاهد الوحشي

يتهم الرحالة " دومينيك فارال " المجاهدين الجزائريين بتعذيب أسراهم من الفرنسيين بأبشع الطرق والإساءة لجثثهم، إذ يصف المجاهدين بالمتمردين الذين «يلجؤون إلى تعذيب أسراهم واستنطاقهم بطرق أشنع من الكي بالكهرباء، بل هي أقرب إلى الممارسات التي كانت سائدة في العصور الوسطى ومن ذلك مثلا: الذبح وبقر البطون والتتكيل بالأجساد وخصي الرجال، وما إلى ذلك من الأساليب التي لم يكن الغرض منها انتزاع المعلومات بقدر ترهيب الخصوم. ولهذا السبب كان جنودنا يفضلون الانتحار على الوقوع في الأسر.»<sup>1</sup> إن ما أورده العسكري الفرنسي ما هو إلا جزء من حملات التشويه التي خاضها المستعمر ضد الجزائريين، فأساليب التعذيب التي يزعم الضابط أن المجاهدين يستعملونها من أجل استجواب الأسرى الأوروبيين، إنما هي وسائل تعذيب فرنسية قد قامت الحكومة الفرنسية بتشريعيها لضباطها بطريقة سرية وهذا بشهادة الجنرال السفاح "بول أوساريس" في كتابه (شهادتي حول التعذيب في الجزائر). كما تجدر الإشارة إلى أمر مهم، وهو حث الدين الإسلامي على حسن معاملة الأسير بغض النظر عن دينه وجنسه. فالإساءة للأسرى بالطريقة التي تحدث عنها الضابط تعني الإساءة لتعاليم الدين الإسلامي الذي يدعو إلى الرحمة بالآخرين وحسن معاملتهم.

يحاول الرحالة " دومينيك فارال " - في مقابل ذلك - تلميع صورة الجيش الفرنسي بتتزيهه عن اغتصاب الجزائريات، حيث يصر على أن الجند الفرنسيين لا يمكنهم أن يقوموا بمثل هذه السلوكات وإن حدثت، فإنها تعد فردية يمكن عدها على الأصابع ذلك أن حياتهم في الجزائر «أقرب إلى حياة التقشف والرهينة.»<sup>2</sup> إن وصف الضابط الفرنسي حياة الجيش الفرنسي في الجزائر بحياة الرهينة مجرد افتراء، فقد وصفهم الأمير "بوكلر موسكاو" بغير المتدينين.<sup>3</sup> أما فيما تعلق باغتصاب النساء، فقد مارس الجند الفرنسيون هذه التصرفات الجبانة في كثير من القرى بعد قتلهم للرجال، فاغتصاب

1. المرجع السابق، ص: 189

2. المرجع نفسه، ص: 191

3. للتوسع ينظر: أبو القاسم سعد الله. تجارب في الأدب والرحلة. ص: 286

الجزائريات قد أورده المؤرخ والعسكري الفرنسي "هنري بويو" (Henri B) في كتابه "بناية سوزيني".<sup>1</sup>

ويستعين الرحالة ببعض الإحصائيات لينقل صورة إيجابية عن الجيش الفرنسي مقابل الصورة المشوهة للمجاهدين، فيرى أن عدد الجزائريين الذين انضموا للجيش الفرنسي الذي كان قرابة ثلثه «يتكون من المسلمين الجزائريين... فلو كان الجيش الفرنسي يغتصب النساء لما تمكن من حشد هذا العدد الهائل من الجزائريين في صفوفه.»<sup>2</sup> لا يمكننا إنكار التحاق الآلاف من الشباب الجزائريين بالجيش الفرنسي، هذا الالتحاق الذي تنوعت أسبابه، ففي البداية كان بشكل تطوعي مقابل مبالغ زهيدة نظرا لسوء أحوالهم المادية، ثم سرعان ما عجلت الحكومة الفرنسية بمرسوم 03 فبراير 1912 الذي يفرض على الجزائريين الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي نظرا لتزايد حاجة فرنسا إلى تدعيم قواتها العسكرية المتوزعة في الكثير من المناطق. غير أن عدد الجزائريين قد تزايد أثناء الحرب العالمية الثانية بعد أن وعدتهم فرنسا بالاستقلال مقابل مساعدتها في حربها ضد الألمان وهناك أبهر الجزائريون العالم بشجاعتهم.

### 2.7.2. صورة المجاهد الشبقي

يحاول الرحالة "دومينيك فارال" الإساءة مجددا للمجاهدين وتشويه صورتهم مستثمرا إحدى الصور النمطية السائدة في أوروبا عن الشرق والتي تهدف في مجملها إلى إظهار الآخر الشرقي في صورة الشبقي الذي تتحكم نزواته الجنسية في طباعه وسلوكاته، حيث يتهم "دومينيك" المجاهدين بفرض زواج المتعة بالقوة قائلا: «في المقابل كان عدد حالات الزواج المؤقت المفروضة بالقوة من طرف المتمردين أكثر عددا مما دفع عددا كبيرا من المسلمين إلى الانخراط في صفوف الجيش الفرنسي بسبب سخطهم ونقمتهم على تصرفات المتمردين.»<sup>3</sup> إن الضابط يحاول تشبيه الشعب الجزائري السني بالشيعة

1. للتوسع ينظر: عبد الغني بلقيروس. «اغتصاب الجزائريات من قبل الجنود الفرنسيين والحركى أثناء الثورة». جريدة الحياة، العدد: 584، 2015.10.31.

2. دومينيك فارال. معركة جبال النمامشة 1954 - 1962، تر: مسعود حاج مسعود، ص: 191

3. المرجع نفسه، ص: 192

الذين يستباحون زواج المتعة أو ما يصطلح عليه الآن جهاد النكاح، فاتهم المجاهدين بهذه السلوكات -التي لا تيمت بصلة للدين الإسلامي ولا لعادات وتقاليد المجتمع الجزائري المحافظ- يعدّ تشويها لأخلاق وعفة الجزائريين. أما عن الذين يزعم أنهم انخرطوا في صفوف الجيش الفرنسي بسبب سخطهم على تصرفات المجاهدين، فلا شك أنهم من الحركى الذين باعوا وطنهم وإخوانهم.

### 3.7.2. صورة المجاهد اللاواعي

يسرد الرحالة الجنرال "بول أوساريس" أحداث إحدى المعارك التي دارت في الشمال القسنطيني، حيث يصف تصرفات المجاهدين بغير المعقولة لأنهم كلما «سقط أحد "الفلاقة" واصل رفاقه طريقهم دون اهتمام به، وبدل أن يسعوا لحماية أنفسهم أو اللوذ بالفرار، كان يبدو عليهم أن لا يهتمهم كل ما يجري. وفي الشوارع المتاخمة تم استقبالهم بالرشاشات، ورغم ذلك لم يتقهقر أحد منهم، ولهذا السبب كانت حصيلة خسائرهم ثقيلة.»<sup>1</sup> تضمّر هذه الصورة التاريخية شجاعة المجاهدين وهم يقتحمون المعارك دون شعور بالخوف من الموت، فعلى الرغم من تصوير المجاهدين بعديمي الإنسانية وهم يتخلون عن زملائهم الجرحى -حسب - إلا أنه لم يستطع مغالبة كبريائه على الاعتراف بشجاعة الجزائري في خوض المعارك. فتفكير المجاهدين زمن الحرب ينصب فقط في قضية واحدة وهي الحرية مهما كانت النتائج.

لكن الرحالة يفسر شجاعة المجاهدين وإقدامهم في المعارك بما يستمدونه من تعاطي الحشيش لتشويه صورتهم واستبعادهم عن روح الشجاعة المستمدة من روح الانتماء للوطن والرغبة في تحريره معتبرا أن «أغلبية المهاجمين تحت تأثير تخدير "الكيف" الذي قدم لهم ليدخنوه، وهذا ما يفسر سبب لامبالاتهم عندما نطلق النار عليهم.»<sup>2</sup> على الرغم من مضي ما يزيد عن نصف قرن على استقلال الجزائر إلا أن الجنرال "بول أوساريس" -كغيره من الجنرالات الفرنسيين- لا يزال مصرا على تشويه

1. الجنرال أوساريس. شهادتي حول التعذيب (مصالح الخاصة الجزائر: 1957-1959). تر: مصطفى فرحات،

ص: 48

2. المرجع نفسه، ص: 50

صورة المجاهدين وقادتهم، ثم إن تفسير الجنرال لشجاعة الجزائري في القتال ومواجهته للموت بتناوله للحشيش "الكيف" يعد طعنا في أخلاق المجاهدين وانتقاصا من رجولتهم وكذا ثورتهم التي ألهمت العالمين.

يتهم "أوساريس" الجزائريين بالاعتداء على جيرانهم المعمرين مقابل أن تزودهم الجبهة بالخمير قائلا: «وكان الأغرّب في ذلك أن الفاعلين هم جيرانهم من المسلمين الذين كانوا يعيشون معهم في انسجام إلى غاية ذلك الحادث، حيث قامت جبهة التحرير بتزويدهم بالخمير والمخدرات، وحثتهم على سرقة منازل العمال من "الأقدام السوداء".»<sup>1</sup> إن وصف الجنرال للشعب الجزائري المسلم بمدمن الخمر واتهامه بتنفيذ عمليات للجبهة التحرير مقابل الحصول على بعض زجاجات الخمر أمر غريب جدا، فالمجاهد المغيب عن الوعي لا يمكن أن يحمل هموم وطنه ويكون مسؤولا عن الدفاع عنه وهو مالا ينطبق على المجاهد الجزائري، لذلك فتشكيل هذه الصورة السلبية محاولة يائسة للانتقام من الشعب بتشويه صورته واتهامه بسرقة منازل المعمرين. زاعما أن الجزائريين يعيشون بين أحضان المعمرين بسلام في محاولة لذر الرماد في عيون الرأي العام، فلا يمكن أن يعيش الجزائريون مع الأقدام السوداء الذين سلبوا الجزائريين أراضيهم ومنازلهم وكل أملاكهم وجعلوهم يعملون في أراضيهم كعبيد القرون الوسطى!

### 8.2. صورة الفرنسي المنبوذ

يكشف الأسير الألماني "شلوفر" عن صورة الفرنسي المنبوذ لدى الجزائريين إذ ينقل عبر نصه الرحلي مدى كراهية الجزائريين للنصارى هذه الكراهية التي عبر عنها الشعب بوابل من الشتائم، فكلما مرت قافلة الأسرى التي تقله بقرية «يهتف أحدهم: نصارى، ومن الفرنسيين! اقطعوا رؤوسهم! اذبحوهم! ويهجمون علينا بكل ما تصل إليه أيدهم من هرواي، ومناجل وخناجر وسيوف لقضوا علينا، ولم ننح منهم إلا بفضل جشع الحراس الذين كانوا يأملون في الحصول على مكافأة مالية كبيرة من الباي نظير تسليمنا إليه.»<sup>2</sup> تظهر هذه الصورة حجم الحقد والكراهية التي يكنها الجزائريون للمستعمر الفرنسي

1. المرجع السابق، ص: 53

2. فنديلين شلوفر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 24

حتى صار الجزائري لا يميز بين جنسيات هؤلاء الأجانب، ففي نظره كل أجنبي فرنسي يستحق الموت. وهي صورة واقعية فرضها الاستعمار حيث إن جرائم فرنسا في حق الجزائريين تجاوزت حدود الإنسانية، لذلك لا نستغرب ردة الفعل هذه اتجاه العدو. فرنسا التي احتلت الجزائر منذ أكثر من قرن «لم يكد يقع طوال هذه المدة أي زواج مختلط أو تتحقق أية مودة فرنسية إسلامية اعتقاداً منه أن مصلحة المستعمرين هي محور الشخصية الجزائرية من أجل فرنسا. فكانوا مؤمنين بالجزائر وتقدمها والإبقاء عليها لعملاؤهم -تحذوهم مصالحهم الخاصة- على الاهتمام بالتنمية الاقتصادية والثقافة في الجزائر.»<sup>1</sup> إن السياسة الاستعمارية التي انتهجتها فرنسا في الجزائر قد زادت في حجم الهوة بين أصحاب الأرض وبين الفرنسيين، ففرنسا لم تحترم الجزائري باعتباره صاحب الأرض، وتجاوزت خصوصياته ومكونات هويته بسعيها إلى محو الشخصية الجزائرية؛ مما أوجع الحرب بين الطرفين.

لم تكن الرغبة في الانتقام من الفرنسيين مقتصرة على الرجل الجزائري فقط، فالمرأة الجزائرية كان لها نصيب كبير. فما كاد الناس يسمعون بمرور قافة الأسرى المسحيين عبر إحدى القرى «حتى خرجت النسوة، وهن نصف عرايا، من جميع الأكواخ، وهجمن علينا بالمناجل والخناجر. ومن حسن حظنا أن أزواجهن لم يكونوا في البيت، فقد كانوا يحصدون القمح في مكان بعيد عن مساكنهم. فإذا كانت النساء اللواتي يوصفن عادة بأنهن أكثر حناناً من الرجال في هذه الدرجة من القسوة فكيف سيكون رجالهن إذن؟ لقد كن يطالبن برؤسنا في غضب شديد وإذا هن لم يمكن من ذلك فإنهن سيهاجمن الحراس.»<sup>2</sup> لقد جرد الانتقام المرأة الجزائرية من أنوثتها، فلم يعد هناك شيء أهم من أخذ الثأر من الفرنسيين الذين اغتصبوا الكثير من النساء وقتلوهن، فعلى الرغم من إساءة المشهد للأنوثة إلا أنه يظهر مدى شجاعة المرأة الجزائرية وإقدامها.

بينما يتحدث الجغرافي البلجيكي "جيل لوكليرك" عن وابل الشتائم الذي لحقه من صغار قرية بومدين بنواحي "تلمسان" قائلاً: «توجد قبل المدرسة مقهى مغربية حيث

1. جون بول سارتر. عارنا في الجزائر. تر: عايدة وسهيل إدريس، ص: 24

2. فنديلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 24

وجدت جماعة من العرب مفعمة بالطابع المحلي. من هناك نشرف على بادية تلمسان الرائعة بحزامها الجبلي الضبابي. بينما كنت أعجب بهذه اللوحة التي لا يوصف جمالها، كان خلاسيون صغار يرمونني بالعربية بوابل من الشتائم. فيما مضى كان سكان بومدين يقتلون المسحيين؛ أما اليوم فيكتفون بسبهم.<sup>1</sup> إن ما لقيه الرحالة من شتائم نراه أمرا طبيعيا فالحملة الفرنسية على الجزائر لا تختلف عن الحملات الصليبية التي شنتها الكنيسة على المسلمين سابقا؛ لذلك تغيرت معاملة الجزائريين للنصارى.

يشير الرحالة الجاسوس الفرنسي أدريان بير بروجير " إلى المضايقات التي تعرض لها الوفد المتوجه نحو الأمير "عبد القادر" من قبل الأهالي قائلا: «وجه الأهالي إلينا الشتائم من أعالي الجبل، وكان بعضهم وهم مسلحون بالبنادق، ينزلون من الجبل إلى أن يصبحوا بالقرب منا، ولكن رؤيتهم لمرافقينا كانت تمنعهم من التعبير عن مشاعرهم المعادية بأكثر من الكلام.»<sup>2</sup> لا يختلف اثنان في سبب الحقد والكراهية التي يكنها الجزائري للأجانب بسبب ما سلطت فرنسا على الجزائريين من معاناة وحرمان، فلولا حماية الوفد من قبل مرافقي الأمير "عبد القادر" لتمكن الأهالي من التعرض لهم.

كما يصف "أدريان بير بروجير استقبال الأهالي بالفاتر نظرا للعداوة الدينية والسياسية حسبه، فأثناء مرورهم بإحدى القرى أظهر سكانها كثيرا من الاندهاش من مظهرهم في حين «كان بعض الرعاة يوجهون إلينا من أعالي الجبال عبارات الإهانة، ولاسيما عبارة "طحانين" التي لا تضرن كثيرا ما دما جميعا عزابا.»<sup>3</sup> نستنتج أن استقبال الأهالي الفاتر لم يكن أبدا لسبب ديني مثلما أشار الرحالة، بل بسبب الصراع الموجود على الأرض بين الغزاة والأهالي. ولا بد من الإشارة أيضا إلى وجود صورة نمطية في ثقافة المشرق عن الغرب الذي يعتبره «هو القوة والسيطرة والتحكم، وهو العدو الاستعماري الذي جاء ليهمن ويستحوذ وسيطر على البلاد والعباد ويسرق الثورات، إنه الغرب المنحل المادي، ذو الحضارة المادية المزيفة أمام حضارة الشرق الروحانية، أسرته منحلة وامراته

1. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة

الطاهر لكنيزي، ص: 155

2. أدريان بير بروجير. مع الأمير عبد القادر. تر: أبو القاسم سعد الله، ص: 40

3. المرجع نفسه، ص: 27

لاهية.<sup>1</sup> إن علاقة الشرق والغرب مبنية على التنافر منذ أمد بعيد أنتجت الكثير من الصور النمطية المخالفة للحقيقة في أغلب الأحيان.

لم يكن الجزائريون بسبب الوفد بعارة "طحانين" فقط فالجماهير التي تزاومت على الوفد «لم تلبث أن رمتهم بالأوصاف الجارحة وقد ذهبت الوقاحة ببعضهم إلى حد البصق في الأرض وهم ينظرون إلينا، وهو ما يعتبر عندهم قمة الإهانة.»<sup>2</sup> إن استعانة الجزائريين بالألفاظ النابية إنما هو تصريح بالمقت، والعداوة للغزاة الذين احتلوا البلد، فالأهالي صرحوا للقائد الفرنسي بأنهم كانوا سيقتلونهم لولا تواجد مرافقي الأمير معهم في قرية (فليسة الجبل).

يعزو الأسير الألماني "شلوصر" قسوة الأهالي وسفالتهم إلى دينهم الذي «يأمرهم بمطاردة النصرى ومحاولة إبادتهم.»<sup>3</sup> إن ما جاء به "شلوصر" يهدف إلى تشويه صورة الإسلام بالاستثمار في مطاردة الجزائريين المسلمين للفرنسيين (النصرى)، حيث يحاول الأسير الألماني تصوير المعارك التي تجري على أرض الجزائر على أنها حرب يقودها المسلمون ضد النصرى، وكأن الرحالة نسي أنها حرب بين شرفاء يدافعون عن وطنهم ولهم الحق في مطاردة المستعمر أينما وجد، ومع ذلك فإنه من الموضوعية الإشارة إلى أن «العلاقة بين الإسلام والغرب لم تعرف قديما ولا حديثا سوى توترات والاحتكام إلى منطق الأحكام المسبقة والتصورات البائسة لتغذية هذا التناكر المتبادل والرؤى التنبؤية... تَنَعَّتْ الرقعة الجغرافية والتاريخية للإسلام بالخطر المحقق بماهية ووجود الغرب.»<sup>4</sup> بناء على ما سبق لابد من القول؛ إن التوترات القائمة بين الغرب والإسلام قد أسهمت في تأجيج الكثير من الحروب وتزييف الكثير من الحقائق، فالصدام الحضاري بين الشرق والغرب الموجود منذ الأزل بين عالمين مختلفين هو ما صاغ هذه الهوة العميقة. فضلا عن ذلك فإن تشكيل صورة الفرنسي المنبوذ لدى الجزائريين كانت - إلى جانب ماسبق ذكره- انطلاقا من موقفهم من الاستعمار.

1. حسين العودات. الآخر في الثقافة العربية (من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين). ص: 243

2. أدريان بير بروجير. مع الأمير عبد القادر. تر: أبو القاسم سعد الله، ص: 47

3. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 23

4. محمد شوقي الزين. الذات والآخر (تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع). ص: 63

### 3. مجازر 08 ماي 1945 بعيون فرنسية

يصور الضابط الفرنسي "دومينيك فرال" الجزائريين الذين خرجوا في مسيرة 08 ماي 1945 في صورة الهمجيين والمجرمين الذين انتشروا «في أرجاء المدينة وقتلوا قرابة ثلاثين أوروبيا من الجنسين بعد اغتصاب كثير منهم ثم ذبحوهم أو بقروا بطونهم أو انتزعوا أعضائهم التناسلية. اغتال المتظاهرون رئيس البلدية، ذي الاتجاه الاشتراكي، وأصابوا قرابة خمسين أوروبيا بجروح. هاجمت الآلاف المؤلفة من القبائل عددا كبيرا من المراكز السكنية والمزارع المعزولة في نواحي سطيف وبجاية وجيجل. واتسعت رقعة الشغب إلى غاية مدينة قالمة. اعتصم السكان الأوروبيون في ضيعاتهم ومزارعهم المحاصرة وراح المسلمون المناصرون للفرنسيين يؤازرونهم ويقاثلون إلى جانبهم. ارتكب بعض المتمردين مجازر رهيبة وتفننوا في التتكيل ببعض حراس الغابات المسلمين والأوروبيين وعائلاتهم وجميع من وجدوه في المزارع التي اجتاحتها»<sup>1</sup> إن أول نقطة يمكن رصدها من خلال قراءة هذه الأسطر هو تهرب الضابط الفرنسي من ذكر سبب خروج المتظاهرين إلى الشارع؛ ألم يخرجوا لمطالبة فرنسا بالوفاء بوعدتها الذي قطعتة للجزائريين؟ -الذين جندهم لمجابهة النازية- حيث يتهم المتظاهرين بأنهم اعتدوا على المعمرين بوحشية كبيرة بعد اغتصابهم وهذا ما يعد أقصى درجات تزيف الحقيقة التي لا تمت بصلة لما جاءت به مختلف المصادر التاريخية على اختلاف توجهاتها الإيديولوجية.<sup>2</sup>

إن خروج الجزائريين بالآلاف للمشاركة في مظاهرات الثامن ماي يدل على نمو الوعي السياسي ونجاح مختلف الأحزاب السياسية وكذا الحركات الوطنية في توعية الشعب. كذلك فإن القائمين على تنظيم هذه المظاهرات حرصوا على تجريد الشعب من مختلف الأسلحة حتى تحظى هذه المظاهرة بالطابع السلمي، وهذا ما ورد في شهادة أحد المشاركين في المسيرة بسطيف الذي يقول: «أنه اجتمع حوالي 10.000 متظاهر أمام المسجد، فسلموا مطارقهم قبل الانطلاق»<sup>3</sup> إن هذه الشهادة تؤكد حرص الجهات المنظمة

1. دومينيك فرال. معركة جبال النمامشة 1954 - 1962. تر: مسعود حاج مسعود، ص: 61

2. للتوسع ينظر: عامر رخيلة. 08 ماي 1945 المنعطف الحاسم في مسار الحركة الوطنية. ديوان المطبوعات

الجامعية، بن عكنون، ص: 70

3. المرجع نفسه، ص: 64

لهذه المسيرة على الطابع السلمي والحضاري، وهذا ما يفند الادعاءات التي جاء بها الضابط الفرنسي "دومينيك فارال".

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تحافظ المظاهرات على طابعها السلمي مادامت الشرطة الفرنسية تتحرش بالمتظاهرين وقتلت منهم الكثير ممن يحملون الرايات الوطنية، فمقابلة الشرطة الفرنسية المظاهرة السلمية بالعنف زاد من احتقان الوضع، فدفق بالبعض إلى الشغب وربما قتل بعض الأوروبيين. ومع ذلك يجب القول مهما كانت الأخطاء المرتكبة من قبل المتظاهرين، -الذين استفزتهم الشرطة الفرنسية- لا ترقى إلى حجم الجرائم التي ارتكبتها المستعمر الفرنسي في ذات اليوم. هذه الجرائم التي كانت موضوعا للمناقشات التي جرت في الجمعية الاستشارية الفرنسية، فقد ورد في الجريدة الرسمية الفرنسية في عدديها الصادرين في يومي 11 و12 جويلية 1945 أن «الانتقام كان فظيحا، فقتل بعض الأوروبيين أدى إلى إعدام جماعات من المسلمين بمجرد الشك فيهم»<sup>1</sup> إن ما ورد في الجريدة الرسمية الفرنسية يُبين حجم الجرائم التي ارتكبت في ذلك اليوم، فالانتقام كان عنيفا جدا على الجزائريين العزل الذين خرجوا للمطالبة بحقهم في تقرير المصير مثلما وعدتهم فرنسا ذات يوم. وبالتالي كانت الصورة المشوهة التي نقلها الرحالة عن موقف الفرنسيين من مجازر 8 ماي 45 بعيدة عن واقعية الأحداث وموضوعيتها، إذ يتضح تحيزه للاستعمار الفرنسي.

#### 4. جبهة التحرير الوطنية في نظر الفرنسيين

كانت الثورات والانتفاضات الشعبية التي قام بها الجزائريون منذ سنة 1830 بمثابة شوكة في حلق المستعمر الفرنسي الذي ظن أن المعركة على الأرض انتهت بمجرد نزول قواته في شواطئ "سيدي فرج" لكنه سرعان ما اصطدم بثورات عنيفة في كل مكان، فراح يصفها بثورات الجوع في محاولة لمرأوغه الرأي العام وثني الثوار عن هدفهم بضرب معنوياتهم.

1. المرجع السابق، ص: 81

يصف الرحالة الجنرال "بول أوساريس" جبهة التحرير الوطني بالمنظمة الإرهابية التي اكتسبت نفوذها وشعبيتها بممارسة الضغط على الشعب وتهديده. ولا يخفي الجنرال عجز الشرطة الفرنسية على التعامل مع الثورة الجزائرية، مما زرع الخوف في نفوس الفرنسيين خاصة مع تزايد الاهتمام العالمي بالقضية الجزائرية. معتبرا الشرطة الفرنسية لم تكن «مهيأة لمثل هذا النوع من المهمات، ولم تكن حتى الإطارات العسكرية مدربة أيضا على هذا النوع من الحرب، أين نجد جيشا كلاسيكيا يجابه ويواجه حركة تمرد مصدر نموها وبقائها متعلق بمدى اختلاطها بالمدينين وإقحامهم في كفاحها عن طريق الدعاية والإرهاب والتخويف.»<sup>1</sup> إن إقرار الجنرال "بول أوساريس" بعجز الشرطة والجيش الفرنسي عن صد الهجمات التي كانت تنفذها جبهة التحرير في مختلف الولايات ينم عن مدى جاهزية وتنظيم الجبهة من الناحية العسكرية، فاستتجد الحكومة الفرنسية بالأجهزة الخاصة (الاستخبارات) من أجل إلقاء القبض على قادة الجبهة ومحاولة إفشال مخططاتها يعني أن الجبهة قد أرقت الفرنسيين كثيرا وقطعت شوطا طويلا من الجاهزية.

أما عن وصف "بول أوساريس" الجبهة بممارسة الإرهاب على الشعب من أجل احتضان عملياتها إنما هو مجرد حرب إعلامية تسعى القوى الاستعمارية من ورائها إلى تشويه صورة المقاومين والثوار الذين ثاروا من أجل قضية وطنية وإتهامهم بالإرهاب من أجل ضرب إلتفاف الشعب حولهم، فقادة الجبهة من عامة الشعب وهم أبناءه وهذا سبب كافٍ لاختلاطهم بالشعب، فالثورة يحتضنها الشعب لأنه يدرك أن مصيره ومستقبله مرهون بمدى نجاح ثورته وهذا ما حدث في الجزائر فعلا.

يرى الرحالة أن جبهة التحرير بسطت نفوذها على منطقة الأوراس وقسنطينة وكسبت تأييد السكان بعد أن «فرضت نظاما من الخوف والإرهاب كان موجها بالأساس لدفع السلطات الفرنسية نحو القمع ومن ثم النجاح في كسب تأييد الجماهير المترقبة لقضية التحرير هذه.»<sup>2</sup> يبدو الجنرال مصرا على اتهام الجبهة بممارسة العنف والإرهاب

1. الجنرال أوساريس. شهادتي حول التعذيب (مصالح الخاصة الجزائر: 1957-1959). تر: مصطفى فرحات،

ص: 22

2. المرجع نفسه، ص: 39

على الجزائريين وأن الهدف من وراء عملياتها استنزاز فرنسا لتقوم بعمليات قمع وحشية تكسب الجبهة من وراءها التعاطف الشعبي والعالمي، وكأن الرحالة الجنرال الذي عذب وقتل بيديه الآلاف لا يعلم أن مجازر فرنسا قد فاقت كل التصورات قبل ميلاد جبهة التحرير الوطنية في نوفمبر 1954 !

أخيرا لابد من القول، إن النصوص الرحلية- نماذج الدراسة- قد ساهمت في الكشف عن صور مختلفة للتعددية الإثنية في الجزائر، حيث صور الرحالة العرقين الأمازيغي والعربي في صور متباينة تراوحت بين الإيجابية والسلبية غير الموضوعية والتي كثيرا ما بناها الرحالة الفرنسيون -على وجه الخصوص- على مبررات غير منطقية، تخضع في مجملها إلى رؤية استعمارية مستفزة لكل ما هو محلي. وهذا ما يبدو جليا في التزييف الذي ألحقه ببعض المحطات المهمة من تاريخ الجزائر. فالرحالة الفرنسيون حاولوا تشويه صورة قادة المقاومات الشعبية وكذا الثورة التحريرية واصفين ثوراتهم وانتفاضاتهم مجرد حرب عصابات ولصوص يسرقون صوامع القمح، وهذا يدل على دعم هذه الفئة من الرحالة للرؤية الإمبريالية، حيث صوروا الجزائريين في صورة البربريين الهمج انطلقا من مقاومتهم الشرسة للمستعمر الفرنسي، وهذا ما يدفعني إلى اعتبارها مجرد صور نمطية توارثتها أوروبا عن روما الاستعمارية. إن التحيز للاستعمار الفرنسي بدا واضحا في حجم التدليس الذي مس الصورة التاريخية للجزائر. قبل الرحالة -نماذج الدراسة- يكشف عن دعمهم الشديد للسياسة الاستعمارية الفرنسية، القائمة أساسا على الاحتلال وإقصاء الآخر من كل النواحي. وقد كان لهذا الاستعمار والإقصاء تبعات كبيرة ألقت بظلالها على الساحة الشعبية الجزائرية. إذ قوبلت بالرفض الشديد ومقاومات كثيرة أثبت فيها الجزائريون للعالم مدى تعلقهم بأرضهم. وهذا بشهادة الكثير من القادة العسكريين الفرنسيين الذين عبروا عن إندهاشهم من شجاعة واستماتة الجزائري في الدفاع عن وطنه بأبسط الأسلحة. فالصور المشوهة للتاريخ الجزائري والثورة التحريرية وقادتها كانت نتيجة تحيز الرحالة للاستعمار بحكم انتمائهم لفرنسا، تماما كما تشكلت صورة الفرنسي المنبوذ من طرف الجزائري انطلقا من موقفهم من الاستعمار. ولعل صياغة

## الفصل الثالث: صورة الجزائر الإثنية والتاريخية

---

مثل هذه الصور نتج أساسا عن الصدام الحضاري بين الشرق والغرب الذي وُلد هوة عميقة بين هذين العالمين.

# الفصل الرابع

## صورة الجزائر الجغرافية والعمرانية

أولاً: صورة مدن الشمال

ثانياً: صورة مدن الجنوب

ثالثاً: البساتين والواحات

رابعاً: الحيوانات البرية

اهتم الرحالة الأوروبيون بوصف العمران الجزائري لما له من أهمية في إعطاء صورة كاملة عن الجزائر، وقد اعتمد هؤلاء على وصف البنايات والمساجد والشوارع والحمامات ومقارنتها بعمرانهم، بينما فضل البعض وصف بعض المعالم التاريخية والتعليق عليها، وقد اهتم آخرون إلى مقارنة المكونات العمرانية للقرى والمدن والوقوف عند السمات المشتركة. كما أبدوا اهتماما بمواد البناء والتزيين التي يستخدمها الجزائريون في تشييد منازلهم، بينما أفرد البعض جزءاً من رحلاتهم لوصف الطبيعة الجزائرية، فضلا عن الثروة النباتية والحيوانية التي تزخر بها الجزائر وهذا ما سأقف عنده من خلال هذا الفصل.

### أولاً: مدن الشمال

#### 1. صورة مدينة الجزائر

##### 1.1. الطبيعة

شكلت مدينة "الجزائر" بالنسبة لنا الأوروبي المدينة الشرقية الفاتنة، -المختلفة عن المدن الأوروبية- فقد كانت بمثابة السحر الذي لا يقاوم، فلا تخلو رحلة من افتتاح صاحبها بطبيعة المدينة الخلابة. إذ يعبر الأسير الفرنسي "تيدنا" -الذي كان يزور العاصمة من أجل تقديم المحلة للداي- عن إعجابه بمدينة الجزائر التي أقيمت على سفح جبل مما أعطي المدينة منظراً رائعاً جداً، أما ضواحيها فكانت صورة تشرح الصدر بمنظرها المميز وببساتينها ومنازلها الريفية المبنية على منحدر الجبل، والمميز فيها كثيراً هي منازل القناصل الذين يبنون بذوق حديث. على كل حال ليس هناك أجمل من هذه المدينة ولا افتن من الأرياف والتلال الخصبة التابعة لها التي تملأ المنظر بهجة.<sup>1</sup>

أما "سيمون بفايفر"، فيكتفي بوصف مدينة الجزائر من الخارج قائلاً: «تقع مدينة الجزائر فوق جبل، وتمتد منه منحدره إلى الميناء، بحيث إن المياه تلمس الصفوف السفلى

1. ينظر: عميرواي حميدة. الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجاً). ص:

من المنازل، وتتصبب الدور العالية ذات السقوف المسطحة إلى جانب بعضها البعض، وهي مبيضة بالكلس، وتخلع على المدينة من جانب البحر منظرا بديعا ساحرا، فصفوف السطوح ترتفع فوق بعضها بعضا تتخللها القباب والمنارات والقصور. وتتميز المساجد، وقصر الداوي السابق، وثكنات الانكشاريين، ومجموعة من المنازل الخاصة عن بقية البنايات الأخرى، وخاصة القصبة، وهي القلعة ومحل الداوي، التي تقع فوق الجبل في القسم الأعلى من المدينة وتمتد من طرفها إلى الطرف الآخر، وفوقها علم كبير يخفق في كبرياء.<sup>1</sup> لا يخرج الوصف الذي يقدمه "بفايفر" عما جاء به بقية الرحالة الذين زاروا مدينة الجزائر من صور، إذ يتفق الجميع على جمال منظر المدينة على الرغم من ضيق بعض الشوارع واتساخها.

ويرى "سيمون بفايفر" أن الحروب الكثيرة التي خاضتها حامية "الجزائر" لم تؤثر على جمال الطبيعة التي تحيط بها قائلا: «وهناك على جانبي المدينة تلال ووديان وسهول، تتناثر فيها حدائق السفراء الأوروبيين وبيوتهم الفاخرة، التي تهتز فوقها أعلام بلادهم. وهذا بالإضافة إلى عدد لا يحصى من بيوت المتعة التي تطل من البساتين أو حقول البرتقال والزيتون، فتخلع على المنطقة كلها منظرا بالغ الروعة. وتمتد في المؤخرة جبال الأطلس الشام، وبعضها مغطى بالثلوج على الدوام، وهي عبارة عن صفوف طويلة تمتد من الجنوب الشرقي إلى الغرب.»<sup>2</sup> انطلاقا مما جاء به "بفايفر" يمكنني القول إن مدينة الجزائر واحدة من المدن العربية التي سحرت الرحالة الأوروبيين بمناظرها الطبيعية الخلابة، فجبال الأطلس الملتفة حول المدينة كانت بمثابة الحارس الذي يحمي ظهر العاصمة.

في حين يرى الرسام الفرنسي "أ. ليسور" وصديقه الإنجليزي "و.ويلد" أن مدينة "الجزائر" تكتسي «مظهرا أكثر روعة حين ينظر إليها بإنحراف. في طرف بساط من الخضرة مزروع بالصبار والصبر ذي اللون الرمادي المشوب بالأخضر وأشجار التين الملتفة، تغرس المدينة ذات البياض الناصع جدرانها في البحر المتوسط الذي تعكس مياهه النور الباهر عكسا لا نهاية له، ثم تبدو على الدوام شرفاتها ومراميتها المهددة

1. سيمون بفايفر. مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر. تر: أبو العبد دودو، ص: 13

2. المرجع نفسه، ص: 14

وصوامعها التي ترتفع برشاقة فوق المساجد. ومما يلفت النظر بقع ظلال واسعة تبرز الأحياء النائية من خلفية سماء زرقاء قاتمة وبحر ذي لون أزرق. «1 إن تشييد مدينة الجزائر على سفح الجبل الذي يهوي بها إلى البحر قد ألهم أغلب الرحالة الأوروبيين الذين عبروا عن إعجابهم الشديد بصورة المدينة خاصة من بعيد. فالمدينة تبدو كأنها تحتمي بالجبل.

تصف "إيزابيل إيبهرارت" جمال منظر الغروب من ميناء الجزائر قائلة: «أحد تلك الانطباعات اللطيفة جدا هو رؤية المغرب في الميناء، وفي أسطح المدينة العالية حيث الجزائريات المبتهجات، عالم بأكمله يطفو باللون الزهري أو الأخضر على الأبيض المشوب بالزرقاء للأسطح الوعرة وغير المتناسقة... وخليج الجزائر مع خليج بون الأكثر جمالا، وأكثر أماكن البحر إثارة للنشوة اللذيذة والذي لم أر شيئا له أبدا في حياتي. ما أبعدنا عن مرسيليا الكريهة ببشاعتها وحماعتها وفضاظتها وقذارتها المعنوية والمادية! وعلى الرغم من الوحل الذي أقحمته هنا "الحضارة" العاهرة والمتسببة في العهر لا تزال الجزائر بلدا لطيفا، ومن اللطف جدا العيش فيه.»<sup>2</sup> كلما تعمقت في كتابات "إيزابيل إيبهرارت" إلا واكتشفت مدى تعلقها الشديد بالجزائر وإعجابها بالجزائريين، أما عن الصورة الجمالية لميناء الجزائر فقد أجمع عليه أغلب الرحالة الذين زاروا الجزائر. فتباين المناخ والتضاريس شكل الاستثناء في نفوس الرحالة؛ الأمر الذي حفزهم للكتابة والتعبير عن إنبهارهم بطبيعة البلد الساحرة.

أما الرحالة "شارل فيرو" فقد اهتم بتصوير أهم الثروات الطبيعية التي تزخر بها الجزائر والتي يمكن عدها أبرز مسوغ لاحتلال البلد كونه قائدا عسكريا فرنسيا. فيرى أن الجزائر تتوفر على «مناجم الحديد والنحاس، وعلى غابات من شجر الفلين، والزان ومناجم الخشب المتفحم وصيد المرجان والشمع والزيت والحبوب التي تعد معتبرة الآن في أسواق فرنسا، ومع ذلك ما القول في مدينة بالرغم من غياب الأشغال بها فإنها استطاعت

1. أ. ليسور، و. ويلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر. ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة 02

2. إيزابيل إيبهرارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام

المودني، ص: 507

في سنة 1884 أن تصدر مواد غذائية بقيمة أكثر من مليونين؟<sup>1</sup> ركز الرحالة كونه عسكريا على صورة المدينة انطلاقا من الثروات الهائلة التي تزخر بها، والواقع أن المنطقة غنية جدا بمختلف الثروات الطبيعية التي أسالت لعاب الكثير من الدول الاستعمارية، فيكفي أن نقف عند الغرض من الاستفهام الذي يعبر عن الدهشة والاستغراب ذلك أن الأراضي الجزائرية كانت تصدر مواد غذائية مقابل أموال كثيرة تعزز بها الاقتصاد الفرنسي !

### 2.1. العمران

يصف "شلوصر" مدينة الجزائر بالمدينة المحصنة ذات الطابع العسكري<sup>2</sup>؛ لأنها محاطة بالكثير من الحاميات قائلا: «وتوجد أمام المدينة قلاع وحاميات رهيبة، تحيط بالميناء كله. ويقع الميناء الذي ترسو به سفن القراصنة خلف قلعة، أقيم فوقها عدد كبير من المدافع الثقيلة، ولا يكاد يتسع لثلاثين سفينة...»<sup>3</sup> إن صورة العمران التي نقلها الرحالة كانت نتيجة الحروب الكثيرة التي خاضتها الجزائر إذ فرضت على السلطات العثمانية بناء الكثير من الأبراج الحربية التي تحتوي على الكثير من المدافع خاصة وأن المدينة كانت مهددة من الضفة البحرية من قبل الدول الأوروبية.

إن ما أورده "شلوصر" يؤكد على أهمية الرحلة باعتبارها أجمل صورة لالتقاء الإنسان بالعالم الخارجي، لتبين لنا في الأخير براعة الرحالة في تصوير الأحداث التي عايشوها هناك، فنقلوا أدق تفاصيل الآخر، «وأيا كانت دوافع الرحالة، المعلنة منها والخفية فقد اتصفت أغلبية الرحالة -ولو بدرجات متفاوتة- بدقة الملاحظة والوصف

1. شارل فيرو. تاريخ جيولي. تر: عبد الحميد سرحان، ص: 20

2. أشار "ج.أو. هابنسترايت" إلى تحصين مدينة الجزائر نظرا للحروب الكثيرة التي كانت تخوضها قبالة البحر الأبيض المتوسط فقد كانت تدافع عنها من الجهة البرية أربعة حصون وهي حصن الإمبراطور والبرج الجديد و برج عزون و برج باب الوادي، والمدينة في حد ذاتها تعتبر محصنة جدا نظرا للأسوار والخنادق التي تحيط بها. ينظر: ج.أو. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس، تر: ناصر الدين سعيدوني، ص: 36

3. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 14

والتقصي في تسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق»<sup>1</sup> فلهذه الرحلات دوافع عدة إلا أن الملاحظ من خلال هذه الرحلات استعانة أصحابها بكل تقنيات الوصف وأبعاده حتى يتمكنوا من نقل وتسجيل هذه المشاهد للمتلقي كمحاولة لتقريب صورة الآخر للأننا.

تفرض الذاتية نفسها أحيانا على بعض الرحالة في نقل الصور والمعلومات إذ «نجد بعض الأدباء حين يواجه بصور الشعوب الأخرى يصبح أكثر تمسكا بهويته الثقافية وأكثر استعلاء على الآخر، حيث يكتشف حسنات نمطه في الحياة وتفوق ثقافته على الثقافات الأخرى»<sup>2</sup> مما يدفعهم إلى تبني النظرة الاستعلائية على الآخر وكل ما يتعلق به من نمط في الحياة أو ثقافة أو عادات وتقاليد وقد تساهم هذه النظرة في إنتاج صور مشوهة أو تبني أخرى نمطية، تماما كنتلك الصور التي نقلها الأديب الفرنسي "غي دو موبسان" حيث صور منازل العرب في صورة منفرة جدا على الرغم من انبهاره وافتتانه بالطبيعة المحيطة بالمدينة الجزائر التي زينتها الثلوج. إذ يصف الأحياء العربية بأكوام «من المنازل البيضاء العجيبة والمتشابكة فيما بينها، مفصولة بشوارع جعلتها تبدو وكأنها تحت الأرض... إن هذه الثقوب والجحور تبدو تعج بالعائلات العربية...»<sup>3</sup> إن تصوير الرحالة للأحياء العربية بهذه الصورة السلبية التي يتخللها نوع من الاستهزاء، والتعالي عن كل ما هو محلي راجع إلى تبني الرحالة النظرة الأوروبية المتعالية. فوصف منازل العرب بالأكوام البيضاء ضرب لهندسة وعادات وتقاليد وانتقاص من شأن أهل البلد، فلا يمكن مقارنة منازل الأهالي بالبيوت الأوروبية التي قطعت شوطا طويلا في الهندسة المدنية.

إن تصوير "موبسان" للمدن الجزائرية بهذه الطريقة المفزعة والمنفرة سببه نظرة "موبسان" للمدن الجزائرية بعيون أوروبية متناسيا الفوارق الثقافية والاجتماعية بين البلدين، فالأوروبيون يعيشون في الرفاهية والاستقرار المادي والسياسي، بينما نجد العرب يكابدون معاناة الاستعمار والفقر. ولعل هذه الصورة تعبر عن حقيقة العاصمة في تلك الفترة، لكن ناقلها وجد فيها ما يدعم المركزية الأوروبية باعتبارها مركزا للتحضر، والتمدن، فرسم هذه

1. حسين محمود فهميم. أدب الرحلات. عالم المعرفة، الكويت، د.ط، 1989، ص: 12

2. ماجدة حمود. صورة الآخر في التراث العربي. ص: 18

3. Guy de Maupassant .au soleil 1884 .Pp :09 .3

الصورة يتطابق مع رغبة الرحالة الأوروبي التي تجسد نزعة التعالي الأوروبية فهي صورة استعلائية وتبخيسية لغيرها.

كانت الجزائر التي حكمها العثمانيون لمدة ثلاثة قرون بمثابة جحيم قد سلط على الجزائريين من قبل حكامها المغامرين الذين استغلوا الحكم لجمع المال والتسلط على الرعية، فقد حكموا الجزائر بيد من حديد وكانوا يسلبون الأهالي أموالهم وثروتهم عن طريق الضرائب والرشاوى والهدايا ونحوها، بل إنهم تعدوا على حرمان الأوقاف وأموال العجزة واليتامى. وهذا ما زاد من حدة الفقر والتخلف في أوساط الجزائريين الذين مُنعوا من تقلد المناصب السامية. لذلك تقهقر حال الإنسان الجزائري. وأثر ذلك على عمران وثقافته ونمط معيشته، وهذا ما يعد جانبا أسودا في العهد العثماني، غير أن هذا لا ينفي أبدا فضلهم في تحرير أراضي المغرب العربي وحمائته من الغزو الصليبي بعد أن اتحدوا مع الجزائريين وجعلوا من دول شمال إفريقيا حصنا منيعا لمدة ثلاثة قرون كانت بمثابة شوكة في حلق الأعداء.<sup>1</sup>

ويتحدث "موبسان" بنوع من السخط عن ظاهرة الكتابة على الجدران المنتشرة في الأحياء الجزائرية التي أقام بها قائلا: «التفت عبر الباب المفتوح قليلا فلمحت على الجدران رسومات كبيرة غير لائقة كالتي نجدها في بومبي الإيطالية Pompeie. في الحال يكشف انحلال الأخلاق وتفشي الدعارة المرحة والوقحة بشكل ساذج وسط الأزقة، الفرق العميق بين الرزانة الأوروبية واللوعي الشرقي.»<sup>2</sup> إن الكتابة على الجدران واحدة من الأساليب التعبيرية المنتشرة في مختلف المجتمعات البشرية، حيث يلجأ الكثير إلى التعبير عن مختلف أحاسيسهم ومكبوتاتهم على الجدران، لكن "موبسان" يبالغ حينما يصف الشرق باللوعي في مقابل الرزانة الأوروبية على الرغم من وجود مثل هذه الرسومات في إيطاليا التي تُعد مهد النهضة الأوروبية. وأنا إذ أقول هذا الكلام لا أشجع مثل هذه السلوكات التي من شأنها تشويه العمران الذي يعكس جزءا من صورة المجتمع، لكنها صورة سلبية غير مبررة وغير بريئة أيضا.

1. ينظر: أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الأول: 1500-1830. ص: 14-15

2. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صيري، ص: 105

يعقد "موبسان" وصفا لأحد أشهر أحياء العاصمة وهو حي القصبه العتيق بأعالي العاصمة، والذي يعد من أكبر الأحياء العثمانية، فقد صنف من المواقع التي ينبغي المحافظة عليها من قبل اللجنة الوطنية لحماية أملاك الدولة الجزائرية. هذا الحي العتيق الذي زاره "موبسان" في رمضان والذي قال عنه: «هذه الأزقة المنحدرة والشوارع الصغيرة كالممرات الجبلية الوعرة، ضيقة كأنها جحور وحوش، تحول مستمر، اختلاط، إنها غامضة للغاية، على الرغم من أن سكانها يتحدثون بهدوء كأنك في عالم ألف ليلة وليلة. هذا هو الانطباع الدقيق الذي نشعر به. لقد قمنا بزيارة هذا البلد الذي حكى عنه السلطانة شهرزاد. هنا الأبواب منخفضة، سميكة كجدران السجن، كل شي هنا رائع. النساء محجبات هنا... أمام العتبات غالبا ما نجد الرجال ممددين يتناولون الطعام والشراب. وأحيانا نجد جماعات مستلقين على الممر الضيق. مما يصعب علينا المرور أحيانا.»<sup>1</sup> يشبه الرحالة هندسة القصبه بقصور ألف ليلة وليلة، كما أنه يثني على سكانها ويصفهم بالهادئين وهذا ما جعلها رائعة في نظر الرحالة. لكن الرحالة لا يفوت فرصة الإساءة المتكررة لكل ما هو عربي، فكثيرا ما يصف البيوت العربية أو شوارعها بجحور الوحوش وقاطنيه بالبدائيين والمتخلفين. مهما يكن فالقصبه كانت بها أول انطلاقة للثورة التحريرية بالعاصمة وكانت معقلا للثوار مازالت تلهم الأدباء والشعراء إلى يومنا هذا.

بينما يرى الاثنوغرافي الألماني "هاينريش بارت" أن ثقافة العمران الجزائري قد تماهت مع الثقافة الفرنسية، إذ يرى الرحالة أن الثقافة الفرنسية قد تغلغت في الحياة المحلية للسكان الأصليين وللعمران قائلا: «لقد استكشفت المدينة وضواحيها على بعد بضع ساعات ولا يسعني أن أعبر لك عن إعجابي بجمال هذا القطر ولطفه، حيث أخذت الثقافة الأوروبية وأساليبها تتغلغلان بتزايد مستمر على حساب نمط العيش المحلي. وتعترضك هنا في كل مكان حركة ونشاط ملحوظان، فالمدينة في توسع حسب مقاييس عملاقة، والميناء بصدد التهيئة لكي يصبح من أضخم الموانئ وأفخمها.»<sup>2</sup> يرى الرحالة أن صورة العمران الجزائري متأثرة إلى حد كبير بالثقافة الفرنسية حيث تخلت المدن تخلت

1. Guy de Maupassant .au soleil 1884 .Pp :43

2. هاينريش بارت. سبع رسائل مخطوطة ل: هاينريش بارت عن رحلته إلى تونس 1845-1846. تحقيق

وترجمة: منير الفندري، ص: 11

عن طابعها المحلي<sup>1</sup> في مقابل التمازج والذوبان في الثقافة ونمط الحياة اللذان جاء بهما الفرنسيون. غير أنه تجدر الإشارة إلى فشل الاستعمار الفرنسي في جوانبه الثقافية والدينية نظرا لتمسك الجزائريين الشديد بهويتهم.

يشير الرسام الإنجليزي "و.ويلد" أيضا إلى تأثير شوارع بالجزائر وعمارها بالوجود الفرنسي قائلا: «عندما دخل الفرنسيون إلى الجزائر، كانت الأنهج ضيقة جدا تكاد لا تفسح المجال لمرور فارس...ولذا هدمت كما هدمت الديار التي لم تكن منزوية بالقدر الذي يسمح للسيارات بالمرور بلا مانع. وفي هذه الأنهج الثلاثة جعل الأوروبيون متاجرهم بالتقسيم وبنوا ديارا على نمط أوروبي.»<sup>2</sup> لقد أسس الاحتلال الفرنسي لفكرة الاستيطان لذلك تأثرت صورة العمران الجزائري بالوجود الفرنسي الذي اهتم بنشر الثقافة الأوروبية مقارنة بالوجود العثماني الذي لم يخلف الكثير من الآثار !

لكن الرسام الإنجليزي يعبر "و.ويلد" عن إعجابه الشديد بهندسة منازل العاصمة قائلا: «يزين عدد كبير من البيوت بأبواب منقوشة ومدهونة دهنا يبنى بنوق سليم جدا. يستعمل البهو كحجرة استقبال يمكث فيها العبيد عند المغاربة الأثرياء لينبئوا مولاهم بزيارة الأجانب، وهذه القاعة جميلة جدا في كثير من البيوت. فهي مزخرفة من كل جانب بصفين من أعمدة الرخام تحمل أقواسا قوطية تستند إلى الجدار ويرتب تحتها مقاعد مغطاة بزرابي أو حصائر يجلس عليه الزائرون في انتظار قدوم صاحب الدار...»<sup>3</sup> إن موهبة الرحالة في الرسم سمحت له بتقديم صورة دقيقة لعمران الجزائريين<sup>4</sup> وهذا النص يظهر مدى عناية الجزائري بفن الهندسة المعمارية. ويستمر الرسام الإنجليزي رفقة صديقه الفرنسي في التعبير عن إعجابهما بهندسة منازل العاصمة قائلين: «ديار مدينة الجزائر التي تبدو مربعة ضخمة من الخارج، تبنى عادة من الداخل بناء يتميز بالأناقة. وقد يظهر عند النظرة الأولى أنها تبعث على الملل بل على التعب، لما في أشكالها من

1. لقد ساهم الوجود الفرنسي في ظهور نوعين من الأحياء: أحياء أوروبية وأخرى عربية والرحالة يقصد التغييرات التي أحدثتها فرنسا على الجزائر من ناحية العمران والبنى التحتية وغيرها.

2. أ. ليسور، و. ويلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر. ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة 03

3. المرجع نفسه، اللوحة: 26

4. للتعلم أكثر ينظر: المرجع نفسه، اللوحة: 40

إطراد، إذ تشيد انطلاقا من رسم واحد. ولكن هذا الانطباع ينعكس تماما، إذا نظرنا إليها عن كثب، وبيننا بالتفصيل زخارفها التي لا تتفك تبدو للعيان لتزيل هذه الرتابة الصورية... وفي كثير من الأحيان تنقش كتابات وحكم عربية مطلية بالذهب والألوان الفاقعة... الطابق الأرضي يشغله العبيد وفوق حجرات السيد القائمة في الطابق الأول يوجد سطح منبسط يستعمل كمتنزه. كثيرا ما يقام على هذا السطح سرادق تأتي إليه الجزائريات، وأسرهن تحيط بهن ليستشققن برودة العشية ويتمتعن بالمنظر الجميل الذي يتاح لهن بفضل وضعية المدينة القائمة على جبل والمشرفة على البحر من جميع النواحي.<sup>1</sup> إن الصورة التي قدمها الرحالة للعمران الجزائري مستمدة من الخصوصية الثقافية النابعة من الحضارة الإسلامية، إذ ليس كل مافي مدينة الجزائر من عمران متماه مع ثقافة الاستعمار كما ورد في وصف الرحالة الألماني "هاينريش بارت، والدليل على ذلك فن الزخرفة العربي الإسلامي والحكم العربية المطلية بالذهب، فضلا عن كونه يتماشى مع ثقافة الحريم المندسة في اللاوعي الجمعي للمجتمع الجزائري المحافظ إلى يومنا هذا على غرار المجتمعات العربية الأخرى.

ويقدم الرسام الفرنسي "أ. ليسور" ورفيقه الإنجليزي "و. ويلد" وصفا معمقا لحمامات مدينة الجزائر قائلا: «تتألف معظم هذه المؤسسات من ثلاث قاعات منفصلة، ولكن متصلة بعضها ببعض. القاعة الأولى دهليز يشبه أي مدخل دار أخرى قد تعرضنا لوصفه عند سنوح الفرصة، والثانية، موضوع رسمنا، هي القاعة التي يدع فيها المستحون ملابسهم ويرتدون بدلة الحمام قبل أن ينتقلوا إلى القاعة الثالثة والأخيرة. عند دخولنا إلى القاعة التي تتم فيها الاستعدادات للاستحمام، والتي وجدناها مدفأة تبلغ الحرارة فيها درجة لطيفة... بعد وصولنا بربع ساعة تقريبا، أقبل ميزابي لينزع عنا ثيابنا، وألبسنا مكانها لباسا غريبا مكون من كمية كبيرة من أقمشة تغطي جسمنا كله من الرأس إلى الأقدام، وانتقلنا بعد ذلك إلى قاعة الاغتسال، تشبه هذه القاعة قبة كبيرة مظلمة بدون ظاهر إذا استثنينا المدخل، بوسطها نوع من منصة مربعة، وحولها بلاط من رخام يجري من تحته بصفة مستمرة تيار ضعيف من الماء الساخن. ينير هذا النوع من المغارة السرية مصباح واحد،

1. المرجع السابق، اللوحة: 40

لا يتيح إلا رؤية صور غير واضحة لأشخاص يرتدون ملابس بيضاء، أو بدون لباس، يجولون في القاعة أو يمتدون في انتظار دورهم للخضوع لعمليات التدليك.<sup>1</sup> نقل الرحالة صورة واقعية عن الحمامات في الجزائر، إذ لم يتغير طابعها وبقيت محافظة على شكلها إلى يومنا هذا.

ويتحدث الرحالة عن الأجواء داخل الحمام قائلا: «وعندما جاء دورنا، شرع المدلك في تدليك جسمنا، فكان في بداية الأمر يعمل بيديه يبللها من حين لآخر بالماء الساخن، ثم بقفاز من وبر الجمال. وفي الأخير انتهت العملية برش جسمنا بماء يكاد يقرب درجة الغليان، نضح علينا مرات عديدة».<sup>2</sup> إن العناية بمثل هذه التفاصيل تهدف في مجملها إلى تعريف القارئ الأوروبي بالعمران الجزائري وأهم عادات وتقاليد الجزائريين. فما جاء به الرحالة يؤكد تمسك الجزائريين بعاداتهم وتقاليدهم لأن هذه الصورة ما تزال قائمة في أغلب الحمامات العامة.

يصف الرسام الإنجليزي "و. ويلد" مسجد "كتشاوة" الذي حولته فرنسا إلى كنيسة قائلا: «تم الآن تحويل المسجد الذي نقدم صورته إلى كنيسة كاثوليكية. اغتصب هذا المسجد المسلمين وحل اليوم هيكله المخصص لممارسة الشعائر الكاثوليكية محل المحراب، حيث كان الأئمة يقفون لأداء الصلاة العامة ويقرؤون الآيات القرآنية. وهو من أجمل مساجد الجزائر العاصمة. فالأعمدة التي تركز عليها القبة من رخام أبيض جميل، كل قبة مزخرفة برسوم منقوشة في الجص نقشاً رائع الفن، وهناك آيات قرآنية مكتوبة بحروف منقوشة مذهبة بارزة من خلال خلفيات ذات ألوان مختلفة، تزخرف الجهات الأربع للقبة الرئيسية، والمحراب المخصص للإمام. وجوانب الجزء الأسفل من الجدار مكسوة بخزف مدهون. وتوجد كما هو الشأن في المساجد الأخرى حصائر وزرابي شرقية تكسو الأرضية كلها، والجزء الأسفل من الإعمدة والجدران التي يستند إليها المؤمن».<sup>3</sup> إن صورة المسجد بهيئته العمرانية المستمدة من الحضارة الإسلامية وتحوله إلى كنيسة صورة واقعية حيث تم الاستيلاء على مسجد "كتشاوة" سنة 1832 من قبل القائد الفرنسي

1. المرجع السابق، اللوحة: 37

2. المرجع نفسه، اللوحة: 37

3. المرجع نفسه، اللوحة: 09

"روفيقو" وتم تأميمه بعد الاستقلال، وهذا ما يؤكد نظرية الاحتلال الثقافي والديني التي سعت فرنسا إلى تجسيدها منذ وطئت أقدامها الجزائر، فمسجد "كتشاوة" الذي يرمز لاعتناق الجزائريين للإسلام سيظل شاهدا على همجية المستعمر الفرنسي الذي حوله إلى كنيسة حتى يصرف الجزائريين عن الإسلام و يعتنقوا المسيحية.

ويقدم الرسام الفرنسي "أ. ليسور" أيضا صورة لحي القصبه بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر قائلا: «يرتفع هذا النهج المتعرج على طول مسافته تدريجيا وبدرجات سلم من أسفل المدينة إلى القصبه. يعد من بين النهج الرئيسية وأطولها في مدينة الجزائر. وهو مقوس في عدد كبير ممن نواحيه. وفيما مضى كان النهج غاصا بالسكان، تعرف تجارته رواجا كبيرا. وكان يوجد به دكاكين جميلة وديار يتفنن أصحابها في بنائها، فتبرز في شكل أنيق. واليوم لم يعد يقدم للمارة سوى مظهر حزين، ومنذ اليوم نزل فيه الداى من قصره محاطا برعاياه الذين جثوا للمرة الأخيرة أمام قدميه، أصبح السكان يتجنبون هذا الطريق، لئلا يلتقوا بالجندي الذي أصبح يسكن محل سيدهم المخلوع.»<sup>1</sup> إن ما جاء به الرحالة شاهد على رواج التجارة في حي القصبه قبل الاحتلال وبيبين غنى التجار الذين يتواجدون به، فحي القصبه واحد من الأحياء العثمانية العريقة، والذي يتميز بهندسته ذات الطابع الشرقي، ومازال شاهدا إلى يومنا هذا على مرور العثمانيين بالعاصمة. فالصورة التي نقلها الرحالة تلخص حجم المأساة التي تسبب فيها الاستعمار الفرنسي، كما تظهر ميل الجزائريين للداى "حسين" باعتباره أقل السلاطين العثمانيين غلاظة وقد وثقت كتب التاريخ ذلك. فالوجود الفرنسي أثرا سلبا على حياة الجزائريين الذين ظلوا متمسكين بالجزائر رغم كل المآسي التي ألمت بها.

أما الجنرال الفرنسي "بول أوساريس"، فقد فضل تقديم صورة القصبه العتيقة إبان الثورة التحريرية، فلم يهتم بتاريخ الحي ولا بجمال هندسته بقدر ما اهتم بدوره بأهميته بالنسبة للمجاهدين والفدائيين، فالعاصمة التي كانت مدينة أهلة بالأقدام السوداء دفعت بجهة التحرير إلى اللجوء إلى «الأحياء المسلمة في العاصمة، ومن بينها "القصبه"، أحد الأحياء ذات الأزقة الضيقة والمتاهات، وبها منازل متكونة من ساحات داخلية وسطوح،

1. أ. ليسور، و. ويلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر. ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة: 33

وكانت توفر للمتمردين حصنا منيعا. وشرعت هذه المنظمة في مضاعفة العمليات الإرهابية إلى درجة أن الحكومة وجدت نفسها تتجه بسرعة نحو طريق مسدود.<sup>1</sup> إن ما أورده الجنرال الفرنسي يبين أهمية الصرح في احتضان العمليات الفدائية بفضل هندسته وخصوصيته العمرائية التي سمحت بإيواء الكثير من الفدائيين الذين كانوا يتحصنون بمنازل القصة ذات البيوت المتداخلة والشوارع الضيقة مما صعب على الجيش الفرنسي الإمساك بهم. فالصورة التي نقلها الجنرال الفرنسي توحى بالمكانة التاريخية للحي أيضا.

بينما يتحدث "فاغندر" عن صورة المساجد وما آلت إليه زمن الاستعمار الفرنسي، فقد ركزت فرنسا على تهديم المساجد إما لتوسيع الشوارع أو إقامة الكنائس مؤكدا ما قاله "شيمبرا" قائلا: «هكذا اعتدت فرنسا على حرمان المسلمين، وذلك ما لن يغفره لها الجزائريون ولن ينسوه أبدا.»<sup>2</sup> إن ما نزل به الرحالة الألماني يمكن اعتباره تنديدا ورفضاً صريحا للإعتداء الفرنسي الذي مس بمقدسات المسلمين. إذ عمدت فرنسا هدم أحياء عربية بأكملها وتعويضها بأحياء أوروبية ذات خصوصية غريبة. مما يضعنا أمام غزو ثقافي متكامل. فقد تلاشت كل الوعود التي وعدت بها فرنسا الجزائريين من احترام للدين الإسلامي والمقدسات، فهذا «الوضع كان يعرفه الفرنسيون جيدا عند الاحتلال. وقد عنوه كما عناه الداوي، عندما وقعوا اتفاق 1830 الذي نص على حرية العقيدة وعلى احترام الدين الإسلامي والمساجد، إلخ. ولكن ذلك الاحترام لم يدم طويلا، وكان الاتفاق المذكور، كما قال عنه كلوزيل، وهو يرد على حمدان خوجة، مجرد (لعبة حرب) في نظرهم وهكذا بقي الإسلام تحت النفوذ الفرنسي مضطهدا أكثر من قرن.»<sup>3</sup> ما إن بسطت فرنسا نفوذها على أغلب المناطق حتى تجرأت على الإساءة لمشاعر المسلمين بتدنيس المساجد والمقدسات، وهذا ما دفع الجزائريين إلى الثورة ضد هذه التصرفات الجبانة، لأنهم لم يرضوا بالتعدي على حرمتهم ومقدساتهم الدينية. فضلا عن التعدي على ممتلكاتهم الخاصة والعامة. فالمساجد فضلا عن كونها مكان مقدس بالنسبة للمسلمين فهي أيضا

1. الجنرال أوساريس. شهادتي حول التعذيب (مصالح الخاصة الجزائر: 1957-1959). تر: مصطفى فرحات، ص:

2. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855). ص: 33

3. أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الرابع 1830-1954. ص: 350

هيئة عمرانية بطابعها العربي الإسلامي الذي يعكس الخصوصية الثقافية، وتشويه صورتها كان واقعا زمن الاستعمار الفرنسي الذي استهدف الهوية الوطنية والثقافية بما فيها الدين الإسلامي.

إن وحشية ونذالة فرنسا تجلت للعلن في تشويه صورة المساجد بتحويلها إلى كنائس أو اسطبلات، فقد أساء الفرنسيون للإسلام بتعديهم على مقدسات المسلمين واستباححت حرمتها. أما الإنسان الجزائري فقد أُسيء له كثيرا بقتله وتهجيره من أرضه وتهديم مسكنه، ليس هذا فقط، فالتعدي وصل إلى حد فتح القبور والتكيل بالجثث وبيع عظامها! فمذ اليوم الأول انتزعت فرنسا «من الجزائريين أملاكهم وأبعدتهم عنها وما دامت قد عاملتهم على أنهم كم مهمل لا يمثلون حتى أنفسهم فإن العمل الفرنسي كله في الجزائر ما وجد إلا لخير المستعمرين ومصالحهم الذاتية.»<sup>1</sup> إن حجم الإساءة التي تعرض لها الجزائريون ومقدساتهم إنما هي دليل واضح على همجية المستعمر الفرنسي الذي استعمل كل الحيل قصد التأثير على الجزائري وإرغامه على تقبل واقعه الجديد، هذا الواقع الذي بنته فرنسا على أنقاض مركبات هويته العربية الإسلامية.

في المقابل ترى الكاتبة السويسرية "إيزابيل إبيرهات" أن مدينة الجزائر مازالت تحافظ على طابعها الشرقي قائلة: «والجزائر بالتحديد، وبعض أحيائها على الخصوص، هي إحدى المدن التي تلهمني. ويعجبني الحي الذي نقطن به، ويعجبني بيتنا أيضا بعد الحجرة الصغيرة والرهيبة في شارع لامارين. كيف يمكن للبلد الكثر في "العالم" وفي الأدب أن يقولوا بأنه لم يبق في الجزائر أي شيء عربي؟ بينما خبرت فيها، أنا التي رأيت مدنا أخرى، بعض انطباعات الشرق الأكثر صفاء!»<sup>2</sup> على الرغم من الحملة الشرسة التي شنّها المستعمر الفرنسي على الخصوصية الشرقية والإسلامية إلا أن الجزائر حسب "إيزابيل" لا تزال صامدة بصورتها العمرانية الشرقية في وجه ما تتعرض له من تشويه

1. جون بول سارتر. عارنا في الجزائر. تر: عابدة وسهيل إدريس، ص: 17

2. إيزابيل إبيرهات. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويومييات). تر: عبد السلام

المودني، ص: 507

وتهجين، حيث ظلت تحافظ على خصوصيتها العربية، ونذكر على سبيل المثال حي القصبة العتيق الذي شيده العثمانيون ويعتبر تحفة شرقية بامتياز.

لكن تمسك الجزائر بطابعها الشرقي لم يشفع لها، ذلك أن عمرانها ظل يمثل نقطة سوداء بالنسبة لإيزابيل، التي ترى أن عمران المدينة لا يتماشى مع قوانين الهندسة مما جعل من المدينة «عبارة عن تراحم لمنازل تكدست بخوف داخل الممرات، وهي مدينة اعتادت على الحصار والاعتداءات. ويسبب ضيق المكان تدوس الطوابق فيها الشوارع، وتتجاوزها في كل مكان. ثم إن الشارع في الجزائر تشوهه الحشود. ولو وجد الصمت والظل في تلك الشوارع لكان لها سحرها. فبالحشد المختلط، الحشد الصاخب على نحو بليد»<sup>1</sup> ترى الرحالة أن صورة العمران الجزائري تتسم بالفوضوية والضيق وهو ما اتفق حوله أغلب الرحالة مما أثر سلبا - في نظرهم - على جمال المدينة التي تعانق البحر من جهة و يحتمي ظهرها بجبال الأطلس التلي.

يقدم الأسير الألماني "شلوفر" صورة سلبية للعمران الجزائري، ففي اليوم التالي من قدومه قرر التجول قليلا في شوارع الجزائر، فوجد أن «كل شيء في حالة يرثى لها، فالبيوت منخفضة، تأخذ فيها الثقوب الهوائية محل النوافذ، ولم تكن هناك بناية جميلة على الاطلاق، باستثناء ترسانة صغيرة في القسم الأسفل من المدينة وقصر القصبة. وكانت الشوارع غير مستوية ومبلطة بصورة رديئة وضيقة جدا بحيث لا تكاد تتسع لعربة واحدة، كان هناك شارع واحد معبد إلى حد ما، يفضي إلى باب الواد. ولمدينة الجزائر أربعة أبواب، بابان في الناحية البحرية وآخران في الناحية البرية، ويحرسها الحصنان المذكوران أنفا والقصبة، وتشكل حدودها الخارجية أرض كثيرة التلال شبيهة بالهلال تمتد في الشمال في جانبي الجزائر على ساحل البحر، وتتسع في الجنوب، وتنتهي فيه على بعد 6 ساعات من المدينة.»<sup>2</sup> على الرغم من اعتراف "شلوفر" بجمال الطبيعة المحيطة بالجزائر إلا أن ذلك لم يشفع لها أبدا أن تكون من المدن الجميلة بسبب شوارعها الضيقة وغير المستوية، فهذه الصورة السلبية عن العمران الجزائري صورة واقعية تعبر عن عمران

1. المرجع السابق، ص: 509

2. فندلين شلوفر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 11

البلد في فترات تاريخية صعبة، فالعثمانيون لم يهتموا بجمال المدن بقدر ما اهتموا بجمع الضرائب والقرصنة في عرض البحر. أما الفرنسيون فقد عمدوا إلى القضاء على كل أشكال الخصوصية العربية للبلد والدليل على ذلك تهديمهم للأحياء العربية من أجل تشييد أحياء أوروبية حتى يقنعوا الداخل والخارج أن الجزائر فرنسية.

### 2. صورة مدينة بجاية

#### 1.2. الطبيعة

لا يختلف اثنان في جمال "الجزائر" هذا البلد العظيم الذي أسر معظم الرحالة الأوروبيين بجمال طبيعته الفاتنة وسحر مناظره الخلابة التي ألهمت الأقلام وفجرت الخيال، كما هو الحال بالنسبة للأديب الفرنسي "غي دو موبسان" الذي ينقل ما رآه في "بجاية"، ويشاركنا إحساسه قائلاً: «كنت أتأمل فيه بعيني المبهورتين خليج بجاية الساحر، الذي انبج أمامنا. كانت غابات القبائل تغطي الجبال العالية، والرمال الصفراء تبدو من بعيد كأنها تصنع للبحر شاطئاً من التربة الذهبية، والشمس تصب سيولاً من النار على البيوت البيضاء للمدينة الصغيرة... الجبال العائمة في الأمواج الزرقاء، الأجل من شاطئ نابولي، ومن شاطئ أجاكسيو بورتو في كوستريكا».<sup>1</sup> يظهر خليج "بجاية" في حلة رائعة تأسر كل من يقف أمامه غير أن إعجاب "موبسان" بالخليج لم يتحرر من «وجود الغرب ككتلة واحدة يؤدي بالضرورة إلى تشكيل مفهوم الشرق ككتلة مضادة أو مقابلة، وعلى الرغم من تقدّم البحث التاريخي والعرقى - الأنتروبولوجي - يبقى الشرق مجرد فضاء يسقطون عليه الرؤى الرومنطقية ثم الإيديولوجية للغرب الفاتح المنتصر».<sup>2</sup> فهذه الصورة التي تشكلت عبر النص الرحلي، والتي انطبعت في ذهن الرحالة عن الجزائر الصورة نفسها الثابتة في ذهن الأوروبي عن الشرق بأكمله في كونه مصدر السحر والجادبية والجمال والعجائبية.

كما يتحدث "موبسان" عن بعض الآثار القديمة التي توحى بعمق تاريخ مدينة "بجاية" قائلاً: «عند وصولنا شاهدنا، ونحن واقفون على الرصيف... بقايا أطلال رائعة

1. أحمد منور. الجزائر في كتابات الأديباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر. ص: 129.130

2. محمد أركون. نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية. ص: 329

كما لو كانت غير طبيعية: إنه الباب المحرب العتيق يجتاحه اللباب. ووسط الغابات الوعرة حول المدينة أنقاض في كل مكان، شق جدار روماني، قطع من الآثار المغربية وبقايا من أبنية عربية. يمر النهر هادئًا ملتهبًا، ثم يحل الليل حينئذ يتجلى الخليج منظر مدهش كلما ازدادت كثافة الظلمة.<sup>1</sup> امتزجت العراقة بجمال الطبيعة في "بجاية" فشكلت توأمة، فالآثار الحمادية المتناثرة في المدينة-باب البحر، باب الفوقة وغيرهم- تدل على عراقة المدينة التي مر بها الفينيقيون والرومان والوندال والبيزنطيون في العصور الغابرة. وأخيرًا كعاصمة للدولة الحمادية المسلمة.

يستمر "موبسان" في نقل صور عن المناظر الطبيعية الساحرة التي تميز مدينة "بجاية" عن بقية المدن الجزائرية قائلًا: «ها نحن في المنطقة الأغنى والأكثر عمرانًا في الجزائر، وهي جبلية ومغطاة بالغابات والحقول. عند خروجنا من "أومال Aumale" وهبوطنا في اتجاه وادي الساحل الكبير، هناك ينتصب جبل ضخم "جرجرة Djurjura" لون قممه العليا رمادية كأنها من بعيد حجارة بيضاء وأخرى عالقة بالمنحدرات.»<sup>2</sup> ولا يمكن أن نتصور الحديث عن مدينة "بجاية" دونما الإشارة لجبل "جرجرة" أو قمة "يما قورايا" التي تعد من أشهر المناطق السياحية في المدينة.

بينما يعبر الجغرافي "جيل لوكليك" افتتاحه بمنظر شروق الشمس قائلًا: «حينما استأنفت السير كانت الشمس تبرز عبر السلسلة البنفسجية لجرجرة، التي كانت تتبثق قممها النضرة والرائعة مثل منظر رائع داخل جو ناعم. أنستنا هذه الطبيعة البهيجة بسرعة متاعب الليلة الماضية.»<sup>3</sup> يبدو أن إشراق الشمس من وراء جبال جرجرة قد أضفت جمالية لا تقاوم، وهذا ما راق كثيرًا لمعظم الرحالة الأوربيين الهاربين من أوروبا الغارقة في الماديات في تلك الفترة.

1. غي دو موبسان. رحلة إلى بلاد الشمس. تر: نادية عمر صبري، ص: 54، 55

2. المرجع نفسه، ص: 45

3. جيل لوكليك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر

لكنيزي. ص: 164

يستمر الرحالة في نقل صور الطبيعة المحيطة ببلاد القبائل متحدثا عن غروب الشمس الذي يتميز «بجمال عجيب: الشفافية المعجزة للهواء تولد آثارا جوية غير معروفة تماما بمناطقنا الباردة بالشمال منحت الجبال البعيدة لجرجرة لانقضاء النهار، لونا ساحرا لن تستطيع أي لوحة إنتاجه: الظلال المتنوعة جدا والكثيرة جدا، وتندمج في تدرجات ذات عرض لطيف: ثم تتوالى، في سحر الألوان هذا، هذه الليالي الإفريقية الرائعة المتميزة بسكينة لا حد لها: ملايين النجوم رصعت السماء ذات الشذرات اللامعة. إذ كان هناك رجال غير مبالين ولا يستطيعون تهييج جمال الطبيعة، فإنهم قد أتوا هنا لإنعاش الشعور المنطفي للحماس.»<sup>1</sup> إن هذا الوصف الجميل الذي جاء به البلجيكي "جيل لوكليرك" لا يخرج عما جاء به "موبسان" وغيره من الرحالة الذين افتتوا بالمناظر الطبيعية التي تحتوي عليها الجزائر، فالرحالة يقر ويعترف بتفوق المناظر الطبيعية الإفريقية على مناظر أوروبا. فلشرق خصوصيته الطبيعية والعمرانية.

يرى "جيل لوكليرك" أن جبال "جرجرة" تفوق الجبال الأوروبية جمالا، معتبرا أن «منظر السلسلة الجزائرية لا ينسى مثل منظر البيريني حين نعانقها من أعلى الساحة الملكية لبو (Pau) لكن كم هو المنظر مختلف فجلنا الأوروبية لا يمكن أن تقدم أي فكرة عن الكتل الصخرية الرائعة، التي يبدو من المتعذر بلوغها، وقممها التي تبرز في القلاع، وفي قبب أجراس وفي بروجات صغيرة وفي أسوار عمودية. تتعاقب القمم مثل أمواج المحيط، كلها ذات سحنة رمادية تمتد بحيوية على سماء شديدة الزرقة.»<sup>2</sup> إن المقارنات التي يعقدها الرحالة في كل مرة بين مختلف المناظر التي حظي بزيارتها ساهمت في إثراء رحلته، فالرحالة ينتصر في كل مرة للطبيعة الجزائرية التي يؤكد على تفوقها على نظيرتها الأوروبية.

ويعتبر الرحالة أودية القبائل أكثر إغراءً من الأودية الموجودة بجبال الألب والبيريني. والذي يفتن فيها هو الأعشاب «الإفريقية التي تنمو بشدة خارقة في هذه الجبال التي تحجب رياحا صحراوية جافة. إذا كانت توجد بالعالم حديقة أرميد، فإنها البلد الذي

1. المرجع السابق، ص: 197

2. المرجع نفسه، ص: 171

نسير به في هذه اللحظة؛ فالأنواع الغابوية المختلفة جدا توجد مجتمعة بها: أشجار الزيتون والرمان والبلوط الأخضر والفلين والطلب والدفلى والسنديان الأخضر ترتفع حولنا مع تنوع لا نهائي للأشكال والأوراق، فوقنا هناك أشجار الجولق والمصطكى والإثل الإفريقية والآس وياقة من الزهور من كل الأنواع.<sup>1</sup> إن الصورة التي نقلها الرحالة صورة جمالية تعكس واقع الغطاء النباتي المتنوع في منطقة القبائل.

ويشير الرحالة إلى بعض الزراعات والأشجار المحيطة بوادي "سيبوس" الذي يعتبره الرحالة ذا «خصوبة كبيرة. تتم به زراعة الذرة والذرة البيضاء والتبغ. تسقى الحقول بفضل الفياضانات السنوية للنهر. تشكل أشجار التين أكبر مورد للبلد: وهي ذات تشذيب ملحوظ، وهي مزروعة بكثافة وتشكل غابات حقيقية، تنمو أشجار الصبار الهندي في كل مكان بقوة رائعة، فاكهتها المسماة تين البربر تدخل بكمية كبيرة في تغذية الأهالي، وتمتد غابات الزيتون البري على منحدرات الجبال.»<sup>2</sup> المعروف عن المجتمع الجزائري في تلك الفترة أنه كان مجتمعا زراعيا بامتياز خاصة منطقة القبائل؛ لذلك تنوعت الأشجار في هذه المناطق، حيث يركز سكان القبائل على غرس شجرة الزيتون كثيرا هذه العادة التي لا تزال متوارثة إلى اليوم.

كما يتحدث الرحالة أيضا وجود أشجار الأرز العريقة الموجودة بجبال القبائل قائلا: «حينما بلغنا منطقة الأرز، كنا شاهدين على عرض رائع... أشجار الأرز التي اعتقدنا من الأسفل أنها خلنج، كانت تمنح طابعا مهيبا كان محيط جذوعها يقدر بخمسة أو ستة أمتار؛ وفروعها كانت تتشعب إلى ما لا نهاية، كانت تغطي فضاء شاسعا. هذه الأشجار العملاقة للأطلس هي ربما للمجانسة لها بلبنان. لا يمكن أن ننكر تعرضنا لتأثير ديني أثناء رؤية هذه الأشجار.»<sup>3</sup> إن احتواء الجبال الجزائرية على شجرة الأرز العريقة التي تعمر لأزيد من 1000 سنة نتج عن تنوع الغطاء النباتي في الجزائر، فالمنظر الرائع

1. المرجع السابق، ص: 175، 176

2. المرجع نفسه، ص: 165

3. المرجع نفسه، ص: 189

لهذه الأشجار الشامخة يزيد الغابات شموخا وعراقة. وللتذكير أن هذا النوع من الأشجار موجود أيضا بجبال "خنشلة".

ويختم الرحالة زيارته إلى جبال "جرجرة" بزيارته لقمة "لالة خديجة" مشيرا إلى المكانة التي تحظى بها "لالة خديجة" عند سكان القبائل معتبرا القمة مكانا مقدسا بالنسبة للآخر القبائلي الذي يحج إليه في بعض أيام السنة مثلما يحج الهنود إلى قمة جبل آدم واليابانيون إلى قمة "فوجي ياما".<sup>1</sup> إن الصور التي نقلتها النصوص الرحلية لا تخرج عن واقع الطبيعة في الجزائر وجمالياتها، وإن كانت الذهنية الأوروبية تحتفظ بصورة الشرق الساحر قبل زيارة الجزائر أو أي بلد شرقي آخر.

### 2.2. العمران

يعبر الجغرافي البلجيكي "جيل لوكليرك" عن استيائه من العمران القبائلي قائلا: «لا شيء أكثر بدائية من معمار هذه المساكن "القبائلية" الأشبه بالأهرام أكثر من المنازل؛ وهي كلها مبنية بنفس التصميم، واطئة ومغطاة بقرميد أحمر، ومتراصة ومشدودة إلى بعضها البعض. وهي ليست مضاعة بنوافذ وإنما بفتحات ضيقة محدثة في سمك الجدار مشابهة جدا لكوات السجن.»<sup>2</sup> يبدو أن الهندسة التي بنيت وفقها منازل القبائل لم تعجب الرحالة، نظرا لالتزام السكان بنمط واحد في البناء، وهذا ما أضفى نوعا من البلادة على هذه الأحياء المتشابهة منازلها، كذلك فإن أغلب الرحالة الأوروبيين أبدوا انزعاجهم من النوافذ التي يعتبرونها كنوافذ السجن، ومع ذلك يجب التذكير أن العمران الجزائري قديما كان ترجمة للمحافظة ومختلف الظروف التي سادت في المجتمع الجزائري آنذاك. في المقابل يعتبر الرحالة القرى القبائلية مختلفة قليلا عن القرى الأوربية، وهذا ما نعتبره أمرا طبيعيا لكل بلد خصوصيته العمرانية. وتجدر الإشارة إلى أن تأثير أو تحيز أي رحالة إلى خصوصيته الأوروبية قد يسهم في بناء صورة مشوهة أو سلبية للآخر المختلف عنه.

1. ينظر: المرجع السابق، ص: 190، 191

2. المرجع نفسه، ص: 179



الصخور. وبالتجول يمكن تفسير الحماس الشرقي الذي يتحدث به الكتاب العرب القدامى. لا يمكن مقاومة الرغبة في الاستقرار في هذه البقعة السعيدة من الأرض، التي على الرغم من كونها واقعة تحت سماء إفريقيا.<sup>1</sup> لا يخفي الرحالة إعجابه بالطابع الشرقي لمدينة تلمسان، فالمدينة لم تفقد حماسها الشرقي الذي قرأ عنه الرحالة في مختلف الكتب التي تصور الشرق على أنه مكان جميل وهادئ... وقد وجد الرحالة في "تلمسان" ضالته التي نشدها في "وهران" التي أبت التخلي عن ذكريات الإسبان. وهذا يوحي بتمسك سكان المنطقة بخصوصيتهم العربية والإسلامية. خاصة أن الرحالة الأوروبيين قد أشاروا إلى تماهي الكثير من المدن الجزائرية في الحضارة الأوروبية التي فرضها الوجود الفرنسي عليها بالقوة.

ويتحدث الرحالة عن الطابع الإسلامي للمدينة قائلا: «تلمسان ليست أقل من أكثر الحواضر الفريدة في العالم الإسلامي؛ ربما لا يوجد في أي مكان نفس العدد من المآثر التاريخية العربية المجتمعة في فضاء صغير جدا.»<sup>2</sup> لا يمكن إنكار الطابع الإسلامي لمدينة "تلمسان" التي تعد البوابة الأولى للمغرب الأقصى، وقد عرفت بأنها دار العلماء والمحدثين. فقد حكمها "الأدارسة" ثم "الموحودون"، و"الزيانيون" الذين كانت عاصمة لهم ولغيرها من الدويلات الإسلامية التي ظهرت في بلاد المغرب العربي بعد الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا.

لكن الرحالة يشير أيضا صورة المدينة المتأثرة ملامحها بالوجود الفرنسي قائلا: «باجتياز باب بومدين، توقعت رؤية مدينة من الحكاية العربية، بدروب ملتوية وضيقة ومتعفنة ومزدحمة بالناس والحيوانات، وبدلا من تلمسان أحلامي، وجدت تلمسان مفرنسة، ومعبدة الطرق ومتحضرة، باختصار، وبمقاهي تعج بالضباط. فقدت تلمسان كثيرا من أصالتها منذ خضوعها للاحتلال الفرنسي. أغلب شوارعها مصفوفة على الطريقة الأوروبية. وإذا كانت ما تزال هناك شوارع عربية بدكاينها الرائعة.»<sup>3</sup> لقد أحدث

1. جيل لوكيرك، من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر

لكنيزي، ص: 145، 146

2. المرجع نفسه، ص: 147

3. المرجع نفسه، ص: 146

الاستعمار الفرنسي الكثير من التغييرات على العمران الجزائري، فقد هدمت فرنسا الكثير من الأحياء والمساجد حتى تشيد أحياءً أوروبية، وهذا ما نعتبره غزوا ثقافيا للجزائر، ففرنسا لم تكثف بالاحتلال، بل لجأت إلى الاستيطان وقد جلبت مئات الآلاف من المعمرين؛ حتى تسلب الجزائريين أرضهم وثقافتهم.

يتحدث الرحالة البلجيكي "جيل لوكليرك" عن تدمير فرنسا لأغلب مساجد "تلمسان" قائلا: «أغلبها تم دكه بلا هوادة من قبل مرصفي الطرق الذين لا يرحمون وما بقي قائما يقدم فكرة رائعة عن تلمسان القديمة.»<sup>1</sup> إن تدمير فرنسا لمساجد المسلمين وتشويه صورتها والتي تعهدت بصيانتها عند توقيع الداوي لوثيقة الاستسلام؛ يجعل من الحرب الفرنسية على الجزائر حربا صليبيةً بامتياز. فالمساجد أماكن مقدسة مبنية وفق خصوصية شرقية. فتهديمها ضرب لخصوصيتها الدينية وحضارتها الشرقية القديمة.

بينما يرى الرحالة أن المسجد الأعظم للمدينة المعروف باسم الجامع الكبير يذكره بالمسجد الشهير لقرطبة، بصفوف أقواسه الطويلة على شكل هلال ومحاربه الفاخر، وبفنائنه المظلل وبأشجاره النصف استوائية ومئذنته الضخمة. ويصف الرحالة المسجد المجاور لضريح "سيدي بومدين" قائلا: «المسجد المجاور هو الآخر واحد من التحف التي تركها لنا الفن العربي: بابه من خشب الأرز، مزين بالنحاس المنمق، وهو أيضا عظيم مثل البوابات الكبرى لكاتدرائياتنا القديمة الغوطية؛ قببه وحيطانه معمولة على شكل تخريم دقيق؛ وبشكل خاص المحراب وهو واحد من تحف الصبر والدقة التي يمكن أن نشاهدها أياما وأسابيع كاملة دون ان نستطيع استجلاء تعقيداتها المستغلقة: لا يمكن دون رهبة، التفكير فيما تطلبه من وقت نقش هذه الآيات...»<sup>2</sup> لا يخفي الرحالة انبهاره الشديد بصورة المساجد الجزائرية وهندستها التي تعبر عن عبقرية كبيرة في الرسم والتخطيط على الجدران فضلا عن النقوش التي تزين جدران المساجد مما يضيف على هذه الأماكن المقدسة سحرا شرقيا خاصا.

1. المرجع السابق، ص: 147

2. المرجع نفسه، ص: 154، 155

ويعبر الرحالة عن إعجابه الشديد بالقبة التي يقبع تحتها قبر "سيدي بومدين" قائلاً: «دخلنا، بعد أن أزلنا أحذيتنا، إلى هذه القبة حيث يرقد سيدي بومدين منذ سبعة قرون، وقلت لنفسي إذا كانت هذه الجوهرة المعمارية جد منعشة وجدُّ محفوظة بشكل عجيب من أضرار الزمن، لم يبد لي أنه تم الانتهاء منها سوى منذ شهر. اعتقدنا أننا في إقامة ساحرة بألف ليلة وليلة: فالعبقرية العربية لم يسبق لها أن ذهبت ابعده من ذلك في إبداعاتها العجيبة؛ فهؤلاء هم أنفسهم من بنى قصر غرناطة لم يقوموا بشيء جد فاخر ومتعمق بعناية وأيضا معقد مثل القبة التي تأوي قبر سيدي بومدين»<sup>1</sup>. إن الوصف الذي قدمه الرحالة للمكان الذي دُفن فيه الفقيه والمتصوف والشاعر الأندلسي "أبو مدين شعيب" "بن الحسين الأنصاري" يؤكد على براعة الهندسة العربية في تشييد المساجد والزوايا وكذا أضرحة الأولياء الصالحين، وتجدر الإشارة إلى ربط الرحالة لمشاهداته بما قرأ عنه في كتاب "ألف ليلة وليلة"؛ مما يعني أن الكثير من الرحالة الأوروبيين لهم تصورات مختلفة عن الشرق والوقوف عند صحة هذه التصورات من عدمها يستدعي زيارة هذه الأماكن.

### 5. صورة مدينة قسنطينة

لقيت مدينة الجسور المعلقة استحسان الرحالة الفرنسي "غي دو موبسان" الذي لم يتردد في إبداء إعجابه بعاصمة الشرق الجزائري قائلاً: «ها هي قسنطينة المدينة الفريدة، الغربية كما لو أنها محروسة بثعبان يلتف حول سفوحها، إنه الرومل Romel، الرومل العجيب، نهر شعر نحسبه من أحلام دانتني،... يسمونها مدينة الهواء، مدينة الواد، مدينة الرياح، وهي تسيطر على وديان رائعة، غنية بآثار رومانية دارسة، بصفوف قناطر هائلة، كما أنها مليئة بنباتات رائعة، وتشرف عليها مرتفعات المنصورة وسيدي مسيد. تظهر منتصبة على صخرتها ومحمية بنهرها مثل ملكة»<sup>2</sup>. قسنطينة واحدة من المدن الجزائرية العريقة التي شهدت أرضها العديد من الحضارات، فهي واحدة من أقدم مدن العالم ولعل ما زاد من جمال "قسنطينة" هو وادي الرمال الذي يشطرها إلى قسمين

1. المرجع السابق، ص: 153، 154

2. غي دو موبسان. رحلة إلى بلاد الشمس. تر: نادية عمر صيري، ص: 98

فضلا عن مختلف الآثار القديمة التي تزخر بها والتي تظهر المكانة التاريخية للمدينة التي اتخذها "ماسينييسا" قديما عاصمة للأمازيغ. فجمالية الصورة لهذه المدينة مرتبط بتاريخها العريق.

وفي معرض حديثه عن الآثار الرومانية الموجودة بقسنطينة يشير "موبسان" إلى الجسور التي ما تزال شاهدة على الوجود الروماني بالمنطقة قائلاً أنها كانت «ثمانية جسور مقامة فوق هذه الهوة، ستة منها صارت خراباً: مازال واحد من أصل روماني يعطينا فكرة عما كان. يخفي وادي الرومل من مكان إلى مكان تحت الأقواس الضخمة التي حفرها بنفسه.<sup>1</sup> إن الآثار الرومانية والعربية والعثمانية المنتشرة في المدينة توحى بعراقة المدينة وعظمة تاريخ سيرتها مدينة العلم ومعقل العلماء.

أما "جيل لوكليرك" فقد تحدث عن قسنطينة في صورتها الشرقية قائلاً: «مدينة قسنطينة العربية هي ما تتوفر عليه الجزائر من أصالة بعد تلمسان. فعوض أن تنتهي منازلها بأسطح كما في باقي المدن العربية فهي مغطاة بالقرميد الذي يذكرنا كثيرا بالقرى الاسبانية. برؤيتها من بعيد لا تتميز قسنطينة بذلك البياض البراق الذي هو عموماً الطابع المميز للمدن الشرقية. كانت جولة في أحيائها مليئة بالمفاجآت. فهي ليست سوى دروب ملتوية ومتشابكة بشكل غريب، وممرات مقببة، صعودها شاق وهبوطها سريع؛ لمنازلها الموريسكية، ذات الأبواب المكسوة بعلامات سرية، طبقات نائنة تتلاقى فوق رؤوس المارة، بحيث أننا لا نرى أبداً زرقة السماء.»<sup>2</sup> لقد تباينت آراء الرحالة الأوروبيين حول العمران الجزائري، فالطابع الشرقي للمدينة لا يعني بالضرورة أن تكون المدينة جميلة، فالشوارع كانت ضيقة جداً، أما المنازل فقد بنيت وفق شكل واحد مما أضفى على الهندسة الموريسكية - مثلاً يفضل الأوروبيون تسمية سكان المغرب العربي - نمطية مملّة لا تبعث على التقدم.

1. المرجع السابق، ص: 100

2. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر

لكنيزي، ص: 199

أما "غوستاف فلوبيير"، فقد فضل الحديث عن مدينة "قسطنطينة" بنبرة لا تخلو من التعالي والنجسية الأوروبية، فما إن دخل "فلوبيير" المدينة حتى بدأ في تشويه صورة الجزائري الذي وصفه بأوصاف حقيرة نابعة عن إرث كبير من الحقد الدفين الذي تم تخزينه في الذهن الجمعي الأوروبي، حيث يقول في هذا الشأن عند بلوغه أسوار "قسطنطينة" «هناك ساحة غبراء غير مستوية تغص بالعرب، كانت أكوأخهم أشبه ببيوت الكلاب وذات سقوف، ما يميزها عن بيوت الفلاحين. وهي من الحجر والطيني، تعلو على الأرض بثلاثة أو أربعة أقدام. الأرضية شديدة الانحدار، والرجال يشكلون كتلا هائلة بيضاء وسخة تطفو في الجو، وما كان سمرة في هذا البياض هي الوجوه، والسواعد والأرجل. ذلك يفصح عن فقر ولعنة كبيرتين، إنهم أشبه بالملعونين المنبوذين في المجتمع. إنهم أناس كانوا يسكنون المدينة وطردها منها شر طردة.»<sup>1</sup> إن مثل هذه الأوصاف التحقيرية للآخر العربي ليست بالجديدة، فالعديد من الرحالة الأوروبيين يستمتعون بوصف العربي بأبشع الأوصاف حتى وإن كانت حقيقية. لكن وجب على "فلوبيير" أن يبحث عن سبب تهجير هؤلاء وسبب فقرهم المدقع وحالتهم الصعبة التي يكابدونها. أليس الجنرال الفرنسي "دامريمون" الذي أحرق نصف قسطنطينة سنة 1837 بعد سبع سنوات من الصمود؟

ففي وصفه للمناظر التي رآها في طريقه إلى "قسطنطينة" يقول: «كانت جوانب الطريق مليئة بأشجار السوحر، والجبال واطئة ما يجعل المنظر شبيها بوسط فرنسا... يذكرني نهر الرمال بنهر منطقة غافارني، ونهر سان سابا saint saba بفرنسا.»<sup>2</sup> إن مثل هذه الصور لا تخرج عن طابعها الإخباري الوصفي إلا أن الشيء الملفت للانتباه في رحلة "فلوبيير" إلى الجزائر هو ربطه الدائم للمشاهد التي رآها في "سكيدة" و"قسطنطينة" بمشاهد موجودة بفرنسا ما يعني أن الأديب الفرنسي قد فضل النظر للجزائر بعيون باريسية بحتة.

1. غوستاف فلوبيير. رحلة إلى الشرق: فلسطين ولبنان وقرطاج. تر: فريد الزاهي، ص: 102

2. المرجع نفسه، ص: 101، 104

لا يخلو حديث "فلوبير" من نبذة انزعاج واحتقار لكل ما هو محلي، وهذا ما يجعل من المؤلفات التي ظهرت في «الغرب بعد القرن التاسع عشر مؤلفات غريبة مشبعة بالعنصرية والحقد على العرب والمسلمين ويكفي أن نشير إلى كتاب شاتوبريان (1768-1848)، (رحلة من باريس إلى القدس) وكتاب غوستاف فلوبير (1821-1880) (مراسلات)، الذي طبع للمرة الأولى في سنة (1922)، لاسيما الفصل الخاص فيه (رحلة إلى الشرق).<sup>1</sup> إن الاحتقار الأوروبي للآخر العربي والجزائري على وجه الخصوص إنما هو إرث ثقيل توارثته الأجيال الأوربية منذ الحروب الصليبية التي روجت لها الكنيسة باسم المسيح (عليه السلام). لكن ما يؤسف حقا أن تتبنى الطبقة المتقفة هذه النزعة الصليبية.

بينما يرى "تيوفيل غوتيه" أن العمران القسنطيني ظل محافظا على خصوصيته الشرقية وهذا ما يتضح من خلال وصفه العام والمختصر لمدينة "قسنطينة" التي زارها في صيف 1845. لما أتت له الفرصة لحضور إحدى حفلات العيساوة قائلا: «إن مدينة أحمد باي حتى وإن دخلت تحت سيطرة الفرنسيين فهي لم تفقد أي شيء من طابعا الشرقي، فقد حافظت على شوارعها الضيقة المتداخلة ككبة من الخيط لا يمكن فردها، وعلى مآذنها السامقة، وبيوتها الخالية من النوافذ، وأبوابها الواطئة، ومظهرها الشرقي». <sup>2</sup> إن القراءة الأولية لهذه الأسطر تحيلنا إلى صمود مدينة "قسنطينة" في وجه الغزو الثقافي الفرنسي، ذلك أن الاحتلال الفرنسي لم يتركز فقط على الأرض وإنما ظل ينشد مختلف النواحي الأخرى: ثقافية، اجتماعية، دينية، حتى تكون السيطرة على الجزائر شاملة<sup>3</sup> ومع ذلك فقد نجح القسنطيني في المحافظة على خصوصيته الشرقية على الرغم من بسط الاستعمار الفرنسي لنفوذه على المدينة، وهذا ما أراه تحديا والمقاومة لكل أشكال الاستلاب الثقافي، فأول ما سعت إليه القوى الإمبريالية بعد بسط

1. حسين جمعة. ثقافة المقاومة- إعادة بناء الذات العربية. دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2014، ص:60

2. أحمد منور. الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر. ص: 15

3. لا يخفى على أحد أن المستدمر الفرنسي قد دعم كثيرا الحركات التبشيرية وتعليم اللغة الفرنسية إيمانا منه بأن السيطرة على فكر وثقافة وكذا عقيدة الآخر الجزائري ستطيل من عمر الاستعمار.

نفوذها إقليميا وجغرافيا هو طمس خصوصية الشرق الإثنية والدينية. وهي صورة لم يعبر عنها النص الرحلي بقدر ما أثبتتها التاريخ.

لم تتل "سيرتا" إعجاب الأسير الألماني "فندلين شلوصر" لدرجة أنه فضل أن يطلق عليها اسم (المزيلة) كما سماها العرب، فشوارع المدينة غارقة في الأوساخ والنفايات بل ليس هذا فقط، فحتى جنث الحيوانات كانت تلقى في الأزقة مما سبب انبعاث روائح كريهة جدا.<sup>1</sup> أما "موبسان" فيرى أن عمران مدينة "قسنطينة" ممثلا في الأحياء العربية التي تشغل نصف المدينة، مشابهة لأحياء العاصمة التي تتسم أزقتها بالتعقيد وشدة الانحدار الذي يمتد إلى وادي الرمال.<sup>2</sup>

لا ينبغي علينا إغفال التفاوت بين هذه الصور المنقولة التي تعد «المكونات الفاعلة في رسم صورة الآخر على نحو ما تظهر عليه في متن (الرحلة الأوروبية) في القرن التاسع عشر.»<sup>3</sup> فرسم صورة الآخر العربي يستدعي تجميع مكوناتها الأولية من تلك الرحلات التي قام بها الرحالة الأوروبيون إلى العالم العربي مع بدايات القرن التاسع عشر. فقد «انصرفت جهود العديد من الرحالة إلى تدوين نصوص رحلية تتدرج ضمن خانة الرحلات الوصفية التي يدونها الرحالة عقب رحلة سافر فيها إلى مكان آخر بقصد التحصيل العلمي وتلاقح التجارب الثقافية، والاحتكاك بمكونات معرفية وثقافية أخرى.»<sup>4</sup> إن حاجة الإنسان إلى التحصيل العلمي، والاحتكاك بمصادر ثقافي ومعرفية أخرى دفعته إلى السفر والرحلة بعيدا، وكتابة نصوص رحلية كثيرة بالاستعانة بكل أساليب الوصف الفاعلة.

لم يفوت الأديب الفرنسي "غي دو موبسان" فرصة زيارة قصر الحاج "أحمد باي" والحديث عن جماله مع إبداء بعض التحفظ قائلا: «ها نحن أمام قصر الحاج أحمد أحد أكمل نماذج الهندسة المعمارية العربية كما يقال. كل المسافرين احتفلوا به، قارنوه

1. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 34

2. ينظر: غي دو موبسان. رحلة إلى بلاد الشمس. تر: نادية عمر صبري، ص: 100

3. سعيد بنسعيد العلوي. أوروبا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة. ص: 99

4. شعيب حليفي. الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل. رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة،

ببيوت ألف ليلة وليلة. ما كان للقصر أن يكون جديرا بالاهتمام لو لم تعطه الحدائق الداخلية تلك الميزة الشرقية الجميلة. يلزمنا مجلد لوصف شراسة عمل ذلك الشخص الذي شيده بمواد نفيسة مسروقة ومنزوعة من المساكن الغنية في المدينة وما يحيط بها.<sup>1</sup> إن تشييد هذا الصرح البديع على نحو القصور الشرقية زاد من جماله وجعله يستقطب الكثير من السياح الذين أبدوا الكثير من الإعجاب والاحتراف به. والملاحظ أن "موبسان" يتكتم عن إعجابه ربما بسبب تعاليه الأوروبي الذي منعه من الإقرار بجمال الهندسة الشرقية، فتعبيره عن جمال القصر جاء ضمنا بقوله: (كما يقال، احتفلوا به، قارنوه) تهرب واضح من الاعتراف ببراعة الهندسة العثمانية. فالرحالة راح بعيدا بزعمه أن المواد التي شيد بها القصر مسروقة ومنزوعة من منازل الأغنياء، فموبسان الذي يسعى إلى التقليل من شأن وتهميش كل ما هو محلي نسي أن برج إيفل الذي يزين باريس قد شيده شركة "إلكسندر غوستاف إيفل"<sup>2</sup> (A. Gustave Eiffel) سنة 1889 بالحديد المسروق من الجزائر.

### 6. صورة مدينة سكيكدة

تصور "إيزابيل إبيرهارت" مدينة "سكيكدة" في صورة المدينة المتماهية في الحضارة الأوروبية قائلة: «فليب فيل نهارا قصبه أوروبية من دون ملامح، غير أنها فانتة وسط الخضرة فوق الشرم الأزرق. أحياء مسطحة تحاذي البحر. إحساس كأنه مرفأ بيزرت المشاهد ليلا على نحو عابر صيف سنة 1899.»<sup>3</sup> لسنا ندري هل تخلت "فليب فيل" عن طابعها العربي وذابت في الطابع الأوروبي أم أن الرحالة الأوروبيون ببالغون في تشبيهاها بالمدن الأوروبية؛ فلا يخفى على أحد أن الفرنسيين قد شيّدوا الكثير من البنايات التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا مجسدين بذلك الخصوصية العمرائية الأوروبية فوق

1. غي دو موبسان. رحلة إلى بلاد الشمس. تر: نادية عمر صبري، ص: 100

2. ألكساندر جوستاف إيفل (Alexandre Gustave Eiffel): مهندس ومعماري فرنسي، اشتهر بتصميم المنشآت المعدنية، سواء أكانت كبارى أو سكك حديدية، إلا أن أشهر أعماله هي تمثال الحرية في نيويورك وبرج إيفل في فرنسا، والذي حمل اسمه منذ عام 1889 وحتى يومنا هذا. عن ويكيبيديا

3. إيزابيل إبيرهارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام

الأراضي العربية، فضلا عن الكنائس والمدارس الفرنسية حتى يكتمل الغزو الثقافي الذي سعى إليه الفرنسيون منذ وطأت أقدامهم شواطئ سيدي فرج.

### 7. صووة مدينة عنابة

يتحدث "أ. ليسور" عن الأهمية الكبيرة لميناء "عنابة"، وعن خصوبة أراضيها التي جعلتها من أكبر المدن المنتجة للقمح قائلًا: «تقع عنابة على مسافة حوالي 90 فرسخًا<sup>1</sup> من الجزائر ميناؤها واسع سهل الاستعمال ومرساها عريضة، إلا أنها معرضة لعصف الرياح الشمالية، تحيط بالمدينة أرياف خصبة مكسوة بنبات وفير. ينتج هذا الجزء من فتوحاتنا الكثير من المواد التجارية الشيء الذي يبهر السعي في أن نجعل منه ميناء من أكثر موانئ الدول البربرية ازدهارا. قد يبلغ عدد سكانه المؤلفين من مغاربة وأتراك ويهود 12000 نسمة. وقد كانت تجارة القمح والصوف والقمح رائجة رواجًا عظيمًا.»<sup>2</sup> إن ما جاء به الرحالة يمكن عده صورة إيجابية وشهادة إعرافًا بالمكانة الاستراتيجية للمدينة، فالموانئ تعد من البنى التحتية للبلدان لذلك وجدنا الفرنسيين يسارعون إلى الاستيلاء عليها نظرا للأرباح الوفيرة التي توفرها لهم.

### 8. صورة مدينة جيجل

لقد أفضت حنكة "شارل فيرو" الانتوغرافية إلى الاهتمام بمختلف تفاصيل الآخر الجزائري لما لها من أهمية في إطالة عمر الاستعمار، فبعد أن بسط المستعمر الفرنسي نفوذه على مدينة "جيجل" ارتأى إصلاح المدينة العربية القديمة والنهوض بها من أنقاضها، فمنازل "جيجل" حسب المؤرخ لا تتعدى مائة منزل «ليس لها إلا طابق أرضي حول ساحة صغيرة، كانت في وضعية يرثى لها، قذرة سوداء وعفنة. لقد هدم منها البعض لشق طرق جديدة، وقد اتخذت إجراءات لإرغام السكان الأهالي الذين دخلوا إلى منازلهم على تبييض مساكنهم والمحافظة عليها في نظافة.»<sup>3</sup> نقل الرحالة صورة سلبية ومشوهة

1. الفَرَسُخُ: مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال والميل مقياسٌ للطول قدره 1760 ياردة أو 1609 أمتار تقريبًا. عن قاموس المعاني الإلكتروني.

2. أ. ليسور، و. وبلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر. ترجمة: محمد جيجلي، اللوحة: 43

3. شارل فيرو. تاريخ جيجلي. تر: عبد الحميد سرحان، ص: 14

حول العمران الجبلي، كما صور الآخر الجبلي على أنه إنسان عفن لا ينظف منزله ويفضل العيش في بيت غير مرتب ولا نظيف غير أن ما يحسب على الرحالة أنه لم يشر إلى الأوضاع الاجتماعية التي كان يعيشها الجزائري في تلك الفترة مما انعكس سلبا على حياته المادية والثقافية وحتى الدينية. أما مسارعة القوات الفرنسية إلى إعادة بعث الحياة في المنازل القديمة جدا، فليس إلا ذرا للرماد من أجل كسب ودهم وأمن مكرهم.

كما يتحدث "فيرو" عن وعورة تضاريس "جيجل" والمناطق المجاورة لها على غرار بلاد القبائل قائلا: «إن وعورة هذه الجبال، والغابات الكثيفة التي تغطيها جعلت من هذا البلد في كل العصور المنطقة المركزية للتمرد وملجأ الاختباء، حيث كان الذين يفرون من السلطة متأكدين من وجود ملجأ منيع. ويتفحص التاريخ على مدى قرون متفاوتة. نرى الأحداث ذاتها تتكرر في نفس المنطقة.»<sup>1</sup> ترتكز الكتابات الاثنوغرافية أيضا على وصف الطبيعة والتضاريس خاصة إذا كان المؤلف جاسوسا أو قائدا عسكريا، فقد ساعدت مثل هذه المؤلفات المستعمر الفرنسي على احتلال الكثير من المناطق التي كانت محصنة جدا بفضل المعلومات التي استقاها المؤلف وسطرها بعناية لتصبح فيما بعد خارطة مهمة في يد المستعمر، فقد «اهتدى "نابليون" بالأدبيات الاستشراقية، التي احتلت مكانا كبيرا من وعيه بالشرق، فَحَمَلَتْهُ تعبيرٌ عن ولع فرنسي بمصر استمدَّ شرعيته من الشغف الغربي بالشرق، ففي تلك المرحلة المحتدمة بالتطلعات من تكوين الغرب الحديث كانت مصر إلهاما لـ "جلاب الحضارة"، وإحدى "العجائب التي تنتظر المستكشفين"، وسرا يلهب خيال الباحثين. وقد أرجع "روبير سوليه" الولع الفرنسي بمصر، عشية الحملة إلى مزيج من الأسباب الثلاثة الآتية: الذكريات التوراتية القديمة حول مصر، وأصداء الحروب الصليبية، ثم الصورة الخلابة لمصر في المخيال الغربي.»<sup>2</sup> انطلاقا مما سبق يمكنني القول إن كتابات المستشرقين والقادة العسكريين ساهمت إلى حد ما في احتلال الكثير من الأمصار الشرقية؛ لذلك فقد كانت نظرة المفكرين العرب حول ظاهرة الاستشراق متباينة، فكل يدلي برأيه في هذه القضية إلا أن هناك رأيين أساسيين الأول الذي يتزعمه "إدوارد

1. المرجع السابق، ص: 26

2. عبد الله إبراهيم. السرديات العربية الحديثة (1): تفكيك الخطاب الاستعماري و إعادة تفسير النشأة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2013، ص: 17

سعيد" الذي يشكك في نوايا المستشرقين ويصفهم بخدام الإمبريالية ومجسدي الهيمنة الغربية. أما الفريق الثاني، فهم المفكرون الذين رأوا بأن للمستشرقين الفضل الكبير في تحقيق الكثير من المخطوطات العربية والتعريف بالعالم العربي والإسلامي وأنصار هذا الفريق كثيرا ما حرصوا على تتبع حسنات المستشرقين لا سيئاتهم وزلاتهم. كما أنه لا يمكن إنكار دور الاستشراق في تجسيد صورة الشرق وهذا ما يجعل منه وسيطا مهما من وسائط تلقي الصورة كما هو الحال بالنسبة للاستغراب الذي يساهم بطريقة أو بأخرى في رسم صورة للغرب في المخيال الشرقي.

### 9. صورة مدينة خنشلة

#### 1.9. الطبيعة

يستهل الضابط الفرنسي "دومينيك فارال" حديثه عن منطقة "الناماشة" بتحديد الموقع الجغرافي للمنطقة التي شهدت العديد من المعارك العنيفة مع المستعمر الفرنسي، والتي يعتبرها «كتلة جبلية ذات مناظر طبيعية خلابة، مساحتها شاسعة تساوي مساحة عمالتين فرنسيتين. تقع جنوبي قسنطينة يحدها كل من القطر التونسي والصحراء وجبال الأوراس. وهي منطقة وعرة بسبب تكوينها التضاريسي ذي الرؤوس الجبلية المسننة والكتل الصخرية القاحلة والشعاب الضيقة التي تتخللها شبكة من الوديان المحصورة بين جرف بديعة المنظر. لكن وديانها تكون جافة في أغلب الأحيان.»<sup>1</sup> إن منطقة "الناماشة" من المناطق الشرقية الوعرة ذات التضاريس القاسية جدا، فهي محاطة بالكثير من الجبال الصخرية لكن هذا لا يلغي جمال طبيعتها الذي عبر عنه الكثير من الرحالة الذين زاروا المنطقة.

يستحضر الرحالة تاريخ البربر الذين يعيشون في هذه المناطق الوعرة والقاسية باقتباس أبرز ما قاله الجنرالات الفرنسيون الذين عملوا أو شاركوا في المعارك التي دارت في منطقة الأوراس على غرار الكولونيل "فانوكسيم"، والجنرال "مارسيل بيجار" هذا الأخير الذي وصف المنطقة بمعقل المتمردين وأنها من أكثر المناطق ترويعا بسبب

1. دومينيك فارال. معركة جبال النمامشة 1954 - 1962. تر: مسعود حاج مسعود، ص: 09

تضاريسها المشابهة لتضاريس القمر أما الجنرال "فانوكسيم" الذي تولى قيادة هذه المنطقة خلال حرب الجزائر فقد وصفها بمثابة أبواب الجحيم.<sup>1</sup>

أقام الرحالة الإنجليزي "هيلتون سيمسون" بالقرى الجبلية التابعة لدائرة "ششار" بخنشلة، وقد نالت إعجابه طبيعة المنطقة فقدم صورة إيجابية قائلا: «مرت أيامنا سارة بما فيه الكفاية، قضيت في التجول حول القرية، القيام بالأعمال المعتادة، محاولة تكوين صداقات مع السكان، أو الجلوس، تحت أشعة الشمس، بجانب مغارة باردة مبهجة، والتمتع بأصوات المياه الجارية والمتدفقة بين الصخور، إنه منظر ساحر ففي هذه الأرض القاحلة تتدفق المياه من على ارتفاع بضعة أقدام وتصب في حوض صخري.»<sup>2</sup> معروف عن المنطقة التي يتحدث عنها الرحالة طابعها الصخري غير أن الجبال الصخرية لم تسلب القرى المبنية حولها جمال طبيعتها، فوادي العرب الذي يشطر المنطقة إلى شطرين قد ألهم الكثير من الرحالة الذين عبروا عن إعجابهم الشديد به، وبذلك الشقوق والمغارات العجيبة التي تزين جبال المنطقة.

يعترف الرحالة الإنجليزي "هيلتون" بجمال الطبيعة وروعيتها خاصة المناظر التي تزخر بها قمم الأوراس العالية على غرار "شليا" وصولا إلى الشمال الغربي، أما عن جبال "ششار" فإن الرحالة يقول: «إن أعلى جزء من الحافة البيضاء لجبل ششار تبلغ حوالي ستة آلاف قدم فوق سطح البحر. لقد صادف مرورنا فصل الربيع حيث تزينت الهضبة العليا بالزهور البرية، الصفراء، البنفسجية، الوردية، البيضاء، والأرجوانية، بينما توهج الخشخاش الأحمر في حقول الذرة، وكم أدهشتنا تلك المناظر، وجدنا عددا من الأكواخ الحجرية المنتشرة الفارغة التي يسكنها أصحابها في وقت الحصاد فقط، أو عند ارتفاع حرارة الصيف. واجهنا عددا كبيرا من قطعان الأغنام والماعز ترعى على قمة التلال، على الرغم من انتماء سكان هذه القرية إلى البربر إلا أنهم يعيشون حياة البدو تحت خيامهم من المصنوعة من شعر الماعز. الشاوية يتنقلون صعودا وهبوطا من جبل

1. ينظر: المرجع السابق، ص: 18

2 .M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains .Pp: 230

ششار حسب الموسم من أجل الحفاظ على حياة قطعانهم دون الحاجة إلى نقلها إلى شمال الهضبة في فصل الصيف، مقارنة مع المناطق الشمالية التي تلتزم بالتجول بين الشمال والجنوب.<sup>1</sup> تأسيسا على ما جاء به الرحالة يمكنني القول إن فصل الربيع قد منح الحياة لجبال "ششار" الصخرية، غير أن الملفت للانتباه هو طبيعة الحياة التي يعيشها الشاوي الذي تولى عن منزله وسكن الخيمة كما يفعل جيرانه العرب، وهذا ما أراه تأثراً إيجابياً بعرب "بسكرة" وأن نسبة كبيرة جدا منهم يقيمون في الخيام في جبل "ششار"، وهذا ما يفسر العدد القليل من القرى الصغيرة الموجودة في المنطقة مثلما أشار "هيلتون". فطبيعة الحياة تفرض الاستعانة بالخيمة نظرا لتقلهم المستمر بحثا عن الكأ لأنعامهم باعتبارها مصدر رزقهم وعيشهم.

### 2.9. العمران

حظي الرحالة الإنجليزي "هيلتون" بزيارة لأحد منازل القُيادِ بششار، هذه الدعوات التي يعتبرها الرحالة الإنجليزي فرصة مواتية للتعرف على العربي عن قرب، فقد اكتشف الرحالة أن منزل القاييد قد «بني تحت إشراف أوروبي، كان صلبا، وفخما جدا، الغرفة كانت كبيرة وجميلة، ولكنها لا تحتوي على نوافذ، وذلك بسبب المتطلبات العربية فيما يتعلق بعزل النساء، وهذا ما يجعلها قبيحة... في الواقع لقد بنيت بشكل جيد حيث يبدو المنزل في شكل فريد، ففي الخارج هناك مجموعة من المساكن الخلابية للشاوية، ومناظر طبيعية رائعة.»<sup>2</sup> إن ما أورده الرحالة يذكرنا بما أورده الإنجليزي "اليدر" الذي ذكر بأن منازل القُيادِ عادة ما تكون فخمة وشبيهة بالمنازل الأوروبية، وهذا ما يوحي بحياة البذخ التي يعيشها الخونة، كما تجدر الإشارة إلى توارث منازل الأغنياء لخصوصية المنطقة، فعلى الرغم من بناء المنزل بالطريقة الأوروبية إلا أنها ظلت عازلة للمرأة العربية عن المحيط الخارجي، فشيئت المنازل من دون نوافذ، وبممرات خاصة بالنساء احتراما لخصوصية الثقافة العربية الإسلامية المحافظة.

1. المرجع السابق، ص: 225، 226

2. المرجع نفسه، ص: 230

من بين القرى الواقعة في جبال "ششار" التي زارها "هيلتون" أيضا قرية "جلال" هذه القرية التي «تقع على كتلة هائلة من الصخور ينحدر وادي الخصبة على نحو مائتي قدم من تحته، الجزء الأكبر من قرية جلال قد بنيت منازلها على الحافة، لا يمكن رؤية جلال عند القDOM من الشمال، فالمباني لا يمكن تمييزها عن الصخور التي تقف عليها... إنها تشبه عش النسر تحت الوهج، المناظر الطبيعية المحيطة بها لأبس بها، أما المنظر جنوب الوادي فإنه يمكننا من رؤية البساتين الخضراء وحقول الذرة التي تخفف من وطأة المناظر الجرداء، بإمكان المسافر أن يكتشف أيضا السفوح المنخفضة على حافة الصحراء، عند المساء تكتسي المنحدرات بالظلال الرمادية والوردية والأرجوانية، وهذا ما يميز التلال الصحراوية، أما خارجها فإن منظر الصحراء الواسعة بانورامي»<sup>1</sup> إن الصورة العمرانية التي نقلها الرحالة تعكس واقع ونمط المعيشة لدى سكان قرية "جلال"، هذه القرية المبنية على حواف جبل صخري، إذ يبدو جليا قدرة سكانها على العيش والتأقلم مع التضاريس الصعبة، فهذه المنطقة يمكن وصفها ببوابة الصحراء باعتبارها تقع بين التلال والصحراء.

توجه "هيلتون سيمسون" إلى قرية "تبردقة" بعد قضاء وقت كاف في قرية "جلال" من أجل مقارنة بعض من عاداتها وحرفها مع بقية المناطق الصخرية الأخرى، حيث وجد نفسه على «تلال تطل على حوض عميق، تتقاطع فيه أربعة وديان، في وسطها لوحة صخرية رائعة، تطلّ على جوانبه عدد من الحدائق المزينة بالدقلى. على هذه الربوة الصغيرة تجمعت منازل تبردقة والمسجد معا، بينما يقف مبنى كبير مستطيل الشكل يشبه السجن بعض الشيء بسبب قلة عدد النوافذ في جدرانه، بدأنا الصعود إلى القرية. الطريق يكفي لركوب بغل، حيث يؤدي الجدار الصخري للحوض الرئيسي، تدريجيا صعودا نحو البرزخ، غالبا ما نضطر إلى الاعتماد على أعناق البغال حتى نحمل رؤوسنا من الاصطدام بالصخور المتدلّية من فوقنا. تحتنا توجد قنطرة محضة للغاية من ثلاث مائة قدم إلى الحدائق والوادي... الاستمرار في طريقنا من خلال القرية يحيلنا إلى العديد من البيوت الصغيرة المبنية بالحجارة التي سقطت بسبب ظروف

1. المرجع السابق، ص: 227

الحرب.<sup>1</sup> إن الحديث عن واقعية الصورة التي قدمها الرحالة عن منطقة "تبردة" يستدعي الحديث عن تاريخها العريق إذ تعد واحدة من القرى التاريخية القديمة التي امتزجت فيها الحضارة الأمازيغية بالإسلامية، فهذه القرية الصغيرة المبنية وفق نمط هندسي عجيب على سطح صخرة عنيدة كانت قبلة للعديد من الزوار، والرحالة الأجانب الذين عبروا عن اندهاشهم من هندستها. فالقرية تجمع بين قساوة الطبيعة وجمالها في الوقت نفسه، فالطابع الصخري الحصين للمنطقة قد امتزج بروعة الطبيعة التي صنعتها الوديان وحدائق التين والرمان والمشمش والعنب وغيرها من الفواكه.

### 10. صورة مدينة باتنة

يقدم "هيلتون سيمسون" صورة إيجابية عن طبيعة مدينة باتنة، إذ تتسم بالجمالية، ولعل ما زادها جمالا هو الجبال المغطاة بالثلوج والوديان المنتشرة فيها وقد سمح له التنقل من القنطرة إلى "بني فرح" عن طريق البغال بالتمتع بتلك المناظر الخلابة.<sup>2</sup>

أما البلجيكي "جيل لوكليرك"، فيتحدث عن تأثير صورة العمران في هذه المدينة بالوجود الفرنسي قائلا: «باتنة هي قرية أسست سنة 1844 إبان الحملة على بسكرة. تم بناؤها على طراز المدن الأمريكية، بشوارع واسعة وسور مربع تماما. تقع على أزيد من ألف متر فوق سطح البحر، وهي مبتلاة بمناخ قاس: ذات برد شديد شتاء وحرارة مفرطة صيفا.»<sup>3</sup> إن مانقله الرحالة صورة واقعية مرتبطة بتاريخ الاستعمار، حيث سعت فرنسا جاهدة من أجل إقناع العالم بأن الجزائر فرنسية، فاستحدثت الكثير من القوانين وشجعت حركة الاستيطان وحاولت جاهدة طمس معالم الهوية الجزائرية ومن ذلك تغيير صورة العمران الجزائري.

1. المرجع السابق، ص: 229، 230

2. ينظر: المرجع نفسه، ص: 38

3. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة يوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر

لكنيزي، ص: 202

كما يتحدث الرحالة عن الآثار الرومانية الموجودة بالمدينة قائلا: «استكشفنا الأطلال الرومانية... جمعنا عينات جميلة من الفسيفساء وبقايا الفخار. وجمع رفيقي، الذي كان مهتما بعلم الحشرات، من وسط هذه البقايا الحشرة المثيرة المعروفة باسم إيليس. على مسافة من الحمامات ارتفعت الأطلال المهيبة للمحكمة، وهي واحدة من هذه البنايات المتينة ذات الجدران العملاقة التي تقدم فكرة سامية جدا عن قوة الشعب الملك.»<sup>1</sup> إن صورة الآثار القديمة التي نقلها الرحالة مرتبطة بعراقية المدينة، وتجعل من المدينة قبلة للكثير من السواح والرحالة الأوروبيين المهتمين بالجغرافيا والتاريخ.

### ثانيا: مدن الجنوب

#### 1. بسكرة

##### 1.1. الطبيعة

يعبر الرحالة الإنجليزي "س. ه. ليدر" عن إعجابه الشديد بمنظر الغروب في مدينة بسكرة ب: (بني مرة) قائلا: «المجد الرئيسي لبسكرة هو الساعة الرائعة من غروب الشمس، هذا المشهد الرائع، حيث تبدو الواحة لفترة من الزمن عالقة في جو عالم سماوي، أفضل ما نتمتع به في هذه العزلة... لن أنسى أبداً هذا المنظر.»<sup>2</sup> لا تخلو الرحلات الأوروبية من الإشارة إلى جاذبية وشاعرية منظر الغروب في الصحراء هذا المشهد الذي أسر الكثير من الأوروبيين المهووسين بمثل هذه المناظر التي تظل حkra على الشرق دون سواه، فقرروا السفر بعيدا عن أوطانهم بحثا عن مثل هذه الأجواء الفاتنة.

#### 2.1. العمران

يقدم "الجغرافي" جيلي لوكليرك" صورة مدينة "بسكرة" القديمة إذ تتكون من «عدة قرى متناثرة داخل الواحة. عبرنا ثلاثة منها: دائما نفس الحيطان الطينية ونفس المنازل بلا طوابق بلا نوافذ ذات لون قهوة بالقشدة؛ لكن في كل مكان هناك تنوع لا ينضب من البدلات الصفراء والحمراء والزرقاء والبيضاء. تعبر هذه القرى جداول مياهها متسخة

1. المرجع السابق، ص: 204

2. S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 18

بسبب العاصفة صار لها نفس لون المنازل: السكان لا يستعملونها على الأقل في طبخهم ووضوئهم.<sup>1</sup> تعكس الصورة العمرانية واقع المنطقة وإن كانت توحى بالسلبية فعمران المدينة متشابه وله خصوصيته التي تميزه عن العمران الأوروبي؛ فالوجود الفرنسي ساهم في وجود مدينتين قديمة للعرب وجديدة للأوروبيين لأن المدن التي أنشأها المستعمر تكون مهياة ومختلفة عن الأخرى.

يعبر الرحالة الإنجليزي "ليدر" عن سعادته بالدعوة التي تلقاها من أم صديقه "الطيب"، وقد شعر بفخر كبير لأنها مناسبة للتعرف على البيت العربي من الداخل خاصة ما تعلق بالمرأة العربية الغائبة عن الحياة الاجتماعية، وطبيعة العمران البسكري من الداخل، حيث يقول الرحالة: «ما إن وصلنا إلى البيت الطيني وعند وقفنا عند الباب كان علينا الالتزام بالتعاليم الإسلامية وهي التسليم قبل الدخول بعدها دفع الطيب الباب... كانت الغرفة كبيرة إلى حد ما، جدرانها مشيدة من الطين الخام والأرضية الطينية غير المستوية. لم يكن لديها نافذة، ولكن كان هناك ثقب مربع في وسط السقف الذي كان مدعوما بجذع من شجرة النخيل، لم يكن هناك أثاث مهم في الغرفة، لكن يمكننا أن نفهم من خلال الضوء الخافت المتسرب فقر "الطيب"، الحصائر منشورة على الأرض وتحل محل الكراسي والأرائك، لم تكن لدينا مضيئة محجبة، البيت يتألف من الغرفة التي كنا فيها، بالإضافة إلى غرفة أو غرفتين من الغرف الصغيرة التي لا تتوفر على نوافذ هي الأخرى، أما ما يشبه الدور العلوي فيستخدم كغرفة للنوم، كان هناك باب يؤدي إلى سقف المنزل الذي يحط عليه الكثير من الحمام، حيث ترسل الشمس أشعتها الدافئة، منظر السماء الزرقاء الصافية رائع، هذه الأجواء التي تفتقر إليها الأجزاء الداخلية من المنزل والتي خيم عليها الظلام.<sup>2</sup> يجسد الوصف الذي قدمه الرحالة صورة عمرانية تعكس طبيعة الحياة الصحراوية وخصوصيتها كإعدام النوافذ في المنازل، هذا النمط الذي تحدث عنه العديد من الرحالة الذين زاروا الشرق؛ إذ يرجعون السبب إلى مبالغة العربي في إخفاء حريمه عن أعين المارة وحتى زوار البيت الأجانب وتلك حقيقة راسخة في ذهن العربي

1. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب السائوري، مراجعة

الطاهر لكنيزي، ص: 214

2. S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 69-70

جزء منه مستمد من تعاليم الدين الإسلامي الذي يحث على الستر وعدم اختلاط المرأة بالرجال الأجانب، والجزء الآخر من ثقافة الحريم الراسخة في اللاوعي الجمعي للمجتمعات العربية.

يقف "اليدر" عند الفرق بين منازل الفقراء ومنازل الفُياد قائلا: «البيت يحتوي على مجموعة صغيرة من الغرف، المفصولة عن بقية المنزل الذي كان يشغله والديه وأطفالهم الآخرين. رغم أن العرب من هذا الصنف لا يعيشون في منازل طينية مثل الفقراء، إلا أن منازلهم قد بنيت مساكنهم بنفس الطريقة، مع طابق واحد فقط، ودون نوافذ حيث يتسرب الضوء من خلال فتحة واحدة أو فتحتين بالقرب من السقف في كل غرفة، الأجزاء الداخلية باردة فأشعة الشمس باهتة إلى حد كبير، حتى في أحر الطقس. لقد التقينا بخادمة عربية صغيرة، كان الجميع سعداء الابتسامات لا تفارقهم.»<sup>1</sup> إن ما أورده الرحالة لا يخرج عن الوصف الوقائعي لنمط هندسة العمران الجزائري في تلك الفترة، هذا النمط الذي انبنى وفق منظومة اجتماعية وثقافية رادعة ومحافظة لها خصوصيتها التي تميزها عن نمط الهندسة الأوروبية، حيث تفرض المبالغة في ستر الحريم نمطا هندسيا معينا يمنع أعين الأجانب من رؤيتهن.

أما فيما تعلق بطبيعة المنزل من الداخل وأهم الأثاث التي يمتلكها الفُياد فإن "اليدر" يقول أن غرفة الجلوس «أوروبية التأثيث، لأنه كان هناك طاولة وكراسي، خزانة كبيرة في إحدى الزوايا، كانت هناك أيضا ثلاث أو أربع صور لأطفال جميلين معلقة على الجدران. الأشياء الوحيدة التي تذكرنا خصيصا بالشرق كانت السجاد الجميل على الأرض، بعض ملاحقة الصواعق النحاسية، مع صنوبر رقيقة، وحوض، التي تستخدم للوضوء، بالطبع لم تكن هناك أي سيدة من الأسرة، فعلي من جلب القهوة كأنه نادل فرنسي في مقهى النهر الجليدي في المدينة. القهوة المحضرة في المطبخ العربي لذيدة جدا؛ قدم إلينا الكعك، وطبق من التمور البسكوية الذي نصحنا "علي" بتناوله مع بعض الجوز المقدم. هذا لم يكن وجبة أصلية حقيقية، ولكنه اختراع ابتكره علي كبديل للشاي.»<sup>2</sup>

1. المرجع السابق، ص: 76

2. المرجع نفسه، ص: 75،76

على الرغم من الرفاهية التي تظهر على منازل القُياد إلا أنها ما تزال محافظة على خصوصيتها الشرقية خاصة الأفرشة وبعض الأواني التي يستخدمها الجزائري يوميا، فضلا عن غياب المرأة الجزائرية وامتناعها عن الاختلاط بالأجانب امتثالا لتعاليم الإسلام وعادات وتقاليد البلد المحافظة.

من بين المدن الجنوبية التاريخية التي حط بها الرحالة الإنجليزي "ليدر" رحاله مدينة الفاتح العربي "عقبة بن نافع" (سيدي عقبة) التي يراها مختلفة تماما عن "بسكرة"، فهي حسب «مبنيّة بالطين وفقا للطراز العربي، كما أنه لا يوجد بها مبان فرنسية ولا تكتات عسكرية. شوارعها ضيقة جدا، ومحلاتها صغيرة كأنها ثقوب ومظلمة أيضا لكنها مليئة بالألوان، تنتشر جميع السلع في الشوارع الفواكه والخضروات، والملابس المواد، والأحذية الحمراء والصفراء، وأواني المطبخ كل شيء رائع في السوق. الشوارع مكتظة بالرجال والفتيان العرب... سيدي عقبة هي المركز الديني، أما بسكرة فهي العاصمة التجارية. إن سيدي عقبة مدينة المسلمين المتدينين من التي يحجون إليها من جميع أنحاء العالم.»<sup>1</sup> لا يختلف اثنان حول واقعية الصورة انطلاقا من تاريخ المدينة خاصة ما تعلق بفترة الفتوحات الإسلامية، فالمدينة التي سميت باسم الفاتح العربي الشهير الذي دفن على أرضها مع الكثير من الفاتحين العرب، فتاريخ المدينة سمح لها بأن تكون قبلة للعديد من السياح والمؤرخين المهتمين بالتاريخ الإسلامي.

ويتحدث البلجيكي "جيل لوكليرك" عن مسجد "عقبة بن نافع" قائلا: «ذهبنا إلى المسجد الذي يبدو أنه أقدم أثرية إسلامية بالجزائر؛ إنه بناية مثيرة جدا، بطابعها الساذج والبدائي: كله مبني بالطين، وتشرف عليه مئذنة مربعة كانت تتقلص في الأعلى. أرونا قبر سيدي عقبة، الذي كان محجا بالنسبة للمسلمين.»<sup>2</sup> المساجد من الأماكن المقدسة عند المسلمين، فضلا عن ذلك فإن مسجد الذي يأوي ضريح الصحابي الجليل "عقبة بن

1. المرجع السابق، ص: 100

2. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساورى، مراجعة

الطاهر لكنيزي، ص: 224

نافع" الفاتح يعتبر من أقدم وأشهر المساجد الموجودة بمدينة "سيدي عقبة" ويعد قبلة سياحية للمهتمين بالتاريخ الإسلامي أو السياحة الدينية.

أما "هيلتون سيمسون" الذي مر بواحة "جمورة" التي يسكنها "أولاد زيان" فقد تحدث عن سكانها مستعرضا تاريخهم وكيفية وصولهم إلى هذه المنطقة واستقرارهم بها، حيث عبر الرحالة عن إعجابه بعمران القرية قائلا: «مثل الكثير من واحات الصحراء، فقد بنيت البيوت الصغيرة بالطين في مجموعات متفرقة وهذا ما أضاف جمالية للمكان فضلا عن التلال التي المغطاة بالثلوج والتي تحيط بالقرية. غير أن لعنة جمورة تكمن في انتشار الأوساخ.»<sup>1</sup> نقل الرحالة صورة عمرانية هشة من الناحية المادية والهندسية، فالحالة الاجتماعية والبيئة القاسية التي يعيش فيها الإنسان الصحراوي فرضت نوعا بسيطا من العمران، أما عن انتشار القمامة، فله أسباب عدة لعل أهمها عدم رقي المدن الجزائرية إلى مستوى المدن المنظمة كنظيرتها الأوروبية لأسباب كثيرة سبق وأشرنا إليها.

أما من بين صور العمران التي شغلت حيزا من رحلة "أندريه جيد"، فننقل وصفه لقرية صديقه "عثمان" وهو يقول: «على قارعة الطريق، حيث يرقد والدا عثمان، تحت هدوء الليالي الباردة وحدها قبور الأولياء الصالحين البيضاء تضيء. ثم القبور الأخرى بلون الأرض، تمزج بغموض غبارها بالليل، النخيل يحيط بالمقبرة. عند أقدامهم يكشف ماء الساقيات عن نفسه وهو يتدفق. لا أغنية ولا عطر، ولا وشوشة. القصيدة الصعبة لهذا المكان، في هذه الساعة تتشكل من الفقر القاتل. الطريق تخترق القرية، الجميع نيام. لا وجود لفانوس أو نار في البيوت الطينية ذات اللون الرمادي، تذكرنا بسفرنا السابق في نفس الساعة والمكان. على جدار المسجد المتهدم. كانت بومة صغيرة تموء، لم يزعجها اقترابنا منها لكنها تنتظر إلينا بجدية ونحن ننظر إليها.»<sup>2</sup> على الرغم من براعة "أندريه جيد" في الوصف فإن سلبية الصورة تتوارى خلف جمالية أسلوبه وهي طبيعة الصحراء الجزائرية التي اتسمت آنذاك بالبساطة والبدائية.

1 .M.W.Hilton-Simson .Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains. Pp: 59

2. أندريه جيد. رحلة إلى شمال إفريقيا. ترجمة: محمود عبد الغني، ص: 29

## 2. وادي السوف

### 1.2. الطبيعة

تعلقت "إيزابيل إبيرهارة" بالصحراء الجزائرية و"بواد سوف" على وجه الخصوص منذ أول زيارة لمدينة ألف قبة وقبة في شهر أغسطس من سنة 1899. هذه الزيارة التي لم تدم طويلا إلا أنها سمحت لإيزابيل باكتشاف سحر وغموض مدينة الوادي التي وجدت فيها نمط الحياة الذي كانت تحلم به، حيث البساطة والهدوء والسكينة التي تسمح لها بأن تنمي ثقافتها وتبني نفسها بعيدا عن أجواء أوروبا المملة. فقد اعترفت "إبيرهارة" بحبها وعشقها للجزائر في أكثر من مناسبة قائلة: «أجل أحب بلد الرمال والحجارة هذا، بلد الجمال والرجال البدائيين هذا، بلد البحيرات المالحة، والسبخات الخطيرة»<sup>1</sup> لاشك أن "إيزابيل" قد وجدت في الجزائر ذلك الدفء والحنان الذي طالما كانت تحن إليه في أوروبا وهذا ما جعلها تقرر البقاء في الجزائر للأبد.

إن افتتاح "إيزابيل إبيرهارة" "بوادي سوف" دفعها إلى العودة إليها مجددا والتمتع بأجواء الصحراء التي أحببتها أكثر من أوروبا، -التي قطعت آنذاك أشواطاً متقدمة في الحضارة- فما إن عادت "إيزابيل" إلى مدينة الوادي حتى استرجعت أولى الذكريات التي ظلت تلازمها أينما ذهبت، فاكتشافها لسحر الوادي كان «اكتشافاً كاملاً، ونهاياً لصوف، ذلك البلد الفظ والرائع، بجماله الخاص وبحزنه الكبير أيضاً... تلك المدينة الغريبة ذات القباب الدائرية الصغيرة والعديدة متدرجة على السفح الأوسط لأحد الكثبان، فقد كانت تغير لونها ببطء»<sup>2</sup> إن عودة "إيزابيل" لمدينة الوادي لم تأت من العدم، بل هي نتيجة لافتتانها بأجواء المدينة التي جذبت "إيزابيل" الفتاة الشابة التي تخلت عن الحياة الجميلة والمريحة في أوروبا من أجل الغوص في أعماق الصحراء والساحرة والغامضة في الوقت ذاته.

1. إيزابيل إبيرهارة. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام

المودني، ص: 388

2. المرجع نفسه، ص: 47،46

تعبّر "إيزابيل" عن سعادتها بسفرها إلى مدينة "وادي سوف" واستقرارها بها قائلة: «كم أحسنت صنعا عندما رحلت عن أوروبا، واخترت البارحة الواد كمكان إقامة. إن تكن صحتي على ما يرام يتعين علي البقاء بالواد لأطول فترة ممكنة. وعلى الخصوص ألا يكون هذا الوقت ضائعا أبدا من كل الجوانب، وخاصة من أجل تطوري الثقافي والمعنوي والأدبي. إن شاء الله.»<sup>1</sup> إن اختيار "إيزابيل" لمدينة الوادي من أجل الإقامة فيها ومن ثمّ تطوير مستواها الثقافي والأدبي يوحي بمدى تعلق الرحالة بالجزائر من ناحية كما يوحي أيضا أن قساوة المناخ الصحراوي ليست عائقا في وجه الثقافة والمعرفة والإبداع الإنساني خاصة وأن الرحالة قد اعترفت أكثر من مرة على استلهاهم أفكارها من الأجواء الصحراوية.

تعبّر "إيبرهارة" عن افتتانها بمنظر غروب الشمس بينما كانت في طريقها إلى "توقرت" قائلة: «كان يترسم السراب البحري للكثبان الكبيرة على الطريق الأخرى المقفرة... متقرحا وغارقا في انعكاسات صبغت باصفار فاتح فضي على لون المغيب الأرجواني. لم يسبق لي أبدا أن رأيت المساء في أي بقعة على الأرض، يتزين بمثل تلك الروعة الساحرة.»<sup>2</sup> لقد ألهم منظر الغروب الكثير من الشعراء والرسامين باعتباره من أروع الظواهر الطبيعية الخالصة. وهذا ما دفع بالكثير من الرحالة الأوروبيين وحتى السياح في وقتنا الحاضر إلى السفر آلاف الأميال طلبا لهذه المناظر الممتعة، التي ألهمت "إيزابيل" وغيرها الأوروبيين الذين انبهروا بمنظر الغروب في الصحراء الجزائرية.

إن انبلاج الفجر في الصحراء لا يقل جمالا عن منظر الغروب، هذا المنظر الذي استوقف "إيزابيل إيبرهارة" أثناء تواجدها في عمق الصحراء الجزائرية، حيث تعلق الرحالة على هذا المنظر البديع بعد أن حظيت قبل سنتين من ذلك بفرصة لمعاينته يوميا، ولعدة أشهر بهجة انبلاج الفجر الناعم، وعظمة الليالي التي لا تضاهي... فمثل هذه اللحظات لا يمكن إيجادها أبدا، ومثل تلك النشوة يشعر بها المرء مرة واحدة وبمحض الصدفة. كما لا يخلو النص الرحلي "لإيزابيل إيبرهارة" من الوصف الرائع للصحراء

1. المرجع السابق، ص: 389

2. المرجع نفسه، ص: 50

الفاتنة فتارة تصف كثبان الرمال الذهبية التي تحيط بالمدن الصحراوية وتارة أخرى تبذع في وصف غابات النخيل. ففي وصفها للكثبان الرملية المحيطة بسيدي "مستور" من الجهة الجنوبية للمدينة التي تبدو كثبانها المستطيلة المنخفضة مثل دفتات المعدن المتأجج والمنازل التي تسطع بالأضواء بلون أحمر مائل إلى البنفسجي بكثافة لونية يتعذر تصورها.<sup>1</sup>

كما تتحدث الرحالة عن سحر الطبيعة الصحراوية عند "بني زريق" الساحرة، حيث ترتفع شجيرات برية بعناقيد رهيفة بنفسجية وفوق تموج الحلفاء الشديدة الخضرة وتشكل الخزامى والأفسنتين بقعا فضية. وفي ظل المصطكا الكبيرة تنثر أزهار النجمة نجومها الصغيرة الخبازية. كان ترفا بسيطا للأزهار وللحياة النباتية في قلب الحمادة.<sup>2</sup>

انطلاقا من الصور السابقة التي نقلتها الرحالة ينبغي الإشارة إلى أن الشرق المكتنف بالغموض، والمحاط بجمال الصحراء، والطبيعة الفاتنة الدهشة قد أثار في نفوس الرحالة الأوروبيين الحماس لزيارته لما يتميز به من فرادة تخصب الخيال وتثير الدهشة بتنوعه الذي استقطب الكثير من الكتاب؛ خصوصا رواد الرومانسية الذين وجدوا في الشرق ملجأ يريحهم من عناء الحروب التي شهدتها أوروبا آنذاك خصوصا الحرب العالمية الأولى والثانية «ليشكل الشرق وسيلة للهروب من المجتمع الغربي الذي لم يجلب للإنسان سوى الدمار»<sup>3</sup> ينبغي الإشارة إلى أنّ دوافع هذه الرحلات لم تقتصر على الهروب من الواقع كانت القاسي الذي كانت تعيشه أوروبا فقط، فالمتعمّن في هذه الرحلات سيدرك حتما أن هناك أسبابا عدة وراء تواجد هؤلاء الرحالة بالشرق، حيث نجد من بينهم العلماء ورجال الدين دون أن ننسى هواة السفر، والترحال الذين شغلهم مصطلح الشرق كثيرا لما رأوا فيه من اختلاف وخصوصية سوسيوثقافية تدعو إلى كشف النقاب عن هذه العوالم التي كثيرا ما وصفوها بالعجائبية. فقد أضحى كل ما يتعلق بالشرق

1. ينظر: المرجع السابق، ص: 47، 50

2. المرجع نفسه، ص: 270، 271

3. ماجدة حمود. «صورة الشرق لدى هرمان هيسه». مجلة دمشق، المجلد 19(2+1)، 2003، ص: 74

بالنسبة لهؤلاء أمرا عجيبا وغريبا في كثير من الأحيان، فليالي الصحراء تختلف كثيرا عن أجواء أوروبا الباردة.

### 2.2. العمران

تتحدث "إبيرهارة" عن الطابع الشرقي لمدينة الوادي التي تخضع لقائدين قائد "أعشيش" وقائد "المصاعبة" قائلة: «مدينة عربية خالصة شيدت على سفح كثيب رملي مرتفع، بمنازل جبسية بنيت من قبل الصوافة (سكان صوف). والمدينة على هيئة شرقية وذات بياض مثالي. وتتميز فيها المباني الفرنسية بطريقة واضحة جدا، حيث المكتب العربي، والثكنة والبريد والمدرسة والجمرك.»<sup>1</sup> إن هذه الصورة التي نقلتها الرحالة عن مدينة الوادي مازالت تحافظ على طابعها العربي الراقي خاصة ما تعلق بعمرائها الذي لم يتأثر كثيرا بالوجود الفرنسي.

أما عن أهم المباني التي توحى بالطابع الإسلامي للمنطقة، فإننا نجد فيها «محكمة القاضي، ومسجد عزيزلة وأولاد خليفة والمصاعبة الغربية، وسيدي سالم، وأولاد أحمد، ومسجد زاوية سيدي عبد القادر.»<sup>2</sup> إن انتشار المساجد والزوايا في مدينة الوادي قد عزز الطابع العربي والإسلامي للمدينة خاصة وأن الفرنسيين كانوا يشيدون أحياء وبنيات أوروبية حديثة من شأنها أن تشوه الطابع الشرقي للمدن الجزائرية.

### 3. المسيلة

#### 1.3. العمران

إن حياة التيه التي أبت أن تعيشها "إيزابيل إبيرهارة" متتكرة في زي رجالي وباسم سي "محمود السعدي" مكنتها من الغوص في أعماق الصحراء بحثا عن الهدوء والسكينة التي كانت تحلم بهما، وسمح لها بالتعرف على العديد من المدن الصحراوية على غرار مدينة "المسيلة" التي تشبه "بسكرة" كثيرا حسب الرحالة ذلك أنها تنقسم إلى

1. إيزابيل إبيرهارة. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام

المودني، ص: 86

2. المرجع نفسه، ص: 86

مدينتين الجديدة والقديمة، وتمر «الطريق من بوعريريج إلى المسيلة عبر مناطق منعزلة يابسة تارة، ومستقيمة تارة أخرى... كانت المدينة العتيقة تأخذ هيئات صحراوية تماما، بمرابطيتها ذوي الأشكال الغربية الشبيهة بمرابطي واد رير وبساتينها المعتمة.»<sup>1</sup> لعل ما يبرر مصداقية الصورة التي نقلتها الرحالة حول الطريق المؤدية إلى مدينة المسيلة هي الوجود الاستعماري الفرنسي الذي سعى جاهدا إلى محو الخصوصية العربية الإسلامية في الجزائر، فقام ببناء مدن على المقاس الأوروبي توازي المدن العربية لذلك وجدت "إيزابيل" أن مدينة "المسيلة" قد انقسمت إلى مدينتين واحدة جديدة والأخرى قديمة أما الجديدة فهي تأثرت بالوجود الفرنسي الذي يتميز عمرانها عن العمران المحلي أما القديمة، فهي المدينة العتيقة التي صمدت أمام الحملة الفرنسية التي استهدفت العمران المحلي.

غير أن ما استوقف "إيزابيل" بالمدينة القديمة هو جمالها الصحراوي، فالمسيلة على حد قولها: «فاتتة مثل قصر صحراوي. والواد الذي يحمل اسمها، يشطرها نصفين، صابا في عمق واد واسع وعميق على حصبات. ويربط جسر حديدي بين المسيلتين. كنا في المسيلة الجديدة ذات المباني الجديدة، وحيث الشوارع واسعة، وحيث لا توجد أماكن ظل أو غموض، حيث تمت التضحية بكل شيء، حتى بالرفاهية، لفائدة الذوق الرومي ذي الخطوط المستقيمة.»<sup>2</sup> أما الضفة التي يسكنها العرب فهي تختلف كثيرا عن المدينة الجديدة لمحافظةها على الأصالة والخصوصية الصحراوية ففي الضفة العربية «تقوم المدينة العتيقة، متزاحمة وسديمية بكل منازلها المشيدة بالطوب الأسود، وشوارعها التي لا تحمل أسماء، ومن دون تراصف ومن دون بلاطات، لطيفة بأشياءها غير المتوقعة، مع أنها متشابهة.»<sup>3</sup> إن انقسام مدينة "المسيلة" إلى مدينتين متميزتين ينم عن صراع ثقافي كبير من أجل البقاء، فالفرنسيون يحاولون نقل الخصوصية الأوروبية إلى الجزائر من أجل طمس ملامح الهوية الجزائرية بكل الوسائل، فقاموا ببناء مدن حديثة تخضع للذوق

1. المرجع السابق، ص: 511، 512.

2. المرجع نفسه، ص: 129.

3. المرجع نفسه، ص: 129.

الفرنسي في حين تمسك العرب ببيوتهم القديمة ذات الطابع الصحراوي الذي ينم عن أصالتهم.

### 4. بوسعادة

#### 1.4. العمران

تُعبّر "إيزابيل" عن الشعور الذي انتبأها لما رأّت "بوسعادة" لأول وهلة قائلة: «عندما رأيت بوسعادة بدت لي جميلة، متوجة بالشمس مذهبة ومرصعة بالون الزمردى الزاهي في حدائقها ! يتدفق واد بوسعادة، بمسار كبير عند سفح المدينة، على حصبات بيضاء. وعلى اليسار يفيض فوق الأسوار المشيدة بالطوب الأصفر والبساتين الغزيرة مثل غابة عذراء متوجة بزينة الريش الملكية لأشجار النخيل. وعلى اليمين تبرز البيوت المرتفعة عن الأرض المنتظمة في فوضى جميلة وصحراوية جدا من حزام أشجار التين والدفلى وأشجار الرمان.»<sup>1</sup> لا يخرج ما جاءت به "إيزابيل" عن الوصف العام للمدينة فهي تحاول نقل صورة حية للمدينة.

تبدو بوسعادة للرحالة كما المسيلة، فقد شطرها الوادي العميق الذي يمر بها إلى مدينتين مفصولتين تتصلان بجسر وفي إحدى «المدينتين هناك البنايات الأوروبية، والمكتب العربي وبناية العدالة والسلام، أما في المدينة الأخرى فهناك أكاداس البيوت المشادة من التراب العتيق المعجون، وهي تمثل بوسعادة الحقيقية. والمدينة المزدوجة محاصرة وسط تلال حمراء مرتفعة تطل عليها الجبال، الغربية لسلسلة الجنوب، المنضدة والتي تعلوها أسطح منحدره وبعضها مائل.»<sup>2</sup> يبدو أن الوادي قد فرق بين الأوربيين وبين العرب، علاوة على تباين النمط العمراني العربي والأوروبي، فلكل سماته وخصائصه هذه الخصائص التي نميزها بسهولة تامة، فعرب الصحراء اعتادوا على بناء منازلهم بالطين وهذا ما لا نجده عند الأوربيين فضلا عن تميز الأحياء الأوروبية بمرافق عامة على غرار در البلدية والمحكمة.

1. إيزابيل إيبهرارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام

المودني، ص: 134

2. المرجع نفسه، ص: 134

أما من بين الزوايا التي قامت الرحالة بزيارتها زاوية "الهامل" ببوسعادة والتي بدت لإيزابيل في المرتفع «هيكلًا ببنائيتين كبيرتين، إحداهما بيضاء جدا، وبمظهر أوروبي، والأخرى مشيدة بالطوب ومضاءة جدا بفتحات نادرة ضيقة وفي الأعلى تتكدس بيوت ترابية، ثم قرية قبيلة الشرفاء، وهي عبارة عن تكدس فسيفسائي لبيوت ذات طراز قديم، ثم تلك المباني المشيدة بالطوب. وفي الأسفل كانت أشجار النخيل تشكل بحرا من الخضرة تماما مثل سرداق رائع.»<sup>1</sup> لا يخرج ما جاءت به "إيزابيل" عن الوصف العام. كما تشير الرحالة إلى البيوت المشيدة بالطوب على ما يشبه نطاقا متفردا والذي يمكن اعتباره انعزالا آخر للطلبة.

### 5. بشار

#### 1.5. العمران

تقدم "إيزابيل إيبهرارت" صورة شاملة لمدينة "بشار"، حيث تصف عمرانها الذي جاء في شكل قصور متداخلة قائلة: «وفي الداخل، على الأرض الناعمة والصامتة، عبرنا شوارع صغيرة مخربة وممرات طويلة مكشوفة وشديدة العتمة حد أن المرء يمشي داخلها في واضحة النهار خبط عشواء... لم يكن هناك إلا الركام. ذلك أن المنازل العالية المشيدة بالطوب، وبعضها من طابقين، كانت تتزاحم بعضها في بعض وصولا إلى الشوارع. وفي بشار، كما في كل القصور، كان كل شيء ينام، وكل شيء يتداعى، ويخبو النشاط الصحراوي المجهد ببطء، وتتضرب مصادر النشاط، ويتقل خدر احتضار ثقيل على المحاولات الموعودة لبعث حياة حضرية مجددة وسط الصحاري الموقوفة للبدو الرحل.»<sup>2</sup> إن مانقلته الرحالة هو أهم ما يميز عمران الجنوب الجزائري هو تلك الطريقة التي بني وفقها، حيث تتداخل المنازل ذات الطابقين فيما بينها وتتلاحم كأنها قصر واحد يحتوي على العديد من الممرات الضيقة والمتشابكة فيما بينها، فضلا عن القصور المشيدة بالطين. أما عن أسباب خمول المدينة فربما يعود الأمر إلى صعوبة مناخها وقلة الموارد التي تساهم في ازدهار الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمدينة.

1. المرجع السابق، ص: 136

2. المرجع نفسه، ص: 275

6. سعيـدة

1.6. العمران

زار "غي دو موبسان" العديد من المناطق الصحراوية مما سمح له بالتعرف على طبيعة الحياة الصحراوية التي كثيرا ما وصفها بالصعبة والشاقة نظرا لقساوة البيئة وبساطة وبدائية الحياة التي يحيها سكان الجنوب، أما من بين المدن الجنوبية التي زارها إن لم نقل مر بها "موبسان" مدينة "سعيـدة" التي وصفها بالمكان السحيق تحيط بها تلال جرداء. يمر بها نهر صغير يسقي حقول الناحية التي تنبت فيها كروم جميلة. كما يعتبر الرحالة المدينة مدينة عسكرية بامتياز، فأغلب من يسكن هذه المدينة الصغيرة -المبنية على الطراز الفرنسي- جنرالات فرنسيون لا يلقون احتراما من قبل المدنيين خاصة وأنهم فشلوا في تحديد مكان الشيخ "بوعمامة"<sup>1</sup>.

لا يفوت "موبسان" فرصة الحديث عن العمران الصحراوي الذي كثيرا ما يصفه بأنه مجرد «تجمع سكاني، تكدس مكعبات وحل جففتها الشمس، تلتصق كل أكواخ الطين الصلب المربعة هذه ببعضها ببعض تاركة حيزا من الخطوط العشوائية فقط يشكل ما يشبه رواقا ضيقا، وأزقة كالممرات التي يخلفها عبور المواشي المنتظم.»<sup>2</sup> فالمعروف أن لكل منطقة سمة تميز عمرانها ولعل ما يميز عمران الجنوب الجزائري في تلك الفترة هو تلك الهندسة المتواضعة التي تعتمد على مواد بناء بسيطة عادة ما تكون من الطين والقش مما يجعل من هذه البناءات مجرد مكعبات غير جذابة. أما اعتماد سكان الجنوب على تلك المواد وهذه الهندسة الجد متواضعة يعود إلى الظروف الاقتصادية والثقافية للبلد آنذاك.

يواصل "موبسان" استهزائه بالمدن الجزائرية وهو يتحدث عن إحدى مدن الجنوب الكبير التي يرى أنها عبارة عن «تجمّع سكاني، تكدّس مكعبات وحل؛ جففتها الشمس، تلتصق كل أكواخ الطين الصلب المربعة هذه ببعضها، تاركة حيزا من الخطوط العشوائية فقط، يشكّل ما يشبه رواقا ضيقا، وأزقة كالممرات التي يخلفها عبور المواشي

1. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادبة عمر صبري، ص: 17

2. المرجع نفسه، ص: 91

المنتظم»<sup>1</sup> تظهر الصورة التي نقلها "موبسان" المدن الجزائرية مدنا فقيرة جدا متعبة من الناحية الهندسية ومبنية بطريقة فوضوية، فهي لا تتوفر على سمات جمالية تستقطب من خلالها المشاهد وتبعث الراحة والطمأنينة في نفوس حتى سكانها.

إن الوصف المنفر الذي وصف به "موبسان" العمران الجزائري ينبع من النظرة الاستعلائية التي ظل الغرب يمارسها على الشرق، فقد أصدر الغرب حكم التشدد على الإسلام دون علمه بمبادئه وأحكامه وهذا الحكم لا يصدر إلا عن نظرة تفتقد إلى الحجة والمنطق، «فمن خصائص الخطاب أنه استطاع بعد سجل حافل خلق شرق متخيل من جهة، كما لم يتوقف عند هذا الحد، بل راح يحاول مليا تثبيت هذا الشرق في قوالب ثابتة، فالغرب سيبقى غربا متحولا وديناميكيا إذا تأكد أن الشرق سكوني، والغرب يروم دائما أن يبقى الشرق ستاتيكا كي يستطيع التحكم فيه وترويضه وفهمه والهيمنة عليه»<sup>2</sup> إن هوس الغرب وإغراقه في النرجسية والتعالي سوغ له بتصوير ووصف الشرق المسلم بعديد الصفات التي تخالف واقع الإسلام والمسلمين الذين صوروا كمتخلفين وجهلة ومتعصبين...

يستدعي الحديث عن الحياة الصحراوية الحديث عن الخيمة العربية التي تعد واحدة من أبرز مفردات الحياة البدوية القديمة والحديثة معا. فهي بيت البدوي الذي يحمله معه كلما ارتحل، وفي وصف "موبسان" للخيمة الصحراوية لاحظ أنها ليست أكثر حظاً من بنايات الجنوب؛ لأنها لم تكن بيضاء وساطعة في الشمس كما تصورها، فهي «بنية متسخة ومشطبة بالأصفر، كما يبدو قماشها السميك المكون من وبر الجمال والماعز خشنا. الخيمة منخفضة جدا ولا يكاد يقف المرء داخلها واسعة جدا وتسندها أعمدة بشكل عشوائي. كل جوانبها مرتفعة مما يتيح مرور الهواء تحتها بسهولة. رغم الاحتياطات المتخذة تظل الحرارة مرهقة خلال النهار في بيوت الكتان هذه، غير أن قضاء الليل فيها ممتع، ونام بشكل رائع على سجاد " جبل عمر" السميك والجميل، رغم الحشرات التي

1. المرجع السابق، ص: 91

2. وحيد بن بوعزيز. جدل الثقافة مقالات في الآخريّة والكولونيالية والديكولونيالية. ص: 133

تعشعش فيه.»<sup>1</sup> صحيح أن الخيمة التي قضى فيها "موبسان" ليلته لم تكن كتلك التي كان يتصورها أو كتلك التي قرأ عنها في كتاب "ألف ليلة وليلة" غير أنه لا بد من الإشارة إلى أن مثل هذه الخيام التي يسكنها البدو مصنوعة من مواد محلية بسيطة لا تخرج عن صوف الأغنام ووبر الجمال التي يرببها البدو. لكن هذا لا يمنع من وجود خيام فاخرة عند الأغنياء أو زعماء القبائل مثلما أشار العديد من الرحالة.

يقدم القائد العسكري الفرنسي "أدريان بير بروجير" وصفا لخيام العرب الذين أقام الوفد عندهم ليلا في أحد الأكواخ "القوري" حيث لا يوجد عند أهل "عريب حمزة" حسب الرحالة «سوى الخيام أو (القيطونات) وهذه الخيام مصنوعة من شعر الماعز، وهي تسمى أيضا بيت الشعر. والقماش (الفليج) لا يلامس الأرض إلا من أطرافه على جانبي الطول.»<sup>2</sup> تبدو الخيمة بدائية جدا نظرا للمواد المستعملة، فهي محلية لا تكاد تخرج عن بيئة هؤلاء الذين يستعملون شعر الماعز والقماش في صناعة الخيام التي تأويهم.

أما الخيمة من الداخل، فهي حسب "أدريان" «دائما مقسمة إلى قسمين متساويين بقاسم (حاجز) يتألف من عدة أعمدة توضع بينها المؤونة المخزونة في جلود الحيوانات، وبعض الأمتعة وأسلحة رب الخيمة، والجزء الواقع على يمين الداخل مخصص للرجال، (...) وعلى يمين الجزء وفي الطرف الأخير هناك مكان منخفض وضيق توضع فيه عادة الحيوانات حديثة الولادة (...) أما على اليسار فيوجد المكان المخصص للحريم، وهو أيضا ينقسم إلى جزأين، قاعة النساء وهي في نفس الوقت غرفة لنومهن ومطبخ واقع في آخر الخيمة. وعند مدخل الخيمة تعلق الشكوى المليئة باللبن أو القربة المليئة بالماء.»<sup>3</sup> على الرغم من بساطة الخيمة إلا أن هذا لم يمنع أبدا من إحداث تقسيمات داخل هذه الخيام وفق ما تقتضيه ضروريات العيش في البادية. فالضابط أبدى إعجابه بالشكوة والقربة اللتان تزينا مدخل الخيمة.

1. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 66

2. أدريان بير بروجير. مع الأمير عبد القادر. تر: أبو القاسم سعد الله، ص: 55

3. المرجع نفسه، ص: 56-57

يقدم "أدريان" وصفا لخيمة الأمير "عبد القادر" المسماة بـ: "الوطاق" قائلا: «تظهر من الخارج مهللة أما من الداخل فلها مظهر يتناسب مع الغرض الذي جعلت له، والوطاق يتألف من قماش مزخرف بزخارف عربية كبيرة مؤلفة من الألوان الصفراء والحمراء والخضراء، وقبالة المدخل أي وسط الخيمة تقريبا يوجد حرم صغير يحتوي على صناديق مغطاة بالزرابي، وفي هذا الحرم كان يجلس الأمير متكئا على بعض الوسائد، وعلى يساره حوالي ثلاثين مجلدا من الكتب، وعلى يساره فقد وضعت أسلحة فاخرة، ومرصعة، وعند قدميه لاحظنا صندوقا مملوءا بالنقود، وفوق رأسه كانت تتدلى ستائر من قماش يسدل حتى يلامس الأرض عندما يراد فصل الخيمة إلى جزئين وكان كبير الكتاب أو الخوجات عن يمين الأمير وأحد الشواش عن يساره.»<sup>1</sup> إن الوصف العام الذي قدمه الضابط الفرنسي يظهر خيمة الأمير أحسن بكثير من الخيام المحلية، فالزخرفة العربية المرسومة على قماشها الملون زادت من جمالها. كما تظهر كأنها مكتب، فالكاتب ترافق الأمير أينما ارتحل دونما أن ننسى الأسلحة الفاخرة التي أهديت له ما أضفى جمالية على الخيمة.

### ثالثا: البساتين والواحات

تعقد "إيزابيل إبيرهات" مقارنة بين البساتين العربية والفرنسية مشيرة إلى تفوق الآخر الجزائري على الفرنسي في الاعتناء ببستانه، وقد توصلت إلى هذه النتيجة لما رأت بستانا أوروبيا فيه «نباتات ميموزا جائعة، وأشجار توت ضامرة وفي غير موضعها، والكل محاط بشكل يدعو للحزن بالعوسج الاصطناعي، مثل تلك البساتين ذات الصفوف المتماثلة من دون أشياء لا يمكن توقعها، ومن دون سحر، تدعو إلى الرثاء مقارنة بروعة البساتين العربية التي تعمر كيفما اتفق بخيال مبدع قريب جدا من الطبيعة وبمثل ثرائها!»<sup>2</sup> على الرغم من تبني "إيزابيل" الطابع التعميمي في حكمها على فشل الأوروبيين في الاعتناء ببساتينهم يمكنني القول إن الجزائري قد نجح في إضفاء الطابع الجمالي

1. المرجع السابق، ص: 62، 63

2. إيزابيل إبيرهات. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). تر: عبد السلام

المودني، ص: 135

لبستانه خاصة وأن المجتمع الجزائري زراعي، فليس للجزائري دخل سوى ما يجنيه من بستانه أو حقله. فالأرض بالنسبة للجزائريين كانت ولا زالت تشكل مصدر رزق بالنسبة لهم ما يعني مزيدا من الاهتمام والتفاني في العمل داخل الحقول والبساتين.

تتعمق "إيزابيل" أكثر في أسباب شحوب البساتين الأوروبية قائلة: «الجنود العابسون، والأسرى المساكين ذوو الثياب الرثة، وحراسهم لا يعرفون مثل الفلاح الجاهل والشاعر، كيف تطعم الدالية ذات الأوراق فاتحة اللون مع الأوراق الداكنة لأشجار التين، وكيف تلقى وردة الدفلى الفاتحة وسط أشجار النخيل القوية والحمراء الموردة لأشجار الرمان في الظل الكثيف لأشجار التفاح.»<sup>1</sup> لابد من الإشارة إلى قلة خبرة الجنود والأسرى فيما تعلق بالزراعة أو البستنة، فأغلبهم ليست له صلة بالنشاط الفلاحي كما هو الحال بالنسبة لأصحاب الأرض حتى المعمر الفرنسي لم يكن ليجرؤ على خدمة الأرض مثل الجزائري لذلك وجدناهم يستغلون أصحاب الأرض فيوظفونهم كخماسة لديهم.

في حين يذكر الرحالة الإنجليزي "هيلتون" أنه تلقى العديد من الدعوات من عرب الصحراء لزيارة بساتينهم وحدائقهم وقد سمح له ذلك بالتعرف على مختلف المحاصيل الزراعية التي يتم زراعتها فقد اكتشف أن أغلب سكان "القنطرة" «يمتلكون واحات نخيل غير أنهم لا يعتمدون كثيرا بزراعة الأراضي الموجودة بالواحات وأنهم يكتفون بزراعة بعض الفاصوليا الحمراء والفلفل والقرع وما إلى ذلك من الخضر وهذا ما يجعل مزارع البربر أفضل، فعلى الرغم من وقوع القنطرة حوالي 1500 قدم فوق سطح البحر إلا أن مناخها لا يساعد على الزراعة فالأمطار قليلة أما الثلوج التي تذوب من القمم الجبلية فهي لا تكفي لسقي أشجار النخيل وهذا عذر كاف لضعف الإنتاج الزراعي للمنطقة.»<sup>2</sup> إن شدة اهتمام الرحالة الإنجليزي بمختلف التفاصيل المتعلقة بحياة الجزائري قد دفعه إلى تتبع أخباره ونمط معيشته بدقة حتى يتمكن من تأليف كتاب شامل عن المنطقة فراح يتحدث عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمنطقة بإسهاب كبير. أما عن واقع الزراعة

1. المرجع السابق، ص: 135

2. M.W.Hilton-Simson .Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains. Pp: 23-24

في المنطقة، فيمكن وصفه بالمتواضع جدا نظرا لمناخ المنطقة القاسي مقارنة بمناخ منطقة الأوراس الذي يساعد كثيرا على ممارسة السكان للنشاط الفلاحي. فضلا عن اهتمام سكان الجنوب بواحات النخيل باعتبارها مصدرا للرزق.

يرى الرحالة في المقابل أن البساتين والحدائق التي رآها في "بني فرح" تشغل «مساحة كبيرة من القرية وهذا ما يجعلها مختلفة عن الواحات الصحراوية حيث تنمو فيها أشجار المشمش، الجوز، الزينون، التين، السفرجل، والقليل من النخل غير المكتمل بسبب المناخ. وهذا ما يجعل من فلاحي بني فرح أفضل من جيرانهم العرب نظرا لوفرة الأمطار في المنطقة... أما عن طريقة سقي المحاصيل، فإن الفلاحين يعتمدون على القنوات التي تنقل وتحول مجرى المياه من الأنهار والوديان المسماة بالساقية -المنتشرة بكثرة في الأوراس- والتي تعود للوجود الروماني في الجزائر.<sup>1</sup> إن ما جاء به الرحالة يمكن وسمه بالوصف العام لواقع الزراعة في منطقة "بني فرح" وما وصفه هو الطريقة التقليدية - المتوارثة جيلا بعد جيل- التي يعتمد عليها سكان المنطقة في سقي محاصيلهم.

أما عن ازدهار القنطرة، فإن الرحالة يرجح أسبابه إلى «واحات النخيل العظيمة التي تنتج التمور، التي لا تعتبر الثروة الوحيدة بالنسبة لسكان المنطقة الذين يمتلكون أيضا قطعان الأغنام والماعز الهزيلة التي يضطر صاحبها إلى الابتعاد بها عن الواحات بحثا عن الكأ.»<sup>2</sup> لا يكتمل جمال الصحراء من دون واحاتها الخضراء المزينة بالقنوان الدانية التي يمكن وسمها بالثروة الأساسية لسكان الجنوب. أما فيما تعلق بانتقال سكان الصحراء الدائم إنما تحكمه عدة ظروف أهمها توفر الماء والكأ لأنعامهم التي تعد أيضا مصدر رزق بالنسبة لهم.

لا يخرج "ليدر" عما جاء به ابن بلده "هيلتون"، حيث يشير إلى ازدهار إنتاج محصول التمر "بيسكرة" قائلا: «تشتهر بسكرة بتمورها يتم الحصاد على قدم وساق عندما وصلنا في نوفمبر وقمنا بزيارة الواحات حيث كان العرب يجنون التمر، كانت العربيات التي تجرها الجمال محملة بصناديق التمر. أصناف التمور المزروعة في أفريقيا

1. المرجع السابق، ص: 43،42

2. المرجع نفسه، ص: 24، 25

لا حصر لها في العدد، ومحصول أشجار النخيل تختلف أسعاره. أعتقد، من استفسارات مختلفة، بإمكانني القول أن متوسط العائد لكل شجرة يستحق حوالي ثمانية فرنك إلى ثلاثين فرنك. هناك حوالي 300000 نخلة في واحة بسكرة، من السهل فهم مدى أهمية هذا المحصول بالنسبة للسكان.<sup>1</sup> تجسد الصورة التي نقلها الرحالة واقع مدينة بسكرة إذ لا يختلف اثنان في مكانة هذه المدينة الاقتصادية بفضل إنتاجها الوفير لمحصول التمر. وهذا ما دفع الرحالة إلى وصفها بالمدينة الاقتصادية نظرا لأهمية هذا المحصول في حياة الجزائري، فالمجتمع الجزائري كان زراعيًا بامتياز آنذاك وكانت الزراعة تشكل الدخل الوحيد للجزائري، فضلا عن مكانة التمر في الثقافة الدينية الإسلامية.

يعتمد الميزابيون كغيرهم من شعوب العالم الزراعية على السدود التي تعتبر أحد أهم البنى التحتية التي تقوم عليها الزراعة، فلا حياة ولا زراعة من دون ماء لذلك قال "موسان": أنه «يوجد في ميزاب عدد كبير من السدود لتخزين مياه الأمطار، وبذلك تكون هذه المنطقة أكثر تقدما من جزائرتنا. الأمطار هي السعادة والرفاهية المحققة، العامل المغيث لأهل ميزاب. وعليه ما إن تهطل الأمطار حتى يمتلك السكان نوع من الجنون. يخرجون إلى الأزقة يطلقون الأعيرة النارية، يغنون ويجرون في الحدائق والنهر الذي يعود للجريان وإلى السدود التي يعتني بها كل مواطن. وما إن تعرض واحد منها إلى تهديد أو تلف يهرع الجميع للمساعدة.»<sup>2</sup> أمر طبيعي أن يفرح سكان الصحراء بالأمطار فلا يمكن تخيل الحياة في الصحراء من دون ماء لذلك، فقد اعتمد هذا الشعب العظيم على بناء العديد من السدود التي من شأنها تغطية حاجيات هذا المجتمع الذي يعتمد على التجارة والزراعة في حياته. كما أن هبة الجميع من أجل إصلاح السدود التالفة أو المهتدة بالتلف توحى بوعي الميزابي بضرورة العيش المشترك القائم على الاهتمام بالسدود والسهر على سلامتها. فالميزابيون أدهشوا "موسان" بشدة تنظيمهم فراح يصف مجتمعهم في كل مرة بالجمهورية. فعملهم الدؤوب وتحكمهم في العديد من الحرف فضلا عن حكمتهم ساعدهم كثيرا على جعل أكثر المناطق وحشة في الأرض بلدا أخضرًا حسب "موسان".

1 .S. H. Leeder .The desert gateway Biskra and thereabouts. Pp: 247

2. غي دو موسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 96

### رابعاً: الحيوانات البرية

يتحدث الرحالة الجغرافي البلجيكي "جيل لوكليرك" عن أهم الحيوانات البرية<sup>1</sup> الموجودة في منطقة القبائل قائلاً: «البلد الذي نسير فيه له طابع إفريقي تاماً: الجبال المنتصبة في الجنوب حارقة ومكلسة. توجد في كل مكان غابات الزيتون البري: ويمكن الاستفادة منها بتطعيمها. لا بد أن تكون هناك حيوانات برية في هذه الغابات كالفهود والضباع والخنازير وربما الأسود، لأن جبال القبائل هي قمتها المفضلة.»<sup>2</sup> تجسد الصورة التي نقلها الرحالة واقع منطقة القبائل وما فيها من تنوع نباتي وحيواني للأراضي الجزائرية في تلك الفترة. فالجزائر بلد إفريقي وإفريقيا من القارات التي تزخر بمختلف الحيوانات البرية النادرة في العالم.

بينما يتحدث "شلوصر" عن وجود الأسود في الجنوب قائلاً: «وهذه الجبال هي مسكن الأسود أيضاً، فيشاهد المرء قطيعاً منها، يتراوح عدده بين الثلاثين والأربعين ولذلك فإن الأهالي لا يسكنوها، وإنما تعتبر ملجأً للمطاردين من طرف الباي، والغريب أن الصخور تحتوي على مغارات توجد فيها من حين لآخر قطع نقدية. فقد حمل سكان الصحراء عدة مرات إلى الباي قطعاً فضية بشكل طويل مربع، مكتوبة باللاتينية ولكنها لا تقرأ.»<sup>3</sup> تعكس الصورة التي نقلها الرحالة واقع الجزائر الغنية كغيرها من الدول الإفريقية بالحيوانات البرية في تلك الفترة، فضلاً عن الآثار التي تشير إلى الحضارات القديمة التي كانت قائمة في الجنوب الجزائري الكبير على غرار المدونات الموجودة في "الطاسيلي".

1. أفرد العالم الألماني "هابنسترايت" جزءاً مهماً من رحلته للحديث عن أهم الحيوانات البرية وأنواع النباتات الموجودة في أقاليم الجزائر، حيث تحصل "هابنسترايت" بأمر من الداي على العديد من الحيوانات المتوحشة التي تعيش في عزلة على غرار: اللبوة الصغيرة والقط المتوحش وابن مقرض وكذا ضبي صغير وطائر النعام، كما تحصل الرحالة على مجموعة من الأسماك النادرة التي قام بتجفيف بعضها ورسم البعض الآخر منها قصد إرسالها إلى الملك "أغسطس الثاني". ينظر: ج.أ. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.أ. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ - 1732)، تر: ناصر الدين سعيدوني، ص: 51

2. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب السائوري، مراجعة

الطاهر لكنيزي، ص: 168

3. فندلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، ص: 103

ويتحدث "جيل لوكليرك" عن العقارب التي قام صديقه بجمعها من "بسكرة" قائلاً: «بمجرد وصولنا إلى بسكرة، كانت لرفيقي عالم الحشرات رغبة حادة في الحصول على عقارب حية. تتردد هذه الحشرات القبيحة، ذات اللدغة المميته على البيوت القذرة الحارة والرطوبة... كان يلاحق رفيقي عرب وزنوج في الطريق ليقدموا له عقارب. كان يضعها في قارورة، مقترحاً عرضها بمتحف التاريخ الطبيعي لمدينته.»<sup>1</sup> المعروف أن مثل هذه الحشرات السامة تكثر في المناطق الساخنة.

أخيراً لا بد من القول إن الرحلة الأوروبية نحو الشرق قد تعددت وتنوعت بحسب أهدافها وأبعادها، بينما كان النمط الغالب في الرحلات «يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد،... فالرحالة وهو يطوي الأرض أثناء رحلته يغطي في نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة في الحياة،... ولا شك أنهم يختلفون في درجة صدقهم أو أمانتهم وفي تنوع فهمهم لأمر تحت الظروف المتغيرة التي يخضعون لها.»<sup>2</sup> لقد أسهم الرحالة على اختلاف أجناسهم وتنوع ثقافتهم في نقل تفاصيل الآخر، وتدوين كل الملاحظات حول ماهيته وكل ما تعلق به، وحتى خصوصياته الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية. فقد سلط الرحالة الضوء على الطبيعة الجزائرية التي كانت جذابة وساحرة كثيراً بالنسبة لهم، أما العمران الجزائري قد تباينت الآراء حوله، بين معجب ونافر، وقد كشفت الكتابات الرحلية الأوروبية عن وجود نوعين من الأحياء عربية فقيرة وأوروبية غنية، كما كشف الرحالة الأوروبيون عن تأثير العمران الجزائري بالوجود الأوروبي، حيث قام المحتل الفرنسي بالتعدي على العمران الجزائري مساجد ومدارس ومنازل بتهديمها ومحوها من الوجود؛ حتى يبني أحياء فرنسية ذات طابع أوروبي من أجل تمرير فكرة الجزائر فرنسية. كما أبانت كتابات الرحالة تنوع الأقاليم الطبيعية في الجزائر وغناها بثروة نباتية وحيوانية

1. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة

الطاهر لكنيزي، ص: 219

2. حسني محمود حسين. أدب الرحلة عند العرب. دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1983، ص:

هائلة، فضلا عن البساتين والواحات التي زادت من جمال طبيعة البلد، ولعل أهم الثروات النباتية شجرة الأرز المشهورة، أما الثروة الحيوانية فقد أجمع الرحالة على وجود الأسود والفهود والنمور وغيرها من الحيوانات المنتشرة في قارة إفريقيا.

وأخيرا يمكن القول؛ إن ما يبحث عنه الرحالة الأوروبيون في الواقع عنه في القرون الماضية في البلاد البعيدة هو صورة الإنسان الأبدي، وجذوره وصراعاته وإنجازاته، والإمكانية التي كانت بحوزته والتي تسمح له ببلوغ حياة أجمل وأفضل. حيث لم يأت الرحالة الأوروبيون إلى الشرق صدفة أو هروبا من رتابة الحياة ومادية الحضارة الأوروبية فحسب، وإنما كانوا يتوقون لمعرفة الآخر الشرقي وذلك بالاقتراب من المجهل الشرقية وإدراك كل جزئياتها: الاثنوغرافية، الدينية الاجتماعية السياسية، وغيرها.

خاتمة

## خاتمة:

تعدّ الصوراتية أو الصورولوجيا (Imagologie) ميدانا خصبا للدراسة المقارنة نظرا لأهمية حمولاتها الثقافية والفكرية، والاجتماعية، وكذا الدينية، فالصورة تقرينا من حقيقة الآخر، وتعمق وعينا بالذات. كما تساهم الصوراتية في الكشف عن تمظهرات الشعوب في مختلف الفنون الإبداعية بالإضافة إلى إظهار قيمتها الأدبية، فضلا عن إسدال الستار على طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر، وإدراك التصورات الذهنية- الحقيقية منها والزائفة- المندسة في اللاشعور الجمعي لكليهما.

تعددت وسائل تلقي الصورة بتعدد وسائط الاتصال والتثاقف بين الأنا والآخر ك: التجارة، والحروب، والاستشراق، والترجمة والرحلات التي كانت ذات أهمية بالغة في نقل صورة الآخر بكل تفاصيلها. وقد أسهم احتكاك الأنا بالآخر في إنتاج جملة من الصور التي تخضع في مجملها إلى العديد من المرجعيات والأبعاد المختلفة. فضلا عن ذلك فإن عملية فهم الآخر أو القراءات المصاحبة لاحتكاك الأنا والآخر لا تأخذ شكلا واحدا ومرد ذلك للظروف والسياقات المصاحبة لهذه الرؤى. لذلك فقد تعددت التأويلات والقراءات التي تصاحب فهم الآخر. إلا أننا يمكن أن نجمل أهم هذه القراءات في قراءتين أساسيتين: القراءة الإيجابية والقراءة السلبية.

تنوعت الأهداف التي دفعت الرحالة - نماذج الدراسة- إلى القيام برحلاتهم؛ فكانت إما أهداف علمية أو سياسية، دينية، تجارية، عسكرية وغيرها، حيث لم تخرج صورة الجزائر عن الصورة المتخيلة التي أنتجها فكر المستشرقين الأوروبيين عن الشرق، بينما استسقى آخرون معالم هذه الصور من عوالم التراث الشعبي العربي كما هو في "ألف ليلة وليلة" بعد ترجمته إلى اللغات الأوروبية. وقد جسدت كتابات الرحالة الأوروبيين -الفرنسيين على وجه الخصوص- الجزائري في صورة المهمش الغارق في مأس اجتماعية كثيرة، مثل تردي الأوضاع الاقتصادية وضعف مستوى المعيشة وانتشار الفقر والجوع والمرض والتفاوت الطبقي، بسبب الظروف السياسية للبلد. (الوجود العثماني، والاحتلال الفرنسي). وقد تعاطف الكثير من الرحالة معه بالتطرق إلى أسباب هذه المأساة، بينما فضل آخرون الحياد أو التستر. وأفضت الرحلات الأوروبية إلى

ضعف الحركة التجارية - التي يسيطر عليها الميزابيون واليهود على وجه الخصوص- في الجزائر مقارنة مع بقية الدول الأوروبية بسبب الاستعمار. بينما صور بعض الرحالة الحالة الاجتماعية للجزائري في جوانبها المادية، إذ ركزوا على مصادر رزقه، لتثبت تلك الصور حجم قسوة الحياة الاجتماعية للآخر الجزائري، كونه يعتمد على الزراعة وإنتاج التمور والتجارة في الأسواق الشعبية التي خيم عليها الفقر ولم ترق إلى تطلعات الأوروبيين الذين وجدوها ضعيفة وفقيرة مقارنة مع أسواق الشرق.

نقل الرحالة الأوروبيون العديد من الصور المثقلة بدلالات التهميش الاجتماعي التي كانت في مجملها صورا موضوعية تعكس الواقع كما أثبتته التاريخ، وتعتبر إلى حد بعيد عن واقع المجتمع الجزائري الذي كان خاضعا للهيمنة العثمانية والفرنسية، إلا أنها ظلت ناقصة ذلك أن هؤلاء الرحالة لم يسجلوا اعترافا حقيقيا للأسباب التي ساهمت في تهميش الجزائري والتي تكمن في الممارسات الاستعمارية الهادفة إلى التمرکز وتهميش الجزائري وتبعيته. وهذا ما يمكن اعتباره تحيزا وتأيدا يدعم السياسة الاستعمارية الفرنسية وإن بدا غير مباشر، ويبدو ذلك جليا في مختلف الصور الدونية التحقيرية التي روجت لها نصوصهم الرحلية.

كما قدمت نصوص الرحلة -موضوع الدراسة- صورة المرأة الجزائرية في جمالها وقبحها ووفائها وفي خضوعها للثقافة الذكورية السائدة في المجتمع الجزائري أو تحررها منها، كل تلك الصور كانت صورا واقعية إلى أبعد حد، حيث مثلت الرحلات المرأة الجزائرية في صورة الجميلة الفاتنة بجمالها ولباسها الشرقي المتميز. كما صور الرحالة الأوروبيون المرأة الجزائرية في صورة السجين واستغربوا من غيابها عن الحياة الاجتماعية بسبب الأعراف السائدة، في مقابل ذلك صورت رحلات أوروبية أخرى المرأة الأمازيغية على أنها أكثر تحررا من المرأة العربية. ومن بين الصور الإيجابية تلك التي جسدت المرأة الجزائرية في صورة المرأة الوفية لزوجها ووطنها بمشاركتها في معارك عدة. وقد سمح احتكاك الرحالة المباشر مع الجزائريين ومعايشتهم ليومياتهم بالكشف عن مدى هامشية المرأة انطلاقا من قيامها بمختلف الأعمال الشاقة. لكن هذا لا يلغي تحكم بعض المرجعيات الثقافية في تصوير المرأة الجزائرية؛ كتلك الصور النمطية التي رسختها الثقافة في أذهان الرحالة عن المرأة الجزائرية والشرقية بصفة عامة، فضلا عن كون الرحالة

الأوروبي ينظر إلى المرأة الجزائرية وفق رؤية مقارنة بينها وبين المرأة الأوروبية متناسيا الخصوصيات الثقافية لكل مجتمع، فكثيرا ما كانت تلك الصور تضر السخرية من واقع المرأة الجزائرية، لعل ذلك مرده نزعة التعالي والفوقية التي تميز الأوروبي.

وقد جسد الرحالة الأوروبيون الجزائري في الكثير من الصور الأخلاقية والالأخلاقية، فمنها ما كشف عن أخلاق الجزائريين في تلك الفترة كالكرم والجود والإنسانية، والتعايش الديني، وكانت شجاعة الجزائري من بين الصفات التي شهد لها العدو قبل الصديق، حيث وقف في وجه المستعمر الفرنسي ودافع باستماتة عن أرضه، كما تجدر الإشارة إلى أن الصورة الأخلاقية للآخر الجزائري لم تسلم من التشويه خاصا ما كان يروجه الرحالة الأمير "بوكلر موسكاو" الذي أظهر تحيزا واضحا للطرف الفرنسي، حيث تم تمثيل البربري في صورة الهمجي المتعطش للدماء الذي تتحكم فيه غرائزه وشهواته خاصة ما تعلق بالنساء؛ أما عن سر هذه النظرة الاستعلائية والتحقيرية التي مارسها الرحالة الفرنسيون -نماذج الدراسة- على الآخر الجزائري؛ إنما هي نتيجة حتمية لتأثر الرحالة بالظروف السياسية السائدة في تلك الفترة مما صعب من عملية التواصل بين الأنا والآخر، وساهم في إنتاج صور مشوهة عن الجزائري بفعل هيمنة الأبعاد السياسية على الأبعاد الثقافية والإنسانية التي من شأنها التأسيس لصورة موضوعية قريبة من الواقع. وهذا لا ينفى واقع المجتمع الجزائري الذي انتشرت فيه الصور الالأخلاقية من تعصب وسرقة وغيرها من السلوكات السيئة التي نقلها الرحالة. هذه الصور الالأخلاقية التي ربطتها "إيزابيل إيبرهارت" بالوجود الفرنسي، ونحن إذ نقول هذا الكلام لا ننكر وجود مثل هذه السلوكات السيئة قبل مجيء الفرنسيين، فالسرقة والزنا وشرب الخمر والعلاقات بين الرجال-فضلا عن القرصنة التي تعتبر نوعا من السرقة- موجودة منذ القدم، غير أن المجتمعات التي تمتزج فيها الأعراق تكون أكثر عرضة لمثل هذه الآفات الاجتماعية، فلكل عرق خصوصياته ومعتقداته... ورغم التشويه الذي أصاب صورة الجزائر فقد أسهمت نصوص الرحلة الأوروبية في تجسيد صورة حية عن الحياة الاجتماعية للجزائري.

كما ساهم النصوص الرحلية في تشكيل صورة الجزائر السياسية، حيث صوروا الآغاوات في صورة الفسادين، في المقابل وردت صورة نظم الحكم المحلية (الجماعة

والصوفية) إيجابية بفضل نجاحها في خدمة الشعب ولو نسبيا. وأظهرت النصوص الرحلية أهمية نظام الجماعة في تسيير شؤون الجزائريين، ويظهر ذلك جليا في تمرد بعض القبائل على أحكام الأئمة والانصياع إلى أحكام الشيوخ التي تحكم بين الناس بالعرف مما يجعل من المجتمع الجزائري آنذاك مجتمعا قريبا. وتجدر الإشارة إلى أن الأخذ برأي الجماعة أو كبار العرش لا يزال قائما في الكثير من المناطق الجزائرية إلى يومنا هذا نظرا لتوريث هذه العادة بين المجتمعات. وهذا ما يضعنا أمام ثلاثة أنواع من السلطات السلطة الدينية والسلطة القانونية (القضاء) وسلطة الجماعة (الأعيان، العروش).

مثل الرحالة -نماذج الدراسة- القضاء الجزائري في صورة القضاء البدائي الذي يختلف عن المحاكم الأوروبية سواء ما تعلق بفضاء القضاء أو بهيئة القاضي، حيث يستمد القاضي الجزائري أو الداوي شرعية أحكامه من الدين الإسلامي الذي يقدهه الجزائري كثيرا ويمتثل لكل العقوبات التي تصدر عن القاضي المسلم مقارنة بالمحاكم الفرنسية التي كان يبدي نفوره الشديد منها. وقد استغل "موبسان" هذا الأمر لممارسة نزعة التعالي الأوروبية وتصوير القاضي العربي في صورة المرتشي مقارنة بالقاضي الفرنسي الذي لا يقبل الرشوة. وتجدر الإشارة إلى أن آفة الرشوة موجودة في كل المجتمعات لكن الرحالة اختزلها في العرق العربي دون سواه.

صورت الرحلات الأوروبية الجزائري في صورة المثقف والمتعلم، حيث أجمعت على انعدام الأمية (قبل الاحتلال) على الرغم من بساطة المدرسة الجزائرية، بينما حملت الرحالة الألمان -على وجه الخصوص- المستعمر الفرنسي مسؤولية انتشار الجهل والأمية، ذلك أنه تسبب في تهديم المدارس التي تعلم اللغة العربية والإسلام، مما ساهم في انتشار الأمية في عديد من المناطق. كما جسدت الجزائري في صورة البارع والمتحكم في الحرف اليدوية والفروسية. وقدمت نصوص الرحالة الأوروبيين الجزائري أيضا في صورة غرائبية بسبب ارتباطه بالجانب الروحاني والماورائي كالسحر وبعض الطقوس الصوفية الغربية، حيث عبروا عن استغرابهم من أكل الدراويش للجمر والزجاج في احتفالاتهم السنوية عند بعض أوليائهم طلبا للمطر والبركة، وغيرها من التصرفات التي تسيء للعقل الجزائري وتجعل منه غرائبيا متخلفا بعيدا عن الواقع والمعقول. وعلى الرغم

من واقعية وموضوعية الصورة الغرائبية إلا أنه ينبغي أن نشير إلى أن الغرائبية ليست حكرا على المجتمع الجزائري، فهي موجودة في كل المجتمعات البشرية وفي كل الحضارات الشرقية والغربية، غير أن تحكم الصورة النمطية المندسة في فكر الأوروبيين عن الشرق العجائبي الساحر هو ما جعل اللاوعي موجه دائما نحو تقصي وتصوير كل ما هو غريب في هذا المجتمع من طرف الرحالة الأوروبيين.

استغرق بعض الرحالة الكثير من الصفحات في وصف رقص المرأة الجزائرية الذي بدا متنوعا ومختلفا من منطقة إلى أخرى وهذا ما أدى إلى تباين آراء الأوروبيين فيه بين الإعجاب والنفور، حيث خرق الرقص الجزائري أفق التوقع لدى العديد من الرحالة الأوروبيين-موبسان وأندريه جيد- خاصة أولئك الذين تنقلوا إلى الشرق طلبا لسحره وغرائبته التي ساهمت قصص "ألف ليلة وليلة" وكتابات بعض المستشرقين في تمييطه !

لا تخلو الصورة الثقافية للجزائري من التشويه بسبب التعصب في الرؤية انطلاقا من عقدة التفوق والمركزية عند الأوروبي، فتصورات الرحالة عن الآخر العربي كانت خاضعة لصور نمطية مترسبة في الذاكرة الجمعية للمجتمع الأوروبي، مما يلغي الإيمان بالتعدد الفكري، والثقافي، والديني... ومن ذلك ما ورد في رحلة "تيدنا" الذي صور الجزائري في صورة الجاهل وكذلك الصور التي نقلها الرحالة الأمير "بوكلر موسكاو" و"غوستاف فلوبيير"... وغيرهم بنسب متفاوتة، وقد كانت هذه الصورة واقعية كونها مرتبطة بالسياق الاستعماري، فليس من المنتظر البحث عن نقاء الصورة نقاء تاما في هذه النصوص الرحلية التي صورت الشرق، فلطالما أنتجت الذات الغربية صورا استعلائية لنفسها انطلاقا من العرق والدين لإشباع غاياتها التي تضمّر الرغبة في التمرّك لإنتاج صورة نمطية دونية ومشوهة للآخر الشرقي. في المقابل استحضر العديد من الصور التي تلخص نجاح العلاقة الأسرية والحب في الشرق مثلما ورد في رحلة "إيزابيل إيبهارت"، و"موريس فاغندر"، و"أندريه جيد" وبذلك نجحوا في كسر الصورة النمطية التي تصفه بأنه إنسان لا تحكمه سوى غريزته ومعنى ذلك أنه لا يعرف معنى الحب والإنسانية في مختلف معاملاته.

قدّمت الرحلات الأوروبية الجزائري المسلم في صورة الملتزم دينيا من خلال تطبيقه للشريعة الإسلامية وصبره على مشاق العبادة من صلاة وصيام وغيرها من العبادات، وسعيه أيضا إلى نشر الدين الإسلامي بشتى الطرق. وتجسدت صورة المكان المقدس في نصوص الرحالة الأوروبيين في قدسية المساجد عند الجزائريين، حيث أشاروا إلى انتشارها في كل الجزائر، كما توقفوا عند دورها الفعال في محاربة الأمية. وقدموا الجزائري المسلم في صورة المتسامح دينيا حين سمح لهم بدخول المساجد شريطة المحافظة على نظافتها. كما اتفق هؤلاء على انتشار المد الصوفي في الجزائر وتنوع الطوائف الصوفية في الجزائر خاصة في الجنوب الجزائري الكبير الذي يمكننا وصفه بمنارة التصوف بإفريقيا. فقد لفت ذلك انتباه أغلب الرحالة الأوروبيين الذين تباينت آراؤهم حول هذه الطقوس بين معجب بغرابتها التي تؤكد على غرائبية الشرق. وبين مندهش بسبب عدم منطقية تلك السلوكيات والطقوس. مما دفعهم إلى الاستهزاء برواد هذه الأماكن، واختزال العقل العربي إلى عقل غارق في الخرافة. وتجدر الإشارة إلى أن إغراق بعض الجماعات الصوفية في الخزعبلات والطقوس الغريبة والشركية يعد إساءة وأمرًا منافيًا لمبادئ الزوايا التي تهتم عادة بتعليم القرآن وعلومه وغيرها من العلوم الشرعية.

أشارت الرحلات إلى الجزائري اليهودي هذه الأقلية التي لا تحظى بمعاملة جيدة من قبل الجزائريين نظرا لمكرها وهذا بشهادة أغلب الرحالة نماذج الدراسة ووثقته كتب التاريخ أيضا. حيث بين هؤلاء الرحالة أن العلاقة التي تجمع بين الجزائري المسلم والجزائري اليهودي علاقة هشّة بسبب الكراهية المنشرة بينهما. بينما رأى البعض -على غرار "غي دو موبسان"- أن اليهودي يستحق مثل هذه المعاملة نظرا لمكره وجشعه. حيث وضحت الرحلات الأوروبية صورة الجزائري في علاقته التجارية مع اليهود القائمة على الابتزاز والمساومة. وقد جسدت الرحلات الأوروبية نماذج الدراسة اليهودي في أبعث الصور كصورة الماكر، والخائن والجشع والمنبوذ. هذه الصور التي أثبتتها كتب التاريخ في أكثر من مناسبة.

جسدت الرحلات الأوروبية تنوعا إثنيا في الجزائر؛ تمثل في الأمازيغ، العرب، اليهود، الأوروبيين، وغيرهم. لكن الرحالة ركزوا اهتمامهم على أهم الأعراق الجزائرية (أمازيغ وعرب) بوصفهم أهل البلد. حيث صور الرحالة الأوروبيون العرق الميزابي في

صورة إيجابية، معترفين بنبل أخلاقه وتفوقه، وتنظيم المجتمع الميزابي الذي أظهر براعة كبيرة في التجارة. في حين تجلى الشاوي في صورة المتمسك بهويته وبنضاله المرتبط بتاريخ الأوراس العريق، وذلك بخوضه للعديد من المعارك وتمسكه الشديد بخصوصيته البربرية. كما صورت الرحلات الأوروبية القبائلي في صورة الشجاع المتمرد على السلطات العثمانية، وأظهرت براعته في الزراعة وصناعة الأسلحة وتزوير النقود. أما فيما يخص صورة العرق العربي فتراوحت بين الإيجابية والسلبية وبين الموضوعية والذاتية فتجلى العرق العربي عند الرحالة نماذج الدراسة على غرار "موباسان" في صورة سلبية غير موضوعية كونه عد وجودهم نوعا من العبث لأن أغلبهم بدو رحل غير متمسكين بأرضهم، وبالتالي فهم خارج الزمان والمكان وفي طريقهم إلى الانقراض على حد قوله، وقد كان وصفه غير برئ ولا يستند إلى مبررات أو دلائل موضوعية، حيث إن نزعة التعالي والفقوية هي التي توجه الاستعمار في الحكم على العرب كشعب مستعمر، كما أنه يدرك جيدا أثر الاستعمار في تخلف أو تقدم الشعوب، ومع ذلك لم يقف عند الأسباب واكتفى بنقل صورة سلبية مجفة وقاسية، على خلاف ذلك تجلى العرق العربي في صورته الإيجابية عند إيزابيل إبيرهارت" انطلاقا من وداعته وأخلاقه الفاضلة وبساطة الحياة ونمط المعيشة. وقد نتجت هذه الصورة عن احتكاك الرحالة العميق مع العرب ووجودها بينهم لفترة طويلة.

نجح بعض الرحالة الأوروبيين في توثيق جملة من الصور التاريخية بحقائقها الواقعية، وقدموا شهادات صادقة عن أحداث شهدوها، ومع ذلك فقد أجمع الرحالة الألمان على وجه الخصوص على تقديم صورة الجزائر مرتبطة بمكانتها الدولية المهمة باعتبارها الحامي والمهمين على البحر الأبيض المتوسط. كما مثل الرحالة الأوروبيون الجزائري في صورة المجرد من حقوقه نظرا لمعاملة العثمانيين السيئة له. بينما أشار البعض إلى غلاظة السلاطين العثمانيين وارتكابهم لمجازر كثيرة في حق معارضيتهم. وقد أظهرت النصوص الرحلية الجزائري في صورة المتمرد على الحكم العثماني والفرنسي بسبب عنصريتهما. وعلى الرغم من الوضع المأساوي الذي عايشه الجزائري بسبب الوجود العثماني، فقد جسدت الرحلات الأوروبية الجزائريين في صورة الشجعان والأوفياء لوطنهم، وذلك حين استتجد الأتراك بالجزائريين من أجل الدفاع عن البلد بعد اقتراب الفرنسيين،

حيث لى الجزائريون النداء ودافعوا بشراسة حبا في بلدهم لا في العثمانيين. بينما فضل الرحالة الفرنسيون (أسرى، قادة عسكريون، أدباء...) تزييف الحقيقة والتعصب للقومية الأوروبية ومن هؤلاء القادة العسكريين الفرنسيين "أدريان بير بروجير"، "بول أوساريس"، "دومينيك فارال". وهذا ما يبدو جليا في التزييف الذي ألحقه ببعض المحطات المهمة من تاريخ الجزائر. فقد حاول الرحالة الفرنسيون تشويه صورة قادة المقاومات الشعبية وكذا الثورة التحريرية واصفين ثوراتهم وانتفاضاتهم مجرد حرب عصابات ولصوص يسرقون صوامع القمح، وهذا يدل على دعم هذه الفئة من الرحالة للرؤية الإمبريالية، حيث صوروا الجزائريين في صورة البربريين الهمج انطلاقا من مقاومتهم الشرسة للمستعمر الفرنسي، وهذا ما يدفعني إلى اعتبارها مجرد صور نمطية توارثتها أوروبا عن روما الاستعمارية. فالفرنسيون لم يغفلوا في تعاملهم مع الجزائريين ماضي الجزائر التي كانت تابعة في وقت من الأوقات لروما المسيحية. ويبدو ذلك جليا في رسالة الأسقف "ديبيش" بمناسبة تكليفه بإحياء الكنيسة الإفريقية بتنصير سكان الجزائر.

فقد قدمت مذكرات القادة العسكريين الفرنسيين -نماذج الدراسة- رموز المقاومة الجزائرية في صور سلبية على غرار الأمير "عبد القادر" و"الشيخ بوعمامة" و"العقيد يوسف"، "عباس لغور" وغيرهم بسبب التعصب في الرؤية، انطلاقا من عقدة التفوق ومركزية الآخر الغربي. فتصورات العسكريين عن العربي كانت خاضعة لصور نمطية مترسبة في الذاكرة الجمعية للمجتمع الأوروبي (الاستعماري). إن التحيز للاستعمار الفرنسي بدا واضحا في حجم التدليس الذي مس الصورة التاريخية للجزائر، والذي يكشف عن دعمهم الشديد للسياسة الاستعمارية الفرنسية، القائمة أساسا على الاحتلال وإقصاء الآخر من كل النواحي. وقد كان لهذا الاستعمار والإقصاء تبعات كبيرة ألقت بظلالها على الساحة الشعبية الجزائرية إذ قوبلت بالرفض الشديد ومقاومات كثيرة أثبت فيها الجزائريون للعالم مدى تعلقهم بأرضهم. وهذا بشهادة الكثير من القادة العسكريين الفرنسيين الذين عبروا عن إندهاشهم من شجاعة واستماتة الجزائري في الدفاع عن وطنه بأبسط الأسلحة. فالصور المشوهة للتاريخ الجزائري والثورة التحريرية وقادتها كانت نتيجة تحيز الرحالة للاستعمار بحكم انتمائهم لفرنسا، تماما كما تشكلت صورة الفرنسي المنبوذ من

طرف الجزائري انطلاقاً من موقفهم من الاستعمار. ولعل صياغة مثل هذه الصور نتج أساساً عن الصدام الحضاري بين الشرق والغرب الذي ولّد هوة عميقة بين هذين العالمين. بينما قدّم بقية الرحالة والقادة رموز المقاومة الجزائرية في صورة إيجابية واعترفوا بقوتهم وصدق نضالهم ومكانتهم عند الشعب. وجسد العديد من الرحالة الأوروبيين في نصوصهم -بما فيهم القادة العسكريين الفرنسيين- الجزائري في صورة الشجاع في مواجهة المستعمر الفرنسي وتمسكه الشديد بأرضه، وعبر الكثير من الجنرالات الفرنسيين على شراسة المقاومة الجزائرية آنذاك والتي صعّبت عملية التوغل الفرنسي داخل الجزائر.

سلط الرحالة الضوء على الطبيعة الجزائرية التي كانت جذابة وساحرة كثيراً بالنسبة لهم، أما العمران الجزائري قد تباينت الآراء حوله، بين معجب ونافر، وقد بينت الكتابات الرحلية الأوروبية عن وجود نوعين من الأحياء عربية فقيرة وأوروبية غنية، كما كشف الرحالة الأوروبيون عن تأثير العمران الجزائري بالوجود الأوروبي، وتجسد هذه الصور حقيقة العمران الجزائري فيفترة الاستعمار، حيث أقدم المحتل الفرنسي بالتعدي على العمران الجزائري مساجد ومدارس ومنازل بتهديمها ومحوها من الوجود؛ حتى يبني أحياء فرنسية ذات طابع أوروبي من أجل تمرير فكرة الجزائر فرنسية. كما أبانت كتابات الرحالة تنوع الأقاليم الطبيعية في الجزائر وغناها بثروة نباتية وحيوانية هائلة.

قائمة

المصادر والمراجع

## قائمة المصادر والمراجع:

• القرآن الكريم.

### أولاً: المراجع العربية:

1. أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. ج1، 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998.
2. أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. ج 4 ، 1830-1954، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998.
3. أبو القاسم سعد الله. دفتر محكمة المدينة أواخر العهد التركي 1255 هـ/ 1839م، الثقافة، 1984.
4. أحمد توفيق المدني. هذه هي الجزائر. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، دت.
5. أمينة رشيد. الأدب المقارن والدراسات المعاصرة لنظرية الأدب. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 2011.
6. الترميذي. الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي. ج1، أبواب الاستئذان والآداب، تح: أحمد محمد شاكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1978.
7. الترميذي، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، ج1، أبواب الاستئذان والآداب، تح: أحمد محمد شاكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1978.
8. جابر عصفور. المرايا المتجاوزة، (دراسة في نقد طه حسين). الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 1983.
9. حسني محمود حسين. أدب الرحلة عند العرب. دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1983.

10. حسين العودات. الآخر في الثقافة العربية-من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين-. دار الساقى، بيروت، ط1، 2010.
11. حسين جمعة. ثقافة المقاومة- إعادة بناء الذات العربية. دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2014.
12. حسين محمود فهيم. أدب الرحلات. عالم المعرف، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 138، جويلية 1989.
13. حفناوي بعلي. صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين. دروب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016
14. خالد التوزاني. الرحلة وفتنة العجيب... بين الكتابة والتلقي. دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، ط1، 2017.
15. زكي ميلاد وتركي علي الربيعيو. الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل. دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2، 2001.
16. سالم يفوت. حفريات الاستشراق (في نقد العقل الاستشراقي). المركز الثقافي العربي، الرباط، ط1، 1989.
17. الساوري بوشعيب. الرحلة والنسق: دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا. دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء. المغرب، ط1، 2007.
18. سعيد بنسعيد العلوي. أوروبا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة. رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 2012.
19. سعيد علوش. مدارس الأدب المقارن. المركز الثقافي العربي، ط1، 1987.
20. شاعر عبد الحميد. عصر الصورة: السلبيات والإيجابيات. عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 311، يناير 2005.
21. شعيب حليفى. الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل. رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.

22. الطاهر أحمد الزاوي. ولاية طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد الترك. دار الفتح للطباعة والنشر. بيروت، ط1، 1970.
23. الطاهر لبيب. صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2008.
24. طه ندا. الأدب المقارن. دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت، ط1، 1991.
25. الطيب صالح. موسم الهجرة إلى الشمال. دار العودة، بيروت، ط13، 1981.
26. عامر رخيطة. 08 ماي 1945 المنعطف الحاسم في مسار الحركة الوطنية. ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، ط1، دت.
27. عبد الحميد زوزو. ثورة بوعمامة 1881-1908. ج:1، موفم للنشر، الجزائر، 2010.
28. عبد الرحمن عميرة. الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق. دار الجيل، بيروت، ط1، دت.
29. عبد الله إبراهيم. السرديات العربية الحديثة (1): تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة. المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 2013
30. عبد الله إبراهيم. المركزية الغربية. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010.
31. عبد الله العروي. مجمل تاريخ المغرب1. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 1996.
32. عبد المجيد حنون. صورة الفرنسي في الرواية المغربية. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1986.
33. عبود عبده، هجرة النصوص: دراسات في الترجمة الأدبية والإنتاج التبادلي الثقافي، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1995.

34. علي محمد محمد الصلابي. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر (تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى). دار المعرفة، بيروت، 2015.
35. غادة السمان. عيناك قدرتي. منشورات غادة السمان، بيروت، ط10، 1993.
36. فوزي سعد الله. يهود الجزائر هؤلاء المجهولون. شركة دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ط2، 2004.
37. ماجدة حمود. إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية). عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 398، مارس 2013.
38. ماجدة حمود. صورة الآخر في التراث العربي. منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.
39. ماجدة حمود. مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن. دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 2000.
40. مبارك الملي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964.
41. محسن جاسم الموسوي. الاستشراق في الفكر العربي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1993.
42. محمد أركون. نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية. دار الساقى، بيروت، ط1، 2010.
43. محمد الداوي. صورة الأنا والآخر في السرد. رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013.
44. محمد خليفة جميل. المرأة المسلمة وأوهام الرجال السلطوية والجنسية. أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2014.
45. محمد شوقي الزين. الذات والآخر - تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع-. منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012.

46. محمد صابر عبيد. المتخيل الاستشراقي الأنا والآخر في سرديات سلطان بن محمد القاسمي. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2015.
47. محمد عابد الجابري. الإسلام والغرب ( الأنا والآخر). الكتاب الأول، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2009.
48. محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط3، 1983.
49. محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط9، 1987.
50. محمد فاروق النبهان. الاستشراق: تعريفه مدارسه وآثاره. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ايسيسكو، الرباط، ط1، 2012.
51. محمود حمدي زقزوق. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. دار المعارف، القاهرة، ط1، د.ت.
52. محمود رجب. فلسفة المرأة. دار المعارف، مصر، ط1، 1994.
53. مولاي بلحميسي. الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
54. مي عبد الكريم محمود. تائهون في صحراء الإسلام: صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة والمستشرقين الفرنسيين. الأهالي للتوزيع والنشر، دمشق، ط1، 2003.
55. ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائري في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، ط2، 2009 ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائري في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، ط2، 2009.
56. وحيد بن بوعزيز. جدل الثقافة مقالات في الآخريّة والكولونيالية والديكولونيالية. دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018.
57. ياسمين فيدوح. إشكالية الترجمة في الأدب المقارن. دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 2009.

58. يوسف الأطرش. المنظور الروائي عند محمد ديب. منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، 2004.

### ثانيا: المراجع المترجمة:

59. أ. ليسور، و. وبلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر، ترجمة: محمد جيجلي، شركة دار الأمة، الجزائر، 2001.

60. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.

61. أبو القاسم سعد الله. تجارب في الأدب والرحلة. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

62. أحمد باي، مذكرات أحمد باي، تر: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.

63. أحمد منور. الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر. دار التنوير، الجزائر، ط1، 2013.

64. أدريان بير بروجير. مع الأمير عبد القادر - رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837-1838). تر: أبو القاسم سعد الله، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2006.

65. إدوارد سعيد. تعقيبات على الاستشراق. ترجمة: صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1996.

66. أرجمند كوران. السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827-1847). تر: عبد الجليل التميمي، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، ط2، 1974.

67. ألبير كامو. الغريب. ترجمة: عايدة مطرجي إدريس، دار الآداب بيروت، 2013.

68. أندريه جيد. رحلة إلى شمال إفريقيا. ترجمة: محمود عبد الغني، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2012.

69. إيزابيل إيبهارت. الأعمال الكاملة 1: كتابات على الرمال (نصوص وملاحظات ويوميات). أعده وعلق عليه وقدم له ماري أوديل دولاكور وجون روني إيلو، تر: عبد السلام المودني، تمهيد: إيدموند شارل رو، منشورات الجمل، بيروت، بغداد، ط:1، 2014.

70. بيير برونيل و أ. م. روسو وآخرون. ما الأدب المقارن؟. تر: عبد المجيد حنون ونسيمة م عيلان وآخرون، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة باجي مختار عنابة، 2005

71. بيير برونيل وآخرون. الوجيز في الأدب المقارن. تر: غسان السيد، مكتبة الأسد، دمشق، ط1، 1999.

72. بيير جوردا. الرحلة إلى الشرق: رحلة الأدباء الفرنسيين إلى العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر. تر: مي عبد الكريم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2000.

73. تيري هينتش. الشرق الخيالي ورؤية الآخر: صورة الشرق في المخيال الغربي الرؤية السياسية الغربية للشرق المتوسط. تر: مي عبد الكريم محمود، دار المدى للثقافة والنشر، ط1، 2006.

74. ثريانتس. دون كيخوته. ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار المدى، دمشق، 1998.

75. ج.أو. هابنسترايت. رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ - 1732). تر: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1. دت.

76. الجنرال أوساريس. شهادتي حول التعذيب (مصالح الخاصة الجزائر: 1957-1959). تر: مصطفى فرحات، دار المعرفة، الجزائر، 2008.

77. جوزيف ماري مواريه. مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر. تر: كميليا صبحي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000.
78. جون بول سارتر. عارنا في الجزائر. تر: ترجمة عايدة إدريس، سهيل إدريس، بيروت، دار الآداب، ط02، 1958.
79. جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب و الجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر لكنيزي، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2016.
80. دانييل هنري باجو، الأدب المقارن، تر: غسان السيد، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1997.
81. دومينيك فارال. معركة جبال النمامشة 1954 - 1962. تر: مسعود حاج مسعود، دار القصة للنشر، الجزائر، 2008.
82. ر. و. سذن. نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى. تر: علي فهمي خشيم وصلاح الدين حسن، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط2، 2002.
83. رتشارد بيرتون. رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز. ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ج1، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1994.
84. رنا قباني. أساطير أوروبا عن الشرق لفق تسد. تر: صباح قباني، دار طلاس، دمشق، ط2، 1993.
85. سيمون بفايفر. مذكرات أولمحة تاريخية عن الجزائر. تر: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
86. شارل فيرو. تاريخ جيولي. تر: عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية، الجزائر، 2010.
87. شارل هنري تشرشل. حياة الأمير عبد القادر. تر: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974.

88. ضياء الدين ساردار. الاستشراق : صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية. ترجمة: فخري صالح، هيئة أبوضبي للسياحة والثقافة، كلمة، أبوظبي، ط1، 2012.
89. عميراوي احميدة. الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا). دار الهدى عين مليلة الجزائر، ط1، 2003.
90. غوت. الديوان الشرقي للمؤلف الغربي. تر: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1980.
91. غوستاف فلوبير. رحلة إلى الشرق: فلسطين ولبنان وقرطاج. تر: فريد الزاهي، دار الكتب الوطنية، أبوظبي، ط1، 2013.
92. غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، دار ورد للطباعة والنشر، ط1، 2007.
93. فنديلين شلوصر. قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. تر: أبو العيد دودو، وزارة الثقافة الجزائرية، 2007.
94. ليون روش. مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847. تر: يوسف مناصرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
95. هاينريش بارت. سبع رسائل مخطوطة ل: هاينريش بارت عن رحلته إلى تونس 1845-1846. تر: منير الفندري، بيت الحكمة، تونس، ط1، 1987.
96. وليام شالر. مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا بالجزائر (1816-1824). تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

### ثالثا: المراجع الأجنبية:

97. Guy de Maupassant. au soleil 1884. Edition reproduite, Albin Michel, 1925.

98. M.W.Hilton-Simson. Among the hill-folk of Algeria: journeys among the Shawia of the Aurès Mountains. T. Fisher Unwin Ltd, London,1921.

99. S. H. Leeder. The Desert gateway, Biskra and thereabouts. CASSELL AND COMPANY, LTD. London, New York, Toronto and Melbourne 1910.

#### رابعاً: المجلات والدوريات:

100.جريدة الحياة. العدد 584، 31.10.2015.

101.جريدة الشروق اليومي. العدد 5183 09 أوت 2016

102.جريدة الوسيط. العدد 3358 ، 16 نوفمبر 2011

103.مجلة أبحاث في اللغة والأدب الجزائري -جامعة بسكرة، العدد 11، 2015.

104.مجلة إضاءات نقدية (فصلية محكمة). السنة الثانية - العدد الثامن- 2012.

105.مجلة الآداب العالمية. إتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 152، خريف 2012، السنة السابعة والثلاثون.

106.مجلة الباحث. المجلد 08، العدد 16، جوان 2016، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر

107.مجلة العربي. الكويت، العدد 529، الأحد 1 ديسمبر 2002

108.مجلة إنسانيات، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر، العدد 28، أفريل-جوان 2005.

109.مجلة دمشق، المجلد 19(2+1)، 2003.

110.مجلة علامات. العدد 18، 2002، المغرب.

111. مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، العدد 02، مارس 2010، الجزائر

### خامسا: البحوث الأكاديمية:

112. خديجة بقطاش. الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871.

### سادسا: المعاجم والموسوعات:

113. أندرو إيدجار وبيتر سيدجويك. موسوعة النظرية الثقافية: المفاهيم والمصطلحات. تر: هناء الجوهري، مراجعة وتقديم وتعليق: محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، ط2، 2014.

114. كريس باركر. معجم الدراسات الثقافية. تر: جمال بلقاسم، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2018.

### سابعا: المواقع الإلكترونية:

115. موقع أراجيك: [www.arageek.com](http://www.arageek.com)

116. موقع إسلام أونلاين: [islamonline.net](http://islamonline.net)

117. موقع أسليم نت: <http://aslimnet.free.fr>

118. موقع الألوكة: [www.alukah.net](http://www.alukah.net)

119. موقع يوتيوب: [www.youtube.com](http://www.youtube.com)

# فهرس الموضوعات

## فهرس الموضوعات

مقدمة.....	(أ...هـ)
المدخل: الصورولوجيا والرحلة.....	06
أولاً: مفهوم الصورولوجيا.....	08
ثانياً: البدايات الأولى للصورولوجيا وعلاقتها بأدب الرحلة.....	12
ثالثاً: وسائط تلقي صورة الآخر.....	15
1. أدب الرحلة.....	15
2. الحروب والاستعمار.....	16
3. الاستشراق.....	18
4. الترجمة.....	21
5. الفنون السردية.....	21
6. وسائل الإعلام الحديثة.....	22
رابعاً: أنواع الصورة.....	24
1. صورة الشعب في أدبه.....	24
2. صورة الشعب في أدب غيره.....	25
خامساً: حالات تصوير الآخر.....	25
1. القراءة الموضوعية ( المتسامحة).....	26
2. القراءة السلبية (الإقصائية).....	27
3. القراءة الإيجابية.....	28
الفصل الأول: صورة الجزائر الاجتماعية والسياسية.....	30
أولاً: صورة الجزائري المهمش اجتماعياً.....	31
ثانياً: صورة المرأة الجزائرية.....	40

1. صورة المرأة الجزائرية بين الجمال والقبح.....40
2. صورة المرأة الجزائرية الوفية.....44
3. صورة المرأة الجزائرية الملتزمة.....46
4. صورة المرأة الجزائرية الخاضعة للهيمنة الذكورية.....46
5. صورة المرأة الأمازيغية المتحررة.....51
6. صورة المرأة الجزائرية المهمشة اجتماعيا.....52
- ثانيا: صورة الجزائري أخلاقيا.....54**
- 1. الجزائري المتخلق.....54**
- 1.1. صورة الجزائري الملتزم.....54
- 2.1. صورة الجزائري الكريم (المضياف).....57
- 3.1. صورة الجزائري الهادئ (الشاعري).....60
- 4.1. صورة الجزائري الشجاع والمقاوم.....62
- 5.1. صورة الجزائري الإنساني.....69
- 6.1. صورة الجزائري المتعايش دينياً.....74
- 2. صورة الجزائري غير المتخلق.....75**
- 1.2. صورة الجزائري اللص.....75
- 2.2. صورة المرأة البغي.....77
- 3.2. صورة الجزائري المثلي.....79
- 4.2. صورة الجزائري المتمرد.....81
- 5.2. صورة الجزائري المجرم (المتوحش).....83
- 6.2. صورة الجزائري المتعصب.....85
- 7.2. صورة الجزائري البخيل.....88

89.....	رابعاً: صورة الجزائر سياسياً.....
89.....	1. صورة الآغاوات والبشاغوات.....
91.....	2. صورة الصوفيين.....
92.....	3. صورة الجماعة (العروش).....
94.....	خامساً: صورة القضاء.....
98.....	الفصل الثاني: صورة الجزائر الثقافية والدينية.....
99 .....	أولاً: الصورة الثقافية.....
99 .....	1. صورة الجزائري المثقف (المتعلم).....
104.....	2. صورة الجزائري الحرفي المبدع.....
107 .....	3. صورة الجزائري الفارس.....
109.....	4. صورة الجزائري الغرائبية.....
122 .....	5. الرقص الجزائري.....
124 .....	6. صورة الجزائري الجاهل.....
125.....	7. صورة الزواج التقليدي.....
128.....	8. صورة الأسرة الجزائرية.....
130 .....	ثانياً: الصورة الدينية.....
130.....	1. صورة الجزائري المسلم.....
141.....	1.1. صورة الجزائري الملتزم دينياً.....
146.....	2.1. صورة الداعية.....
147.....	3.1. صورة الصوفي.....
149.....	4.1. صورة الولي الصالح.....
156.....	2. صورة اليهودي الجزائري.....

157.....	1.2. صورة اليهودي الماكر
158.....	2.2. صورة اليهودي الجشع
159.....	3.2. صورة اليهودي الخائن
161.....	4.2. صورة اليهودي المنبوذ
166.....	<b>الفصل الثالث: صورة الجزائر الإثنية والتاريخية</b>
167.....	<b>أولا: الصورة الإثنية</b>
171 .....	<b>1. الأمازيغ</b>
171.....	<b>1.1. الميزابيون</b>
172.....	1.1.1. صورة الميزابي المنظم (الصارم)
173.....	2.1.1. صورة الميزابي الفاضل
175.....	3.1.1. صورة الميزابي المتفوق
176.....	<b>2.1. الشاوية</b>
176 .....	1.2.1. صورة الشاوي المناضل
180.....	2.2.1. صورة الشاوي المحافظ
180.....	<b>3.1. القبائل</b>
181.....	1.3.1. صورة القبائلي المتمرد والشجاع
184.....	2.3.1. صورة القبائلي المتعصب
186.....	<b>2. العرب</b>
187.....	1.2. صورة العربي البدائي
189.....	2.2. صورة العربي الوديع
190.....	<b>ثانيا: الصورة التاريخية</b>
191.....	<b>1. الهيمنة والاستسلام</b>

- 194.....1.1. صورة الحاكم العثماني الهمجي الماكر.
- 197.....2.1. صورة الجزائري الثائر.
- 200.....3.1. صورة الجزائري المُنهزم.
- 201.....2. المقاومة والانتصار.
- 201.....1.2. صورة الأمير عبد القادر.
- 201.....1.1.2. صورة الأمير الشجاع.
- 204.....2.1.2. صورة الأمير المتدين (الفاضل).
- 207.....3.1.2. صورة الأمير السفاح.
- 208.....2.2. صورة الشيخ بوعمامة.
- 209.....1.2.2. صورة المقاوم.
- 212.....2.2.2. صورة المجرم.
- 214.....3.2. صورة العقيد زيغود يوسف (الإنساني).
- 215.....4.2. صورة العربي بن مهدي.
- 217.....5.2. صورة علي لابوانت (روين وود الجزائر).
- 217.....6.2. صورة عباس لغرور.
- 218.....1.6.2. صورة القائد الشجاع والمحنك.
- 219.....2.6.2. صورة القائد الديكتاتوري.
- 220.....7.2. صورة المجاهدين.
- 221.....1.7.2. صورة المجاهد الوحشي.
- 222.....2.7.2. صورة المجاهد الشبقي.
- 223.....3.7.2. صورة المجاهد اللاواعي.

229	.....	8.2. صورة الفرنسي المنبوذ.
228	.....	3. مجازر 08 ماي 1945 بعيون فرنسية.
229	.....	4. جبهة التحرير في نظر الفرنسيين.
233	.....	الفصل الرابع: صورة الجزائر الجغرافية والعمرانية.
234	.....	أولا: مدن الشمال.
269	.....	ثانيا: مدن الجنوب.
284	.....	ثالثا: البساتين والواحات.
288	.....	رابعا: الحيوانات البرية.
291	.....	الخاتمة.
301	.....	قائمة المصادر والمراجع.
313	.....	فهرس الموضوعات.

ملحق

## 1- تيوفيل غوتيه (Théophile Gautier)

(1872.10.23 - 1811.08.30)



شاعر وروائي وناقد فرنسي، انتقل عمل والده إلى باريس في عام 1814، درس الأدب الفرنسي القديم ولاسيما أدب القرنين السادس عشر والسابع عشر، بدأ العمل في صحيفة La Presse سنة 1836، وكانت له زاويته الثابتة حتى عام 1855، ثم عمل في صحيفة Le Figaro. نشر غوتيه أول مجموعاته «أشعار» سنة 1830، ومن ثم قصيدة طويلة مؤلفة من 122 مقطعاً في كل منها 12 بيتاً بعنوان «ألبيرتس أو الروح والخطيئة»

سنة 1832، وتعد قصيدته «كوميديا الموت» سنة 1838 واحدة من أهم قصائد الشعر الفرنسي. كان أول نتاج غوتيه الروائي «الآنسة دي موبان» بين 1835-1836. كتب بعد ذلك «رواية المومياء» سنة 1858، ونالت روايته المؤلفة من جزأين «الكابتن فراكاس» سنة 1863 شهرة كبيرة، أما من أعماله القصصية «ليلة كليوباترا» سنة 1838 و«قدم المومياء» سنة 1840 و«أريا مارسيلا» سنة 1852. وجمع غوتيه انطباعاته عن إسبانيا في «رحلة إلى إسبانيا»، وتلتها قصائد «إسبانيا» España عام 1843 تغنى فيها بجمال الطبيعة. يعد الرحالة الفرنسي "تيوفيل غوتيه" من أوائل الأدباء الفرنسيين المشهورين الذين حطوا الرحال بالجزائر حيث زار قسنطينة في صيف 1845، هذه الرحلة التي تمت باقتراح من الناشر الذي تكفل بمصاريف الرحلة، وقد أقام بالجزائر ستة أشهر، حيث جمعت هذه الرحلات ونشرت في كتاب سنة 1865 بعنوان "في إفريقيا"، ليعاد نشرها لاحقاً تحت عنوان "رحلة إلى الجزائر". وقد سمحت له فرصة التواجد بمدينة قسنطينة العريقة التعرف على بعض عادات المنطقة. ينظر: أحمد منور. الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر. ص:13.

## 2- ألفونس دوديه (Alphonse Daudet)

(1897.12.16-1840.05.13)



روائي فرنسي كبير أهم قصصه ورواياته: «الشيء الصغير» سنة 1868، «وتارتارين تاراسكون» سنة 1872، و«قصص يوم الاثنين» سنة 1873، و«فرومون الصغير وريزليه البكر» سنة 1874، و«جاك» سنة 1876، و«الناباب» 3 سنة 1877، و«الملوك في المنفى» سنة 1879، و«نوماروميستان» سنة 1881، و«كُتَّاب الإنجيل» سنة 1883، و«سافو» سنة 1884، و«تارتارين جبال الألب» سنة 1885، و«الخالد» سنة 1888، و«مرفاً تاراسكون» سنة 1898، و«دائرة وظيفة الكاهن الصغيرة» سنة 1895، و«عائل الأسرة» سنة 1890، و«تذكار كاتب»، و«ثلاثون سنة بباريس»، و«خلال حياتي ومؤلفاتي» سنة 1888.

زار "ألفونس دوديه" الجزائر أواخر سنة 1861 للاستشفاء من داء السل ف قضى فيها ثلاثة أشهر زار فيها الجزائر والبليدة وأقام بدينة مليانة، وكتب من وحيها عدة مذكرات سفر، نشرت في الصحافة من بينها مجموعة "رسائل طاحونتي 1869" و"حكايات الاثنين 1873". ينظر: أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ص: 53

## 3- غي دو موبسان (Guy de Maupassant)

(1893.07.06 - 1850.08.05)



كاتب وروائي فرنسي، يلقب بأب القصة القصيرة. زار موبسان الجزائر ثلاث مرات: الأولى سنة 1881 بصفة مراسل صحفي لجريدة "لوكولوا" لتغطية أخبار الشيخ بوعمامة مما أتاح له الفرصة لزيارة العديد من مدن الغرب الجزائري كالبيض. أما الرحلة الثانية التي كانت بصفة شخصية فكانت سنة 1888 حيث زار من خلالها بجاية، قسنطينة... أما الرحلة الثالثة والأخيرة فقد كانت في سبتمبر 1890 وكانت

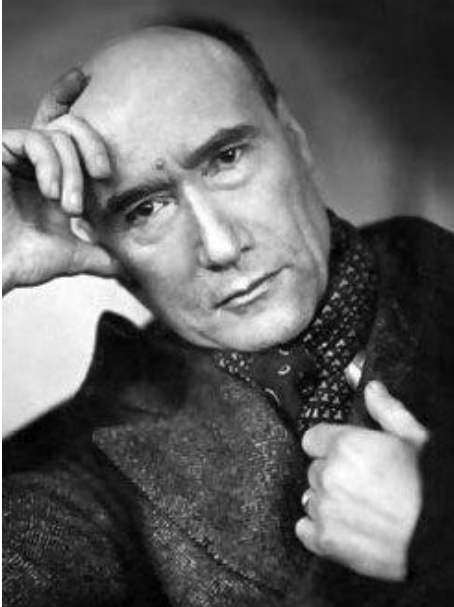
رحلة استشفائية بعد أن تدهورت صحته بفعل مرض السفلس، وأصبح يعاني من نوبات الهلوسة الريبية من الجنون. وقد جمعت مذكرات سفره إلى هذه المناطق ضمن كتابيه "Au Soliel 1884" و"La vie errante 1890". غادر موبسان باريس في 06 جويلية من سنة 1881 متوجها إلى الجزائر لتغطية أخبار ثورة الشيخ بوعمامة التي يعتبرها سحرا إضافيا للجزائر، فموبسان كان يشده حنين كبير إلى الصحراء المجهولة كغيره من الأدباء والرحالة الأوروبيين الذين قاموا بالعديد من الرحلات إلى الشرق الغرائبي أوفي محاولة منهم للتعرف على أسرار هذه البلدان. ينظر:

- غي دو موبسان. رحلة إلى الجزائر "إلى بلاد الشمس". تر: نادية عمر صبري، ص: 136

- أحمد منور. الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر. ص: 91

#### 4- أندريه جيد (André Gide)

(1869.11.12 - 1951.02.19)



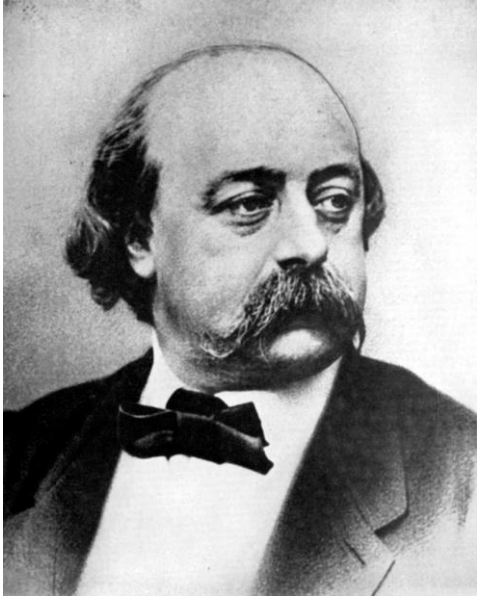
شاعر وروائي فرنسي حائز على نوبل قضى عمره يحارب طبقته الأرستقراطية، ودافع عن حقوق شعوب الكونغو والتشاد والمغرب وموريتانيا التي كانت واقعة تحت الاستعمار الفرنسي آنذاك. تنوعت أعمال جيد بين القصة والرواية، وكتب في أدب الرحلات، ومن أهم كتبه "كراسات أندريه والتر" و"خيانة نرجس" عام 1891م، و"محاولات العشق" عام 1893م، ثم "الحاج" سنة 1899م و"سول" سنة 1903م، وفي سنة 1910م كتب مؤلفاته عن أوسكار وايلد، وفي سنة 1920م نشر كتابه "إذا لم يمت العشب"، ثم

قدم كتاباً عن الكاتب الروسي دوستوفسكي.. لعل من أهم القصص والروايات التي كتبها: "رواية المزيّفون" ورواية "أقبية الفاتيكان"، وقد أهلتها إنجازاته الأدبية والنقدية للحصول على الدكتوراه الفخرية من جامعة أوكسفورد في بريطانيا، كما حصل عام 1947 على جائزة نوبل في الأدب، وقد تُرجم عدد من رواياته وكتبه إلى اللغة العربية ومن أهمها: "إيزابيل" و"قوت الأرض والقوت الجديد" و"الباب الضيق" السمفونية الرعوية"... عاش أندريه جيد

حياة مترفة لم يكن محتاجًا فيها للعمل، فانكبَّ على القراءة والمطالعة، وسافر في شبابه إلى شمال أفريقيا ليكتشف هويته المثلية من خلال إقامته عدة علاقات مع مراهقين، وخلال رحلته إلى الجزائر 1893م وتعرفه على الأديب الإيرلندي أوسكار وايلد عاد واقتنع بأنَّ عليه أن يعيش على طبيعته ليفرق بين اللذة والحب ثم اختار الزواج من ابنة عمه بعد عامين. تنقل أندريه جيد لفترة طويلة بين الجزائر وتونس، فقد ترك له والده ضيعة صغيرة بالقرب من مدينة بسكرة الجزائرية، وكان يقصدها في الشتاء للاستشفاء من مرض أصابه في شبابه، وقد أتاحت له إقامته في الشمال الأفريقي فرصة التعرف على المسلمين، وربطته علاقة صداقة قوية مع العرب في الريف التونسي، فتعرف على طبائعهم وعاداتهم، وأحب العيش بينهم، ويظهر ذلك جليًا في كتابه اللاأخلاقي. ينظر: [موقع أراجيك، https://www.arageek.com](https://www.arageek.com)

#### 5- غوستاف فلوبيير (Gustave Flaubert)

(1880.05.08 - 1821.12.12)



روائي فرنسي ويعد من أهمّ روائيين القرن التاسع عشر ومن مؤسسي المدرسة الواقعية في الأدب.. درس الحقوق قبل خوضه غمار الكتابة الأدبية، كان أول مؤلّف مشهور له: «التربية العاطفية» (1843 - 1845)، ثم «مدام بوفاري» 1857م، التي تمتاز بواقعيّتها وروعة أسلوبها، والتي أثارت قضية الأدب المكشوف. ثم تابع تأليف رواياته المشهورة، منها: «سالامبو» 1862م، و«تجربة القديس أنطونيوس»

1874، وقد أمضى فلوبيير الكثير من وقته في السفر لينضم هو الآخر إلى القوافل الأوروبية التي جابت الشرق فقد زار مصر سنة 1849 كما زار لبنان وفلسطين وتونس وقد مرّ بالجزائر فزار مدينتي سكيكدة وقسنطينة ودون بعض المذكرات. عانى خلال حياته من مرض الصرع. ينظر: موقع أراجيك، <https://www.arageek.com>



## 6- ويليام ويلد (William Wyld)

(1806.01.17-1889.12.25) رسام إنجليزي.

## -إميل ألبرت ليسور (Lessor-Émile-Aubert)

(1805.04.19-1876.01.26) رسام فرنسي.

قاما برحلة إلى الجزائر في سنة 1835 بمعنى في السنوات الأولى من احتلال الجزائر وقد سمح لهما ذلك بتقديم وصف للجزائر قبل أن تتغير صورتها بسبب الوجود الفرنسي خاصة ما تعلق بالعمران والقوانين ومختلف الأشياء التي فرضها الوجود الفرنسي بالجزائر، تجول الرسمان في الجزائر كسائحين، مما ساعد على وصف الجزائر وصفا دقيقا، وقد احتوى الكتاب على

خمسین صورة للجزائر كان قد رسمها الرحالة باعتبارهما رسامين وهذا ما زاد هذه الرحلة قيمة تاريخية. ينظر: أ. ليسور، و. ويلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر، ترجمة: محمد جيجلي، شركة دار الأمة، الجزائر، 2001، ص: 08

## 7- تيدنا (Thédnat)

بحار فرنسي من عائلة كاثوليكية عملت أسرته منذ صباه على أن يكون رجل دين غير أنه كان يفر من الكنيسة ولم يحبذ أبدا حياة الرهبنة، ثم انضم بعد ذلك إلى فيلق الحامية العسكرية في كورسيكا غير أنه سئم مرة أخرى من العمل العسكري. وفضل العمل المدني الإداري حيث شغل وظيفة كاتب لوكيل مقاطعة. لكن حبه للسفر منعه من التعمير طويلا في وظيفته لينتهي به الحال كعامل في نقل براميل الخمر من مالاقا إلى مارسيليا في سفينة إسبانية. وقع تيدنا تحت أسر بعض القراصنة الذين قاموا ببيعه إلى أن وصل إلى باي معسكر محمد الكبير (باي معسكر) الذي مكث في قصره ثلاث سنوات وسبعة أشهر تدرج خلالها إلى أن عينه الباي كخزندار المكلف بالإشراف على كل الأموال. بمثابة وزير للمالية- لباي الغرب هذا المنصب الذي أعطاه جاها كبيرا في قصر الباي ومكنه من العيش بسلام وهناء. وعند عودة تيدنا قرر كتابة هذه المذكرات التي لم تنشر وظلت بالمكتبة الوطنية ببائيس في قسم المخطوطات هذه المذكرات التي قدمها "مارسيل إمریت". ينظر: عميرايو احميدة. الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا). ص: 32. 33

## 8- شارل فيرو (Laurent-Charles Féraud)

(1888.12.19-1829.02.05)

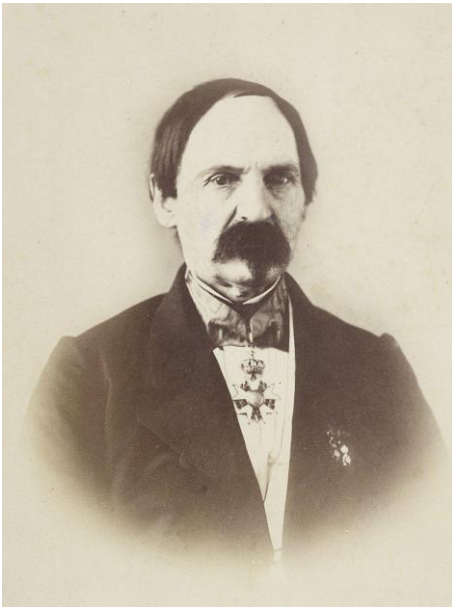


بدأ شارل فيرو مساره المهني في الجزائر سنة 1845 كمترجم وعمره لا يتجاوز السادسة عشر، وكانت كفاءته محلّ اعتبار، حيث اهتم بدراسة مختلف المظاهر الاجتماعية وفن العمران والعادات وغيرها في الجزائر، إلى أن عين كمترجم رسمي للحكومة الفرنسية في الجزائر نظرا لإتقانه اللغة العربية. ويعتبر كتاب تاريخ جيغلي من أهم المصادر الفرنسية التي كتبت

عن تاريخ بلاد القبائل وقسنطينة وجيجل...، لكن بعيون فرنسية، فقد كرس "شارل فيرو" حياته للتنقيب في تاريخ إفريقيا الشمالية وتدوينه بروح تملأها الإرادة ومعرفة عميقة بالوسط الأهلي، أما من بين أهم آثاره: تاريخ بجاية. - تاريخ القالة والحواليات الطرابلسية. ينظر: شارل فيرو. تاريخ جيغلي. تر: عبد الحميد سرحان، ص: مقدمة المترجم.

## 9- أدريان بير بروجير (Adrien Berbrugger)

(1869.07.02-1801.05.11)



سياسي ومؤرخ وجاسوس ومستشرق فرنسي جاء إلى الجزائر سنة 1835 رفقة المارشال "كلوزيل" هذا الأخير الذي عينه كاتباً عاماً له، مما سمح له بمرافقته في حملاته العسكرية آنذاك. اهتم "بير بروجير" بجمع الكتب والمخطوطات والوثائق من العائلات والمساجد والزوايا، وحملها إلى الجزائر العاصمة حيث تم تعيينه هناك على رأس أول نواة لمكتبة عمومية التي أصبحت اليوم المكتبة الوطنية. عكف "بير بروجير" بالعاصمة

على دراسة هذا التراث المكتوب بغية التعرف أكثر على تفاصيل الجزائريين (عادات وتقاليد وثقافة ودين وأفكار) ومن ثمّ تزويد الفرنسيين بها وقت الحاجة إليها. إن رحلة "بير بروجير" مع الوفد الأوروبي المتكون من سبعة أوروبيين إلى الأمير عبد القادر سنة

1837 جاءت في ظرف سياسي خاص فمن غير الممكن أن يخرج الكاتب العام للمريشال "كلوزيل" في رحلة تهدف إلى التعرف على الطبيعة وعادات وتقاليد السكان بل إن مثل هذه الرحلات تهدف أساسا إلى إعداد تقرير عن وضع السكان الاقتصادي والسياسي وعن طبيعة المنطقة في الحرب والسلم، وعن خطط الأمير نحو الشعب ونحو الفرنسيين حاضرا ومستقبلا. ينظر: أدريان بير بروجير، مع الأمير عبد القادر - رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837-1838)، تر: أبو القاسم سعد الله، ص: 8،7

### 10- دومينيك فارال (Dominique Farale)

اسم مستعار لمؤلف كتاب "معركة جبال النمامشة". عمل في صفوف إحدى كتائب المرتزقة واشتغل فيها كضابط استخبارات ومدرّب كومندوس وقائد سرية، ثم ترأس فرقة من الحركى التي ساهمت حسبه في تسيير الشؤون الإدارية والصحية والتعليمية بإحدى القبائل. له عدة كتب ومقالات صحفية عن البربر وقوات المرتزقة وكذا الحرب في الجزائر وقد تجمعت له الكثير من المعلومات عن منطقة الأوراس وجبال النمامشة انطلاقا من تواجده بها. ينظر: نص الرحلة، ص: 17

### 11- فون مورالت (Von Moralet)

نقيب سويسري كان شاهدا على المعاهدة التي أبرمها من الجانب الجزائري الأمير "عبد القادر" ومن الجانب الفرنسي الجنرال "بيجو". حيث يتحدث "مورالت" عن الأحداث التي سبقت معاهدة "تافنة" والقلق الذي اعترى الجنرال "بيجو" وجيشه بسبب عدم تمكنه من مقابلة الأمير وإنهاء المهمة بسرعة، حيث شعر "بيجو" بخيبة كبيرة وملل وهو ينتظر لحظة بلحظة مقابلة الأمير "عبد القادر"، وهذا يدل على قيمة الأمير السياسية والعسكرية. أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص:

## 12- إيزابيل إبيرهارت (Isabelle Eberhardt)

(1904.10.21-1877.02.17)



كاتبة سويسرية من أصل روسي ولدت بجنيف من أم روسية أرستقراطية وأب أثير حول هويته الكثير من الجدل، لتسجل في سجلات الحالة المدنية كلقبقة قبل أن تحمل اسم جدتها من والدها، وقد عاشت إثر ذلك حياة بائسة تطاردها الكثير من اللعنات التي شحنتها بالتحدي والتمرد على الحياة القاسية التي عاشتها. بدأت قصة عشق إيزابيل للجزائر وصحرائها الكبرى في سن العشرين عندما قررت ذات يوم من شهر ماي

1897 الركوب ووالدتها سفينة من مرسيليا إلى السواحل الجزائرية، وما إن وصلت إلى الجزائر حتى تعلق قلبها بها لأن فيها وجدت طريقة الحياة التي كانت تحلم بها وتسعى إليها حتى أنها أشهرت إسلامها بعد أن اقتنعت بالإسلام، بل إنها استطاعت أن تؤثر على والدتها هي الأخرى لتسلم، غير أن الأقدار لم تشأ أن تعمر والدة إيزابيل كثيرا بالجزائر فقد توفيت بعد عامها الأول ودفنت على الطريقة الإسلامية بعنابة. ولما كانت إيزابيل مهووسة بالتحدي والمغامرة والتحرر فقد تنكرت في رجل اسمه سي "محمود السعدي" وبدأت الغوص في أعماق الصحراء التي سحرت قلبها فزارت معظم المناطق الجنوبية كوادي سوف وبوسعادة وعين الصفراء... وقد سمح لها العيش في الصحراء بالتعرف على الطريقة القادرية وإتباعها. تزوجت إيزابيل من "سليمان إهني" الرجل الصحراوي الذي أحبته إيزابيل كثيرا والذي كان مجندا في صفوف الجيش الإفريقي. توفيت إيزابيل سنة 1904 غرقا بسبب فيضان واد عين الصفراء وعلى امتداد سبع سنوات التي عاشتها في عمق الجزائر كتبت مئات الصفحات والملاحظات والنصوص والقصص. كما سجلت كل اكتشافاتها وسردت تيهها ومدى تعلقها بالصحراء الجزائرية. ظهرت كتابات إيزابيل سنة 1906 منقحة ومصححة ومقتضبة في حين ضاع جزء منها بسبب الفيضان. ينظر: نص الرحلة، ص: 09 حتى 19.

### 13- جيل لوكليرك (Gilles Leclerc)

رحالة وجغرافي بلجيكي قام بالعديد من الرحلات في أوروبا وخارجها بصقته ممثلاً للجمعية الجغرافية الملكية البلجيكية، وقد اعتمد "جيل لوكليرك" في رحلته على أسلوب المقارنة بين المدن التي يقوم بزيارتها، مما يسهم في إثراء رحلته ويسمح بالوقوف عند الاختلاف بين المعالم الطبيعية والخصوصية الثقافية للمناطق التي مر بها الرحالة. وينقسم كتاب الرحالة إلى ثلاث رحلات وهي: الأولى إلى طنجة سنة 1878 ودامت حوالي عشرة أيام، بينما كانت الرحلة الثانية إلى موكادور (الصويرة) قادماً إليها من جزيرة تتريفي الإسبانية ومر بالعديد من المدن الأخرى على غرار الدار البيضاء وطنجة والرباط وغيرها، وقد تمت هذه الرحلة رمضان 1880 وقضى بها عدة أيام. أما الرحلة الثالثة فخصها للجزائر وجاءت في شهر شوال 1880 أي مباشرة من المغرب. انطلق من تلمسان مروراً بوهران والجزائر والقبائل وسطيف وغيرها انتهاءً إلى بسكرة، مما يجعل الرحلة من موكادورو إلى بسكرة وثيقة غنية بالمعلومات التاريخية والثقافية، تسلط الضوء على الكثير من الظواهر الثقافية سواء في المغرب أو الجزائر. ينظر: جيل لوكليرك. من موكادورو إلى بسكرة رحلات داخل المغرب والجزائر. ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة الطاهر لكنيزي، ص: 05 إلى 10

### 14- سيمون هنري ليدر (Simon Henry Leeder)

(1865-1930.05.14)



كاتب بريطاني من أشهر أعماله: أبناء الفراعنة المحدثون "دراسة لأخلاق أقباط مصر وعاداتهم". وصل الرحالة الإنجليزي إلى بسكرة في بدايات نوفمبر من سنة 1909 بعد رحلة طويلة من الجزائر العاصمة عبر القطار. أما عن دوافع هذه الزيارة، فيصرح الرحالة في مقدمة رحلته أن ما كتبه جاء نتيجة للعديد من الأسئلة التي كان يطرحها حول الذهن العربي، والتي لم يجد لها إجابة مقنعة في كتابات من سبقه معتبراً أن تلك

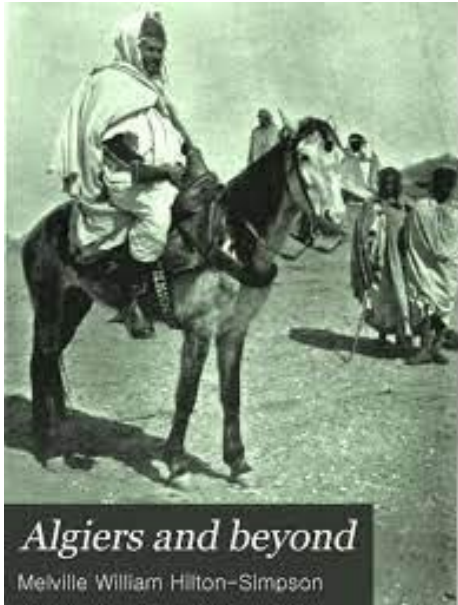
الزيارات القصيرة لم تكن قادرة على اختراق الذهن العربي واكتشاف خباياه. مما يجعل من

الرحلة ذات طابع علمي تهدف إلى الكشف عن طبيعة الحياة التي يحيها الآخر الجزائري بعيدا عن التعصب الذي اكتشفه في رحلات من سابقه. وقد عنون رحلته بـ: **بوابة الصحراء بسكرة وما جاورها..**

يعبر س.هـ. ليدر عن حزنه لأنه سيغادر الجزائر (الصحراء الساحرة) قائلا: "قبل ثلاثة أو أربعة أسابيع من إقامتنا المبهجة وصلت رحلتنا إلى الواحة إلى نهايتها كان ظلال الفراق فوق رؤوسنا. تغيير غريب وغير قابل للتفسير قد بدا على أصدقائنا العرب الأكثر حميمية نشعر بكثير من الألم، صداقتهم زادت من سعادتنا... جاء الصباح ومعه القطار الذي سوف يحملنا بعيدا عن الصحراء والحلم الرائع الذي كنا نعيشه هنا، أعتقد أننا يجب أن نختفي في صمت دون أن يرانا أحد أصدقائنا حتى لا يكون الفراق مؤلما كثيرا".  
ينظر: نص الرحلة، ص: 263-264

#### 15- هيلتون سيمسون ( M.W.Hilton-Simson )

(1938-1881)



عالم أنثروبولوجيا إنجليزي انصبَّ اهتمامه على الشعوب الإفريقية. أمضى "مليفيل هيلتون" بضع سنوات في جبال الأوراس مع زوجته حيث كان يدرس ثقافة البربر هناك. زار الجزائر عدة مرات سنة فكانت الرحالة الأولى ما بين 1912 و1913 وبينما كانت الرحلة الثانية ما بين 1913 و1914 أما الرحلة الثالثة فقد كانت ما بين 1919 و1920 لتجمع في كتاب واحد تحت عنوان: "بين سكان التلال في الجزائر: رحلات إلى الشاوية في جبال الأوراس"

وكان القصد من وراء هذه الرحلات هو التعرف على منطقة الأوراس التي يسكنها البربر (الشاوية) وبالتالي فقد تمكن الرحالة من جمع عينات حول الصناعات التقليدية اليدوية من أجل متحف "بيت ريفرز" التابع لجامعة أكسفورد" فضلا عن رغبة الرحالة الملحة في التعرف على طبيعة السكان الأصليين للجزائر -عن قرب- مما يسهل عليه الإجابة عن مختلف الأسئلة المتعلقة بطبيعة حياتهم خاصة ما تعلق بطرق العلاج

والجراحة التي يعتقد أنها توارثت منذ القدم، كما يعترف الرحالة أن جميع المعلومات التي تحصل عليها قد وضعت تحت تصرف مختلف الجمعيات العلمية في إنجلترا. ثم إن وجود الرحالة بمنطقة الأوراس سمح له بزيارة جل المناطق بما فيها القرى والمدائن حتى يتعرف أكثر على سكان المنطقة أكثر نظرا لسطحية ما جاء به الرحالة الفرنسيين والإنجليز عن المنطقة. ينظر: نص الرحلة، ص: 10

16- ج.أو. هابنسترايت (Ernst Hebenstreit)

(1757.12.05-1703.01.15)

طبيب وعالم ألماني زار الجزائر وتونس وطرابلس في النصف الأول من القرن الثامن عشر. وقد دون رحلته في شكل أربع رسائل قد وجهها إلى الملك البولوني أغسطس الثاني (Auguste II) الذي كلفه برئاسة البعثة العلمية إلى شمال إفريقيا بهدف التعرف على نباتات تلك المنطقة والحصول على الحيوانات النادرة، فعمل على جمع عينات لفائدة القصر الملكي وقد نجح إلى حد كبير في القيام بتلك المهمة. حتى أنه عرف كيف ينال ثقة حكام شمال إفريقيا الجزائر، تونس، ليبيا، كما أظهر حسن التصرف خلال إقامته هناك غير أن الظروف لم تساعد على التعرف أكثر على تونس وطرابلس، بعد أن سادت روح العداة للوجود الأوروبي نتيجة الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير سنة 1732. مما اضطره إلى تحديد تحركاته وإنهاء مهمته بسرعة...

بدأ "هابنسترايت" رحلته إلى الجزائر عند مغادرته لمدينة دريسدن الألمانية في 23 أكتوبر 1731 وتوجهه إلى مرسيليا في شهر نوفمبر وركوبه السفينة نحو الجزائر في 24 جانفي 1732 وقد سجل أول رسائله عن الجزائر في 16 فيفري 1732 حيث انصب اهتمام الرحالة بعبادات وتقاليد السكان وأوضاعهم الاجتماعية والثقافية وكذا الدينية مما يجعل من هذه الرسائل مرجعا مهما لا يمكن بأية حال الاستغناء عن المعلومات والحقائق التاريخية التي تخص منطقة شمال إفريقيا خاصة وأن الرحالة قد قام برحلته في فترة قد شهدت هيمنة الجزائر على البحر الأبيض المتوسط نظرا للدور العسكري الكبير الذي لعبته في المنطقة فضلا عن تمكن الدايات من إدارة شؤون بلدان شمال إفريقيا بعيدا عن

التدخل المباشر للسلطة العثمانية التي كانت تشكل آنذاك مركزا للدولة الإسلامية المترامية الأطراف.

### 17- فنديلين شلوصر (Wendelin Schlosser)

ولد شلوصر بمدينة ايرفورت الألمانية من عائلة فقيرة أجبرته الظروف على ترك الدراسة في مرحلة الثانوية عمل بعد ذلك في المناجم إلى أن سافر إلى فرنسا وانضم إلى الفرقة الأجنبية لبحر معها إلى الجزائر في شهر جويلية 1831 بقي في العاصمة بضعة أشهر. وقع مع عدد من رفاقه في 12 أبريل 1832 بين أيدي رجال المقاومة الجزائرية وكان يتم بيعه بين فترة وأخرى إلى أن استقر به المقام بقصر أحمد باي كمملوك عاش هناك ما يقارب خمس سنوات عمل خلالها عدة أعمال كان آخرها توليه لمنصب المدفعي في جيش أحمد باي. عاد "شلوصر" إلى بلاده عقب احتلال قسنطينة ليصدر هذا الكتاب الذي بين أيدينا سنة 1839 حيث سماه (رحلات في البرازيل والجزائر أو مصائر فنديلين شلوصر البومباجي السابق لأحمد باي قسنطينة). هذا الكتاب الذي قسمه صاحبه إلى جزء يتحدث عن ما عايشه في البرازيل بين 1827 و 1829 والجزء الثاني المعنون ب: (الجزائر 1831 - 1837). ينظر: نص الرحلة، ص: 5،6

### 18- سيمون بفايفر (Simon-Frédéric Pfeiffer)

ولد "سيمون بفايفر" براينهيسن حوالي 1810، ولما بلغ السادسة من عمره فقد والديه، وفي الثالثة عشرة شعر "بفايفر" بميل شديد إلى فن الجراحة فأقبل على دراسته بحيوية ونشاط كبيرين مظهرا تقدما ملحوظا. سافر إلى هولندا بحثا عن السعادة، وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره حيث التحق بمدرسة بحرية راسية تضم عددا من التلاميذ البحريين والملاحيين والضباط وكذا الأطباء من أجل التعود على حياة البحر. وفي شهر ديسمبر 1824 صدرت أوامر بمغادرة الميناء فتوجهت السفينة (ديانا) التي كانت تقل على ظهرها بفايفر ورفاقه إلى البحر الأبيض المتوسط من أجل حماية السفن التجارية من هجمات القراصنة، وقد كادت السفينة تغرق بسبب تعرضها إلى عاصفة هوجاء فمرت بعدة موانئ إلى أن رست بـ"أزمير" التركية، ثم اتجهت بعد ذلك إلى ميناء "أورله" أين نزل بفايفر مع مرضاه وكان يقضي معظم وقته في العناية بهم. وفي يوم من أيام شهر جويلية

من سنة 1825 خارج بفايفر رفقة عدد من أصدقائه للتنزه في إحدى غابات "أورله" فتعرضت لهم فرقت من الإنكشاريين الذين نهبوا كل ما لديهم وقتلوا أحد رفاق بفايفر الذي أراد مقاومتهم كما تعرض بفايفر لإصابة بسيف أحد الإنكشاريين ومن ثم قاموا باقتياده ومن معه عبر تلك الغابة إلى أن وصلوا إلى ميناء أزمير حيث قاموا باحتجازهم في سفينة شراعية ذات صاريين، مزودة بستة مدافع، لا تتجاوز حملتها مائة وثمانين رجلا. وكان قائدها مارقا إنجليزيا. اتجهت السفينة المحملة بالأسرى إلى الجزائر وقد استغرق وصولها خمسة وعشرين يوما، حيث قدر لبفايفر أن يعمل طاهيا في قصر الخزناجي. غير أنه سرعان ما صار طبيبا خاصا للخزناجي وذلك بعد أن نجح بفايفر في علاجه لما مرضه، وقد بقي بفايفر يعمل كطبيب في القصر إلى أن أطلق سراحه قبل مدة قصيرة من دخول الفرنسيين. اشتغل "بفايفر" بعد ذلك خازن دار لباي التيطري مصطفى بومرزاق لمدة أسبوعين وذلك عقب إعلان الباي محاربة فرنسا ليقدر بفايفر التخلي عن منصبه والعودة إلى وطنه في 16 ديسمبر 1830 ليتم دراسة فن الجراحة التي تعلق بها منذ الصغر، وقد كتب بفايفر عن تجاربه عن في الجزائر بطلب من العالم اللغوي الألماني "شميتهينر" الذي كتب مقدمة كتابه فنوه بدقة ملاحظات بفايفر، وجدة المعلومات التي قدمها عن الجزائر. ينظر: نص الرحلة، ص: 04، 05

### 19- الأمير بوكلر موسكاو (Puckler-Muskau) (1871.02.04-1785.10.30)



أحد أعلام طبقة النبلاء الألمان ق:19 كاتب ومستشرق ورسام ألماني. اشتهر برحلاته إلى شمال إفريقيا التي قام بها سنة 1835 أصدر سنة 1836 كتابه المعنون بـ: (سيملاسو في إفريقيا). - قسمه إلى خمسة أجزاء - يرى "فاغنر" أن رحلة الأمير "بوكلر" قد اهتمت بالطبيعة وأنها ليست ذات أهمية تاريخية فالأمير "موسكاو" قد أسهب في وصف طبيعة الساحل الجزائري عنابة والجزائر باعتباره ينتمي إلى الحركة الرومانتيكية التي كانت سائدة بأوروبا في عصره، كما نقل بعض الرسائل التي يتم تبادلها بين

الجزرالات والأمير عبد القادر... تبنى الرحالة النزعة الاستعمارية على الأهالي وكثيرا ما يخطئ في التمييز بينهم وبين الأتراك. تركز اهتمامه بمغامراته فضلا عن اهتمامه بالآثار الرومانية التي يحس برابطة روحية بينها وبينه. ينظر: أبو القاسم سعد الله. تجارب في الأدب والرحلة. ص: 27، 273

## 20- فيلهلم شيمبر (Schimper, Wilhelm)

(1880.03.20-1808.01.12)



رحالة وعالم نبات ألماني قام بالعديد من الرحلات إلى فرنسا ومصر والجزيرة العربية وقد أرسل من قبل الجمعية النباتية. زار الجزائر في ديسمبر 1831 وأقام بها حوالي عشرة أشهر حيث أصدر بعد عودته إلى وطن كتابا صغيرا تحت عنوان: "رحلة فيلهلم شيمبر إلى الجزائر في سنتي 1831 و1832". ينظر: أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص:

## 21- مويس فاغنر (Wagner, Moritz)

عالم طبيعة ورحالة ألماني زار الجزائر بين 1835 و1836 كمراقب وجامع للأشياء الطبيعية وقد ألف فاغنر كتابه عن الجزائر تحت عنوان: "رحلات في ولاية الجزائر في سنوات 1836، 1837، 1837" صدر هذا المؤلف سنة 1841 حيث تم تقسيم كتابه إلى ثلاثة أجزاء حيث وصف في الجزء الأول: مدينة الجزائر والمدن الأخرى التي شاهدها في حين خصص الجزء الثاني للحديث عن تاريخ الاحتلال والمعارك التي كان شاهدا عليها أما الجزء الثالث فقد خص به المجموعة الحيوانية الجزائرية بمعينة أخيه "رودلف" في حين خصص الجزء الثالث لتاريخ الجزائر وسرد أبرز المعارك التي حضرها. ينظر: أبو العيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830.1855). ص: 30

## 22- هاينريش بارت (Barth, Heinrich)

(1865.11.25-1821.02.16)



مستكشف وجغرافي ألماني حيث يعد " بارت " من أشهر الرحالة الغربيين الذين ساهموا خلال القرن التاسع عشر في استكشاف القارة الإفريقية والتعريف بأسرارها، حيث تمكن من زيارة المغرب الأقصى، وكذا السواحل الجزائرية، وأخيرا كمقيم بتونس ما بين 1845 و1846 بعد أن وفرت له وساطة القنصل الانجليزي "وليم ريد" لدى البارودو كما أن "أحمد باي" لم يبخل عليه بالتسهيلات التي تضمن التنقل والحماية والإقامة

مما مكنه من زيارة العديد من المناطق، وقد تضمنت رسائل بارت ملاحظات جغرافية، وتاريخية صادرة عن خبير مختص، ومن انطباعات اجتماعية واقتصادية وسياسية لا تخلو من الفائدة، هذا فضلا عن قيمتها الوثائقية. ينظر: هاينريش بارت. سبع رسائل مخطوطة ل: هاينريش بارت عن رحلته إلى تونس 1845-1846. تح، تر: منير الفنري، ص: 9.8.7

## 23- كليمانس لامبينغ (Clemens Lamping)

ضابط ألماني شارك في الفرقة الأجنبية للجيش الفرنسي بالجزائر حيث أقام فيها لمدة سنتين وقد سمحت له فرصة تواجده في الجزائر بالتعرف على الشعب الجزائري وخصاله كما أنه نال شرف مواجهة الأمير "عبد القادر" في إحدى المعارك التي جمعته مع الجيش الفرنسي، وقد نشر "كليمانس" كتابه المعنون ب: "تكريات من الجزائر" سنة 1844 عقب عودته إلى ألمانيا. حيث وصف من خلاله مختلف العمليات الحربية التي شارك فيها بالجزائر. ينظر: أبوالعيد دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1855.1830). ص: 93

المنظومة

## الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أهمية أدب الرحلة الأوروبي في تجسيد صورة الجزائر انطلاقاً من كون النص الرحلي منبعاً للكثير من المشاهد التي رصدها الرحالة عن الجزائريين، حيث جذبت المكانة التاريخية للجزائر وموقعها الاستراتيجي آلاف الرحالة الأوروبيين -الذين تنوعت مرجعياتهم الثقافية والإيديولوجية- باعتبار الجزائر من دول الشرق التي شكلت علامة استفهام بالنسبة للآخر الغربي، وبالتالي أسهم النص الرحلي في تشكيل صورة الجزائري (الشرقي) من منظور أوروبي غربي. لذلك سعت هذه الدراسة إلى محاولة الوقوف عند المرجعيات التي تبناها الرحالة الأوروبيون على اختلاف خلفياتهم الثقافية في تجسيد صورة الجزائري ومدى مطابقتها هذه الصورة للواقع الجزائري من عدمه.

**الكلمات المفتاحية:** أدب الرحلة الأوروبي، الصوراتية، الجزائري.

### **The summary:**

This study aims to reveal the importance of the European journey literature in actualising the image of Algeria starting from being the journey text a fountain of many scenes which were seen by travelers about Algerians, when the historical and the strategical location of Algeria attracted thousands of the European travelers, who had various cultural and Idiological integrity, since Algeria is from the eastern countries which constructed a question mark for the western other, hence the journey text contributed in constructing the image of Algeria (estern) through a European western prospection. Therefore, this study aimed to stand on the feed back which was adapted by the European travelers with their cultural variety to actualise the image of the Algerian and the extension of match of this image to the algerian reality or non.

**Key Words:** The European journey literature , Imagology, The algerian.